

شوقي
سر مشيم

أوصداقة أربعين سنة

بقلم أمير البيان

الإمير شكيب أرسلان

سبق نشر جانب من هذا الكتاب في
جريدة الجهاد ولكن أعيد النظر عليه
وتعمل في هذه الطبعة تامة منقحة



obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ما حال حولان على انتقال شوقي رحمه الله الى عالم الخلود حتى رأيت الناس كأنهم قد نسوا أمير الشعراء . ومن عادة الناس أنهم مهما كان القارئ عظيم القدر تناسوه سريعاً ونشدوا غيره على حد ما قال أحد الشعراء :

في الحال يعتاضون منه بغيره ويعود رب الحزن غير حزين

الورد كان العندليب حليفه لما انقضى غنى على النسرين

ولكني أرى مثل شوقي جديراً كلما مضت عليه السنون بأن يزداد حياة في النفوس ويعظم قدراً في الصدور لأن الخلود إنما يكون لثله وهل المتنبى اليوم أقل حياة بروحه مما كان في عصره وهو حي بجسمه ؟ وهل صاحب الشوقيات التي شرقت وغربت وأحزنت وأطربت ورواها الحادى والعادى وامتلاّت بها الحواضر والبوادي يجوز أن ينساه ناطق بالضاد أو يزهد فيه ضارب من الأدب بسهم ولو في برك الغماد .

وقد كنت لما فجع الأدب العربى بطى هذه الصحيفة البشرية العبقرية التي يقال لها أحمد شوقي وعدت بأن أنشر عنه وعن ذكرياتى معه كتاباً أسميه «شوقي أو صداقة أربعين سنة» وحالت الأشغال والأسفار وما يتقاذفني من عوامل الاقدار دون اخراج هذا الكتاب الذى لا يزال يحك في صدرى ولما مررت على فلسطين في هذا الصيف قافلاً من جزيرة العرب وتلاقيت مع صديقي سراج العرب وطرار الأدب الأستاذ إسعاف النشاشيبي حفظه الله وهو من عشاق أدب شوقي والمولعين بحفظ آثاره وإحياء تذكاره ، استعجزني ما كان من وعدى من وضع هذه الرسالة الشوقية ولما اعتذرت

له بما أنا فيه من مشاغل ومشاده أجنبي : إن الأليق بوفائك والأخلق بأخلاقك هو أن تقدم هذه الرسالة على غيرها من الرسائل وأن تبادر بإنجاز وعد وعده صريحا في حق صديقك وأخيك الذي ذكره عندك مقدس وقدره لديك مرجب ، فوجدت كلامه في محله وعوات على أن لا أماطل في هذا الدين الذي يجب إيفاءه لأهله

زيارتي الأولى لمصر

سنة ١٨٩٠ كانت أول قدمة لي إلى مصر وكنت بين العشرين والواحدة والعشرين من العمر فشككت شيع شهر في الاسكندرية ثم جئت إلى مصر وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهظه المعبودين سعد افندي زغلول وأخيه فتحى ، والشيخ على الليثى ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندي اللقاني ، وحفنى افندي ناصف ، والسيد احمد محمود من الرحمانية ، والسيد ابراهيم الوكيل من دمنهور ، والشيخ على يوسف لأول ظهور (المؤيد) ، واحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع . وكانت اجتماعاتنا متواصلة وأسمارنا متطاولة ومذاكراتنا للقاصى والدانى شاملة ، ولسكننا لم نكن نسمع في ذلك الوقت بشخص يقال له « شوقي » ولا أحسسناله ركزا .

ولما برحت مصر كان المرحوم الخديوى توفيق في الاسكندرية فقال لي أستاذنا الشيخ محمد عبده انه لا يكون خطأ إذا ذهبت إلى سراى رأس التين وودعت الجنا ب العالى الخديوى ونظمت له بعض أبيات لأن من عادة الشعراء أن يتحفوا بشعرهم الملوك . وكان الأستاذ رحمه الله لا يرغبنى في الشعر وما عهدته أوصانى بنظم شئ إلا مرتين لا غير احدهما عند ما طبعت ديوانى المسمى « الباكورة » وهو مجموع ما نظمته من سن الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة من العمر فلما اطلع عليه في بيروت قال لي لأبعث منه بنسخة إلى المرحوم عبد الله باشا فسكرى وكان من أعز أصدقائه . وأن أبعث مع النسخة بأبيات تناسب المقام فأرسلت نسخة من الباكورة إلى عبد الله باشا ومعها أبيات لا أتذكرها جميعاً وليست عندى الآن صورتها وانما أذكر منها ما يلى :
بذت الناس في نظم ونثر وفقت الخلق من بدو وحضر

فكيف يقوم عندك نزر شعر يذيب الرعب منه كل شطر
ولما كان ديوانى اذ ذاك خالياً تقريباً من الغزل والتشبيب أضرت إلى هذا المعنى
بقولى :

جعلت القول فى سيف ورمح وعفت النظم فى قد وخصر
فانى عاشق غرر المعالى ولى نفس فداؤك نفس حر
إذا فكرت يوماً فى كلام يكون بمدح (عبدالله فكري)
فتلقى عبد الله باشا رحمه الله (با كورتى) والأبيات التى تصحبها بأحسن قبول
وأجاب على الشعر بقصيدة من نظمه المنسجم المهمل رقة وسلاسة فهو يقول :
أنت تحتال فى حبر وحبر على العشاق لا كبر وكبر
منعمة الشبيبة لم يرغها مشيب فى العذار أقام عذرى
لفد وافت على سحر تربى بدائع نظمها نفثات سحر
ألا حيا ربى بيروت عنى ولبنان الحيا منهمل قطر
بدر يعلأ الأرجاء درا ويمزج ترب أرضها بتبر
وحيا من بها ربى وحيا زمانا مرّ فيها غير مر
وأظن هذه القصيدة منشورة فى ديوان عبدالله باشا وهو يشير إلى تجانفى عن
العبث والتشبيب فى أبيات أنذكرها :

وإن يلعب فما لعب بعيب لعهد صبا وشرخ شباب عمر
ولكن تأنف الهمم العوالى على رغم الصبا سفساف أمر
تحرم قسرب أمر فيه إمر وتوجب هجر كل مقال هجر
فأما المرة الثانية التى أشار فيها شيخنا بالشعر فهى عند ما ذهبت إلى الاسكندرية
قاصداً السفر منها إلى الاستانة فأوصانى أن أقدم إلى الخديوى توفيق أبيتاً . فذهبت
إلى رأس التين وقابلت المرحوم الخديوى توفيق ، ولم أنشده الأبيات . وإنما بعد
الانصراف دفعتمها إلى قلم المعية السنية . وما مضى يومان قبل أن أبحر إلى الاستانة حتى
رأيت قصيدتى منشورة فى جريدة الوقائع المصرية أى جريدة الحكومة الرسمية . وقد

كان الأستاذ الشيخ عبد الكريم سامان رئيساً لتحرير الوقائع ، وكان له قلم سيال ونثر أشبه بالقطر إذا انثال ، فانتبهت هذه الفرصة وأورد بمناسبة القصيدة مقدمة أوسع فيها هذا الناظم ثناء واطراء . وليس عندي محفوظاً بكثرة ما تنثر من أوراقى بين المشرق والمغرب عدد الوقائع الذى فيه هذه القصيدة وإنما أذكر منها ما يلى :

أقول لنطق اليوم ان كنت مسعدى إذن أرق أسباب السماء بمصعد
وانظم من القول النفيس فرائداً تنزل شعري الأفق في شعر منشد
إذا أنا لم أوف المكارم حقها من الشكر في سلك القريض المنشد
فلا شغفت لى بالمكارم مهجة ولا عز آبائى ولا طاب محتدى
ولا بلغت بى رتبة من مكانة أنال بها لقياً العزيز محمد
وأذكر غياه وذكور محمد ألد كلام قيل بعد التشهد
عزيز حمدت الدهر عند لقائه ومن لقي التوفيق للسير يحمد
ولا غرو إن حنت لتقبيل كفه على البعد نفس تلمس النجم باليد
وشاقت له رب الرقائق طلعة لعمر كذا الشوق في قلب جلد
ومنها :

لقد كف كف الدهر أصمت سهامه قلوب بنى الأيام من كل مقصد
وردّ جماح الدهر بعد كروده عليهم لعمرى قاعداً كل مرصد
ومنها :

فدونكها يا غرة الملك غادة تميس كخوط البانة المتأود
ومن رام من إدراك كنهك غاية يجد غاية ما تدن للوصل تبعد
وآخرها :

وإني إذا أهدي العزيز مدائحى أبوء بصديق القول غير مفند
وإلا فما حاولت إدراك غاية بشعري ولا نظم القصائد مقصدى

أى لم أنظم هذا الشعر إلا للقيام بفرض الشكر على انعطاف الجناب الخديوى نحوى ولست باغياً على ذلك مكافأة . وبعد أن عرفت شوقى فى باريس وتداكرنا الشعر

والشعراء وجدته معجباً بقصيدتي التوفيقية هذه وقال لي : انها تركت في ذلك الوقت
رنينا في وادي النيل .

أول ما قرأت لشوقي .

خرجت إذن من مصر في أواخر سنة ١٨٩٠ وأنا لا أسمع بشاعر اسمه شوقي في
مصر . وكنت أوائئذ أراسل جريدة الاهرام وكان صاحب الاهرام يكتبني كثيراً
ويبني كثيراً من الآراء على ملاحظاتي وإذا أرسلت اليه بمقالة جعل عنوانها « لأحد
الافاضل السياسيين » فإذا راجع القارى اهرام سنة ١٨٩٠ والتي بعدها وجد بقلم
« أحد الافاضل السياسيين » فصولا سياسية كثيرة . وبينما كنت أطالع الاهرام في
ذات يوم وقع نظري على أبيات لامية في مدح الخديوى توفيق فيما أذكر قال عنها
الاهرام انها من نظم « احمد افندى شوقي » ولما كان هذا الناظم مجهولا عندي لم أشأ أن
أضيع وقتي بقراءة تلك الابيات فلم أعلم منها كثيراً ولا قليلا . إلا أنه لم يطل الأمر
حتى قرأت شعرا آخر لهذا الذى يقال له احمد افندى شوقي، فجربت هذه المرة أن
أقرأه فلما قرأته لم أجه ووجدته من الشعراء الذين يقال فيهم « من حقه أن تسمعه »
فقد قالوا كما لا يخفى :

الشعراء في الزمان أربعة فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمة وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفحه

ولم يطل الأمر أيضاً حتى قرأت لاحمد شوقي هذه القصيدة الآتية في مديح
الجناب الخديوى :

ان الوشاة وان لم أحصهم عددا تعلموا الكيد من عينيك والفندا
لا أخلف الله ظني في نواظرهم ماذا رأيت بي مما يبعث الحسدا
هم أغضبوك فراح القد منثنيا والجفن منكسرا والخد متقددا
ومادفوا أذناً بيضاء لينة فأسمعوها الذى لم يسمعوا أحدا

لولا احتراسى من عينيك قلت ألا فانظر بعينيك هل أبقيت لى جلدا
الله فى مهجة أيتمت واحدها ظلما وما اتخذت غير الهوى ولدا
وروح صب أطال الحب غرتها يخاف إن رجعت أن تنكر الجسدا
دع المواعيد إلى مت من ظمأ وللمواعيد ماء لا يبيل صدى
بالله رد على العباس شاعره بنظرة وأخذها فى الزمان يدا
من للعزير يناجى روض نعمته إن أسكت الدهر هذا الطائر الغردا

الى آخر ما قال فى ذلك اليوم . فتلوت القصيدة من أولها الى آخرها ومن شدة
ما طربت لها أعدت قراءتها مراراً وعلمت ان هناك شاعراً مطبوعاً وأيقنت ان فى تلك
المغارة أسداً وصرت كلما عثرت على شعر لاحد شوقى أنهافت عليه تهافت الظمان
على نعيم الماء لأنى رأيت فيه الشاعرية بجميع شروطها : النسيج الرقيق المتين والاسلوب
الرشيق الرصين، اللغة العربية الفصحى التى لا تؤتى من جهة، والمعنى المتناهى فى الدقة
اللابس من اللفظ أجمل حلة، والانسجام المطرد من الأول الى الآخر فى سكب واحد
وسبك متوارد . فعند ذلك حكمت بأن هذا الشاعر سيكون من شعراء العصر وإن لم
أصل فى الحكم الى أنه سيكون أمير شعراء العصر . وأذكر الآن انى كنت اطلعت له على
قصيدة قبل هذه فى مدح الخديوى توفيق يهنته فيها بشهر الصيام لم تكن أقل رقة
وانسجاماً من القصيدة الدالية المار ذكرها وهى التى يقول فيها :

يا حسنه بين الحسان فى شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيو ن وما لهن به يدان
ملك الجوانح والفؤا د فى يديه الخافقان
ومنأى منه نظرة فعسى يشير الحاجبان
فيها يزكى حسنه من لاله فى الحسن ثان
خلوه يعدل أو يجو ر فانه ملك العنان
حق الدلال لمن له فى كل جارحة مكان
يا أصغرى بأى آ لاء العزيز تكذبان

ملك يده بالندى لعفاته مبسوطتان
الناس تشترط الغنى وعلى مكارمه الضمان
ماضى الاشارة والبديهة والعزيمة والجنان
قالت له الآباء كن فى المجد ما كننا فكان
ولجده من نفسه نجم تسامى عن مدان
وكذا معالى الملك تالدها بطارفها يزان
عوذت ملكك يا أبا العباس بالسبع المشان
ملك بعدلك آمن والعدل عنوان الامان
مولاي حبك مذهب من لا يدين به يدان
الناس فيه أئمة وأبو حنيفة الزمان
يا خير من شهد الهلا لخير من سمع الأذان
بشراك بالشهر الذى لك فيه عند الله شان
تسعى الموالى فيه مز لفة لعلياك التهان
هذا هو السهل المنيع فهل سمعت عن ابن هان
قدرته ووزنه ونظمته نظم الجمان
وبعثته لك مدحة تجلو مناقبك الحسان
آيات حمد فيك تر جها عن القلب اللسان
والله ما كذب القوا دولا أشط الترجمان

فعندما قرأت هذه القصيدة وجدتها من النوع المرقص الذى لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتز له طربا وراح نشوان. وكما قال هو عن نفسه كانت أبياته هذه من السهل الممتنع أشبه بشعر البهاء زهير لو اندمجت فى ديوانه ولم يقل أحد لقارىء الديوان إنها من نظم شوقي - كانت حقيقة شعر البهاء زهير لا تقل عنه شيئا ولو سمعها الحسن بن هانىء لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها. أما ابن هانىء الاندلسى الذى قال فيه المعرى إن شعره أشبه برحى تطحن قرونا فإنه بعيد عن هذا الأسلوب بعد الشرق عن الغرب.

ومنذ ذاك الوقت صرنا نرقب قصائد شوقي رقبة الصائم هلال العيد ونعلم أنه سيكون الشاعر الذي يجرى ولا يجرى معه ، نعم كنت الى ذلك الحين أرجح عليه محمود سامي البارودي ولا أرى أحداً يعلو علوه في التأخرين وقد يلز في قرن واحد مع أفصح المتقدمين

اجتماعنا الاول في باريس

وبقيت لأعرف شوقي معرفة شخصية الى سنة ١٨٩٢ إذ ذهبت من الاستانة الى فرنسا قاصداً السياحة ومستشفياً من مرض طراً على . وكان احمد شوقي يدرس علم الحقوق في مونبلييه وفي أثناء العطلة المدرسية جاء الى باريس ومعه رفيق اسمه دلاور فبينما نحن في الحى اللاتينى بحسب قولهم إذ جمعنا الاقدار وما عدت أتذكر كيفية اجتماعنا وتعارف بعضنا مع بعض ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين وأكثر تلاقينا كان في مقهى يقال له مقهى دار كور Dharcourt ومن غريب الانفاقات اننا في سنة ١٩٢٦ تلاقينا أنا وشوقي رحمه الله في باريس، جاء فسلم على في فندق ماجستيك فذهبت أرد له السلام في فندق كان نازلاً به في الحى اللاتينى فسألت عنه فقيل انه خرج الى الزهرة وإذا بهذا الأوتيل على مسافة مائة متر من مقهى دار كور وإذا بشوقي جالس هناك ومعه مطربه محمد عبدالوهاب فجلست اليهما وأخذت أتأمل في دوران الدهر ورد المعجز على الصدر . فقد كنت أول مرة عرفت فيها شوقي أجلس وإياه في هذا المقهى نفسه ومضى على ذلك ستة وثلاثون حولاً ولم نجتمع في باريس فلما اجتمعنا اذا بنا من دون تعمد في هذا المقهى أيضاً. فقلت لشوقي: أتدرى كم سنة مضت على اجتماعنا في هذا المقهى؟ هذه ست وثلاثون سنة. وكان رحمه الله لا يرتاح الى الأحاديث التي تذكره بالشيخوخة فقال لي: تمسكك بهذه التواريخ لا أدرى لم؟ فضحكت وعرفت انه ضاق صدره من هذه الذكرى وأنا قصدت أن أتذكر نعمة بقائنا طول هذه المدة ولقائنا من بعدها . هذا اذا كان طول العيش معدوداً من النعم وفي أثناء لقائنا الاول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا

نخوض فيه هو الشعر . وكان مع شوقي ديوان المتنبي وكان يحفظ منه ولا شك انه انطبع عليه وسيأتيك في هذا الكتاب فصل تعلم منه اني شبهت شوقي بالمتنبي في دقة معانيه وكثرة أبياته الجارية مجرى الامثال وشبهت البارودي بأبي تمام في علو نفسه وفخولة نظمه وشبهت حافظ ابراهيم بأبي عباد البحتري في طلاوته وانسجامه . هذا وبقيت أنا وشوقي نتساقى كؤوس الصفاء وتتبادل عواطف الاخاء مدة شهر من الزمن الى أن حان إياي إلى الشرق فودعته وداع الأخ لأخيه وفارقت فراق الصفي لمن يضافيه . وقد علمت منه اننا في عمر واحد فقد كنت سنة ١٨٩٢ في الثالثة والعشرين من عمري وظهر لي فيما بعد من مقدمة ديوانه الجزء الأول انه في سنة ١٨٩٨ كان شوقي في سن الثلاثين . والحال اني في تلك السنة كنت في التاسعة والعشرين وعليه يكون شوقي اكبر مني بسنة أو بعدة اشهر . وأنا الذي أشار عليه بأن يجمع قصائده ويجعل منها ديواناً يسير في الأقطار فسألني : وأى اسم أعطيه ؟ فقلت له : سمه بالشوقيات فنسبة هذا الشعر إليك هي عندي كافية . فلما جمع ديوانه أطلق عليه اسم « الشوقيات » كما أشرت عليه به وقد ذكر روح الله روحه هذه القصة في ديوانه الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨ فقال :

« جمعني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب ارسلان وأنا يومئذ في طلب العلم والامير حفظه الله في التماس الشفاء فانهقدت بيننا الألفة بلا كلفة . وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبر وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشوراً في صحف مصر فتمني أن تكون لي يوماً مجموعة . ثم تمنى عليّ اذا هي ظهرت أن أسميها « الشوقيات » ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم في الكرى أو خلسة المختلس أو هي كما قلت :

صحبتي شكيباً برهة لم يفز بها سوى على أن الصحاب كثير
حرصت عليها آنة ثم آنة كما ضن بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتم لي وداد على كل الوداد أمير
تفرق جسمي في البلاد وجسمه ولم يتفرق خاطر وضمير
هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت اليه طاعة واجبة وأنا بين هاتين هدف للقال والقيل يظن بي نسبة الأثر الضئيل الى الاسم القليل »

سم قال :

« كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات فكان لي عجباً ان وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتم منظوم ومنثوري ما نشر منهما وما لم ينشر قد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والكل خط يد المرحوم وقد افه في ورقة كتبت عليها هذه العبارة : « هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي احمد وهو يطلب العلم في أوروبا فكنت كأني أراه. وإنى أمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لانه لا يجد بعدى من يعنى بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب ، فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارني صديقي مصطفى بك رفعت خدثته حديثي فسألني أن أعيره الأوراق أياماً ثم يعيدها إليّ ، ففعلت . ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلي وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع الى المطابع فأخذتها وبودى لو وفيت صديقي المشار اليه حقّه من شكر الصنيع وأنا أقول في نفسي : لئن صدق أبي في الأولى لقد ظلم في الثانية فان الخير لا يزال في الناس » انتهى كلام شوقي. وأنا أزيد على ذلك ان والدي شوقي رحمه الله قد أفرط في التشاؤم فان نابغة مثل ولده لا يمكن أن يهمل وأن يعدم من يعنى بشؤونه وان لم يكن للمرء من يحنو عليه حنو والده فكم قام الأدب مقام الوالد وقد قيل :

إن فاتنا نسب يؤلف بيننا أدب أقنناه مقام الوالد

وهذه الأبيات وتلك القصائد التي كان منها ما هو مكتوب بالحبر وما هو مكتوب بالرصاص جاء وقت نسخها فيه ناسخ بخط مليح ثم جاء وقت آخر يقال فيه : ان هذه القصائد التي كتبت بالحبر جديرة بأن تكتب بماء التبر . وهكذا رجال الدهر تنمو أقدارهم بطول الدهر

صداقة ومطابحات

واعود الى مقاله شوقي من انه تفرق جسمي وجسمه ولم يتفرق الضمير والخطاير فقد صدق في هذه الابيات وأحسن الشعر ما حكى الحال فقد كرعنا من الوفاء بنمير

وتفارقنا ولم يتفارق خاطر وضمير، وبقينا أكتب له ويكتب لى وأبش ما فى نفسى ويشئى
ما فى نفسه وأداعبه ويداعبنى وتتأجج على بعد الديار وتراى بالقلوب لا بالابصار
وكننت لأجد أعز على ولا أغلى لدى منه مع كثرة الاصحاب ووفرة الاتراب وهذا
ما ترجمه هو بقوله :

صحبت شكيبا صحبة لم يفز بها سوى على أن الصحاب كثير
فقد كنت أحبه لمذوبة أخلاقه وحسن معاشرته وأجله لعلو فكره وبداعة
شعره وأجمع فيه بين الحب والحرمة وما أسعد الانسان اذا كان يحب من يحترم ويحترم
من يحب ، وما اصدق قول المتنبي :

ضروب الناس عشاق ضروبا فأعذرهم أشفهم حبيبا
وانى اتذكر من جملة ما كان بيننا من النكات كتابا بعث به الى من فرنسا ضمنه
عدة جمل متتابعة قلد فى كل واحدة منها اديبا من الادباء المدودين حاكيا اسلوبه
الخاص وليس الكتاب مع الاسف محفوظا عندى ولا غيره من تلك المكاتبات ولكننى
أتذكر بعضه فهو يقول : لم يتم له ما اراد من اىصال النفيعة الى ابناء الجلدة (بكريه)
وقد مرق من ذلك مروق السهم من الرمية (شكيبية) . ثم ذكر جملة ثلاثة ماعدت
انذكرها وقال عنها (صبرية) وجملة رابعة لم أعد انذكرها ولا اتذكر من حاكى بها
والحاصل انه فى الجملة الاولى يشير الى أسلوب السيد توفيق البكرى الاديب المشهور
وفى الجملة الثانية الى أسلوب هذا العاجز وفى الجملة الثالثة الى نسبتها الى اسماعيل صبرى
باشا . وهلم جرا .

وارسلت اليه من بيروت صورتي الفتوغرافية وكتبت تحتها :

اين كنت أحمد شوقى الى فما زلت أحمد شوقى اليك

دعى لك قلبى ودادا به أضن على الكل إلا عليك

وكننت ابعث اليه من فرنسا بكثير من حلاوات الشام وأتلذذ على البعد بأن
يتذوقها ويتلذذ بها . وكننت كلما قرأت له قصيدة من تلك القصائد الرنانة — لان
شعره بدأ ين من ذلك العهد — تمتلى جوانحى بها مسرة ونواظرى قرة، وبقي ذلك

ديدي معه الى ان مات لا أتلوله شعراً إلا كان لي سبب سرور . والى هذا أشرت بقولي في القصيدة التي نظمتها له بمناسبة يوبيله سنة ١٩٣٧

اقرا قصائده فتملاً مهجى جذلاً يزيل شجونها وعناءها
وأظل مغتبطاً بها فكأن لي دون الانام ثناءها وسناءها

ومن نعم الله على انه عافاني من داء الحسد الذي قد يبتلى به الكثيرون لا سيما من رجال الادب الذين لا يزال الواحد منهم يتعقب وبترقب حتى يجد لآخيه غلطة يبرد غلته بتكرارها وتنبيه الافكار اليها . وأنا لم أكن حاسدا لشوقي ولا كافيا لياه حسدي ونفاسي وغصتي برفيع مقامه فحسب ، بل كنت مفتخراً به فرحاً بنبوغته سعيداً بعبقريته أجده من حسنات هذا الزمان الكبرى ولا تتاح لي الفرصة للآتيان بذكره او للاستشهاد بشعره الا توردها . وقد كان يبدو لي من كتبه إلى أن ذلك يروقه لا سيما عند ما كان في اول ميدانه ولم يكن أحرز ما أحرز فيما بعد من الشهرة الطائفة والزعامة القاهرة . وقد كان يفضي بما يشعر به من افتتاني به الى خليله وخليلي معاً شاعر القطرين وثالث القمرين خليل بك المطران فكان الخليل يقول له : انشكيب لا يحسدك ولا يحسد احداً ولذلك رآه دائماً مفتخراً بك .

ولما نشرت كتابي في تاريخ الاندلس تذييلاً على رواية « آخر بني سراج » للفيكونت شاتوبريان ختمت ذلك الكتاب بفصل في حالة الشرق وما آل اليه واستشهدت لشوقي بأبيات ذكرت بمناسبة انها شاعر العصر وهي :

و ذات دلال من بني الروم حولها	اذا ماتتدت إخوة سبعة مرد
عنيت بها حتى التقينا فبرزها	فتى عربي ملء برده مجد
فقلت أطيّب بعد عسر وشدة	فقلت نعم مسك الاحاديث والند
عطلنا من النعمى وطوق غيرنا	تداولت الايام وانتقل العقد
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها	ولكن عن أغصانه رحل الورد

معارضات

وكننت مع ذلك أعارضه في الاحايين فانه نظم مرة قصيدة لدى زيارته الاولى للاستانه
وحلوله ضيفا كريما على السلطان عبد الحميد فانه قال يومئذ :

رضي المسلمون والاسلام	فرع عثمان دم فذاك الدوام
كيف يحصى على علاك ثناء	لك منك الثناء والاكرام
هل كلام العباد في الشمس الا	انها الشمس ليس فيها كلام
ومكان الامام اعلى ولكن	بأحاديثه يتيه الأنام
إيه عبد الحميد جل زمان	أنت فيه خليفة وإمام
مارأت مثل ذا الذي تبتنى الا	قوام مجداً وان يرى الأقوام
دولة شاد ركنها ألف عام	ومئات تعيدها أعوام
وأساس من عهد عثمان يبنى	في ثمان ومثلهم يقام
حكمة حال كل هذا التجلي	دونها أن تنالها الأفهام
يسأل الناس عندها الناس هل	في الناس ذو القلة التي لا تنام
أم من الناس بعد من قوله وح	ي كريم وفعله إلهام
صدق الخلق أنت هذا وهذا	يا عظيما ما جازه إعظام
شرف باذخ وملك كبير	ويمين سبط وأمر جسام
عمر أنت بيد أنك ظل	للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجت بالخلافة حتى	توج البائسون والأيتام
وسرى الخصب والبهاء ووافى البشر والظل والجنى والغمام	
وتلقى الهلال منك جبين	فيه حسن وبالعفاة غرام
فسلام عليهم وعاليه	يوم حيتهمو به الأيام
وبدا الملك ملك عثمان من عد	ياك في الذروة التي لا ترام
يهرع العصر والملوك إليه	وبنو العصر والولاية الفخام
هكذا الدهر حالة ثم ضد	ما لحال مع الزمان دوام

ولأنت الذى رعيتَه الأسد
أمة الترك والعراق وأهل
عالم لم يكن لينظم لولا
هذبتَه السيوف فى الدهر واليو
أيقولون سكرة لن تجلى
ليذوقن للمهلل صحواً
وضع الشرق فى يديك يديه
بالولاء الذى تريد الأيادى
كيف تهدى لما تشيد عيون
مقل عانت الظلام طويلاً
قد تقوم النفوس فى الضيم حتى
أيها النافرون عودوا إلينا
غرض أنتمو وفى الدهر سهم
نتمو ثم تطلبون المعالى
شر عيش الرجال ما كان حلماً
وبيت الزمان أندلسيا
على الباب هز بابك منا
وتجليت فاستلمنا كما لنا
نستميح الامام نصراً لحلمى
فلحلمى وآله والرايا
يشهد الله للنفوس بهذا
وإلى السيد الخليفة نشكو
وعندوها لنا وعوداً كباراً
فمللنا ولم يك الداء يحمى

د مسرى ظلالها الآجام
ه ولبنان والربى والخيام
انك السلك وسطه والوئام
م أتمت تهذيبه الأقلام
وقعود مع الهوى وقيام
تشرف الكأس عنده والمدام
وأنت من حماته الأقسام
والولاء الذى يريد المقام
فى الثرى ملؤها حصى ورغام
فمهما فى أن يزول الظلام
لترى الضيم أنها لا تضام
ولجوا الباب إنه الاسلام
يوم لا تقعد السهام السهام
والمعالى على النيام حرام
قد تسيع المنيّة الأحلام
ثم يضحى وناسه الأعجام
فسعينا وفى النفوس مرام
س بالركن ذى الجلال استلام
مثلما ينصر الحسام الحسام
بك يا حامي الحمى استعصام
وكفاها أن يشهد العلام
جور دهر أحراره ظلام
هل رأيت القرى علاها الجهام
أن تميل الأرواح والأجسام

يمنع القيد أن تقوم فهل تا ج فبالتاج للبلاد قيام
فأرفع الصوت أنها هي مصر وأرفع الصوت إنها الأهرام
وأرع مصرًا ولم تزل خير راع فلها بالذي أرتك ذمام
إن جهد الوفاء ما أنت آت فليقم في وفائك الخدام
وايصولوا بمن له الدهر عبد وله السعد تابع وغلّام
غاللواء الذي تلقوا رفيع والأمر التي تولوا عظام
من يرد حقه فللحق أنصـار كثير وفي الزمان كرام
لا تروغن نومة الحق للبا غي فللحق هزة وانتقام
إن للوحش والعظام منهاها لمنايا أسبابهن العظام
رافع الضاد للسهي هل قبول فيباهي النجوم هذا النظام
قامت الضاد في في لك حبا فهي فيه تحية وابتسام
إن في يلدز الهدى لخلالا أنا صب بلطفها مستهام
قد تجلت خير بدر أقات في كمال بدت له أعلام
فالزم أتم أيها البدر دومًا والزم البدر أي هذا التمام

وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض وأخرى فيها تعقيد ولكنها على كل حال عامرة بشوارد الأبيات وشوقية كسائر الشوقيات وفيها درر يتألم وألفاظ كسجج الخائم ولما طالعتهما نظمت من البحر والقافية :

هل لسان أقواله الإلهام أم بيان آياته الأحكام
فتبارى الألفاظ شأو المعاني ويوفى حق الثناء الامام
الذي شرفت خلافته الأرز ض خف البرية الأكرام
وغدت لهجة انثناء عليه مثلهـا دام للصلاة إقام
قدت نهضة البلاغة عنه ودنت عن خياله الأوهام
قمس في الصفيح من أطلس العـرز تهاوت من دونه الأفهام
انما وصفه على فاتح الأفكار في الذروة التي لا ترام
(٢ - شوقي)

كل طرف للفكر عنه كليل كل طرف للجري فيه كهام
 قصر الوصف دون من يفضح الوصف وعند الفعال يخفى الكلام
 ينبذ الشعر والشهود الرياضيا ت عدا والحجة الأرقام
 ان ما سال في ثناء يراع لا كما سح من يديه غمام
 وفمال الضرغام أوقع في النفد س من القول انه الضرغام
 كل يوم له صنائع تترى في البرايا لباسهن الدوام
 تكفل الناس مثلما يكفل الغبراء غيث له عليها انسجام
 طوق الخلق جسوده ونداه فهي في مدحه لعمري حمام
 وجدير أن تنطق الطير والوحش فيتلو الصداح فيه البغام
 نسخت عنده الملوك وأمسي خبراً من اخبار كان الكرام
 ما رأى مثله الزمان عظيماً صبية عنده الرجال العظام
 جاء من ضئفي الخلافة فرداً هو من معشر الملوك السنام
 فرع عثمان وكفى المجد والأحساب والمكرمات والأحلام
 دولة حجة الزمان على الخلق ق بها دون مزية إلزام
 ليس للشرق غيرها فبنو المشرق طراً بدونها أيتام
 قد أقامت سرادق العز يعليه الوشيج الرماح والأقلام
 فوقه راية الهلال منيراً يدبر الظلم عندها والظلام
 ينضوى تحتها النقاد مع الأسى يد وترعى الذئاب والآرام
 مجد عثمان ليس غيرك مجد كل مدح من دون مدحك ذام
 لم تزل شاخها بأنف عزيز ولكم أعطس الملوك الرغام
 لا ترى دولة هزالاً وضعفاً حولها المسلمون والاسلام
 وعلى رأسها خليفة عصر دهره تابع له وغلام
 لم يزل قائماً لديه بأبوا ب عليين للجبابه ازدحام
 حيثما تهطع الملوك وتعنو تحت تيجانها الطلي والهام

موقف تخشع النواظر فيه وتسوى الرؤوس والأقدام
 قد حباه عثمان أساً متيناً مثل البيت عنده والمقام
 شاب فرق الزمان وهو مكين وتخطت مثاتها الأعوام
 وغدا آلفاً سهام الليالى فلذا لا تنال منه السهام
 إليه عبد الحميد ان زماناً أنت فيه عباسه بسام
 أوله نصرك العزيز وأيد وارو مصرآ له اليك أوام
 أشخصت نحوك العيون حيارى أمم الخافقين والأقوام
 وتصبي القلوب منك خلال يحرم العشق دونها والهيام
 أقبل العصر يرتجيك وفي اليمى كتاب وفي الشمال حسام
 حينذا الدولة التى صار فيها توأمين الموم والاعلام
 هو ذا الشرق فى حماك لك الامر جميعا وفى يديك الزمام
 هزّه هزة تثوب بها الروح وتحيى الآمال وهى رمام
 ارفع الحد للخطوب فما ينفع مع هذه الليالى احتشام
 لم تزل أرضنا مأسد بالله ومأوى رجالنا الآجام
 ان للشرق هبة بعد نوم أزعجته خلالها الاحلام
 هبة تبعث الحية فى النسا س كما يبعث الحمار المدام
 يسأل الغرب عندها الشرق هل جا ءك روح تحيا به الاصنام
 ترسل الكهرباء فيها شماعا ويرى للبخار فيها ركام
 وتشب النيران فى كل ارض فتعود النيران وهى سلام
 انما تلج الصدور بسلم حينما يوقد الصدور ضرام
 يا إمام الهدى هنيئاً وأولى أن يهنى بالعيد عنك الانام
 ان احاول على علاك ثناء فهو مما قضى على الذمام
 او اعارض قى القريض فما عا رض ورد الحقائق القلام
 ذا مجال رضيت فيه من السبق بعزم لم يثنه الاحجام

واذا كان بدع وصفك سمطا جاء عفوا من القريض النظام
ان يوما به الجالوس تجلى هو يوم خدامه الايام
كفّر الدهر فيه عن كل ماجر فلم يتجه عليه ملام
جاء ختما لطارات الليالى فاختلفاتها الينا امام
ليس يلحى على أواليه عصر بمعايك طاب منه الختام
ولم أجادب أخى شوقى الحبلى الا فى هذه القصيدة ولم انس أن أشير فيها الى
المعارضة معترفا بأن الدر لا يعارض بالحصى وذلك عندقولى :

أو أعارض فنى القريض فما عا رضى ورد الحدائق القلام
وقد وجد مع هذا من رجح قصيدتى على قصيدته ومنهم الشاعر الاديب داود
بك عمون الذى صار فيما بعد الحرب رئيساً لحكومة لبنان وهو من أترابى فى السن
وقد تذاكرت وياه فى موضوع هذه المعارضة فرأيتّه يستحسن قصيدتى على قصيدة
شوقى فقلت له وأين أنت من قوله :

ما كلام الأنام فى الشمس إلا انها الشمس ليس فيها كلام
فقال لى : وانت جعلت بإزاء هذا البيت قولك :
وفعال الضرغام أوقع فى النف س من القول إنه الضرغام
وعلى كل حال فاست أدعى سبق شوقى فى هذا الميدان وأنا الذى أقول فيه فى
القصيدة التى قلتها فى يوبيله :

وفرت يا شوقى السباق على الورى برئاسة بات السباق وراءها
تنقطع الأعناق عن ادراكها حتى الأمانى لا تحوم إزاءها

* * *

ولكن مما لا مرية فيه اننى أنامذ أيام الشباب قلما نظمت الشعر رغبة فيه وزوعا
منى الى الانصاف بالشاعرية بعكس النثر الذى كان أبداً مرمى آمالى ومطمح خيالى .
وسألتنى مرة ابراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور عند ما اجتمعنا فى الامتانة سنة

١٨٩٠ فقال لى : أيهما أفضل عندك النظم أم النثر ؟ فأجبتة : لا مقايضة عندي بينهما إلى أفنخر بأن أكون كاتباً وأستحي من أن أكون شاعراً . فاستحسن المولىحى هذا الجواب الذى لاشك أنى بالغت فيه ولكنه كان يعرب عن ذات صدرى لأننى طول حياتى لم أحاول أن أكون فى الشعر سباق غايات وطلاع أنجد على حين انى كنت أرى منتهى السعادة فى الدنيا فى أن أكون من الكتاب المعدودين . وقلمنا نظمت الشعر انبعاثاً من نفسى واطاعة لمجرد خاطرى فليس لى على هذا الوجه إلا قصائد معدودات وكل ما عدا ذلك من شعرى انما نظمته قيما بواجب أو امتثالاً لرسم أو نزولاً عند رغبة . ولهذا تجد أكثر شعرى مرأى للاصحاب أو للاعلام الذين لامناص من رثائهم . وسيظهر ديوانى قريباً إن شاء الله فيقف القراء منه على تحقيق كلامى هذا .

صنعة الشعر وابداع شوقى فيها

ومن المعلوم ان صاحب الصنعة انما يتقدم فيها اذا كان راغباً لا متكلفاً ومغرمًا لا متبرماً وكان مجتهداً أن يبذل فيها لاجل الابداع ولأجل سبق غيره من الصناع ، فاما شوقى فكان كله شعراً قد وقف نفسه على هذه الصنعة لا يهمه أن يتقن غيرها وصارت له غراماً فهو آناء ليله يفكر فى الشعر وأطراف نهاره يستنبط المعانى الغريبة وكلما عن له معنى قيده وكلما انفتق فى ذهنه مرمى أحزره وهياً له قالبا رائما حتى اذا جاءت أول فرصة أودعه إليها

ومن أهم ما يغفل عنه الناس وهو من أحق الحقائق ان نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر وانها فى اوقات الصفاء قد تبرم قوانين وتخلق معانى لا تتأتى لها فى جميع الأحيان . وربما لاح فى فكر الأديب خاطر فى احدى السويحات لو استرسل فيه لآتى فيه بالمعجائب ، على حين انه اذا نشده فى وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له فى ساعة الصفاء لوجد زنده فيه صليدا ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ويطعم أن يقتنص تلك الشوارد التى كانت بين يديه فاذا هى الآن لا تطيعه ومنها ما ذهب غير معاود ومنها ما عصى غير مقرر . ولذلك كان يجب

على الأديب شفاف الطبع انه اذا عن له في سويغات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ووجد هذا الموضوع مثالا عليه أن يسرع الى قيده أو ابده ويأخذ القلم فيحرره واذا كان شعراً نظمه واذا كان نثراً دبجه، حتى لا يفوته فيما بعد، فان الافكار من جملة حظوظ الدنيا تهب أحيانا وتركد أحيانا فاذا هبت مرة وجب اغتنامها ولم يجز اهمالها على نية أن يعاد اليها مرة أخرى، وإن الافكار نظير الأقدار ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر ان يجيدها كل حين، وقد تفيض على الرأس أشعة إذا ولت تعذر استردادها. فاللبيب اللبيب هو الذي يقنص الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل انه يصطادها فيما بعد فانها إذا شردت قد تفوت والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء .

وقد كان شوقي ممن يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، وممن يقف في المظان التي تختلف فيها الطرائد فيكلما عن "سأخ رمى بسهمه"، فلهذا عظم توفيقه في الصيد وجاء بما لم يحس به غيره، ولم يقل لنفسه في وقت من الاوقات : دعينا من هذا الآن لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود اليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المبتكر هدفه ككيفها عن "وأنى عرض، فلا يكاد يترأى له شيء إلا وتر قوسه وفوق سهمه .

وهكذا ينبغي ان يكون الشاعر اذا أراد أن يجيد وان يقول فيه الناس : من ذا قالها ؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه أو شيئاً آخر من مناحي الحياة فوق الشعر بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأول وان تدور حياته من حوله فجميع المشاغل تكون له فضلة ويكون الشعر هو العمدة، ولهذا قال خليل مطران : ان شوقي كان يفكر في الشعر قاعداً وقائماً وحاضراً وبادياً وسائراً وسارياً وفي المركبة وماشياً الى غير ذلك. فقد قام نحو الشعر بالواجب الذي لم أقم به أنا ولا غيري ممن جعل الشعر فضلة عمله ولم يقله إلا عند الضرورة . قد اعطى شوقي نفسه للشعر فأعطاه الشعر ما لم يعط غيره في هذا العصر

انصراف شوقي الى الشعر

هذا وكان شوقي متصلاً بخدمة سمو الخديو السابق ومنذ بداية نبوغه لقبوه بشاعر الامير فصار ذلك اللقب باعنا له على زيادة الاجتهاد وفرط الارتياح حتى تكون مكانته الشعرية متناسبة مع المقام العالى الذى يخدمه بشعره . وبعبارة اخرى من حيث قيل له شاعر الامير آلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء فانصرف بكليته الى الشعر حتى تعطيه الاجادة قيادها ويعلم العزبز سيده انه ان كان هو سيد الامراء فان شاعره سيد الشعراء وان هذا المقام الذى يشغله شوقي برسمه يشغله ايضاً بنظمه . فاذا لزم أن يكون شاعر الامير سباق الحلبة ومقدام العصبة فانه كذلك وان سليقته قبل وظيفته . وقد كان هذا الحرص منه على افهام سيده انه الشاعر الذى لا يشق له غبار والذى اتفقت على تقديمه الاقطار هو الذى يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجمة واوسع فتوحات عقلية، فلا يقول الشيء الذى يقوله سائر الناس . فكان يقضى معظم اوقاته فى تجويد نظمه وتسديد سهمه ، فى تعمير صدره بالمعاني العالية وشحن خاطره بالمرامى الدقيقة والاغراض السنية حتى صار ذلك خلقا له غير منفك عنه ، وصار اذا قال كلمة سارت فى الآفاق وتطاوت الى قراءتها الأعناق وبذخ فيها على الشعراء بالاتفاق . وأظن أن أصوب آراء شوقي هو انه لم يرد ان يكون شيئاً غير شاعر كبير لا يقال لسيده انه يوجد فى غير المعية السنية من هو أشعر منه . فكان طبع شوقي ظرفاً لا يسمع مع الشعر حاجة اخرى

ولم يخلط شوقي الشعر بالسياسة ولا التجارة ولا الفقه ولا الادارة ولا الزراعة ولا عمل من الاعمال الاخرى التى يتعاطاها الناس وكثيراً ما قرنوا بعضها ببعض فأخذ العمل الواحد من قوة العمل الآخر . وقلما زاول الانسان عمليْن الا غلب أحدهما عليه أو قصر فى الاثنين . وقد علم شوقي بثقوب فكره انه ان حاول أن يكون سياسياً عظيماً أو ادارياً ماهراً أو زراعياً متقناً أو اقتصادياً مدققاً

سلبت عنايته بمهنته هذه من ملكته الشعرية بمقدار انصرافه عنها الى غيرها فقصر
عن ادراك الامد الاقصى الذى لم يزل مطمح نظره فى الشعر وقعد عن الرتبة الأدبية
اللائقة بمن يقال له شاعر الأمير وأمير الشعراء . وكما أن لقب شاعر الأمير وأمير
الشعراء كان يزيد شوقى ففازا فى صناعته وصقلا تقريحتيه كان يكسوه أيضا أمام الناس
بهاء يستمدّه من منصبه ويلمع عليه بسبب حظوته عند الجناب العالى فكان كل من
لقبه وأدبه عوناً للآخر .

القول فى مدح الامراء والملوك

وقد عاب بعضهم على شوقى قضاءه عمره فى مدح الامير ومدح السلطان والاشادة
بذكر ذوى السلطة وربما عابونا نحن أيضا لمثل ذلك وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا
أشعارهم على مدح الامراء والملوك وزعموا أن فى ذلك دليلا على طلب الزلفى أو
التماس الجائزة .

والجواب على ذلك يحسن بنا أن نوضحه ايضاح من لا يبق عليه ظلمة الابهام وهو
جرت عادة الملوك والامراء سواء فى الشرق أو فى الغرب من قديم الزمان أن ينتدبوا
لأنفسهم رهطا من الفصحاء من شاعر مقلق وكاتب مبرز وخطيب مفوه ونديم
مطرب وأمثال هذا الضرب من ذوى المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الأدبية
الراجحة يشيدون بذكرهم فى المحافل بالقصائد الشوارد أو بالخطب الاوابد أو بالناشير
الصادرة كعقود الفرائد مما يزيد فى وقار الملك وسنام العرش وحرمة الرعية للراعى
ويلقى على الافعال أقوالا تزيد فى بهائها وتضاعف من بقائها ، إذ لا يوجد مثل الشعر
والنثر تقييداً للمآثر وتخليداً للمفاخر ، فالشاعر الذى يتصل بملك من الملوك أو أمير من
الامراء سواء فى شرق أو غرب لم يكن يجد من الغضاضة فى شيء التغنى فى مدح سيده
حتى لو لم يكن أهلاً لكل ذلك الاطراء لأن مثل هذه الطبقة من الشعراء والادباء
يذهبون الى أن الكلام انما هو للمقام لا للمقيم وأن المقام إنما هو رمز الامة وعنوان
المسلة . ثم قد شاعت الاقدار فى أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدول

الاسلامية بأجمعها وأن تفلظ شوكة الأجانب الغربيين بين أيديها ومن خلفها وأن تحيط بكثير منها وتأخذ على أيدي ملوك الاسلام فلا تبقى لهم سوى الرسوم والالقاء ويتغافل نفوذ الأجانب في هذه الحكومات الخلوقة على امرها فتصير الأمة التي في مثل هذا الموقع وقد أخذ الأجانب بخناقها تتطلع الى أميرها الاصلى وتعزز من مقامه وتضاعف من اجلاله بناء على أنه هو رمز استقلالها الوحيد فالمبالغة في إجلال هذا الرمز إنما هي المبالغة في حفظ الاستقلال نفسه

فعند ما يهتف شوقي ومن في نبطه بتلك القصائد الرنانة إما في مدح عزيز مصر أو في مدح الخليفة الأعظم فإنما هو في الحقيقة يشيد باستقلال مصر في وجه الأجانب الطامسين المستأثرين بالأمر ، وعند ما يرسل كتاباته الخالدة في مدح السلطان الخليفة فإنما يقدس مقام الخلافة العزيز على المسلمين الناظم لشملهم القائم في وجه عدوهم . فليس في هذا المذهب ما يدل على سلوك طريق التزلف كما يظن من لا يدق في أسرار الأمور ولكنها الصارخة القومية والنزعة الاسلامية والنضج عن حوض الخلافة والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شئ بالدعاء الذي يقال في الجوامع نهار الجمعة استنزالاً من عند الله لنصر سلاطين الزمان الحافظين لسكبان الأمة في الداخل والخارج وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم وإنما هو للمقام الذي يتبوءونه ، لا يزال الخطيب يدعو لهم حتى إذا زال الواحد منهم عن كرسيه دعا خلفه . ولا يقال في مثل هذه الحالة ان خطباء الجوامع متزلفون وانهم لذلك ليسوا على شئ من حرية الفكر . فالكلام هنا راجع كله للدولة مقصود به مجد الأمة وليست هنا الأشخاص هي القصد من الرسوم . وأيضاً فان هؤلاء الملوك والأمراء يبرون شعراءهم ويغفرونهم بالنعم الجسام ويعسنون اليهم بأنواع الإحسان ، والنفوس مطبوعة على حب من أحسن اليها ، وقد قال المتنبي :

« ومن وجد الإحسان قيذاً ققيداً »

فلا عجب أن يكون أحمد شوقي قد قال في الحديوى السابق القصائد التي سارت في البلاد وترنم بها الحاضر والباد ، وقال مثلها وأحسن منها في السلطان عبدالحميد خليفة المسلمين الذي يمدحه تطيب نفوسهم وتهتز أعطافهم . ويزيد هذا البرهان ظهوراً أنه

لم تكن تقع حرب تظهر فيها قوة الدولة ويتلأأ مجد الملة إلا وجدت شوقي قد جاء
يجر جحفل فصاحته ويرفع لواء بلاغته كما نظم في حرب الدولة مع اليونان تلك
القصيدة الباقية التي بد فيها شعراء العالمين وساوى فيها شعر المتقدمين وسندكر فيما
بعد ما يأخذ بالألباب منها .

ولقد درت درر شوقي في مديح الخديوى السابق بخيرات وشت بروده وكفته
مؤونة العيش الأبله، فما من شعر اخضر له رعى وأورق له غصن كشعر شوقي، وهذه
هى عائنته تتقلب ولله الحمد في النعماء التي أنلها شعره .

وأما أنا فقد كان أكثر فرارى من الشعر خشية أن يظن بى مزاولته تسكبا
لا تأديبا ، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب ، فكنت إذا مدحت
السلطان فانما أمدحه لأجل أمتى التي هو سلطان عليها ، وكنت أنشر قصيدتى في
الجرائد ولا أقدمها إلى الحضرة السلطانية ، وفي إحدى المرات عندما كنت في ريعان
الصبا نظمت قصيدة واستنسختها بخط أنيق وموهتها بالذهب وقصدت تقديمها للمامين
الهاميوني كما كان يقال ثم عدلت عن ذلك واكتفيت بنشرها في الجرائد . وقد سبق
أنى لما أشار إلى الأستاذ الامام بأن أنظم شيئا للخديوى محمد توفيق رحم الله الاثنين
نظمت تلك القصيدة الدالية التي تقدمت في رسالتى هذه ولم أغفل أن أختتمها
بهذين البيتين

وإنى إذا أهدى العزيز مدامحى أبوء بصدق القول غير مفند

وإلا فما حاولت إدراك غاية بشعري ولا نظم القصائد مقصدى

وهذا حرصا منى على أن لا يفهم الخديوى رغبة منى في الكفاة وفي هذا منى نظر
إلى قول أحد شعراء الأندلس وكان من أبناء البيوتات

وما أنا بالباغى على الشعر رشوة أبى ذاك لى جد كريم ووالد

وأنى من قوم قديما وحادثا تباع عليهم بالآلوف القصائد

عفة لسانه شوقى وبعده عن الهجاء

ولنعمد إلى أوصاف شوقى الشعرية فنقول: إنه وإن كان أسرف في المديح وفي مديح أمير بلاده خاصة ، فلم يلوث شعره بالهجاء ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحداً ، قد عصمه الله من ذلك فإن من أقبح ما قبح سمعة الشعراء وجعل الخلق ينظرون إليهم بشيء من الريبة أن كثيراً منهم رتموا في لحوم الناس وسيروا المثالب التي قد تكون بلا أصل أو يكون لها أصل ضعيف ولكن الناس حفظوها وتدارسوها لبداة قوالها خلفاً عن سلف حتى انتهى الأمر بأن صدقوا فحواها وصارت في نظريهم وقائع تاريخية. فلو كان شوقى شتاماً مقدعاً مع ما أوتي من الاجادة لكان ثم أعراضاً وخلد مقابح وأورث أحقاداً وقيد فضائح وكان هجاء نفسه يهجو به غيره . وما أصدق هذه الجملة : الاناء ينضح بما فيه . فعفة لسان شوقى وتنكبه طريقاً طالما سلكها شعراء كبار وصغار ومتوسطون هذا دليل على زكاء طبعه وفرط حيائه وأيضاً على رجاحة عقله واصالة رأيه فكلم أحدث الشعر من فتنة وأراق من دم وأخرج من جماعة وحرّم العالم من نعمة . وأية نعمة كانت أعظم من شعر المتنبي الذي كانت حيائه كلها أقوالاً عبقرية آخذاً بعضها برقاب بعض ولكنه برغم جميع حكمه الاجتماعية وآرائه الفلسفية لم يتنبه إلى ما في الهجو من الاستهداف للعقت والتعرض للهلكة فقال من الأقوال الصغار ما يخالف تلك الحكم التي تفرد بها وأسف في الهجو إسفافاً يحار العقل لصدوره من مثله وانتهى بأن ذهب فريسة إقذاعه . وكل يعلم أن قصيدته المسخوطة التي أولها .

ما أنصف القوم ضبه وأمّه الطارطبه

قد كانت سبب قتله على يد فاتك الأسدى خال ضبه الذى انتقم اشرف أخته وحرّم الناس مواهب تلك النفس العظيمة في إبان إجادتها وأوج مجادتها . ونسكتفي بهذا المثال عن الأمثلة الكثيرة التي كانت مآسى في تاريخ العرب . وجراحات اللسان ليس لها التآم . فمن محاسن شوقى التي يجب أن تذكر وتؤثر أنه لم يستمطر عارض خاطره في تقييد شنعاء أو تخليد صلحاء ، وما أجدره بقول نصيب الشاعر : ما قلت بيتاً

قط تستجى الفتاة الحيسة من إنشاده في ستر أبيها ، كان شوقى عفاً طاهر اللفظ صافى النفس تنمكس على مرآة نفسه النقية المحاسن دون القبايح . وكان لا يسلم من الحسد والمنافسة ومثله من يحسد ويغص بمكانه ولكنه كان يمر باللغو كريماً وبالحسد عظيماً وكأنه كان يرى نفسه فوق أن يزاحم ويجد شوطه أبعد من أن يسابق فيعف عن قدرة ويتواضع عن أنفة وقد صدق حيث قال :

فلاحكمى دعوى ولا منطقى هوى ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد
جعلت مديحى آية الود فى الورى خباب به الدنيا وما انتقل الود
قوافى لرب الشعر لا النظم طائل إذاهى سارت فى البلاد ولا النقد
يهذبها العلم الذى العلم بعضه وهذا البيان الوحى والفتنة الود
أوانس أحياناً شوارد تارة لها لعب آناً وآناً لها جدد

وما قال هذه الأبيات إلا على أثر حالة بلغته وهذه كانت غاية ما تثار ثأره ويجوز أن يكون وقع له غيرها ولكنى لم أطالع على ذلك بمكانى من بر الشام والمصريون أدرى بهذا منى وأنت ترى أن فى تعريفه هذا بمن ينافسه أو يحاول الغض منه ما لا يجد فيه قائل مقالاً

وقد كان يتجنب أيضاً المساجلات والمناقشات فى شعره فلا يهاجم ولا يهاجم وربما نيل منسه فى غيابه ولكنه كان يقابل بالسكوت ولعل سكوته هو لما تقدم من ثقته بنفسه وشعوره بأنه الصخرة التى ينحط عنها السيل . وربما لو ذهب فى المناقضات مذهب الغابرين لكان أتى ببدائع أبقاها عزوفه عن هذا الأمر ما فوفة فى غلافها مكنونة فى أصدافها . فقد قرأنا فعلمنا أن الشعراء المقلقين إنما يحاقون فى سماء الفصاحة عند ما يناقض بعضهم بعضاً . انظر على سبيل التمثيل قول رماح بن ميادة يمدح قيساً ويفتخر بها ويهجو تيماً وأسدأ :

وأحقر محقور تميم أخوكو وإن غضبت يربوعها وربابها
ألا ما أبالى أن تخندف خندف ولست أبالى أن يطن ذبابها
ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليكم حججها

إذا غضب قيس عليك تقاصرت
وان غضبت من ذا قريش فقل لها
وانى لقو آل الجواب وانى
فأجابه عبد الرحمن بن جهيم الاسدى :

لقد كذب العبد بن ميادة الذى
ارماح ان تغضب صناديد خندف
ولو أغضبت قيس قريشا لجدت
لقد جر رماح بن واقصة الخصى
وقد علم المملوح بالشؤم رأسه
ولو أن قيسا قيس عيلان أصحرت
ولو أن قرن الشمس كان لمعشر
ولكنها لله يملك أمرها
لعمري أن شابت حليلة نهيل
ولم تدر حمراء العجان أنهيل
ووالله لولا أن قيسا أذلة
لألحقها بالزنج ثم رميتها
ربا وهو وسط الشول تدمى كعابها
يهج لك حربا قصيها واعتياها
مسامع قيس وهى خضع رقابها
على قومه حربا عظيما عذابها
قتيبة ان لم تحم قيسا غضابها
لأنواء غم أغرقها شعابها
لكان لنا اشراقها واحتجابها
بقدرته اصعادها وانصابها
لبئس شباب المرء كان شبابها
أبوه أم المسمى تب تبابها
لثام فلا يرضى لحر سبابها
بشعاع يعي القائلين جوابها

لا جرم أن فى هذا الشعر سواء من المهاجم أو المدافع من جزالة اللفظ وبلاغة التأثير وعلو النفس وقوة الطبع ما يندر أن يكون فى شعر شاعر وقد كان يلد للقارىء ويحاولى فى ذوق السامع ويستعاد مرارا لولا ما فى جواب الشاعر الاسدى من المقادر ولو أنهم كانوا اقتصروا على المفاخرة والمعاتبة لكان بهم أحجى ولهم أنجى وبالأفئدة أعلق وبزكاه شمائلهم أنطق . وعلى كل حال لم يعلم ماذا كان يكون من شوقى لو فاخره مفاخر أو كاثره مكاث فإنه لم يسالك هذه الطريقة ولا اختار هذا المركب ولو انه كان اختاره أو دفع اليه لوجد من يجاذبه الجبل ومن يقف فى وجهه وقوف الكفء للكفء فلا حافظ ابراهيم ولا خليل المطران ولا السكاظمى ولا الرصافى ولا من فى

درجتهم كان يعجز عن ان يقابل شوقي السجل بالسجل ولكن اما لرغبة منه عن الشحناء واما لترفع منه عن مباراة النظراء ، ربأ بنفسه عن انقال والقييل وتباعد بها عن كل نزاع من هذا القبيل وأصبح الفذ الذي لا يساجل والجواد الذي لا يجارى حتى انى قلت فيه عند وفاته من جملة رثائى له :

ولقد رويت الشعر عن آحاده والفت للسباق فى حلباته
وقضيت فيه صبوى وصبايتى وقطفت منه خير نواته
وأثرت فى الميدان بزل فحوله وأطرت فى الآفاق شهب بزاته
فرايت شوقى لم يدع فى عصره قمرنا بهز قناته لقناته

شوقى فى برايه امره

ولما نشر شوقى الجزء الاول من ديوانه وذلك سنة ١٩٠٠ بعث الى بعدد لا اذكر مقداره من النسخ فنشرتها فى بيروت ولبنان وسورية وأعلنت عن ذلك الديوان فى الجرائد السورية وقلت فى الاعلان : اذا كان الشعراء أربعة فان الشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه فى هذه الايام والذى احب بشعره عهد أبى نواس وأبى تمام انما هو احمد شوقى بك شاعر مصر وصناعة العصر . الى اسطر لم تبق فى بالى . وكان شوقى قد اشتهر وسار شعره فى بر الشام ولكن هذا الديوان زاد فى لمعانه وجمعت أثمان النسخ وبعثت بها الى شوقى ولما كان الكثيرون لم يدفعوا أثمان النسخ التى خصصناها بها كما هى عادة الشرقيين فى استهداء المطبوعات مجانا فقد أرسلت من جيبى بثمان مالم أقبض بدله الى شوقى ولم أخبره بان ذلك هو منى لئلا يردّه الى .

وكان شوقى الى ذلك العهد ضعيف الحال لم يحصل على الثروة التى جمعها فيما بعد والى كان السبب فيها شعره بدون نزاع . ولما بعث الى بذلك العدد من نسخ ديوانه أهدانى نسخة خاصة بى بمجلد مذهب لانزال فى حوزتى وقد كتب عليها فى الصفحة الاولى : « الى أميرى وأخى شكيب ارسلان «شوقى» والتاريخ ٢٧ مارس ١٩٠٠ » اما النسخة التى طبعت فى السنين الاخيرة فهى تشتمل على قصائد مثبتة فى الطبعة الاولى

وعلى قصائد جديدة . ولكن مقدمة شوقي في الطبعة الاولى محدوفة من الطبعة الثانية . وهى المقدمة التى ترجم فيها نفسه فقال :

سوقى كما ترجمهم نفسه

« الآن أدخل فى الحديث مع فريق طلبوا منى أن أجعل صورتي فى هذه المجموعة وآخرين رغبوا الىّ فى كلفة تقال عنها وعن صاحبها وأن لا يقولها سوى . معذرتى الى الفريق الاول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن اكون ذلك الرجل . على أن صورتي ماعشت بينهم ينظرون اليها فاذا مت فليأخذوها من أهلى اذا جد بهم الحرص عليها . وللاّخرين أقول : انى لا أزال فى أول النشأة وان حياتى لم تحفل بعد بالمعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس باخبارها لسكنى لا أتق بيومى الآتى وأخاف بعدى رجوم الظن وضلات الاحاديث فى العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بينى وبينهم كما يكون بين الأحباب . سمعت أبى رحمه الله يرد اصلنا الى الاكراد فالعرب ، ويقول ان والده قدم هذه الديار يافعا يحمل وصاة من احمد باشا الجزائر الى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وانا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطأ وانشاء . فأدخله الوالى فى معيته ثم تداولت الايام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب فى المناصب السامية الى ان أقامه سميد باشا أمينا للجمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها أبى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحده اسمع بما كان من سعة رزقه ولا ارانى فى ضيق حتى اندب تلك السعة فكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقنات من فضلات الموتى

(إلى أن يقول) : « أما ولادتي فكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبوا الى الثلاثين . حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد ، فقص علىّ حالما رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق - كما تقول العامة - خرقا فى الاسلام

« ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أليك يا شوقى ، فوالله ما قالها قبل فى الاسلام أحد . قلت وما تلك يا مولاي قال قصيدتك فى وصف (الببال) التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحب فهى فضة ذهب

وها هى فى يدى أقرأها ، فاستمذنت بالله وقلت له : الحمد لله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بالاسلام فتيلها

« أخذتني جدتي لأمي من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتني لوالدى وكانت تحنو علىّ فوق حنوها وترى لى مخايل فى البر مرجوة حدثتني أنها دخلت بي على الخديوى اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمري وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوى بكرة من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعت على الذهب أشغل بجمعه واللعب به فقال لجدتي : اصنى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي . قال : جيئى به إلى متى مثمت إني آخر من ينثر الذهب فى مصر اه . ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الإبصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التفت عينه بعيني ينشد هذا المصراع المتهنى « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » انتهى إلى آخر ما ذكره من صفحات حياته إلى السنة التى طبع فيها الجزء الأول من شوقياته . فتعرض له إبراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور ونشر مقالة فى المؤيد ليست محفوظة عندى وإنما الذى أذكره أن المويلحى هزأ بشوقى فيما ذكره عن ارتجاج عينيه وفى قول الشيخ على الليثى له « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » وخطأه فى ترجمته لنفسه زاعماً أن مثل هذا غير مألوف عند المؤلفين وأنه لم يعهد أن مؤلفاً ترجم نفسه فى مقدمة كتابه وغير ذلك من المزاعم المستغرب صدورها من أديب كبير مثل إبراهيم بك المويلحى . فلم أستطع على ذلك صبراً ورددت على المويلحى بمقالة فى جريدة المؤيد هى أيضاً غير محفوظة عندى وقد بعثت إلى مصر أبحث عنها فى مجموعة

المؤيد بخزانة الكتب الملوكة فأجابوني بأنهم بحثوا عنها فلم يعثروا عليها . ولذلك لا أقدر أن أروى منها طائلا يذكر لأن النثر لا يحفظ كما يحفظ الشعر . وقد وقع لي أن فقدت بعض قصائدي فأمليتها كلها عن ظهر قلمي وأملت من قصائد أخرى مفقودة أبياتاً غير قليلة . ولكن لو فقدت مقالة من المقالات أو فصلا من الفصول لما تسنى لي أن أروى من ذلك سطرين متتابعين . فلهذا أن متني بأن أقول انى رددت على المولى على متعجباً من مكابرتة فيما هو محسوس لا خلاف فيه ، فان كثيراً من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم في كتبهم ولسان الدين بن الخطيب أعظم كتاب الأندلس ومن أعظم كتاب العرب قد ترجم نفسه في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) وكذلك الإمام السيوطي شيخ المؤلفين لافى العرب وخدم بل في العالم كله^(١) وهو الذى صنف أربعمئة وستين كتاباً قد ترجم نفسه أيضاً في (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)

وعددت ذلك اليوم علماء آخرين ترجموا أنفسهم، فلم يجاب المولى على ردى وقطع عن الكلام لعدم اتساع المجال للمباحكة، فكتب شوقى إلى على أثر هذه المناقشة كتاباً يقول لى فيه : « دفعت اليازجى عني بيد هدمت كيانه وألغت بيانه ، وتحامل على المولى على فرددت عني الرد الذى قطع حجته ، فبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحاميل جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول ، فسبحان من جعلك جالداً لأعدائى وروبرساً لحسادى الخ . . » - يريد روبرس القائد الانجليزى الذى دوخ الترانسفال وكان المهيد يحرب الترانسفال قريبا .

نموذج من رسائل شوقى

واكثر كتب شوقى مفقود من عندى بكثرة اسفارى وضياع كثير من أوراقى ثم هناك سبب آخر لصعوبة العثور على الاوراق التى أنشدها فلا أجدها، وهو أن ما عندى من الاوراق والطروس المكتوبة يملاً صناديق عديدة، بل الظروف التى

(١) قال سيدى مؤلف كتاب مدينة العرب بالفرنسية: إن السيوطى ألف من الكتب ما لم يقرأ كثير من الأوروبيين فى حياتهم بعدده

تستعمل على تلك الاوراق تخصي عندى بالثلاث لا بالعشرات. وهذا كله عدا المطبوع الذى منه صناديق أخرى مفعمة لزاً . فاذا اردت أن ابحت عن مكتوب لزم لذلك أيام وايال وتعطيل أشغال . وبديهي أنى لا أملك من الوقت ما أتفرغ فيه للبحث عن أوراق غائصة فى تلك اللجج الخضر ولا شك فى أن مكاتيب شوقى هى بين هذه الاوراق ولكن لا تصل اليد اليها . وقد عثرت اتفاقا على كتاب منه فى تاريخ ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٠٧ يقول لى فيه ما يأتى :

أميرى الحبيب الكريم

سلام الله العلى العظيم على ذلك الجنب الكريم وبعد فإن اخى ييوى بك الذى يتقدم اليك برسالتى هذه هو رجل كله أدب وان لم يكن من رجال الأدب ، وقد عزم على أن يقيم بيروت أياما معدودة وأبى الا أن أدله على علمها ومنارها والأثر النخيم الجليل من آثارها وهو أنت ، وها قد دللته واليك أرسلته ، وأنا أغبطه بهذه الوفادة واحسده على تلك السعادة .

المخلص

شوقى

شوقى فى سورية

وجاء شوقى مرة الى سورية لا اتذكر أية سنة فوصل الى عالية و كنت مصطفىا فى صوفر فبعثوا الى يقولون : ان شوقى فى عالية وانه يريد مشاهدتك . وصادف أنى كنت ذلك اليوم ملتاثا فبعثت اليه بأن ينتظرنى وانى اكون فى الغد عنده . وثانى يوم بكرت اليه وذكرت له سبب تأخرى فقال لى على سبيل المداعبة : رجوت ان تكون كاذبا ولا تكون مريضا . فقلت له : المرض أحب الى من الكذب . ثم دعوته الى صوفر فمكث عندى يومين لا غير وكان العهد قد طال على بلقائه وكان اشتد بى الشوق اليه فوجدت عليه فى قصر مدة إقامته عندى ولكنه كان أشبه بالطير يريد أن يبق حراً طليقاً . وكان شوقى قبل ذلك فى الآستانة فحصلت معارفة بينه وبين المرحوم عمى الأمير مصطفى أرسلان رئيس العائلة الأرسلانية فى وقته وكان ذهب يصطاف فى تلك العاصمة

فأحب العم شوقي كثيراً وكنا نتجالسان ساعات طويلاً وكل منهما حريص على عشرة الآخر وكلما طالت مدة اجتماعهما طابت لهما .

ولما كان شوقي في عالية سأل أحد أعيان لبنان قائلاً : بلغنا أنك لقيت الأمير في الأستانة . فأجابه شوقي : ذا أمير ؟ ذا ملك . قلها وهو ملآن إعجاباً بالأمير مصطفى . فكان وداده لعمى إلى هذه الدرجة مما يزيدنى تعلقاً به .

زيارتي لمصر في أيام الحرب الطرابلسية

ولما هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب سنة ١٩١١ كتبت الجملات في أعمال الرحلة إلى تلك البلاد نجدة لأهلها وفي تسريب الامدادات المالية اليهم، وبرت إلى الأستانة ببرقيات في ذلك المعنى جاءني عايمها الجواب من محمود شوكت باشا ناظر الحربية ببرقية طافحة بالشكر على ما كنت ابدية من المهمة في أمر المدافعة عن الوطن وكان لي يد في استجاشة المصريين لامداد اخوانهم الطرابلسيين سواء فيما كنت أكتبه من المقالات المؤثرة في جريدة المؤيد أو بما كنت أكتبه في رسائل الخاصة إلى بعض أصحابي بمصر . واخيراً كتبوا لي ومن جملتهم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد يقترحون عليّ قدومي إلى مصر لأجل العمل معاً في انجساد طرابلس . وصادف هذا الاقتراح هوى في فؤادي إذ كنت أحدث نفسي من أول يوم هوجت فيه طرابلس بأن أذهب إلى هناك عن طريق مصر . وخلاصة الأمر اني جئت إلى مصر في خبر ليس هنا موضع تفصيله وإنما أتيت به لمناسبة اجتماعي هذه النوبة بشوقي وكيف كان ذلك ؟

استقرار

جئت إلى مصر فعين لي الجناب الخديوي ثالث يوم وصولي موعداً للملاقة وجلست في حضرته أكثر من ساعة نتذاكر في تلك الحوادث المهمة والخطوب المدممة ولقيت من سموه كل حفاوة وانعطف . وما مضت أيام حتى أدب الخديوي مآدبة لكامل باشا وفريد باشا الصديقين السابقين في الدولة فدعاني إليها وكان ممن دعى

أيضا شفيق باشا المؤيد من أعيان الشام، وبصرى بك من أعيان الارناؤوط ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد

وعاد الخديوى فاستدعاني مرة ثالثة وأرادنى على الإقامة بمصر وصرف النظر عن الذهاب الى برقة. أرادنى على ذلك بكل ريدة ، فلم اقتنع وقلت له : انى ماجئت من لبنان إلا قاصدا الجهاد فى طرابلس . فلما يئس من اقناعى بالبقاء فى مصر ، وودعته لاجل السفر ، أراد تكريما منه أن يساعدنى مساعدة مالية فاعتذرت له بأنه لا يلزمى شىء من ذلك وأنه موجود فى جيبى ما يسد حاجتى فى هذه الرحلة فألح فى قبول المساعدة إلحاحا شديدا لم أقدر على صرفه عنه إلا بقولى : انى اذا أنفقت ما لى ومست فى الحاجة الى شىء فلا تأخر عن أن أستمد عاطفة سموكم . وكان هذا الحديث أمام احمد بك العريس ومحمد بك عثمان

فى طريقى الى بنغازى وعرولى

وودعت الجناب الخديوى وذهبت الى الاسكندرية ، ومنها ركبت السكة الحديدية الى مريوط ، ومن آخر محطة لها ركبنا الخيل أنا ومن معى من أتباعى الذين حضروا معى من جبل لبنان . وكانت جمعية الهلال الاحمر المصرى قد عهدت الى بقيادة قافلة ستمائة جمل موقرة أرزاقا للمجاهدين فى برقة وخصصت منها لى ولجاعتى الذين معى محمول ثلاثين جملا موقرة من كل شىء من مأكول وملبوس . فعندما وصلت الى طبرق لقيت فى ذلك الموقع أدهم باشا الحلبي وتركت فى طبرق جانبا من الارزاق للمجاهدين . ولما وصلت الى معسكر عين منصور المشرف على درنه حيث كان القائد العام أنور بك سلمت البعثات المصرية من الهلال الاحمر ما خصت به من نقود وارزاق وحوأج . ولما وصلت الى معسكر بنغازى الذى كان أميره عزيز بك على المصرى سلمت الباقي للبعثات المصرية التى هناك وكان منها الدكتور حافظ عفيفى

أما محمول الثلاثين جملا الذى خصصه الهلال الاحمر ولجنة الاعانة لى أتصرف به كيف شئت فقد وزعته على مشايخ الزوايا السنوسية مثل سيدى العلمى الغهارى شيخ

زاوية البراعة، وسيدى محمد الغزالى شيخ زاوية ترت، وسيدى الدردنى شيخ زاوية شحات وغيرهم. وأهديت جميع ما بقى الى أنور باشا ولم استأثر لنفسى بشيء. وكذلك كانت لجنة الاعانة خصصت لى مائتى جنيه لنفقتى الخاصة فوزعتها اعانات وهدايا لأجل تطيب خواطر المجاهدين وبقيت انفق على نفسى من صلب مالى الذى كان معى منذ برحت منزلى فى جبل لبنان

ولما رجعت الى مصر بعد قضاء سبعة أشهر فى موطن الجهاد كان قد نفذ كل مامعى من النقود، فلم اراجع الجنب الخديوى حسبا وعدته بل ارسالت الى أهلى بأن يبعثوا لى ما يقوم بأودى، لانى كنت ذاهبا الى الاستانة لمذاكرة الدولة فى قضية طرابلس وكيف يجب أن لا تقطع امدادها لها بالطرق الممكنة حتى بعد عقد الصلح مع ايطاليا

استطراد آخر

ليس هذا من موضوع شوقى فى شيء ولكنه جاء استطراداً بسبب يعذرنى الناس فيه، وهو ان كثيرا من الحساد لا يزالون يتشدقون بأنى بقيت فى سويسرة عدة سنوات أقبض ثلاثين جنيها فى الشهر من الخديوى السابق، ويجعلون هذه القضية مطعنا يحاولون به شفاء إحنة صدورهم. والحال أن الخديوى السابق يعترف بأنه هو الذى ارادنى على قبول هذا المرتب الذى كان يراه ضئيلا بالنسبة الى نفقاتى فى القضية العربية الاسلامية عامة واننى انا مع ذلك اعتذرت له بادى ذى بدء عن قبول هذا الراتب وما وطنت النفس على قبوله الا بما شاهدت من الحاحه ومن إلحاح صديقى سليمان بك كنعان اللبناى الذى كان يسفر بينى وبين سمو الخديوى السابق ويبين لى انه ليس من الطمع فى شيء أن يرضى مثلى بمكانه من قضايا عامة معلومة عند كل أحد وفى هذه الغربة المتمطية بصاحبها بقبول مساعدة أمير كبير ذى ثروة طائلة جالس على كرسي إمارة مصر ٢٣ سنة

وكذلك لا ينسى الخديوى السابق انى لما ودعته فى سراى القبة قاصدا موطن

الجهاد في برقة اعتذرت عن قبول أي رفق منه رغم ما راودنيه على القبول ومع معرفتي أنه لا يعيب مجاهدا ذاهبا يقاتل عن قطر متصل بمصر أن يقبل مساعدة من عزيز مصر .

وليس هذا الحديث بذى صلة مع ما نحن بسبيله لولا ما لا يزال الحساد يثرون به في هذا الموضوع بكرة وأصيلاً وما لا يزالون يذيعونه لدى من لا يعرفني في بلادى من انى لا أملك شيئاً ولا أقدر أن أعيش أنا وعائلى من وارداتى الخاصة . وهذا هو أيضاً بهتان صريح مخالف للحسوس يعلمه جميع أهل وطنى ، فليست أدعى كوني من ذوى الثروة الممدودة ولكن ليس بصحيح انى لا أقدر أن أعيش أنا وعائلى من ريع عقاراتى وأملاكى . انه لمستم نحن جسد الخوض في أحاديث كمنه ولكن تحامل الحساد وتبعهم العورات بحملان المرء احياناً على تعقب الكاذبين ولو على كره منه . وأعود الى شوقى فأقول :

جفوة لا سبب لرها

مضت عدة اسابيع على مقامى بمصر قبل أن ذهبت الى برقة ولم اشاهد شوقى . وقد كنا اخوين ، ونحن على البعد ، وكنت «جلادا لأعداء شوقى» وكنت أسترخض كل غال — ومن جملة هذا الغالى صداقة مثل اليازجى — فى سبيل مرضاته ، فما عدا مما بدا ؟

الجواب انى لا أعرف سبب تلك الجفوة ولا موجب تلك النبوة الى هذه الساعة ؛ أغصَّ شوقى بمكانى من الجنب الجديوى وكثرة ما رأى من احتفال سيده بى ؟ أم جاء من ألقى فى أذنه أنى سأزاحمه فى محله من القرب للجنب العالى ؟ أم هو رجل له بدوات وغفلات بينا هو حفى بخلافه وفى مع اخوانه اذا هو معرض عنهم متهاون بحقوق المودة التى بينه وبينهم ؟ أم هو شاعر لا بتقيد بشيء ولا يريد أن يكون خاضعاً لتكاليف الحياة حتى مع أعز أصحابه ؟ أم هناك عذر آخر لا أعرفه ولا يهمنى أن أعرفه ؟

كنت نازلا ضيفا على صديقي المرحوم احمد بك العريس من أعيان بيروت ومن مأموري المعية الخديوية، وكان منزله في العباسية، فلما وصلت الى القاهرة جاء الى الاوتيل الذي نزلت به وأبى أن يتركني فيه ليلة واحدة وسارني الى منزله وأبقيت الرفاق الذين كانوا معي في أحد الفنادق. وكنت أختلف كل يوم الى ادارة المؤيد فأكتب مقالة افتتاحية . وهكذا كان دأبي مدة الاربعين يوما التي سبقت سفرى الى برقة . وقال لى احمد بك العريس ذات يوم : إننى قابلت شوقى وقلت له أفلا تدري أن أخانا الامير هو هنا ؟ قال : نعم . قال العريس : فهل اجتمعت به ؟ قال شوقى كلا لم اشاهده حتى الآن ومرادى أن أقوم له بحفلة تكريم فى منزلى ولما كان ناظر المعارف غائبا هذه الايام فقد أرجأت هذه الحفلة الى ما بعد رجوعه . فقال له العريس : الرجل لا ينتظر منك حفلة تكريم وليس ما بينكما من الاخاء مما يوجب هذه المراسيم ولكن الأشبه بك والاليق بوفائك أن تذهب وتسلم عليه . فقال له شوقى سأفعل . الا انه مضت مدة ولم يأت لزيارتي .

فأخذت القلم فى أحد الايام وكتبت الى شوقى :

أحن إلى شوقى وأهوى لقاءه وأصبو ولكن ما إليه وصول
ويخبرنى قلبى بأن فؤاده كما كان لكن يعتريه ذهول
ووالله ما عمت مصر وفوقها يدانيه عندى صاحب خليل
فشوقى إلى شوقى بقدر محبتى وعندى حساب للعتاب طويل !

فما أجاب شوقى على هذا الخطاب لا يشعر ولا بنثر ولا بفعل . ولكنه بقى يقول لأحمد العريس انه يريد أن يعمل لى حفلة تكريم . وفى أحد الأيام زارنى الأخ خليل بك المطران وهو من العقل وكرم الأخلاق ورعى الذمام بالمقام الذى يندر بين الاخوان وكان يزيدنى حبا له ما كان بينى وبين عمه حبيب باشا المطران من عيون أعيان سورية وبينى وبين أولاده ولا سيما ندره بك المطران من ذمام قديم وود متين . وكنت أعلم ما بين خليل وشوقى من الودة فكشفته بما فى نفسى من أمر شوقى وقلت له : انه لا شىء يمكنه أن يكدر صفو ما بينى وبين شوقى من الودة ولكنى أصبحت أستحى

من الناس أن يعلموا بأن هنا من شهر وأن شوقي لم يتكلم بزيارتي والقادم يزار .
فقال لي الخليل : لا يمكن أني نفسيك شيء من هذه النبوة فشوقي له من هذا التقبيل الشيء .
الكثير ولكننا نحن لا ينبغي أن نحمل ذموله هذا على محمل الهجران .

اجتماع عصر انقطاع

وذهب الخليل وجاءني ثاني يوم وقال لي لنذهب إلى أوتيل كوتنتانتال . فسرنا
إلى هناك فإذا بشوقي ينتظرنا فجلسنا نحن الثلاثة ساعتين من الزمن . وفي ذلك المساء
كان تمثيل رواية صلاح الدين الأيوبي لأجل ضم ريعها إلى الاعانات الخاصة بجرحى
طرابلس الغرب . وكانت أقيمت سوق خيرية للغرض نفسه وأقبل الناس يشترون
منها . وكان الشيخ علي يوسف سألني : أتريد في هذه الليلة أن تنشده شيئاً من الشعر
فانه يحتمل أن تقدم الرواية قصائد تتلى على الجمهور . فقلت للشيخ علي : لا أرى نفسي
هاتفة هذه الأيام بالشعر . وذلك أني كنت في كل صبيحة أكتب في المؤيد مقالة
افتتاحية خمسة أو ستة أعمدة أكتبها قطعة وراء قطعة ومراتب الحروف يصفها بيدي
أنا لم أتته منها . فرجحت في هذه المدة كفة النثر وأشالت كفة الشعر وصرت أخشى
أنى إذا حاولت الشعر لا أبلغ منه درجة الاجادة . فلما اجتمعنا الخليل وشوقي وكاتب
هذه السطور قال لنا الخليل : دعاني أن اتلو عليكم القصيدة التي هيأتها لهذه الليلة .
فقرأ لنا قصيدة رائية مطالعها :

كم بطل مات ولم يسمر تحت هلال الرحمة الأحمر

وأتى عليها كلها وهي كسائر شعر الخليل ، دقة معنى ورقة شعور وجزالة لفظ وعلو
طبقة ، وما كان لقب الخليل بشاعر انقطرين تجوزاً ولا تسامحاً . وأبدت له ملاحظة
على بيت من تلك القصيدة فأسرع بتغييره . فأما أنا وشوقي فكنا لم ننظم شيئاً لتلك
الحفلة ، وسألنا الخليل عما إذا كنا سنقول شيئاً . فقال كل منا : ما هيأت شيئاً . إلا أننا
بعد أن انصرفنا وجئنا أنا إلى مركز الهلال الأحمر وجدت المكان خالياً وقلت
لأستفيدن من هذا السكون وأنظم بضعة أبيات بالأقل . فلما بدأت بالنظم انبعث بي

الشعر وانثالت على الأبيات كأنها تنحدر من صبيب ، فما مضت ساعة إلا وهي في
يدى قصيدة تامة . وأصاب شوقي ما أصابني كما حدثني فيما بعد ، وهو أنه انتبذ موضع
مناجاة بعث به الشعر فنظم قصيدة كما نظمت أنا بدون أن تكون سبقت له نية . ولما
جئنا ملهى الأوبرا جئنا نحن الثلاثة وكل منا قصيدته في جيبه . وكان الخليل قد علم
منا أننا لم نهي شيئاً فما راعه إلا وأنا أنشد قصيدتي وأحد الشعراء ينشد من بعدى
قصيدة شوقي

حفلة السوق الخيرية

التي أقيمت لمعاونة مجاهدى طرابلس وقصائد شوقي والمطران والمؤلف
أما قصيدة المطران فليست تحت يدى لأثبتها في هذا الكتاب ، وأما شوقي
فقال ما بلى :

جبريل هلال في السماء وكبر	واكتب ثواب المحسنين وسطر
سل للفقير على تكرمه الغنى	واطلب مزيداً في الرخاء لموسر
وادمع الذي جعل الهلال شعاره	يفتح على أمم الهلال وينصر
وتول في الهيجاء جنود محمد	واقعد بهم في ذلك المستمطر
يامرجان البر أنت تحية	لله من ملائكة كريم خير
هم زينوك بكل أزهر في الدجى	والله زانك بالقبول الأنور
حسنمت وجوهك في العيون وأشرقت	من كل أبلج في الأكارم أزهر
كثرت عليك أ كفهم في صوتها	فكأنها قطع الغمام المطر
لو يعلمون (السوق) ما حسنة	بيع الحصى في السوق بيع الجوهر
جبريل يعرض والملائك باعة	أين المساوم في الثواب المشتري ؟
ومجاهدين هناك عند معسكر	ومن المهابة بين ألف معسكر
موفين للأوطان بين حياضها	لا يسمحون بها وبين الكوثر

عرب على دين الأبوة في الوغى
ألقوا مصاحبة السيوف وعودوا
يمشون من تحت القذائف نحوها
في أعين الباري وفوق يمينه
من كل ميمون الضماد كأنما
جذلات هينة عليه جراحه
ضمدت بأهداب الجفون وطالما
عواده يتمسحون ببردته
وتكاد من نور الاله حياله

لا يطعنون القرن ما لم ينذر
أخذ المعازل بالقنا المتشجر
لا يسألون عن السعير المطر
جرحى نجاتهم كجرحى خيبر
دم أهل بدر فيه أو دم حيدر
وجراحه في قلب كل غضنفر
ضمدت بأعراف الجياد الضمر
كالوفد مسح بالخطيم الأطهر
تبيض أثناء (الهلال الأحمر)

يا بنت (إلهامى) دعاء معظم
توفيق مصر وأنت أصل في الندى
أنتم جمال الشرق زين ملوكه
لكم الندى آثاره وحديثه
النيل فجر مشرعين وعيلماً
أحييت في فضل الملوك وعزهم
إن الذى قد ردها وأعادها
فنظمت ما نثرت يمينك شاكرًا
إني رأيت على الرجال مظاهراً
وعلمت أن من النساء ذخيرة
لما توليت الهلال رفعتنه
ولكم دعوت نساء مصر لصالح
فكأنهن عقائل من هاشم
وأما قصيدتى فهي هذه :

لسماء عزك في البرية مكبر
وقتاً كما الفرع الكريم العنصر
لا زال بيتكم جمال الأعصر
شغل السميع ونور عين المبصر
وتفجرت يمينك خمسة أبحر
ما مات من أم الخليفة جعفر
في بردتيك أعاد في البحري
لا يحسن الإحسان ما لم يشكر
فعلمت أن الفضل كل المظهر
غير الثناء لنفسها لم تذخر
بين السهبا شرفا وبين المشتري
فنهضن فيه يقطن عائشة أو مري
وكأنك الزهراء فوق المنبر

سلاهل لليههم من حديث لقادم
 وهل وردتهم عن كريم مقامه
 وهل نظروا من نحو برقة موهناً
 تألق في ليلى ظلام وقسطل
 مواطن إخوان تملوا من الردى
 دفاعاً عن الأوطان إن دفاعها
 تهيبهم فيها العدو مهاجماً
 ولين في إقباله من إهابه
 فثاروا وما كانت أرايب رومة
 ونعم سقاة الموت هم كلمات
 وحسبك منهم كل قوم نتمهمو
 وكم وقفوا يستنصفون عدوهم
 فلما رأوا عجز الدليل تطالبوا
 فلم يك مثل السيف كالיום قاضياً
 وما طال نوم السيف إلا تنهت
 أخلاى سوق المنايا مقامة
 فهل لكم في سوق بر ورحمة
 غياتاً لظالم ونصراً لصارخ
 كفى بالهلال الأحمر اليوم هادياً
 وأكرم بأمر المحسنين التي طمى
 سائلة (إلهامى) فمن كل جانب
 وأجدر بقوم أمطرهم هباتها
 وحاشا بلاداً أنتمو عن يمينها
 لقد حوصروا برأوبجر وأمطروا

من الغرب يروى فيه غلة هائم
 سمان المعالي في لطاف النسائم
 فلاحتم لهم منها بروق الصوارم
 فتنشى سحج الدمع من طرف شائم
 كؤوساً تساقوها بملء الحلاقم
 لدى كل قوم كان أولى المسكارم
 فجاء ديبب اللص في ليل قاتم
 وهل يخدع الانسان ابن الاراقم
 من الغرب أ كفاء الليوث الضراغم
 بروق المواضى في رعود الغمام
 أرومة قحطان ونبعة هاشم
 وهزوا من الأملاك جذع المراحم
 لدى الصارم البتار صدق التراجم
 ولا العهد مثل الآن أحلام حالم
 عيون الدواهي منه عن جفن نائم
 تباع حفافها غواالى الجماحم
 تنالون فيها باقيات المغنم
 وضميداً لمجروح وقوتاً لصائم
 لمن حار في ليل من الشك داهم
 جدها كلج العيلم المتلاطم
 لها نسب نحو البحور الخضارم
 بأن يأملوا قرب انفراج المآزم
 يفت بأعضاء لها ومعاصم
 بحمر المنايا من سواد الغنائم

وقد طالما أرهفت حد يراعى فلما تعالى الخطب عدت لصارى
أجل إننا من أمة عربية نكافح عنها عادات الأعاجم
ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا مؤاساتهم فرضاً على كل آدمي
قال شوقي لأحد أصحابه بعد الانصراف انه كان في أثناء إنشاد المنشد لقصيدته
لايفكر إلا بى . وقلت أنا لأحد أصحابى : انى كنت متمثلاً شوقى من أول انشادى
الى آخره .

سفر المؤلف الى حرب طرابلس

وذهبت بعدها الى برقة وبقيت في الجهاد زهاء ثمانية اشهر ورجعت في رمضان
فعيدت في الاسكندرية وانا ضيف على الجناب الخديوى في سراى رأس التين
صااهرة شوقى بعد رجوعه منها وذلك في سراى رأس التين
وشاهدت شوقى نهار العيد عندما اكتظت السراى بوفود المهنيين وبعدها لم
اشاهد شوقى الا في الاستانة لأول نشوب الحرب الكبرى
فسنة اعلان الحرب الكبرى كان الخديوى السابق في الاستانة كما لا يخفى فاطلق
عليه الرصاص شاب مصرى من الوطنيين التهوسين فيجرحه عدة جراحات وذلك امام
الباب العالى والحرس الأتراك الذين كانوا بجانب مركبة الخديوى انحوا على ذلك
الشاب المصرى بالسيوف فقرطبوه وقتلوه في الحال . وهى قصة ليس موضعها هنا
ولكننا اشرنا اليها لمناسبتها مع اجتماعى بشوقى في الاستانة فانه بعد هذه الحادثة قدم الى
الاستانة عدد كبير من المصريين ليعودوا الجناب الخديوى ويظهروا للدولة اهتمامهم به
وكان من هؤلاء احمد شوقى شاعره وريب نعمته

التقاء التهوسين في استانبول في اول الحرب العامة

فبينما انا مرة في باخرة تسير في البوسفور اذ صادفت اخى شوقى فسررت بهذه

المصادفة وقال لى انه كان يريد ان يقابلنى لأجل مسألة ذات بال. قلت له : وما المسألة ؟ فقال لى : انت تدري هذا الحادث الفظيع الذى وقع مع الخديوى وتدرى ايضا انه ساء تأثيره فى مصر وان الذين لا يحبون الخديوى هم انفسهم امتعضوا من هذا الحادث وسواء كانت الدولة لا تعلم اسرار هذه الواقعة او كانت على علم بها فان الواجب عليها ان تتلافى هذا الأمر جمعا لكامة الأمة وتفاديا من الفرقة بين الأستانة ومصر. فقلت له : كل هذا عندى مسلم فماذا تريد ان اصنع لك ؟

افتراح شوقى على المؤلف عبارة السلطان للتخريب

قال لى : ان الخديو لا يزال فى فراشه يعانى آلام جراحه وانه يلبق بمولانا السلطان ان يجبر خاطره الكسير بعيادته له فى قصره بالشبوقلى ، وليس فى هذا ما يحط من قدر السلطان بل فيه ما يستنطق كل الافواه بالثناء عليه والدعاء له ، وما الخديوى الا امير من امرائه بل هو اكبر امرائه ، فزيادة تشريف السلطان للخديو تعود على السلطان نفسه . وابدى شوقى واعاد فى هذا الأمر وقال لى : كل من حادثهم فى هذا الموضوع اجابونى انه ليس لهذه المسألة غيرك فان لم تقدر عليها انت فان يقدر عليها احد . فاجبته بكل ايجاز : بعد يومين تعال الى فاخبرك بما عملت وانا معك فى هذه الفكرة

وفى اليوم التالى ذهبت الى طلعت وكان ناظراً للداخلية فاخبرته بالخبر وقلت له انى مؤيد لهذه الفكرة التى عرضها شوقى ولا ارى حلا لهذه المسألة احسن من هذا. فقال لى طلعت فى اول جوابه : أنجرت هذا الشيخ الكبير (يعنى السلطان) الى محل بعيد مثل الشبوقلى ؟ (لأنه فى آخر البوسفور)

وقبل ان اجيبه على هذه الجملة قطع على الكلام وقال لى : حسن انت صديق للامير سعيد حلیم الصدر الأعظم فاذهب واعرض عليه هذا الاقتراح فانى لا اقدر ان ابت فى مسألة عائدة للعائلة الخديوية بدون علمه ولا يحى هذا منى وانما انت تقدر ان تقنعه فاذا اقتنع فأنا موافق كل الموافقة . كن من هذا على ثقة . فذهبت الى الأمير

هذا هو خلاف ضميرك . وبيننا كنا نتكلم كنا نمشى غير متباعدين عن الجماعة الذين كانوا جالسين . فلما رأوا حديثنا قد طال انسلوا نجياً ونحن دخلنا حينئذ الى القصر . فكلمة الأمير سعيد حليم لى : كلامك هذا خلاف ضميرك رددت عليها بشدة قائلاً له : هذه مسألة غير شخصية وأنا الآن لا أقترح هذا الاقتراح لأجل شخص الخديوى بل لأجل مقامه ولأجل أنه أمير مصر من قبل السلطان الأعظم ومن العجب أنك تما كس هذا الاقتراح وأنت تعلم ما أعلم أنا من ضرورته حوصاً لهذا الشق الذى وقع وباتالى فالخديوى هو ابن عمك وكل شرف يناله هو أنت قسيمه فيه سواء كان لك عدواً أو صديقاً

وكان كلامى بشدة وحدة، وحضره على باشا جلال، بعد أن دخلنا الى القصر ، واشتأز الصدر الأعظم من هذا الاقتراح ومن اصرارى عليه وبقي يجادل بقوله ان التؤيد جريدة الخديوى ترعم أننا نحن أرسلنا نقتل الخديوى فان أرسلنا اليه السلطان يعوده فلا عجب أن يقولوا انه لما لم يمت عادوا الآن يحاولون استرضاءه. فقلت له وقد يئست منه : والله لا أعلم لماذا أغيظك واغيب نفسي في أمر كان الأخلاق بك أنت أن تقترحه . ونهضت منصرفاً وتركته واجماً وظننت بعد أن فصلت من عنده أنى لن أنصافى بعدها معه

ولكن ما مضى أيام حتى صادفته فى بيت خليل بك رئيس مجلس النواب أو المبعوثين كما يقولون: فأراد خليل بك أن يقدمنى للأمير سعيد الصدر الأعظم بصفته رئيساً للمجلس وبصفتى أنا من أعضائه . فضحك الأمير وقال له : أنا أعرفه قبلك بكثير وهذا هو أرسلان اسم على مسمى . يشير إلى معنى هذا الاسم بالتركية والفارسية وهو الأسد، فان هذه اللفظة هى من جملة ألفاظ دخلت بين العرب من القديم وسموا بها أعلاماً . ولو لم يكن سعيد حليم صاحب أخلاق لما كان رضى عني بعد ذلك الجدل العنيف ولكنه كان على الهدى صحيح المبدأ حافظ الهمام، وكان يعلم نبالة مقصدى فى ذلك الاقتراح ولم يكن يسىء الظن بى، فتحمل منى ذلك الكلام الذى كله تأنيب ولم يتغير فكره من جهنى وبقيت بيننا الصداقة مثل ذى قبل لم يشبها شائبة .

سعيد حليم في منزله في بني كوى على شاطئ البوسفور فوجدت عنده ابراهيم بك صاحب زاده ناظر العدلية واسماعيل مشتاق بك رئيس كتاب مجلس الأعيان واشخاصاً آخرين وكلهم جلوس امام قصره على رصيف البحر . وكانوا ينتظرون الخبر من الدردنيل عن وصول الدارعتين غوين وبرسلاو الألمانية اللتين طاردهما الاسطول الأنجليزى والأسطول الأفراسى بيوارج عديدة فاضطرتا ان تقصدا مياه تركيا وعبرتتا الدردنيل فلم يقدر أسطول الحلفاء على العبور وراءهما ولكن فراسة وانجليزية احتجبتا على تركيا بايوأتهما البارجتين الألمانية ولذلك اتفق الأتراك مع الألمان على أن يجيبوا دول الحلفاء بان تركيا اشترت الدارعتين بدلا من الدردنوت رشادية التي كانت تركيا أوصت عليها في معامل إنجلترا وانفقت عليها ملايين من الجنيهات وعند ما حان أوان تسليمها للدولة ضبطها الانجليز قائلين انهم على باب حرب فقد يحتاجون اليها . فدخلت غوين وبرسلاو الى مياه البوسفور ونبس بحريتهما الطرايش الحمر علامة على أنهم دخلوا في خدمة الدولة العثمانية وما كان ذلك إلا بالواطؤ بين تركيا والمانيا قطعاً لحجة الحلفاء

فساعة ذهابي لمواجهة الصدر الأعظم كانت الساعة التي كانوا ينتظرون فيها وصول غوين وبرسلاو الى جنات قلعة . فجلست انتظر انصراف القوم من حضرة الصدر فطال جلوسهم وتبرمت بطول مكثهم لأنه كان عندي ذلك الكلام المهم الذي أريد أن أفضي به الى الصدر وهو قضية عيادة السلطان للخديوى . فلما غابت الشمس قلت للامير سعيد حليم همساً في أذنه : ان لى كلاماً خاصاً معك . فقام من فوره وتنحى جانباً وسألنى عما عندي . فحكيت له الحكاية وأبدت له ضرورة إجابة هذا الرجاء لأن فيه جبراً لمخاطر المصريين وسداً لباب الشقاق واصماً للقال والقال وتطبيعاً لنفس الخديوى الذى جرح أمام الباب العالى وكاد يموت لولا لطف البارى به وتأخر أجله فقال لى : ولماذا تدخل المصريين فى هذا الموضوع ؟ قلت له : لأن الرجل هو خديويهم ولا شك فى أنهم لا يرضون بالاستخفاف بامرهم حتى الذين منهم يكرهونه لا يهون عليهم ما حصل له لأسباب متعددة . فقال لى رحمه الله : انك انت تعرف هذا الرجل معرفة جيدة فقولك

ثم نعود إلى اقتراح شوقي فإنه جاءني بعد يومين يستطلع نتيجة المسمى . فأخبرته بأنني قابلت طلعت واقتنع بكلامي وأسمع في المسألة واسكنه أرساني إلى الصدر الأعظم وربط المسألة به وهذا حتى هذه الساعة يبدى شيئاً من الصعوبة . ولم أزد على هذه الجملة . ولا أخبرت شوقي بما حصل بيني وبين الصدر من الجدل والحدة حتى لا أزيد الفتنة بينه وبين الخديوي، ونحن كننا نسمى في رأب الصدع لا في توسيعه. وكنت في جوابي لشوقي أسفاً كاسفاً إذ كنت أوّل تحقيق أمله وأملّي نخب أملنا نحن الاثنين . وكان الوقت رمضان فدعوت ثاني يوم المرحوم عبد الحميد بك عمار من أعيان المصريين للافطار معي في «بك أوغلي» ورويت له القصة محتجاً منها ما وقع من معارضة الصدر الشديدة ومكتفياً بالقول ان هذه المسألة لا تزال قيد المذاكرة . فذهب عبد الحميد بك عمار الى الخديوي وأخبره بالقصة ولم أعلم كيف كان وقمها عنده ؟

ودخلنا بعد ذلك في الحرب العامة وانقطع كل اتصال عادي بين الدولة وبين مصر وأصبحت لأعلم عن أصحابي بمصر كثيراً ولا قليلاً إلى أن مضى على هذا عام أو عامان فعلمنا أن الانسكايز دفعوا الى مالطة جمّاً غفيراً وأزعجوا آخرين الى أوربة وكان فيمن أزعج عن بلاده الى أوربة أحمد شوقي فالتجمع اسبانية وناح على الاندلس واسكنه خفض هناك في عيشة راضية وبيئة هادية ولم يعد الى وطنه إلا بعد أن انطلقت نار الحرب

لقاء في باريس بعد الحرب العامة

ولم يسعدني القدر بعد ذلك بلقاء أخى شوقي الى سنة ١٩٢٦ وذلك في باريس حيث كان شوقي جاء يقيظ في أوربة وكنت أنا مع زميلي إحسان بك الجابري نتذاكر مع الحكومة الافرنسية بدعوة منها في القضية السورية . وكنا نازين في اوئل «ماجستيك» فما أنا ذات يوم إلا وشوقي قد طلع على بدون ميعاد ولا سابق علم لي بوجوده في باريس . فدخل على قلبي من السرور برؤيته ما يدخل على الأخ الذي غاب عنه أخوه منذ بضعة عشرة سنة ومن لا تسمح له دواعي السياسة أن يراه كلما أراد لانه

من قبل ذلك الحين كانت صدرت الاوامر بمنعى من دخول مصر وفشل كل سعى فى حل هذه العقدة . فكيف يمكننى بعد هذا أن أشاهد شوقى إلا بقدر لا يخطر فى الفكر وفى بلاد الغربه . وقد كان لا يؤذن لى بدخول باريز - والآن لا يؤذن لى فيه - إلا بدعوة خاصة من حكومة فرنسا

هيئات هيئات قد أمست مجاورة أهل العقيق وأمسينا على سرف حتى يمانون والبطحاء منزلنا هذا لعمر ك شمل غير مؤتلف فذهبت أرد الزيارة لشوقى فى الفندق الذى كان فيه من الحى اللاتينى فلم أجده وبينما أنا صادر إذا بمقهى جالس فيه شوقى مع محمد افندى عبد الوهاب وآخرين حسبما تقدم الكلام على هذه النكتة لان هذا المقهى هو المسمى بقهوة داركور وكنا نجلس فيها منذ ست وثلاثين سنة ونحن شبان فعندنا نجلس فيها ونحن شيوخ

فى مقهى الجامع

وأخذنا منذ ذاك نجتمع فى مقهى الجامع حيث كان يوجد رجل أديب باهر الذكاء واسع الرواية فصيح اللهجة اسمه السيد طاهر الصباغ، مكى الأصل تونسى الدار، كان وجوده فى ذلك المقهى باعث نشوة وسبب سلاوة لكل من ينتاب المحل وكان يروى كثيراً من شعر شوقى وغيره من الشعراء المفلحين كما أنه كان يقرأ أكثر مقالاتى ويتتبعها . فكان اذا جئت أنا وشوقى ومحمد عبد الوهاب ومن معنا من الأصحاب وجلسنا للمنادمة وسماع الألحان الشجية على نقرات العود يأخذ السيد طاهر الصباغ الطرب ولا يسعه المكان من الفرح . وكان يتحير كيف يصنع ليوفر أسباب راحتنا وسرورنا، ولكنه فى آخر الأمر عتب على أخى شوقى لكونه وعده بنسخة من ديوانه وذهب من باريز ولم ينجز وعده هذا . فلما كاشفنى بهذه الموجدة أخبرته عن غرائب شوقى فى الدهول وقلت له : لو عرفت أمره فى هذا الشأن لعذرته . وقد توفى الصباغ الى رحمة ربه قبل وفاة شوقى بقليل رحمهما الله تعالى .

شوقي الناثر

ولم يكن شوقي شاعراً فذاً خصب ، بل كان ناثراً بليغاً مترسلاً ضليعاً ، ستين العبارة سلسها ، يقل في الكتاب والمترسلين من يصوغ صياغته . إلا أن شعره قتل نثره . فبينما هو في الشعر الفذ الذي يجري ولا يجري معه اذا هو في النثر أحد جماعة يجري معه الناس مثنى وثلاث ورباع . ولا شك أن كفة نظمه رجحت بكفة نثره رجحانا بينا حمل الناس على الظن بضعف منته في صنعة الكتابة . وليس الأمر كذلك بل كان له نثر رائق وترسل مؤنق وفصول شائقة كانت تخلد في عالم الأدب لو لم تفتك بها قصائده .

كلمة المنفلوطي في شوقي والمؤلف

وقد كان السيد المنفلوطي رحمه الله ، يوم ترجم شعراء العصر وكتابه الممدودين حكم لشوقي بالسبق في ميدان الشعر وجعل لكل واحد من هؤلاء تعريفاً كان آية في الایجاز ، ولما وصل الى كاتب هذه السطور قال : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . ولكنهما كفتان كما رجحت الواحدة أشالت الاخرى . ويظهر أنه راجع نفسه فيما بعد أو أن بعض الناس اعترضوا عليه في قوله عن هذا العاجز : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . فعاد الى نفس العبارة وأثرها الى قوله : لو لم يكن كاتباً فريداً لكان شاعراً مجيداً . فهما كفتان كما رجحت الواحدة أشالت الاخرى . ولست أقصد بهذا النقل شيئاً من الاعتراض عليه ولا أنا ممن يسوقه الغرور الى أن يظن في نفسه أنه أشعر شاعر أو أكتب كاتب ولا أنه كاتب فريد وشاعر مجيد ، وما حفلت في حياتي بشيء من هذه الألقاب ولا احلولى في صدرى ما ينحلنى الناس إياه منها كأمر البيان وما أشبه ذلك والجواد عينه فراره والشاعر لقبه شعره والكاتب سمته بيانه والإنسان حليته عمله ولكني ذكرت عبارة المنفلوطي في عرض الكلام عن كفتي النظم والنثر اللتين إن غلبت إحداها على الأخرى سحقتها في أعين الناس كما جرى لشوقي .

سؤال من نثر سوفي

ومن أحسن ما رأيت لشوقي في باب النثر مقدمته لشوقياته، الطبعة الأولى ، ولا أعلم لماذا حذفوا له تلك المقدمة في الطبعة الثانية ؟ وهو قد برع فيها على الكتاب فضلاً عما برع في ديوانه على الشعراء . ولعل الذي علا فيه ذلك اليوم ذلك العلو هو كونه عالج موضوعاً كان أدري به من غيره، وهو موضوع الشعر الذي كانت مهجته مصوغة منه ومحبوكة به ، فجاء كلامه في هذا المقام بدءاً لا ينظر وفري فرياً يخلد ولا يقلد . انظر الى قوله :

« وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :
فلا هطالت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا
«وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس :

معلتي بالوصل والموت دونه اذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر

» ثم انظر إلى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطف الجنس نحو الجنس وإلى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان واطهارها في أجلى وأجمل صور البيان

« وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة، وحكمة بالغة موقظة ، وكان أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه يرجع اليه كذلك في الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل والاغراء بالفضائل (الى أن يقول)

« اشتغل بالشعر فريق من خول الشعر جنوا وظاهوا قرأهم النادرة وحرموا الاقوام من بعدهم . فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال ودخل في مضيق اللفظ

والصناعة . وبعضهم آثر ظلمات الكافة والتعقيد على نور الابانة والسهولة . ووقف
اخرين بالقريض عنسد القول المأثور « القديم على قدمه » فوصفوا النوق على غير
مآعدها العرب عليه ، وأتوا المنازل من غير أبوابها ، ودخلوا البيداء على سراب .
وانغمس فريق في بحار التشايبه حتى تشابهت عليهم اللجج ، خرجوا منها بالبلل ،
وزعمت عصابة أن أحسن الشعر ما كان بواد والحقيقة بواد فكلا كان بعيدا عن الواقع
منحرفا عن المحسوس مجانباً للمحتمل كان ادنى في اعتقادهم الى الخيال وأجمع للجلال
والجمال ، حتى نشأ عن ذلك الاغراق الثقيل على النفس والغلو البغيض الى العقول السليمة
« على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة . واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة
اذا شاء الملوك ربحت ، واذا شاءوا خسرت . ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر
وذموه بكل لسان ، فزعموه مجلبة الشقاء ، وقالوا انه محسوب على الشعراء يفيض من
أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لاراقة ماء الوجوه . ولقد والله زعموا صدقا
وقالوا حقاً ، وان هذا لجزاء فئة يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج
حرفتهم ، فاذا لم يخلقوا كسدت الحرفة ، وأخطأت الارزاق على أنه يستثنى من
هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضيايع الشعر مديحا في الملوك والأمراء
وثناء على الرؤساء والسكبراء ، وإلا فمن دواوينهم ما يخلق أن يكون المثال المحتذى في
شعر الامم كابن الاحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ، ومتخذة رسلا في
الغرام ووسائل . وكان خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها
وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى ، وأفصح من عتب على الأجابة واشتكى
وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززه ألف نائر على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا
بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو .

«ولا أرى بدا من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الهجاء لأن معجزه لا يزال
يرفع الشعر ويعليه ويفرى الناس به فيجده ويحييه . وحسبك أن المشتغلين بالقريض
عموماً والطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون الا الى غباره ، ولا يجدون الهدى الا
على مناره . ويتمنى أحدهم لو اتبع له ممدوح كممدوحه لمدحه مثل مديحه أو لو وقع

له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه . فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به
وسمعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الايام معروف بالحزم
والاقدام ، قد أثر به قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه فلو قذف بهم في مهاوى
الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا . هذا مع اعترافهم بأن المتنبي صاحب اللواء .
والسباء التي ما طاولتها في البيان سماء . ولو سلم من القورور وسلم الناس من لسانه
لأجلته اجلال الانبياء .

«والحاصل ان ازال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجمل
عنها ، ويتبرأ الشعراء منها . الا ان هناك ملكا كبيرا ما خلقوا الا ليتغنوا بمدحه
ويتغنوا بوصفه ، ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب ، وهذا الملك هو الكون
فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى . يقلب احدى عينيه في الذر ويجعل اخرى في
الذرى . يأسر الطير ويطلقه ويكلم الجراد وينطقه . ويقف على النبات وقفة الطل ويمر
بالعراء مرور الويل . فهناك يفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد
من جهته علما لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء . ومن جهة اخرى يجد من
الشعر مساييا في الهم ومنجيا من الغم وشاغلا اذا أمل الفراغ ومؤنسا اذا تملكك
الوحشة ، ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فاذا الخاطر أسرع والقول أسهل
والقلم أجري والمادة أغزر بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الايدي مؤلفاته . واذا
مات أكبر الناس من بعده مخلفاته . أو لم يكن من الغبن على الشعر والامة العربية
أن يحيا المتنبي مثلا حياته العالية التي بلغ فيها الى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو
مائتي صفحة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه والشعر الباقي هو الحكمة والوصف
للناس ؟

«هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلق وتأتى مثله؟ فأجيب اني قرعت أبواب
الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا
مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء . والقوم في مصر
لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوى

صاحب المقام الاسمى فى البلاد . فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو اليها على درج الاخلاص فى حب صناعتى وإتقانها بقدر الامكان وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله اليها ثم طلبت العلم فى اوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت انى مسئول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وانى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التى لا تحمد ولا تنفد واذا كنت أعتقد أن الاوهام اذا تمكنت من امة كانت لباغى ابادتها كالافعوان . لا يطاق لقاءه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جمعت أبعث بقصائد المديح من أوربا مملوءة من جديد المعانى وحديث الاساليب بقدر الامكان الى أن رفعت الى الخديوى السابق قصيدتى التى اقول فى مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرن الشناء

والتي غزلها فى أول هذا الديوان . وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ فى الجريدة الرسمية وكان يحرق هذه استاذى الشيخ عبد الكريم سلمان فدفعت القصيدة اليه وطلبت منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر فلما بلغنى الخبر لم يزدنى علما بان احتراسى من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة انما كان فى محله وان الزلل معنى اذا انا استعجلت» اجزأنا بهذا القسم من مقدمة (الشوقيات) لان فيه ما يدل على غيره وهو ولا شك قد أجاد هنا ما لم يجد فى مكان آخر من نثره لانه الموضوع الذى هو أملى به وأقوم عليه . وكلما كان الانسان علامة بأمر كان كلامه فيه أوضح وأبين وعنه أسلس واحسن . وقد حاول شوقي أن ينثر وينشر من نثره حتى لا يقال ان الشعر قعد به عن النثر قعودا لا يرضاه لنفسه . فلم يبال الناس نثره ولا تلقوه بالاحتفال اللائق بمثل شوقي، لا لأنه كان ركيكا بحذ ذاته، بل لانه كان غثا فى جانب سمن شعره .

شوقي واليازجى

ولما اطلع العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى على رسالة شوقي المسماة بـ «عذراء الهند» كتب عنها فصلا فى مجلته « البيان » أتذكر منه أنه قال مامعناه: « كيف يرضى انسان بعد أن يكون فى الشعر هو الاول أن يكون فى النثر هو الاخير » ولقد بالغ اليازجى

فى الغض من نثر شوقى وحدانا ذلك وقتئذ برغم صداقتنا الشخصية مع اليازجى ومدايح اليازجى الكثيرة الاثيرة للعائلة الارسلانية من قديم الزمان أن نهيب للدفاع عن شوقى اذ من أظلم الظلم أن يقال ان شوقى كان المجلى فى النظم والسكيت^(١) فى النثر بل كان شوقى من الكتاب البلغاء المبرزين لولا أن شعره سبق نثره بكثير لأنه ما أراد الا أن يكون الشاعر المقدم كما تقدم

وأعجى اليازجى فى مجلته « البيان » على شوقى بنقد شديد فى روايته « عذراء الهند » تجاوز فيه الحد وجار عن القصد . وتعقبه فى ألفاظ وجل زعم انها مما لا يجيزه قواعد العربية وكأنه اراد أن يسقط منزلة شوقى بين الادباء لأن الاديب لا يصح أن يسمى أديبا الا اذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان والا فانه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين مهما سمت معانيه وزهت تصوراته وأثر كلامه ونفذت طعناته ، وذلك أن الناس أجمعوا على أن الفصاحة واللحن لا يجتمعان وأن من نقص حظّه من النحو نقص حظّه من الادب . وليس هذا منحصرأ فى العرب بل هو عند الافرنج أيضا فليس عندهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تذكر . وقال « أناطول فرانس » وهو من أعظم أدباء اوربا : « لا يقول الكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة » وقال بوالو : « أعلى الكتاب كعباً اذا حرم الرسوخ فى اللغة فليس بكاتب » فمهما نبغ شوقى فى الشعر وفاق أقرانه فى سعة التخيل ولطف التأثير فانه كان يكون منقوص البهاء لو آانس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية .

هذا فى الحقيقة لانزاع فيه لو كان شوقى ممن يصدق عليه مثل هذا الوصف . ولكن شوقى كان شاعراً كامل الادوات وكان ريان من العربية الفصحى وكانت لغته متساوية مع فكرته . فاذا سالت عليه شعاب الفكر جاء بكل لفظ فيحل ومعنى بكر وحاط كلامه من قرنه الى قدمه بنحو راسخ ولغة تبعد عنها الركافة فراسخ . فاما أن يجد اليازجى متعلقا لا تنقاد ومتسلقا لا تنقاص فاننا لو عرضنا كلام القوم بأسره على علماء النحو وحفظه اللغة لما عز عليهم ان يجدوا فى كل قول مقالا ولما بعد أن يجدوا فى كل جملة مأخذاً لاسيما اذا كان النحوى أو اللغوى يتقصد إظهار طوله وإثبات إحاطته .

(١) بضم ففتح مشدد، وقد يخفف ، وهو آخر الخلبة . ويقال له ايضا « الفسك »

علم اليازجى وتعلمته

وقد كان اليازجى فى عصرنا من أبصر جهابذة اللغة وأفرس فرسان الانشاء ولم يكن يؤتى من جهة كهذه وكان من أمثان من عرفنا تركيها وأجودهم سبكاً . ولكنه كان مولعاً بالتعنت متهاقناً على التنقص ضيق العطن لا يتردد عن تحجير الواسع مهما اتسع . وكان اذا لم يطلع على مسألة من المسائل نقاها عن العربية وان لم يجد فى المعاجم المعروفة بين أيدينا لفظاً من الالفاظ أسجل بأنه ليس بعربى . ولم يتنبه الى ان اللغة بحر لا ساحل له وأن تحجير الواسع فى العربية ضرب من العبث وانه ما انتقدت عبارة الا رد عنها بتخريج . وانه ليطول بنا أن نصف غلوه فى هذا المذهب ونخصى الكلمات التى كان يمنعها بحجة أنها لم ترد فى المعاجم، ولسكننا من قبيل التمثيل نذكر أنه كان يمنع لفظة «احتعى» الا بمعنى الحمية عن الطعام. فأما احتعى مطاوع حمى فكان يراها خطأ فى اللغة . ولو اطلع على قول عون بن أيوب الانصارى لنحزرجى :

حمت كل واد من تهامة واحتمت بصم القنا والمرهفات البواتر

لعلم انه هو الذى أخطأ بتخطئته للوارد من كلام العرب . وكان يمنع أن يقال « نوال » بمعنى « نيل » ولا يرضى لها تخريجاً ولو قرأ - وأظنه من شعر الحماسة :

أرى الناس يرجون الربيع وانما ربيعى الذى أرجو نوال وصالك

لعلم انه لم يكن على صواب فيما ذهب اليه .

وعابنى مرة فى مجلته باستعمالى « النواقيس » بمعنى الأجراس وذلك لأنه قرأ فى كتب اللغة أن الناقوس إنما هو الخشبة التى يضرب عليها القسيس يدعو بها النصارى للصلاة . فتمسك بهذه الخشبة تمسك أعمى فى قرنة كما يقال ولم يشأ أن يجيز الناقوس للجرس الذى من نحاس وخطأ كل من استعمل ذلك حتى من الكتاب الأولين . واضطررنا أن نرد عليه وأن نفهمه أنه إذا كان يتمسك بكل تحديد نقله علماء اللغة ولا يقبل فيه توسعاً فانه ينتهى الأمر بأن يقاتل نفسه بسلاحه فانه هو يستعمل البيت بمعنى هذا البناء المبنى من الحجر أو من الطين

والحال ان العرب عرفت البيت انه من الوبر ، وانه هو يستعمل الشباك للنافذة التي يكون فيها شباك من حديد ، والحال ان كتب اللغة تعرف الشباك بأنه ماشبك من القصب . فاذا كان التمسك بتعريفات المعاجم اللغوية حتما لا مناص منه فاستعمال الشباك إذا كان من حديد واستعمال البيت اذا كان من حجر أولين يكون إذن غلطاً ! والحقيقة ان هذه الألفاظ ربما كانت في الجاهلية موضوعة لتلك المعاني على الصورة التي كانت فيها أيام البداوة فلما دخل العرب في طور الحضارة والترف استعملوا تلك الألفاظ لما ناسب درجة مدنييتهم . فالبيت الذي كان من شعر صار من حجر وربما من حجر منحوت وبقى يسمى بيتاً لانهم جعلوه بمعنى المأوى ولأن أصله من المبيت فسواء بات الانسان في مأوى من الشعر أو من الحجر فيصح أن يقال لماواه هذا « بيت » . وكذلك الشباك الذي كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبدولاً ، بقي يقال له الشباك بعد أن سخر الله الحديد للناطقين بالضاد ولأنوا منه القضبان . وكذلك الناقوس كان خشبة في أيام الجاهلية فصار في أيام المدنية نحاساً وبقى يقال له « ناقوس » ونطق به الفصحاء . وقلنا لليازجى : إنك تعيب كتاب هذا الزمان في فصل تنشره تباعاً تحت عنوان « لغة الجرائد » ومن قال لك ان الجريدة يعنى بهاهذه الورقة المكتوبة التي تصدر في أوقات معلومة ويقرأها الناس ، فالجريدة بهذا المعنى إنما هي من مواضع الولدين . وإذا بحثت عن تحديد الجريدة في كتب اللغة لم تجد سوى « سعة النخل اليابسة » و « الخيل لا رجالة فيها » فهل أنت تريد أن تقول « لغة سمفات النخل اليابسة ؟ » أو « لغة الخيل لا رجالة فيها » . وتعقبناه ذلك اليوم في الفاظ كثيرة وقد ضاع هذا الفصل من بين أوراقنا

نعم لو كنا نجارى الشيخ ابراهيم اليازجى فيما كان يحجر فيه من واسع اللغة لما كان في لغات العالم أضيق من العربية . ولكن تحجيره هذا إنما كان في انتقاداته لغيره فاذا رجعنا إلى مجلته « الطبيب » التي كان ينشئها في بيروت مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة أو إلى مجلته « البيان » التي كان يصدرها في مصر ، وطالعنا ما فيها من فصول شائقة لا سيما في المواضيع الطبيعية والفلسفية والكيماوية وما أشبه ذلك

فاننا نجد أن اليازجى وسع على نفسه ما حجب على غيره واستعمل الألفاظ العريضة
للمعانى العصرية بأقل ما بينها من ملابسة وسيأتيك فى اعتراضاته على شوقى ما يجزىك
فى معرفة مذهبه فى الانتقاد على غيره

رد المؤلف على اليازجى

فى الدفاع عن شوقى

ليس تحت يدى الآن العدد الذى فيه انتقاد اليازجى لرواية «عذراء الهند» ولو كان
تحت يدى لأثبت هذا الانتقاد برمته وقابلته بردى انا عن شوقى . على أن القارى قد
يعلم من الرد أساس الاعتراض فجوابى فيه الأخذ والرد معه ولهذا نشره نقلا عن
جريدة الاهرام (عدد ٦٠٣٢) المؤرخ فى يوم الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ وفق ٣
رمضان سنة ١٣١٥ أى ان هذا الرد مضى عليه أكثر من سبع وثلاثين سنة:

لعل للعذراء عذرا

أجل العلماء عن أن يقال ليس لهم صداقة وإنما يقال : ان ليس لهم صداقة على العلم
ولا مشايعة على الحكمة ولا تسامح فى الحقائق، وانهم لا يراعون فى الحق خيلا ولا
يرضون من أمانة العلم بدلا قليلا، ولا سيما فى هذا العصر الذى اذا انتسب الى خاصة
تغلب عليه كانت الانتقاد أو انصف بمزية تفضل سائر المزايا فهى التحقيق
ولذلك لا ينبغي أن يحمل انتقاد (البيان) رواية (عذراء الهند) للشاعر المفلح احمد
بك شوقى إلا محمل البحث الأدبى الصرف وأن لا يحسب إلا من قبيل توفية النقد
حقه والقيام بواجب الخدمة العلمية ونعم الغرض هذا وحيد القصد . وبناء على قاعدة
البيان وتشبهاً به والتشبه بمثله فلاح أن تفضل بإبداء بعض خواطر خطرت لى بين هذه
الآنخذ التى أخذها البيان على عذراء الهند، بقدر ما طال الفكر وسع اللحظ، مائلا فى
بعضها الى تصويب رأى البيان وفى البعض الاخر الى تأييد نص الرواية وتاركا الحكم
فى ترجيح الآراء الى أهل الفضل وأرباب الدراية فان كنت أصبت المرمى فى بعض
مارأيت فقد تصاب الرمايا ولولم تستد السواعد، وان كنت واقعا فى الوهم وظهر الحق

في جانب سواى فليس بثقيل الاقرار لثقل شوقى بك وليس بمغلوب من غلبه الشيخ !
أما اعتراض البيان على الاهداء ، في مقام تقديم الرواية الى الجنب الخديوى فهو
من التعمية بحيث لم أفهم وجهه جلياً، وإنما استدلت على أن المقصود عدم مناسبة آتخاف
الجنب العالى برواية موضوعة فيما هي موضوعة فيه . وقد يعتذر ناسج الرواية بأن
ليس ثمة ما يمنع تقديم كتاب يتصل بتاريخ مصر القديم الى عزيز مصر الآن فلكل
من المعارض والمعارض عليه وجهة

وأما أخذه على (السكاكيب وما كتب غراس نعمائك وجنى ظلك ومائك) بأنه
لا يصح الا من تلميذ لأستاذه ولا يصح من مريبوب لولى نعمته وأنه لا يمكن أن
يكون ما كتبه من غراس الامير وأى علاقة بين النعماء والانشاء ؟
فقد استغربه جداً من البيان على سعة اطلاع المعارض وطول باعه ورسوخه في
آداب العرب وكونه قد طالع ولا شك من هذا المعنى شيئاً كثيراً

وان مثله لا يخفى عليه أن الكتاب والشعراء طالما تكلموا في معنى أن انعام
المدوح هو مصدر فصاحة المادح ، وأن در القول مستنبط من بحر الجود

وقالوا أيضاً : ان اللهى تفتح اللهى ، وأظن انا نستغنى في مقام كهذا عن التعزيز
بالشواهد المستفيضة في النظم والنثر خصوصاً لمن كان يحفظ ديوان المتنبي وقد شرحه
وهو غير خال من هذه المعانى . فكيف لا يجوز لعمري لشاعر الخديوى أن يقول لمولاه
وولى نعمته : اننى أنا وما أكتب غراس نعمائك وأى غرابة فيه ؟ بل أى غبار عليه ؟

وأما قوله : (وجنى ظلك ومائك) فلا أنكر أنها بالشعر أليق منها بالنثر لكنها قد
تتمشى مع العبارة الأولى ولا لزوم لخرطها فيما لا يجوز والذهاب لأجل توجيه الاعتراض
الى بعيد من قبيل أن الظل لا يكون سبباً للجنى وأن الغراس في الظل لا يثمر وأنت
تعلم أنه لا غراس بلا ظل وأن الظل غير مانع من الجنى

وليس من الضروري في سجعته كهذه استيفاء جميع العناصر التى تخرج الثمر وذكر
الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين فضلاً عن كون الظل هنا مأخوذاً بالمعنى
المجازى والعبارة كلها مجازية والمجاز هو أصل وضع البيان

وأين نذهب مع ظل الله وظل الأمن وظل العدل وظلال مجردة كثيرة ممتدة في الكلام العربي ليس لما تضاف إليه أدنى حجم

وأما غموض قوله : (فاذا وفق ليرفع اليك عملا فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك) فلا أجادل فيه فان غموضه واضح لكنني أقول : ان شوقي بك غالب عليه الشعر فيحسب نفسه وهو في النثر أنه في النظم بل هو يحكي المتنبي أحيانا في عدم وضوح معانيه لأول وهلة فلا يفهم القارى بعض جملة إلا بعد التأمل بل التعامل

وأما اعتراض (البيان) على (أحب اخوته الكثيرين إلى الأمم) بأنه من التراكيب التي منعها أهل العربية حسبا نص على ذلك الحريري في درة الغواصه وأن رد الخفاجي عليه لا يسلم من الرد فأقول فيه : ان الرد على الخفاجي لا يسلم من الرد أيضا . وهو قد أورد في مقام الدفاع عن جواز هذا التركيب ما يستحق النظر وانه وان لم يكن هنا مقام استيفاء تعليقات كهذه فلا بأس بإيراد بعضها كقولهم : ان أفعال التفضيل قد يخلع عنه ما امتاز عن الصفات ويتجرد المعنى الوصفي .

وكقولهم : انه قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو قولهم : يوسف أحسن اخوته . وكما قالوا ان أفضل اخوته بمعنى أفضل الاخوة على حد قوله تعالى : (يتلونه حق تلاوته) أى حق التلاوة . وأنشدوا قول عبد الرحمن العتيبي :

ياخير اخوانه وأعطفهم
عليهم راضيا وغضبانا

وناهيك ان نحويّا كابن خالويه أجاز هذه العبارة ولا نظن أديبا مثل شوقي بك قد رأينا ما رأينا له من الآثار الدالة على سعة اطلاعه في العربية يقدم على هذا الاستعمال الا وهو يرى رأى الذين أجازوه ويستحيل أن يكون مثله لم يمر به هذه الاعتراضات وردّها .

وأخذ البيان على قوله : (وأمتنهم اعلاقا في القلوب) وذلك بأن الاعلاق جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس وان حقها أن تكون علائق . وقد استغربنا وايم الله صدور ذلك عن لغوى ثقة مثل الشيخ . والاعلاق تأتي جمعا لغير العلق بالكسر فتأتي جمعا للعلق بالتحريك

والعلق يأتي بمعنى البكرة وأداتها

وبمعنى الحبل المعلق بالبكرة

وبمعنى الرشاء مطلقا وأنشد له في لسان العرب : عيونها خزر لصوت الاعلاق
وأظن ان في هذه الألفاظ كلها من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقي أن
يقربها بالمتانة في معنى ارتباط القلوب .

وأما كون (أجندبهم بأزمة الرأي العام) من المواضعات الافرنجية درجت عليها
الجرائد في هذه الأيام وليس كل ما تأتي به يجوز اتباعه ، فلنشرح هذه الجملة :
أما (جذب الزمام) بنفسه فلا يجادلنا البيان بأنه عربي مبين
فلم يبق الا عبارة (الرأي العام) وهي مترجمة عن لغات الافرنج لشيوع هذه
العبارة عندهم وعدم وجود ما يسد مسدها عندنا بالتمام ولننظر ماذا يوجد فيها من المحل
بالفصاحة :

أما الرأي فهو الرأي لا ريب فيه .

وأما اتصافه بالعام فهو كاتصاف البلاء مثلا بالعام فيقال : بلاء عام وبلاء شامل
ويقال : أمر عمم ويفسره أهل اللغة بأنه تام عام .
ويقول شاعر الجاهلية :

يأليت شعري عنك والأمر عمم ما فعل اليوم أويس بالغنم

فان كان يقال : أمر عمم فلماذا لا يقال : رأي عام وأي أثم فيها ؟

وقولك بمعناها (أهواء النفوس) لا يؤدي حقيقة المقصود من قولهم (الرأي
العام)

ومن العجب أن يعترض على مثلها البيان . وهو الذي يكتب في (اللغة والعصر)
ويدعو الى وجوب الوضع قضاء لحاجة العصر ووفاء بالمعاني الحديثة التي لم تكن عند
العرب . على مخالفة رأيه هذا لما عليه جمهور أهل اللغة من أن اللغة سماعية لا قياسية
فكيف يعترض بمردها على (الرأي العام) ؟ وليس فيها خروج عن المألوف ولا وضع
جديد ولا صوغ ولا نحت .

وأنت لو طالعت الكتب العربية، خصوصاً كتب العلم والحكمة، لم تجد لها خالية من استعمالات كثيرة تساقطت—والله أعلم—الى العرب من لغة اليونان والفرس أيام ترجمة كتبهم لعهد العباسيين. فالعربي القديم لم يسلم من هذه المواضع فما ظنك بالعربي الحديث وقد أغارت عليه المعاني الأعجمية من كل جهة حتى اختلط الخابل بالنابل . حتى ان (البيان) نفسه على نقاء لغته لا يسلم منها حين يقول في العدد الأخير الذي صدر فيه الانتقاد (رزى العالم الأدبي) فهي عبارة عصرية محضنة مترجمة بالحرف عن الافرنجية . وليست من أساليب امرئ القيس ولا الأعشى ولا من ترا كيب الامام علي ولا المخضرمين بل ليست من المولد وانما هي من أوضاع الجرائد السيارة ومثلها استعمال (البيان) مثلاً (تنازع البقاء) عصرية محضنة . وتعاير كثيرة ليس هنا محل سردها

أما قول شوقي بك : (مدين لنصحها الثمين) فليس بمعذور فيه عذره في (الرأي العام) التي جرت مجرى الأعلام غير أني عجبت جداً من أخى شوقي كيف لا منى على مثلها أيام اجتماعنا بباريز^(١) ثم عاد هو إلى استعمالها حال كوني أنا تركتها بالرة اكراما للعربية ولخاطره . فإذا طرأ عليه حتى صار يأتي الآن ما كان ينهى عنه ؟ وأما (باحوا بسر المأمورية) فلا يمكن لي أن أعد المأمورية مما لا يصح استعماله والنسبة الى الأسماء من صفة وموصوف اذا لحقتها التاء تفيد المصدرية فيقال : عجبت من حجربة هذا أي من صلابته

وقالوا كثيراً : الفاعلية والمفعولية والشاعرية وهلم جرا وأما استعمال شوقي بك البرهة بمعنى هنيهة فهو استرسال الى اصطلاح العامة أو عدم تحقيق

ومثله الصدفة بمعنى المصادفة فقد غلب استعمال الناس لها وهم لا يعلمون أنها عامية

(١) كان ورد في مقالة لي جملة « أنا مديون بهذا العمل له » أو نحوها وكنا في باريز يوم اجتماعنا سنة ١٨٩٢ فقال لي شوقي : هذا أسلوب افرنجى ينبغي تركه

أوما استعمال (العائلة) بمعنى الأسرة فهو وارد وتخطيطه البيان له مع قوله : كأنها تصحيح قول العامة (عيلة) وكلتاها لا تأتي بهذا المعنى إنما يقال عيال الرجل وعيله بالتشديد فهذا فيه نظر وهو من الحريري في درة الغواص وقد تعقبوه بما اظهر خطأه ، وروى من الحديث (أتخافين العيلة وأناوليهم) وفسروه بالعيال والأرجح ان يكون أطلق على أسرة الرجل العيلة التي هي الفقر لكونهم سبب الفقر كما قيل : قلة العيال احد اليسارين هذا ويجوز ان تكون عائلة بمعنى معولة وليست هذه بأول مرة ورد فيها فاعل بمعنى

مفعول فقد قالوا : ساحل بمعنى مسحول . سحله ماء البحر وهلم جراً وأما (الهوادس) فالحق فيها مع البيان إلا أن تكون غلطة طبع نصل الى قول شوقي بك في التاريخ المصري (ان الحقيقة معه لا يستقر بها خبر فهي عين تارة وأثر تموت بحجر وتحجي بحجر) أقول : هذه عبارة شبيهة بالشعر لكنها من أبلغ ما قرأت في الكلام العربي وأناأسف ان يكون البيان تعمد مثلها في الانتقاد

ومعناها ظاهر اذ لا يخفى ان التاريخ المصري القديم مبني على الآثار الحجرية والكتابات الهيروغليفية وان معظم معول المؤرخين لأعصر الفراعنة هو على هذه الحجارة لفقدهم القرطاس فيه فبينما يتقرر عند المؤرخين شيء يظنونهم الحقيقة الأخيرة بما يطلعون على كتابة في حجر أو نقش على عمود اذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفوناً جاء فيه مالا ينطبق على الأول أو ما فيه زيادة عليه فتغيرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ ولهذا كان ينكشف منه كل يوم شيء جديد وصح أن يقال : ان حجراً من هذه الحجارة يحكي لقديم مصر تاريخاً والى حجر آييمته ولا أرى هذه الجملة في شيء من الطلاسم والرقى كما قال البيان وأعتقد انها لا تشكل على أحد فاما ان كان أغاظ البيان حذفه احدي التارتين من قوله : (فهي عين تارة وأثر) فالخطب يسير ولا بأس به لأجل الايجاز ورشاقة الجملة مع قيام الدليل على التارة المحذوفة

وأما اعتراض (ما عساي ناولتك مما فات التفاتى قدرد) فأوافق البيان فيه من جهة التعمية على أن قوله : عساي ناولتك يتضمن معنى لملى ناولتك فقد حكى الأزهري

عن الليث ان عسى مجري مجرى لعل

وأما قوله : (مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين) فهو غامض أيضا

وأما (تتلاشى متوالية وتواري متلاشية) فهو جائز

وأما عبارة (حوار الماء والتيار) فلم أعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها . ولكنها على كل حال مبهمة . وأما جملة (كان الفصل نيلا خفيفا ثقيلا جفيفا بليلا) الى آخر ما ذكر فهمى بالشعر أليق منها بالثر

وأما (فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشراب) فالعنى فيه ظاهر . وهو أنه لا يفرغ من طلب الشرب . أما قوله (تركه شيئا ليس بالحي) فلا أعلم ماذا تقدمه . وماذا تأخر عنه . لأننى لم أظفر بالرواية مجموعة وما هو منشور منها فى الجريدة لم يحفظ عندى وإنما أقول : انه ان كان ما بعد ليس بالحي قوله : ولا الميت فهو مقبول وإلا فلا .

وأما (أجهد أذنيه) فان كانت بغير معنى أتعب سميه فلا تأنى

غير أن قوله (أخذ النوم يطمئن بمقاعدته من الاجفان) فضلا عن كونه ليس محلا للاعتراض فهو كلام شعري بديع .

وأما (ارتجال النظر) فهو غريب ومثله ارتجال النور ولا مسوغ لذلك . فان كان بعض قول البلاغة من كتاب الافرنج وشعرائهم مثل بوسويه وهوجو مثلا قيل عنهم انهم كانوا يرتجلون الالفاظ لمعانيهم ويستخرون اللغة لمقصودهم وكان الناس لا يكبرون عليهم هذا الأمر بما بهرهم من فصاحتهم وبلاغتهم فلم يكونوا يأتون ما أتى من هذا القبيل عند وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى . وأى مناسبة هنا ؟

أما (الفكك) الذى أخذ على استعماله البيان فى قوله (مانع للفكك) فيقصد به الحركة والانطلاق من قولهم كل شئ أطلقته فقد فككته ويؤيد ذلك تأكيده بقوله : (مفقد للحراك)

وأما (الشراك) فلا يأتى بمعنى حبال الصائد وإنما هى الشرك حسبما قرر البيان

وأما (غير قادر المشيب) فلم أفهمه جيدا .

وأما قوله : (ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه) فأظن

أن المقصود توكل بدون ألف وأن الألف زائدة من غلط الطبع . وإن أدبيا راسخا مثل شوقي بك لا يخفى عليه مثل هذا . وغلط الطبع يقع كثيرا حتى في نفس البيان مع كثرة مراجعات الشيخ في تصحيح المسودات، ألا ترى أنه ورد فيه هذه المرة (بحيث كان كل منها ضاربا ومضروبا) بدل كل منهما .

ثم انتقد البيان بعض أبيات الرواية من جهة الوزن واستغرب وقوع الناظم في مثله مع ما هو معروف به من طول الباع في صناعة الشعر . ولا بد من تصويب قول البيان في انتقاده هذا من الوجه العروضي إلا أنه لا ينكر أن مثل ذلك وقع أيضا للشعراء حتى الفحول منهم وأنه مما لا يقدح في شاعرية شوقي بك لأن الشعر غير الوزن وكل منا يحفظ (وقل أنا وزان وما أنا شاعر) على أن الظاهر من شوقي بك أنه قليل الاحتفال بهذه الصور الظاهرة بل نراه قد يتجدى الافرنج في شعره فلا يبالي مثلا بأمر القوافي التي يكررها كثيرا بالمعنى الواحد كما لاحظته في همزته الشهيرة ولا يعبأ بتجاوزات أخرى أعرفها له وأخشى أن يتبادى به احتقار القيود الشعرية إلى أن ينظم أخيرا بدون قافية نظير شعراء الانكليز

وإني لأعذره عند النظم حينما يكون خاليا به شيطان الشعر مستغرقا في التأمل غائبا في أبحر التخيل في عدم اسفافه إلى تفعيل النسر والسرير وتقطيع كل بيت بل كل شطر مما ينظم .

ولكني أنصحه باجتناب هذه الابحر التي في ركوبها خطر الوقوع وإزباد علماء في العروض مثل الشيخ، والله يعلم أنني ما نظمت عاينها شيئا أرويه ولي ندحة في الطويل والكامل وأشباههما عن هذه الاوزان العرجاء وغنى بر كوب تلك الابحر الواسعة عن هذه الخاليج العوجاء .

هذا ما عن لي إirاده من محاكمة هذين الفاضلين لا أقصد به تهضم جانب أحد منهما ولا الاستطالة على أحد فإني أول من أقر بمجزئه ولي من مودة كل منهما ما يكفل لي تصحيح دعواي هذه .

وبالجملة فلا أبرى البيان من التشديد في مؤاخذه شوق بك والتججير في الواسع كما لا أبرى شاعرنا الشهير من النزوع الى أبدد مذاهب الشعر أحياناً في كتاباته ومن تسلط التأمل على مخيلته الى حد الدهول الذي يجعله أن يقع في فرطات منشؤها السهو وأن يقول مثلاً في بائمة الحرب :

تنام خطوب الملك ان ظل ساهراً وان هو نام استيقظت تتألب
اذ كيف يظل ساهراً والسهو انما يكون في الليل ولا حاجة هنا للمجاز . اذ يمكننا أن نقول : بات ساهراً فلا جرم أن مثل هذا سهو صريح أدى اليه ذلك الدهول^(١)
ومع هذا فلا يحزن أخى شوقي انتقاد البيان ولا غيره فليس في انتقاد ما يكفر باهر حسناته ويخفض من مقامه المنفرد في الشعر .

وليقل القائل ما شاء فلن يزال أحمد شوقي بلبل مصر وصناعة العصر . (شكيب)

أثر المقال في نفس اليازجى

فلما اطلع الشيخ ابراهيم اليازجى على هذا الرد قامت قيامته لأنه كان بلغ به الأمر من الاعتقاد في نفسه في معرفة اللغة الى حد أنه كان لا يطبق لأحد من أبناء عصره عليه اعتراضاً أياً كان، وكان لا يتردد في تجهيل أى عالم في اللغة حتى من المتقدمين الذين هم أئمة هذا الأمر ، وكثيراً ما كان يهزأ بهؤلاء الأئمة ، وذكر له الشيخ سعيد الشرتونى كتاباً لأحد الأدباء المتقدمين ولم يكن هذا المؤلف مشهوراً فقال له الشيخ ابراهيم : ان الكبار ما جاءت عنهم أخبار فكيف هذا ؟ وكان يلتف حول الشيخ ناشئة ومتأدبون يوافقونه على جميع آرائه ولا يجروون على مجادلته في كثير ولا قليل بل يتلقون كل ما يذهب اليه بالتسليم المطلق فانهى الأمر الى أنه اعتقد في نفسه العصمة

(١) كان شوقي بعد أن تفارقنا في باريس يكتبني ويرد على كل كتي الى أن اشطع أخيراً عن الاجابة من دون سبب فانقطعت أنا أيضاً عن مكاتبته وما زلت منقطعاً الى أن جاءني منه ألوكة يقول لي فيها : ما قصرت في جوابك لسبب وانما هو الدهول الذي لا تسلم منه نفسى . فأنا أعرض له هنا بالذهوا الذي اعتذر به .

تقريباً . وعلى كل حال ظن أنه أعلم باللغة من أصحابها وأسبق فيها من قرنائها واعترض مرة على لفظة (ضوضاء) التي وردت في معاقبة الحارث بن حنظلة اليشكري فقال إنها جاءت فيها مؤنثة وإن حقها أن تكون مذكرة . أي أن أحد أصحاب العلاقات السمع أصبح يخطئ في اللغة وأن الشيخ إبراهيم اليازجي من أبناء عصرنا يصحح له خطأه ! وينسى أن النحو والصرف واللغة كل هذا مبني على كلام العرب وليس كلام الله . ومنه عليه

ولا ينكر أن اليازجي كان من علماء اللغة المعدودين ومن كبار الكتاب وأمتهم تركيماً وأحسنهم نسق عبارة كما قلنا . ولكن كان بين ظنه في نفسه والحقيقة ما بين الشرق والمغرب ، فانه كان يخطئ في اللغة كما يخطئ غيره وإن كان خطؤه أقل من خطأ غيره . فلما رأى شاباً مثلي في السابعة والعشرين من العمر وقتئذ يجرؤ على مراجعته في قوله وعلى إظهار خطئه تارة وتعتته أخرى داخله من الامتعاض ما حاد به عن رشده فنشر في مجلته (البيان) رداً شديداً للهجة فيه من بوادر الحدة والألفاظ الوقعية ما لم يكن يليق بشيخ من أهل العلم مثله فضلاً عن عدم مناسبة تلك الطاعن التي خاض فيها للبحث اللغوي الخوض الذي كنا سبيله . فقد خرج عن الموضوع وتعرض لأمور هي أشبه بالمهارة منها بالمناظرة . وتكلم عنا بجمل نفث فيها كل ما كان يترك في صدره من مثل أننا « لم ندس عتبة التحقيق في علم من العلوم » وإن قصارى أمرنا أن نعمد إلى مقالة افرنجية وترجم عنها فتأتي مقالتنا « عربية الحروف كردية الألفاظ » وأنه هو يعلم أن علماء اللغة لا يقيمون لاعتراضاتنا هذه وزناً وأنه هو ليس في شيء من الغالب والمغلوب إلى غير ذلك من آثار السطوة والعنجهية . فلم يظن أحد أن الشيخ يستطار إلى هذا الحد من نقد كتب بأثره ما يكون من الألفاظ وأحوط ما يكون من الأساليب لحفظ مقامه . وقد قسم رده إلى قسمين أحدهما كان بتوقيعه ومن جملة ما زعم فيه أننا سعيينا لدى الحكومة العثمانية في بيروت بمنع مجلته عن دخول سورية خيفة انتشار ما فيها من الرد علينا وقد يجوز أن يكون جاء اليازجي من بعض المفسدين خبر كهذا وسكنه كان بهتاً لا أصل له . ومن الرد ما جعله باسم أحد مريديه

واسمه بدران فيما أتذكر ، وقد حاول أن يتستر وراء توقيع مريده هذا خجلاً من أن يوقع هو على مطاعن شخصية ليس بينها وبين الموضوع الذي كنا فيه أدنى صلة . وقد عاب الناس عمله هذا حتى أقربهم إليه وأغبرهم عليه ، وحسبك أن بشاره بأشأ تقلاً صاحب الأهرام وهو واليازجى من بلدة واحدة (كفر شيمه من لبنان) ومن طائفة واحدة هي الروم الكاثوليك ، قد كتب إلى أوائد أن الناس أنكروا انكاراً شديداً على الشيخ ابراهيم خروجه عن الموضوع ونزوله الى ميدان المهاترة ونشره مقالة من قلمه بامضاء غيره .

وصادت بعد ذلك أمين افندى أفرام البستاني اللبناني وهو من فحول الكتاب معرض البحث عن هذه المناقشة بيننا وبين الشيخ ابراهيم فقال لى : قد توقفت فى الشيخ . فتعنت اليازجى فى انتقاد شوقى لم يحسن له أدنى فائدة بل جنى عليه وعجب الناس من أن تغرب عنه مسائل لا يجادل فيها أحد وعجبوا أكثر من ذلك لبلوغ الحدة منه مبلغاً خرج به عن الحدود .

رد للمؤلف على اليازجى

والآن أعود فأقول جوابى لليازجى على رده هذا :

كل ينقو مما عنده

قد ترددنا فى جواب (البيان) على ما أتى به فى جزئه الأخير مما لا خلاف فى كونه ليس بجواب على خطابنا ، وكنا نحب الامساك عن كل كلمة فى الرد عليه تاركين الحكم فى هذه القضية لأرباب العلم وأهل الذوق السليم ليفتحوها بيننا وبينه بالحق معتقدين أن الحق ليس بضائع عندهم ، ولكننا رأينا السكوت مطلقاً عن جميع ما أورده قد يؤهم بعض من لا تحقيق عنده أن قوله كان الفصل وان الرجل قد أزم وأخفم وأنه إنما يعرف من يم

فاخترنا نشر هذه السطور تعزيزاً لبعض ما حاول دفعه ودفعاً لما اعترض به علينا جديداً . فاما سائر ما أتى به مما هو خارج عن موضوع المناظرة فلو شئنا لكان للأقلام

مجال طويل في رده اليه وعكسه عليه ؛ ولكن ذلك ليس من شأننا فنقول :

أما (الكاتب وما كتب غراس نعمائك) فقد أصبحنا في غنى عن تأييدها بما نتركه لمحفوظ القراء من هذا المعنى الذى لما لم يسع صاحب الرد هذه المرة الا التسليم بوروده عاد يقول : (اعلنا رأيناه مرة) وما رأيناه الا مراراً . بل لقد سمعنا فيه الثل . وناهيك بما أصبح مضرباً للامثال يكون مطروقا

فاما قوله : كان يجب عليك أن تميز بين المادح وقصص المؤرخ ويا ليت شعري هل كانت تلك الرواية خطبة أو قصيدة عدد فيها المؤلف المناقب الخديوية حتى يقال ان نعمة الممدوح كانت على الكاتب عبارة المدح والشكر)

فجوابه . أن قول صاحب الرواية (الكاتب وما كتب) هكذا على اطلاقه لا يفيد (بما كتب) هذه الرواية وحدها

وقد (كتب) غيرها كثيراً وأسأل من المداد جماً مستمداً من كتابته بنعمة مولاه الخديوى التى هو غنى درها وغارق في أبحر آلاء هو ناظم درها . وهو الذى ملأ الآفاق بالمدايح الخديوية وسير أوابد الشعر في هذا البيت الكريم وحسبك أن صفته اللازمة له أنه شاعر الخديوى وقد امتلأ حوض العزيز من نظمه . ولا نعلم بعد هذا من أين جاء الشيخ هذا الشرط الذى قاله وهو أنه يجب أن يكون كل ما يكتبه الكاتب خطبة أو قصيدة يعدد فيها مناقب سيد له منعم عليه حتى يجوز له التحدث بنعمة ذلك السيد . فاذا خرج من ذلك المعرض مرق من فضل مولاه عليه وانقطعت مادة إمداده له فصار محظوراً عليه التحدث بنعمته بين الناس وانقطع ما (بين النعماء والانشاء) كما هو مقتضى كلامه .

وأما (جنى ظلك ومائك) فبعد أن قلنا له ان الظل هنا مجازى لم يبق محل لظهار معارفنا في علم النبات والتشاغل بالظل والجنى وما يتعلق بهما .

فأما قوله : اننا أضفنا الظل الى الغراس لا المهدى اليه فمن يرجع الى عبارتنا الاولى علم مقصودنا وقاس درجة هذه الدعوى من الصحة . كما ان قوله : اننا جعلنا الحرارة عنصراً فحسبنا لتفنيده اعادة عبارتنا بالحرف وهى هذه :

(ليس من الضروري في سجة كهذه استيفاء جميع العناصر التي تخرج الثمر
وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين) نعرضها على جميع علماء العربية .
هل يستفاد منها أن الحرارة مجعولة فيها عنصراً من العناصر ؟ وهل يقول ذلك أحد ؟
الا اذا شاء تحريف الكلام عن مواضعه .

وأما تركيب (زيد أفضل أخوته) فالله يعلم أننا لم نكن ممن يستعمل هذا التركيب
وإنما قصدنا بالدفاع عنه أن مسألة خلافية كهذه قد حصل فيها من الأخذ والرد ما لا
يمكن أن يكون غاب عن أديب راسخ مثل صاحب عذراء الهند وأن شوقي بك لم يعدل
إلى مثل هذا التركيب إلا وهو يرى رأى الدين أجازوه ولم يحجروا فيه وذلك مثل ابن
خالويه وهو يحفظ منه قول العتبي . وقول صاحب البيان : ان ليس هذا مقصود ابن
خالويه لا يسلم به بلا دليل . والخفاجي قد نقل ذلك عنه وهو ممن يعلم ما ينقل ويفهم
ماذا يقول .

ولما كان اعتراض البيان على هذه العبارة مأخوذاً كغيره عن درة الغواص وهي
بين الأيدي وكان الخفاجي قد تمقبه هناك فمن شاء مقابلة الأخذ بالرد فعليه بمراجعة
ذلك في محله ولا حاجة بنا إلى اضاءة الوقت في نقله ومنه يعلم أدلة الفريقين .

وأما (الاعلاق) فلا ينس البيان أنه منعه في البداية قولاً واحداً بمعنى العلاقات
فقال مانصه : (يريد بالاعلاق العلائق وهي لا تأتي بهذا المعنى إنما الاعلاق جمع علق
بالكسر وهو الشيء النفيس . فقتضى كلامه الذي لا يحتمل أدنى مغالطة ان الاعلاق
هي النفائس منحصرة في هذا المعنى بدليل قوله : (إنما) فقلنا له : بل الاعلاق تأتي
بغير معنى النفائس فتأتي جمعاً للعلق محرّكة وهذا يأتي بمعنى البكرة والحبل المعلق بالبكرة
ومعنى الرشاء مطلقاً وأنشدناه هذا الشطر من اللسان

* عيونها خزر لصوت الاعلاق *

دليلاً على عدم انحصار الاعلاق في معنى النفائس كما ذهب إليه ، فظاهر أن صوت
الاعلاق في هذا الشطر لم يقصد به صوت الأشياء النفيسة
ثم قلنا في هذه الأدوات وهي البكرة والحبل من معنى التعليق والعلاقة ما يسد

ارتباطها بالقلوب ، وذلك لأن المجاز يقع لأول ملابسة ، وهنا الملابسة شديدة . فكان من الشيخ أنه طوى كشحاً على كلامنا هذا ومال الى التهكم بتأويل الاعلاق بالجمال والبكرات وأخذ يترحم على عشاق العرب الذين لم يسبقونا الى هذا المعنى بزعمه ولا ذكره في أغزاهم الرقيقة وقال : (وإذا لكان لهم ما يصطادون به المحبوب قسراً إذا سمع صرير تلك البكرة فحزرت عيناه دهشاً) الى آخر ما ذكر .

ومقتضاه أنه يلزم تفسير اللفظ بمعناه الحقيقي ونفى المجاز من اللغة العربية حال كون المجاز هو فصاحتها وبيانها . وعليه فصار يلزم من الآن فصاعداً إذا أردنا تفسير (أذاقها الله لباس الجوع) أن نتخيل للجوع ثياباً وتتصور تلك الثياب في الافواه وقد أنحت عليها اللسان تلو كها

وإذا قيل : حمى الوطيس . امتنع أن نفهم منه سوى مجرد حمى التنور وإذا قيل : جناح الذل ، تبادر الى الذهن جناح ذو قوادم وخواف فيه من الريش طائل وشكير . وإذا قيل عن رجل : انه بحر العلم ، وجب أن تلتطم بين جوانحه الامواج وتمر فوق رأسه السفن وإذا قال البيان في نفس عبارته التي تهكمنا بها (يصطادون المحبوب) بمعنى يحتذبونه تعين أن يكون المحبوب غزلاً قد صيد بشرك نصب له أو سهم شك فؤاده فأخذ وسلخ وشوى على النار كما يفعل بالصيد ! وإلا فالمحبوب لا يصاد في الحقيقة . وهكذا نمضي في تفسير العربي كله على هذا النمط . وناهيك ما يتسم لدينا حينئذ من مجال الهزوء لا بأعلاق القلوب فقط بل بأكثر معاني هذه اللغة الشريفة ، مع أن الكلام كما لا يخفى على واسع علم العترض ، منه حقيقة ومنه مجاز . والحقيقة هي اللفظ الدال على ما وضع له في الاصل . والمجاز هو ما أريد به غير المعنى الموضوع في الاصل ، وهو من جاز أى انتقل كأنما يريدون به الانتقال من مقصد الى آخر .

فإذا قيل : زيد أسد حال كون زيد إنساناً والأسد حيوان كأنه قد فصل المجاز من الانسانية الى الاسدية لوصلة بينهما هي الشجاعة .

أو قيل : زيد بحر فالوصلة هي الكرم وهذا هو أهم أبواب البيان بل قال بعضهم : إنه علم البيان بأجمعه .

ومن العجب أن المسمى بالبيان اليوم يوجب تفسير كل لفظ بمعناه الاصلى متخيلاً
صريح البكر وذعر المحبوب من ذلك الصريح المنكر مما لا محمل له إذ الملاسة بين الحبال
والقلوب في معنى الارتباط تدرك بأدنى تأمل .
وأما ترجمه على عشاق العرب الذين لم يسبقونا الى هذا المعنى فرحم الله من لم يتركوا
معنى إلا وقد سبقونا اليه .

وهل لنا من عاشق أرق غزلاً وأفصح لهجة من مجنون ليلى فهو الذى يقول :
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا
ومجنون ليلى هذا حجة وقد استشهدوا بكلامه فى كتب النحو . وقال الشريف
الرضي : وهو الذى يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه .

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم وأعلاق وجدى باقيات كما هيا
وأظن أننا أتينا من هذه النصوص بما فيه مقنع ولم يبق جدال فى كون (أمتهنم
اعلاقا فى القلوب) جائزة سائغة وان الاعلاق تأتى بمعنى العلائق أيضاً ، إلا إذا كان
المعرض أعلم بلغة مضر من مجنون ليلى والشريف الموسوى وحينئذ لا كلام لنا !
نصل الى (الراى العام) وقد أوردنا رأينا فيها ولا نزال نقول : ان قول الشيخ
(اهواء النفوس) لا يؤدى حقيقة معناها وانه حيث كان لا يوجد فيها شيء يخالف
القواعد فلا بأس بالتسامح فيها وتهوينا الامر قسناها على الامر العام وقلنا : قلوا
أمر عمم وفسروه بأنه عام .

فأجابنا بأننا خلطنا بين العمم والعام فان نكن خلطنا فقد خلط لسان العرب
والأصح أن ابن منظور كان يعلم ماذا يقول وهو الذى فسر أمر عمم بقوله : أى عام
تمام فلم نعلم ماوجه الخلط بينهما ؟

ثم انه هذه المرة لم يتعرض (للعائلة) وخصص نفيه بالعيلة ورد قول الخفاجى
بجوازها بحجة أن كل مستند الخفاجى هو الحديث (أتخافين العيلة وأنا وليهم)
فقال : ان الذى فسره بالعيال هو ابن الاثير وحده ، وان قول ابن الاثير لا
يسلم به حتى نعلم قرآن هذا الحديث . فقد كان صاحب البيان فى غنى عن تخطئة

مثل ابن الأثير في علم الحديث والرجل من اكابر المحدثين وكتابه (النهاية في غريب الحديث) أشهر من أن يذكر . وهب أن صاحب البيان قد طالع في حواشي الكتب بعض الاحاديث فهو علم لا بد فيه من الاسانيد ولا يصح تلقيه بلا رواية . فتعرض المتعرض لجرح قول ابن الاثير في هذا المعنى واقع بغير محله كما لا يخفى

على أن الخفاجي لم يقتصر في تأييد تلك اللفظة على إيراد هذا الحديث وحده بل قال : لعلمهم أخذوها من قوله : عالة عيلة إذا قام برزقه . أو لعلمها أطلقت على أسرة لكونهم سبب العيلة أي الفقر أي من باب تسمية الشيء بما يؤول اليه . وفي توجيهه هذا مالا يخفى من الوجاهة . ولا يؤاخذني قارئ بانني استعملت (العيلة) في كلامي . بمعنى الاسرة لانها من الالفاظ التي وقع فيها الرأى والتي أغنانى الله عنها بأفصح منها فان قيل : فلماذا تحريت الدفاع عن استعمالها مع أنها مما لا يرضاه لنفسك ؟

أجبت : على المنتقد الذي ينصب نفسه (لارشاد الخاصة) اذا شاء الانتقاد أن يرينا وري زنده ولا يعتمد الى ما قد نسج عليه العناكب من المآخذ التي صارت الى صغار الطلبة فضلا عن خاصة الكتاب ، فإظهار الطول فيما لا مزية فيه يحدو المرء الى المقابلة بالمثل ، خصوصاً في علم العربية الذي لا عبث فيه اكثر من التحجير في الواسع والقطع بعدم جواز هذا وعدم ورود ذلك ظنا بأن اللغة قد انتهت عند الذي طالعهنا وأما قول شوقي بك في التاريخ المصري : (ان الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهي عين تارة وأثر ، تموت بحجر وتحيا بحجر) فقد كان قول البيان فيه هكذا بالحرف : (انظر ماذا أراد بقوله تموت بحجر وماذا يفهم بالحجر هنا ؟ وهل هذا إلا ضرب من الرقى وشكل من أشكال الحروف ؟)

فلما أوضحنا لك أن العبارة ليست ضرباً من الرقى ولا شكلاً مما ذكر ضرب عن الجملة صفحاً وجاء بمجادلنا في توجيه المعنى من جهة التاريخ المصري محاولاً أن يوقعنا في التناقض حال كون كلامنا هناك نيراً

وملخصه أن حقائق التاريخ المصري غير ثابتة لاختلاف ما ينكشف كل يوم من الآثار الحجرية التي قد ينقض منها تال سابقاً ثم يأتي ما يؤيد الذي كان قد نقض

فهو لذلك بين موت وحياة مما لا يحتاج فهمه الى امعان.

هذا وقد بقيت هناك اعتراضات منها ما سكت البيان عنه علامة التسليم به مثل ما أوردناه على (المأمورية) وقوله : (أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الاجفان) ومنها ما لم يجاوبنا عليه بغير التهمك والازدراء وهو سبيل سهل لمن أراد سلوكه لكنه ليس سبيل الناظرة ولا يغنى صاحبه من الحجة شيئاً .

الا أنه أخذ علينا قولنا : (يمكن لي) في محل (يمكنني) بحجة أن هذا الفعل لا يتعدى باللام .

وفي الجواب لا نقول له : ان اللام تأتي لجرد التوكيد ولتقوية المعنى دون العامل ، كما قالوا (ملأ - أجاز لمسلم ومعاهد) وربما نستغنى عن أن نقول له ان اللام تأتي للاختصاص كما في قولهم (شكرت له) في مكان (شكرته) وكما قرأت في أحد التواريخ الكبيرة (بايعوا له) والاصل (بايعوه)

ولو شئنا قلنا له انه لما كانت الافعال التي تعلقها بمفعولها ما بين الوضوح والخفاء قد تعدى باللام كما نص على ذلك الفخر الرازي وكان يمكن اعتبار فعل (أمكن) من هذا القبيل فلا حرج في مجيئه متعدياً باللام

ولكننا نقول : ان (يمكن لي) بمعنى (يتيسر لي) وذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل مرادف له . فان الافعال قد يتضمن بعضها معنى بعض . الا ترى انه لما قال الكوفيون بتضمين الحروف بعضها معنى بعض . أنكر عليهم البصريون ذلك وقالوا ان التضمين للافعال لا للحروف وأولوا شربت بماء البحر بمعنى رويت « فأمكن لي » متضمنة معنى يتيسر لي ، أو تهياً لي ، كما أن لفظة (ممكنة) في قول عنقرة :

* والشاة ممكنة لمن هو مرتعى *

هي بمعنى متيسرة . وبعد هذا كله فرب ان الاولى أن يقال (يمكنني) فاعلى الشيخ إلا أن يقيسها ببعض تجوزاته كقوله مثلاً : (زحف عليه) بدل (زحف اليه) وكقوله : (ينيف عن كذا) محل (ينيف على كذا) وكقوله : (كما أشار) والواجب

(كما أشار إليه) وهم نجرا .

ولكن نحب أن نخبرنا أن الشيخ ما معنى (الصحافة) في قوله في تلك الجملة التي افترض بها على ما يمكن في (غمان الصحافة) ؟ فقد لاح لنا أنه يقصد بها الكتابة في الصحف أو مسمة تحرير الجرائد صكاً مشى على ذلك بعض المعاصرين .

ومن كان يرد في كلامه مثل (الصحافة) بهذا المعنى ، ومثل : (العالم الأدبي) غاي حق له في تخطئة (رأي المصنف) وادعاء تفكيك الكلام من اللوازمات الجذبة .

نعم فربما لأجل حجة (أنشكر) الزيادة في الهرم بالضم من غلط مرتب الحروف ونسى أننا ننظر في النسخة ونزيتنا وبينه أبحراً فلا ييسر لنا تصحيح للسودت بخاتنا كما ينبغي له ود فترتب ما شاء من المرات . والظاهر أن الشيخ لا يعلم بذات الطبع إلا إذا وقع في كلامه .

وأما تهديده إيانا بلامرأخ في لمراد أغسلنا (آخر بني سراج) فلا مانع من أن نكون وقتنا في الخط في ابن سراج وفي غير ابن سراج لأنه ليس أحد بمصوم من الخطأ ، ولكن سبحانه الذي أوقعنا ولم يستثن غيرنا . وإن شاء أمرنا إليه من قوله «^١ ما أهداه من قبلة فبنا » .

حتى أننا لا نفر من وجه الحق ونحن نفر بكل ما ورد علينا منه وكان الأول من يضم نفسه في منازل أهل التحقيق أن يترف باطلاً . وقد أورد له النص والشاهد وأن يحتذى مثله السوء انفتنا في حيننا نأخذ السبب وأثره وهو أحدث من مدافقة على الجوز . أن لا يكبو ولا هفوة العالم مسطرة له من رتبة فضله خصوصاً لما عرف ختمه ونزك قول النائم :

أبذهب يوم واحد ابن أسامة بساخ أبي وحسن بلاتيا

نقينا شئ ليس من باب الناظرة في اللغة وإكته من باب الحقيقة وهو أن صاحب اليانك أهمنا بانسي في منع الجزء الأخير منه توهم أن فيه رداً علينا فضلاً عن كوننا علمنا من مصر في نفس البريد التي ورد فيه ذلك الجزء . أن ليس

فيه شيء علينا وأصبحنا في أمن من ذلك الخطر يعلم الله وأولياء الأمور أننا براء
من هذه التهمة

هذا وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها والله المسئول أن يبصرنا ذنوبنا ورحم
الله من أهدى الينا عيوبنا . اهـ

المؤلف يرثي اليازجي

وكانت هذه المناقشة سببا لانقطاع ما بيننا من ود قديم موروث ومات اليازجي
عفا الله عنه وليست بيني وبينه صلة . وإنما رثيته عند وفاته ، رعيًا لذمام أبيه الشيخ
نصيف اليازجي شاعر سورية في وقته الذي لو اجتمع ما قاله في الأرسلايين . من
الشعر لسكان ديوانا مستقلا ، وتذكراً لما كان بيني وبينه من ود سابق وانحناء أمام
حادث الموت الذي تذهب عنده الأحقاد وقد قلت في رثائه :

قصار كل فتى مستكمل الخطر أن ينحني لقضاء الله والقدر
وأن يقابل صرف الدهر كيف جرى بالخلق في عبرات العين والمعبر
وأن يرى غيره مع عينه شرعا فليس بينهما فرق سوى الصور
فما أرى ناعيا حبا بمفرده إلا نعي لو عقلنا سائر البشر
الى أن أقول :

كفى بريب المنايا واعظا وجزى تخالف الناس في الأهواء حين حيوا
وقد يلج ببعض كيد شائته وقد يحاول في أعدائه ظفراً
كم وترت قوس ضغن كف ذى ترة والدمع يغسل ما بالقلب من وضر
لو أنصف اليازجي دمع لكان له أو لو درت نار إبراهيم مصرعه
رشدا لمن كان من دنيا على غرر وجمع الموت منهم كل منتشر
ولو درى لصفا صفوا بلا كدر وانه بين ناب الموت والظفر
فأذهب الموت عزم الوتر والوتر كما يزول غبار الأرض بالمطر
كعله بحر دمع غير منحصر لأصبحت من جوى لفاححة الشرر

أودى الردى حينما أودى بمهجته بأكتب الوقت من بدو ومن حضر
بذى الضياء تكاد العمى تبصره وذى البيان الذى يشفى من الحصر
من بعد ما خمدت ريح البيان غدت له به دولة وضاحية الفرر
عبارة لا ترى فى رصفها قلقاً كالعدل لم يشك من طول ولا قصر
لا تلتقى موضعاً فيها له بدل كأنما جاءت المعنى على قدر
بكت له اللغة الفصحى وحق له بكاء كل كلام جاء من مضر
ياراحلا شكت الأقلام غربته وليس بعدك منها غير منكسر
نهجت فى بلغاء الأرض واردة بالحق لولاك لم تسفر ولم تنر
إليك حقك لا ظلم ولا سرف لا ينكر الشمس الا فاقد البصر
وان يؤاخذك نقاد ببادرة فليس يرحم الا شمر الشجر
وقد يعاب الذى فى البدر من كلف وليس يسلب معنى الحسن فى القمر
إليك منى تحيمات برقها كسحر لفظك أو كالنفخ فى السحر
فاذهب عليك سلام الله من رجل ماضى الحشاشة لكن خالد الأثر

... فهذا ما كان بينى وبين الشيخ اليازجى من الوحشة بعد الولاء ومن القطيعة
بعد الاتصال ، بسبب شوقى .

عود الى شوقى

وبعد أن قفل شوقى الى مصر ورد عنه كلام فى جريدة الشورى للكتاب الوطنى
المجاهد السيد محمد على الطاهر وذلك بمناسبة اجتماعنا فى المقهى العربى فى باريس .
فجاء شوقى وزار الاستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق وألقى
إليه كلاماً جاء بعده فى كوكب الشرق عدده المؤرخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥
وفقى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ المقال الذى يلى :

اصمحر شوقي بك

بين الأمير والأستاذ

زارنا بالأمس سعادة أمير الشعراء شوقي بك ، فانتبهنا هذه الفرصة لنرى رأيه فيما ورد عنه في (كوكب) أمس منقولاً عن جريدة الشورى الغراء ؛ وما كدنا نتم السؤال حتى تبسم ضاحكاً ثم قل : أنا شاكر لهم أن يضعوني بين بحاثين ، سعادة الأمير شكيب وسعادة الأستاذ زكي باشا ، على أني لا يفوتني أن أتقبل مداعبات الأمير على العين والرأس ، فأقل حق الصداقة علينا أن نفتتح صدورنا لدعابة الصديق القديم ، وأنا سعيد للفرصة التي مهدتوها لي لأشكر الأمير ، فهو أول من دعاني لزيارة المطعم التونسي وقهوة مع حضرات أعضاء الوفد السوري المحترمين بباريس كان يومنا هناك أبهج من أن ينسى بفضل ما بذله أصحاب المطعم من همه جديدة بالثناء خصوصاً الأديب الفاضل طاهر افندي الصباغ ، وهو راوية من رواي كان ينشد شعري الحاضرين

وإذا كان الشيء بالشئ يذكر ، فقد علمت وأنا هناك من أعيان التونسيين ، أنه على أثر اشاعة كانت قد شاعت عن عزمي على زيارة تونس في الصيف الماضي ، استعد اخواننا التونسيون للقاء استعداداً أعده فوق قدرتي . حتى بلغ من احد سراتهم الأدباء أن هيا لي منزلاً نفخاً أثمه كله بأثاث جديد

وأنا لا يسمنى إلا أن أحيي هذه الروح الشرقية الكريمة ، وأتمنى توثيق عراها بين أمم الشرق على الدوام

وأخص بشكري الامة التونسية مثال النهضة والرقى في شمال أفريقيا

فبعد ذلك نشرت في « كوكب الشرق » في العدد المؤرخ في ٤ جمادى الآخرة

سنة ١٣٤٥ وفق ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٦ مقالة هي هذه :

مراجعة بين شوقي والمؤلف

من دعابة الى اخرى

حيث ان أمير الشعراء قد فتح صدره لدعابة صديقه القديم هذا فلنترك الآن الأستاذ العلامة احمد زكى باشا ولنعد الى أميرنا احمد شوقي بك نجاذبه بقيسة الحبلى يقول شوقي بك أنى أنا الذى بدأ بدعوته الى المطعم التونسى وقهوته مع أعضاء الوفد السورى المحترمين ويشكر هذا الداعى

وأنا أتباهى بهذه الدعوة وأشكر لمجيبها حسن التلمية فقد كنت أول من دعا وكان هو أول من لبى . وكان يوما مشرقا سرورا وأنسا ، وكما قال أبهج من أن ينسى . لا بل كان كيوم دارة جلجل . ويعلم الله أن ملاقة اخى شوقي بغية تقصد ومنهل يورد وانى لأحج اليها من بلد الى بلد فكيف وهى على طرف الثام وانى لأحن الى لقاء هذا الأخ الحميم ولو فى رمضان بعد العصر فكيف على كسكس وشكشوكة وما شاكلها من الطعام

ولست بأقل شكراً منه للأديب الفاضل السيد طاهر الصباغ الذى رأينا من حفاوته ونحافة ذوقه ، وسرعة لحظه ، وشدة حفظه ؛ ما يعد نادراً فى بابيه . ويقول الأخ الأكبر - وشوقي بحسب تاريخ ولادته أكبر منى بسنة - ان طاهر افندى الموما اليه راوية من رواة شعره ، وانه كان ينشد شعره الحاضرين واقول كلنا رواة لشعر شوقي ننشده الحاضرين ونزهو به على الغابرين ونقول :

كم ترك الأولون للآخرين . ولعمري ان الدهر من رواة شعر شوقي ، أفيكون الصباغ أصعب من الدهر ؟
قال أبو الطيب :

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
ومن يأتى يصح أن يخلف المتنبى اليوم ؟ أولها أحمد وآخرها أحمد !
أفلم يسألنى سائل منذ عشرين سنة (ترانى لا أزال متمسكا بالتواريخ) عن رأى

في أشعر شعراء العصر فاجبته : وجوابي منشور في مجلة سر كيس - وقد تكرر نشره في المؤيد - بأن المقلقين منهم كثيرون وذكرت السكاظمي والرصافي والمطران وغيرهم ولكني قلت ان البارودي وشوقي وحافظ ابراهيم هم الثلاثة السابقون في الحلية ، وما زلت أقول أنهم ثالث الشعر الأقدس ، وذلك كما كان أبو تمام والمتنبي وأبو عبادة البحتري في الماضي لات الشعر وعزاه ومنااته ، وهكذا لقبهم صاحب المثل السائر ، وشبهت الباروي بحبيب لما بينهما من التناسب في علو النفس وجزالة اللفظ وتدفع القول حتى كأنه العارض المنصب ، وشبهت أحمد شوقي بأحمد بن الحسين الكندي لما بينهما من التناسب في دقة المعاني وكثرة الحكم والجرى مجرى الأمثال ورأيت في حافظ كثيراً مما في البحتري من حسن الصنعة وعذوبة الألفاظ وطلاوة النسيج وملكة الانسجام

فلا عجب ان روى الدهر لشوقي كما روى المتنبي ، وكما من أبيات لشوقي يستشهد بها الكتاب بل العوام وهم لا يعلمون أصلها . ومن وجوه شبه أحمد شوقي بالمتنبي أن أبا الطيب استشهد الناس بشعره في عصره ودارت أمثاله وأبياته اليتائم على عذبات الألسن ورؤوس الأقلام شرقاً وغرباً وهو بعد في الحياة ، وان شوقي له شعر كثير لا يأخذه الاحصاء يستشهد به الخاص والعام ويدور على الألسن والأقلام وهو يعد في الحياة لا بل في الشباب ان جاز لنا أن نقول هذا .

الا أني سمعت السيد طاهر الصباغ يروي لحافظ مثلاً يروي لشوقي وربما أكثر فلا ينبغي أن أغفل ذلك لأن التحري واجب في الرواية حتى عن الرواية ولكن قد بالغ شوقي في الاعتماد على ذاكرة صاحبنا طاهر الصباغ وفي الاعتقاد باحاطته بشعره الى أن زهل عن إهدائه إياه ديوانه (الشوقيات) بعد أن وعده به وقال له : إني كتبت اسمك على النسخة . وهو عقد عجل شوقي فسخه لذهابه ان بين صدغى الصباغ من ديوانه نسخة

وذهب شوقي الى (فيشى) وقد ظن الصباغ أنه (فايش) في وعده بالكتاب ، وبقيت أنا وحدي عرضة للعتاب ، كأنني أنا وشوقي متكافلان متضامنان (ليسمح لنا

« الوحيد » بالتكافل والتضامن فقد صارتا من الاستعمالات الضرورية ولو لم يرد في كتب اللغة تضامن فلان وفلان ولا ورد من الكفالة إلا قولهم فلان مكافل لفلان (بمعنى مهاد) ولا غرو فبين الأدباء رحم وذمام ، ولا سيما إذا كانوا إخوانا من قديم الزمان . فصرت أسمع غمزة بعد غمزة ، وكثرت الحروف التي فيها همزة ، وخشيت أن يتذكر صاحبنا الآية الكريمة في الشعراء وهي التي فيها (يتبعهم الغاوون) الى آخر ما وصفهم تعالى به مما ينتهي بالآلف والنون .

وان شوقي سيدهم وحامل لوأثمهم يوم القيامة ، فكنت أؤكد للأديب الصباغ وهو عربي قح مولده الحجاز ، ان لا بد لذلك الوعد من الانجاز ، وان عليه أن ينتظر وصول شوقي بك الى مصر ، فالأمور بخواتيمها ، والقصائد بقوافيها ، والنسخة الموعود بها آتية لا ريب فيها .

كنا في العود الذي وعدنا به ولم نسمعه ، فصرنا في النسخة التي انتظرها الصباغ ولم يرها ، ولا شك عندي أن العود تعطل كما قال الأخ ، وأن النسخة أهديت الى أناس كانوا مستعجلين ، إلا أنى لست بشارك حتى في هذا العود إن شاء الله في كرمه ابن هاني نفسه ، فقد كان أمير الشعراء وعد بليلة طرب من أجل بئناء ذهابي الى حرب طرابلس الغرب (١٥ عاما) والبدوى أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال انه بكر . أما السيد طاهر الصباغ فانه بدوى أكثر منى ، فان لم يعجل اليه بالنسخة فلا تغنى بعد ذلك المكتبة بأسرها

أما مارواه بعضهم من وجود الشرب والرقص في ذلك المقهى العربى بباريس فلا نصيب له من الصحة ، بل مشرب الزايرين قهوة البن وهي التي قال فيها عبد الغنى النابلسي رضى الله عنه :

قهوة البن حلال منهي الناهون عنها
كيف تدعى بحرام وأنا أشرب منها

والشاى بأنواعه لاسيما الأخضر وهو ما أدخله الى المغرب السادة السنوسية رضى الله عنهم وكفى بهم قدوة . وليس هناك سكر ولا رقص ولا في المقهى مكان للرقص

وأما قد تشد أحيانا بعض الأبيات المرققة للقلوب وبعض الازجال المقبولة ، وليس في ذلك نسكير ، ولعمري ان مقهى بدون قهوة ولا شاي أشبه بقلب بلا وجود أو (بغراموفون) في نجد

شكيب أرسلان

لوزان في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦

الوداع الصغير

ومذ ذلك الوقت لم يتيسر لي الاجتماع بأخي شوقي لأني كما لا يخفى لا أقدر أن أدخل مصر ولأن شوقي لم يأت في هذه السنين الاخيرة الى سويسرة، وبقيت أرحاه ويرعاني عن بعد وأصحابه فؤادى كيفما جال وابتهج بنفثاته مهما قال، الى أن أتاح الدهر لي أن أنظره النظرة الاخيرة التي لم أنظره بعدها واحسرتاه، وهى انى في منصرفي من الحج سنة ١٣٤٧ هـ مررت على السويس حيث بعد لآى سمحت لي الحكومة المصرية بالاقامة بضعة أيام أشاهد فيها سيدتى الوالدة التي كان أولاد عمى الامير أمين مصطفى أرسلان وشقيقته أنوابها الى السويس لمشاهدتى فأقمت في تلك البلدة أربعة أيام أقبل فيها على الاخوان من مصر: الاستاذ الاكبر السيد رشيد رضا والمرحوم احمد زكى باشا وحافظ بك عوض وعبد الله بك البشرى ونسيم افندى صبيحة وأسعد افندى داغر والحاج أديب افندى خير والسيد محمد على الطاهر صاحب الشورى واحمد حلمى باشا مدير البنك العربى فى فلسطين وغيرهم من رعايانى وخلائى، وأقبل أيضاً احمد بك شوقي وسررت بلقاء الجميع سرور من بقى عشرات من السنين فى بلاد الغرب محسروما لقاء اخوانه الذين كان يذوب شوقا الى لقاءهم لاسيما أخى شوقي الذى بينى وبينه من الاخاء والذمام مالا يكاد يوجد بين اثنين . ومما أتذكره أنى قلت له يومئذ : لا أقدر أن أدعوك الى سورية لأنى لا أقدر أن أطأها بقدمى ولا الى فلسطين ولا الى مصر التى لا أدخلها الا بعد اللثيا والتى فأنا أدعوك الى سويسرة حيث يمكنك أن تقضى الصيف ونشاهدك مليا .

فقضى عندي سحابة يومه ثم ركب سيارته عائدا الى مصر وودعته في السويس
الوداع الذي كنت أرجو بعده اللقاء فكان هو الوداع الاخير وذلك ان لقاءنا هذا
كان في سنة ١٣٤٧ وان شوقي رحمه الله اتى ربه في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١
فيكون بين وداعي الاخير له ووفاته نحو من أربع سنوات قد كنت أمني النفس في
أثنائها باللقيان لأنه مادام الانسان حيا ولو على بعد لم ينقطع الأمل من مشاهدته فأما
اذا فات فهي الحسرة الكبرى

وما صباية مشتاق على أمل الى اللقاء كمشتاق بلا أمل

قصيدة المؤلف في مهرجان شوقي

وكانت مصر قد قررت الاحتفال بعيد الخمسين سنة من حياة شوقي الادبية وهو
ما اصطلح عليه الناس من تسميته بـ « jubilee » تقليداً للافرنج الذين يحتفلون
بمرور الخمسين عاما على حياة سياسية أو أدبية أو عسكرية أو كإيريكية للوزير أو
السكراتب أو القائد أو الأسقف منهم . فالشرقيون أمبحوا يقلدوهم في هذا الأمر
كما قلدهم في كل شيء . ولا شك في انه ان كانت هذه بدعة فإنها بدعة حسنة . وقد
صادف ورود الخبر بأليف لجنة يوبيل شوقي كوني على أوفاز الى أميركا لحضور المؤتمر
العربي الذي قررت الجالية السورية عقده في (دetroit ميشيغن) وأرسل حزب سورية
الجديدة فدعاني اليه . فسرت من سويسرة الى إنجلترا وركبت الباخرة من (سوث
همتن) وذلك في آخر سنة ١٩٢٦ وفكرت في انه لامناص لي من ارسال قصيدة تتلى
في عرس شوقي الأدبي . فنظمت وأنا في الباخرة بين أوروبا وأميركا القصيدة التالية .
وعند وصولي الى نيويورك أسرع بارسالها الى مصر حتى تدرك مهرجان شوقي .
فكان الأمر كذلك وتلاها في الحفل الأستاذ خليل بك المطران المعروف بشاعر
القطارين ، وهي هذه :

الى الاخ القديم احمد شوقي بك

ناد القريحة ما استطعت نداءها
مهما ينبل منها الجمود فان من
مهما تراكت الغيوم بأفتها
لا تعتذر عنها بكرّ نوائب
فأهم ما همّت السحاب اذا صرت
والحك يستورى الزناد وانما
والرمح يكسب بالثقاف متانة
حاشا القرائح أن تضن بودقها
الشاعر الفذ الذى كلماته
أنست فصاحته أوائل وائل
فى كل كائنة يزف قصيدة
غدت الممانى كلها ملسكاله
وكسا اللسان اليعربى مطارفا
ستخلد الأوطان من تكريمه
لو أنصفت لغة الأعارب قدره
من كل موضوع أصاب شوا كلا
يبكى «شكسبير» على أمثالها
ولو ان آلهة الفصاحة عندهم
صناجة الشرق الذى نبراته
فى كل حرف من حروف يراعه
ما حل بالاسلام بأس مامة
يمسدى فظاعتها ويوسع هولها

إن الحقوق لتقتضيك أداءها
إعجاز أحمد ما يفجر ماءها
فاليوم عندك ما يهيد جلاءها
سدت عليها نهجها وسواءها
هوج العواصف درّتها وسخاءها
تربى الصوارم بالصقال مضاءها
والحيل يظهر عدوها خيلاءها
ما دام شوقي كافلا أنواءها
ضمن النبوغ على الزمان بقاءها
وغدت هوازن مع ثقيف فداءها
تؤتى جميع الكائنات بهاءها
فأصاب منها كل بكر شاءها
هيئات ينتظر الزمان فناءها
ذكرى تطبق أرضها وسماها
صلت عليه صباحها ومساءها
بلغت بمقلتها الصدور شفاءها
وببيت (غوتة) حاسداً عليها
أدركن شوقي خففت غلواءها
تجلىو المشارق عندها غمّاءها
وتر يشير سرورها وبكاءها
الا ورجع شعره أصداءها
وصفاً ويذكر داءها ودواءها

كانت قصائده لبثت بلاده
 وادى الليالى لا تعزز أمة
 كم أثبت التاريخ في صفحاته
 ضلت لعمري في الحياة قبيلة
 والمُرب لا تبدأ بجمع جموعها
 أكرم بأحمد شعراً وافي لنا
 أثلو قصائده فتملاً مهجتي
 وأظلل مفتخراً بها فكأن لي
 نخلت له نفسى مودة وامق
 تمزق الى لحى متانة أصلها
 لا ترتجى منها التماس ثمة
 ناشدت شعري أن يفي بمودتى
 قد صار عهدي بالقريض كأنه
 أدعو فلا يأتى الذى أرى به
 والشعر ما رسم الضمائر نائلاً
 والشعر ما ترك الممانى مثلاً
 وهناك نفس صرة ما تأتلى
 ان لم تجدى فى العجاجة أولاً
 وفرت ياشوقى السباق على الورى
 تتقطع الأعناق عن غاياتها
 تالله أعطيت الرياسة حقها
 وبذت أهل العبقرية كلهم
 لما رأيتك قد نرحت قلبها

صوراً أراد من البلى احياءها
 ان لم يكن سواسها شعراءها
 أمما غدا أنشادها انشاءها
 لم تصطبج أفعالها أسماءها
 الا سمعت نشيدها وحداءها
 فى روح أحمد حاملاً سماءها
 فرحاً يزيل همومها وعناءها
 دون الأنام نساءها وسناءها
 وفي عهد عهودها إنماءها
 وتمزق من ماء السماء صفاءها (١)
 كلا ولا توهى الهنات بنساءها
 وأراه يعجز أن يحىء كفاءها
 ومن تقاضتها الرياح عفاءها
 والشعر أن تجرد النفوس رضاءها
 منها الكنائى نافجاً أحناءها
 فتكاد تلمس بالأ كف هباءها
 تملى على من العلى أهواءها
 نكرت على ثلاثها ونساءها
 برياسة بات السباق وراءها
 حتى الأمانى لا تحوم حذاءها
 وعقدت حبوتها ونلت حباءها
 وبزوت جنة عبقر أشياءها
 ألغيت عني دلوها ورشاءها

(٢) اشارة الى نسبة قائل هذا الشعر الى المناذرة بنى ماء السماء اللخمين ملوك الحيرة

فاسعد بعرش أمارة الشعر التي ألفت اليك لواءها وولاءها
وتنهت وابق لأمة عربية لا ذات قرة عينها وضيائها

أبيات للمؤلف أيضا

ولما توفي الاستاذ فقيد الاسلام الشيخ عبد العزيز جاويز رثاه شوقي (رحم الله
الرائي والمرثي) بقصيدة من قصائده التي كانت تشرق وتغرب ويعجب بها كل عربي
ومستعرب فاذا بأحد الأدباء ينتقد تلك المراثية انتقادا متعنتا واذا بأديب آخر ينافح
عن شوقي . فأمل على هذا الجدل في تلك القصيدة القطعة الآتية المنشورة في عدد
٢٨ ذي الحجة سنة ٤٨ من جريدة الشورى وهي :

بيئات كانت ضالة فوجدت

كنت في أثناء سفري الى الحجاز أقرأ على ظهر الباخرة مجلات وجرائد . فبينما
أنا أقرأ إذ مر بي انتقاد لأحد الادباء يخطئ به « شوقي » في أبيات من رثائه لفقيده
الاسلام المرحوم الشيخ جاويز . ثم اطلعت على رد لأحد الفضلاء الناحقين يدافع
به عن شوقي ويبين صحة قوله . فأما القصيدة فهي كسائر شعر شوقي الذي لا يدري أياه
أحسن بل كلما قرأ الانسان منه شيئا ظنه هو سيد شعره . فاذا انتقل الى غيره ظن
هذا هو السيد وهكذا الى أن ينتهي من شعره وهو لا يعلم أوله خير أم آخره . ولا
جدال في أن مراثية أمير الشعراء الاستاذ جاويز نور الله ضريحه كانت من عيون
قصائده . ولما انتهيت منها كتبت على حاشية مكتوب ما يأتي بقلم رصاص على البديهة :

تفوق شوقي بأشعاره	جميعاً فكل يتيم فريد
وما دمت تمتاز أرجاءها	تعود بكل طريف جديد
توالى الهتاف لدى كل بيت	ألا انت ذلك بيت القصيد
إذا هو ابكى فزاد المعاد	وان هو غنى فأنس الوجود

ولكن قصائد شوق اللواتي لمن سجل بلوح الخلود
فداء « المريّة » قالها « بعبد العزيز » العزيز الشهيد
أعزّ الرثاء جلال الفقيّد فأصبح هذا لهذا نديد
وقد كان من قبل هذا مبينا بشأ محال عليه المزيد
تكاد لا حراز أقوال شوق تكون النايأ أمانى الفقيّد

وأندكر أنى حررت كلمات أيضاً أبين فيها محاسن تلك المريّة . ثم بعد
أن وصلت إلى الحجاز غاصت هذه الابيات وهاتيك الكلمات في لجج أوراق الزاخرة
فلم تقدر يدي أن تصل اليها وظننتها ذهبت أصلاً . وبينما أنا أفرز أوراق في هذه الايام
إذ عثرت على الابيات المرقومة بقلم رصاص وترددت ساعة في نشرها قائلاً لنفسى ان
النظم والنثر بعد مضي مناسبتة أشبه باللحم البائت أو الخبر الغاب الذى تذهب
طراوته . ولكن فكرة النشر بعد تساؤل النفسين قد غلبت بحجة أن كلاماً يتعلق
بشوقى لا يزال غضاً طرياً وأن مناسبة شوقى لا تخلق ديباجتها ابداً

أما الكلمات التى حررتها في محاسن تلك المريّة التى كل من المرثى نضر الله وجهه
والرائى أطال الله عمره كانا من أعز الناس على " وأحبهم الى " من بين جميع البشر فبقيت
ضالة لما تظفر يدي بها .

وأندكر انى أشرت الى نكات بيت فيها لا سيما ذلك البيت الذى وصف
الموت والنقل والدفن منذ وجد الخلق وشطره الثانى :

« قيام بتلك الصحارى قعود »

وأما البيت الذى فيه وصف أجساد الموتى وشطره الثانى :

« وكم من قروح وكم من صديد »

فلم أحبه على ما فيه من عحة وقد ذكرت عنه أنه يليق بأن يتلى على مائدة رهبان
فى دير . فان من عادة هؤلاء اذا جلسوا الى طعام أن يجعلوا أحدهم يقرأ عليهم من
الزهديات والحزونات وذكرى الموت وأمامه جمجمة

ومما لا يجوز أن أغفله من تاريخ علاقتي مع شوقي أنه في سنة ١٣٢٨ سألتني سليم افندي سر كيس عن رأيي في شعراء العصر لينشر هذا الرأي في مجلته فلم أجده بداً من اجابته بمقال نشره في مجلة سر كيس ثم أعاد نشره بعد ذلك بسنوات في جريدة المؤيد . وقد كان سبب إعادة هذا الفصل في المؤيد أنه بينما كنت في مصر قاصداً الجهاد في طراباس الغرب ألقى على أحد الأدباء في المؤيد سؤالاً يستنطقني فيه عما أراه من طبقات الشعراء المعاصرين . فاستعفيت تلك النوبة من الجواب حتى لا أقع في مشكل المفاضلة بينهم وأنا على سفر الى برقة وعندى من المموم بمسألة طراباس مايشغاني عن الشعراء والحكم أيهم أشعر . نعم أجبت السائل بكلمات في المؤيد قلت له فيها : لماذا هذا السؤال ؟ أفزاصر الحى لا يطرب ؟

وكان مرادى بذلك من طرف خفى أنه ما دام شوقي في مصر فلماذا يسألون عن أشعر الشعراء .

إلا أن سر كيس قام ونشر في المؤيد جملة أشار فيها الى مقالتي الاولى التي كان قد أثبتها في مجلته وأعاد نشرها في المؤيد وهى هذه :

رأى المؤلف فى أشعر الشعراء

كلام عن المتنبي ووجه الشبه بينه وبين شوقي

حضرة صاحب مجلة سر كيس

سألتوني رأيي في الشعراء فأشعر الشعراء عندى هو محمود سامى ثم شوقي ثم حافظ وهؤلاء الثلاثة فى هذا العصر هم السابقون فى حلبة الشعر الفائقون فى إجادته بل هم أشبه بالثلاثة الماضين أبى تمام الشعر ومتنبيه وأبى عبادته ، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته ، والذين رجحت لهم على غيرهم بيناته . واحب أن أشبه البارودى بأبى تمام فى علو نفسه وقوة ملكته ومتانة أسلوبه ، وأن أشبه شوقياً بالمتنبي فى دقة معانيه

وسمو حكمه وكثرة جوامع كلمه، كما أن حافظا يشبه البحتري في سلاسة لفظه وحسن سبكه وتأثيره في النفس وهو وان لم يعمل علو شوقي في بعض أبيانه فان عامة شعره أطل من عامة شعر شوقي، وغاية ما يقال فيهما أن جيد شوقي أحسن من جيده وأن هذا أعلى وذلك أطل .

وأما كون أسلوب شوقي ركيكا فهو غير صحيح . وهذا القول في حق شوقي هو أشبه بالقول الآخر في حق حافظ بأنه صانع ماهر وأن حياته أكثر من شعره وعندى ألف شاهد لولا خوف الإطالة لأوردتها على متانة أسلوب شوقي وتسمنه غارب العربية كما أن لى بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجية لا تهوى وأن مثل حافظ في الشعراء قليل . نعم ان شعر شوقي ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارىء نسجا واحدا وهو يذهب مذاهب غريبة أحيانا وربما أتى في كلامه بالتعقيد وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد الى الاغراب في بعض المواضع فيأتى بالغث كما يأتى بالسمين

وانما استحق أبو الطيب هذه الشهرة مع هذه الهنات لأنه كان متى أراد بذ الاولين والآخرين وأنه متى علا لم يزاحمه أحد بمكتب ، وأن الذى يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة فضلا عن الخاصة . وهذا ما أراه في شوقي اليوم فان عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره وقد يخلق في سماء الخيال أحيانا حتى يفوق البارودى نفسه وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع

ولا يمكننا أن نسلم بركاكة أسلوب شوقي إلا على مذهب من يرى المذاهب الجديدة في الشعر ولا يريد الشعر إلا كاظمية ، ومذهب من يرى في موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية . وهذا رأى ليس بجديد بل هو قبل صاحب المنار . وقد كان بعضهم يعيب على المتنبي نفسه الخيعة عن جادة العرب في شعرهم وفي مقدمة ابن خلدون أن المتنبي والمعري لم ينسجا على أساليب العرب ولكن لا يمكننا أن نقول ان هذا هو الرأى كله وانه جف القلم بعد هذا القول بل لكل رأى ولكل وجهة وأحسن ما قيل في شوقي أنه في الشعر كأبى مسلم في القواد أقام دولة وأقام دولة،

فانه نسج على منوال جديد وانتهج خطة حديثة تلائم روح الوقت الحاضر لـكن مع الوفاء بحق اللغة والأمانة مع العربية . ولولا متانة لغة شوقي لما عد شاعراً أصلاً لان نقاوة اللغة هي الشرط الأول للشاعر والكاتب والمعاني وحدها لا تكفي ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم .

ومما أعجبني جداً في نعت شوقي أن شعره لوح الصبي في مكتبه وسبحة الناسك في صومعته وكأس الشارب ودمعة الباسكي الخ . فكل هذا القول في شعره حق لانك تجد شعره يستأنس فيه من كل الرياحين أو على رأى أهل العصر معرضاً فيه من كل البضائع .

ومما يطيب سماعه عن شوقي وهو يتعلق بالأخلاق لـكنه من رشح اناء الفضل قول القائل : انه صفت نفسه فلم يستشعر في نفسه غيباً يحتاج إلى ستره بتنقص غيره وعلت همته فوقف بين حساده وقفرة رابط الجأش يناضلهم بسكوته وإغضائه . ولعمري انها عبارة شعرية لو نظمت لكانت من أحسن الشعر . وأحسن ما فيها مطابقتها الواقع . فلا ينكر أحد هذه الحال على شوقي وأنه لا يقابل حساده والطاعنين عليه إلا بالسكوت وهو أحياناً أقلل من الكلام . على أنه في الواقع غير ساكت فاذا لم يجاب من منتقده رأساً جابسه من جهة ثانية بقصائده إلى الجمهور . فترى بازاء كل « همزة من تلك الهمزات وحرف من هاتيك الحروف » كل قصيدة يقام لها ويقعد وكل بيت أذن الله أن يرفع ويشيد

أما القول بأن محمود سامي هو مقلد شأنه معارضة الأولين وهيئات أن يلحق واحداً منهم فهو شبهه بالقوليين الأولين في الظلم . وانما اختار المعارضة في بعض المظان ليعلم الناس شأنه مع من تقدمه . وليست المعارضة بشأن جديد بل كانت عند الماضين وقد استحسنوها ولم يحسبوها تقليداً ولا عدوها نسخة محررة ولا صورة مطبقة . وانما كان ينظم الواحد قصيدة ترن في الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنائة أخرى من البحر والقافية كما يجاري الفارس فارساً في مضمار . وهذه قصيدة أبي نواس الرائية في الخصيب عارضها ذلك الأندلسي قبل محمود سامي ، وكل منهما أجاد ، ولم يقل أحد ان الأندلسي مقلد لامرئ

له ، وانه إنما صور صورة كانت أمامه . فحمود سامي قد عارض وفاق من تقدمه وقال في غير معارضة فأنى بالشعر الفحل الذي يعنى على الأوائل فضلاً عن الآخر . وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد . ولا يجب أن يؤخذ من كلامي هذا في تفضيل الثالث الشعرى الاستخفاف بقدر الباقيين فان الذين فضلو حبيباً والمتنبى والبحتري لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين حجة وما قصبات السبق الا لعبد

ولا بد في الميادين من مجل ومصل وتال ومرتاح الى السكيت . وانى أرى الكاظمي وصبرى وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشيء والنامي والزاهي والمعري وأمثالهم فليست شاعرية أبى تمام والمتنبى والبحتري بناية هؤلاء بل هؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك

بقي شئ استحسنته من كلام فاتح الباب وهو أن الشهرة لا تصح أن تكون بحال من الاحوال ميزانا للفضل وان يجرى الفضل والذكر في ميدان واحد لان في الناس من يفتصب الشهرة ويلصقها بنفسه . بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه فلا يترحم بقصائده في النوادي ولا يتنازع من الصحف الالقاب ولا يستخدم الكتاب لأطرائه ولا يتمم نقصه بالغرض من مقام غيره . وهذه كلها جمل منحوتة من معسدين الحقيقة وفلذات منقطعة من كبـد الصواب فان الشهرة مزلفة ولا يصح اتخاذها معياراً . وقد يقبع في كسور الخول من لو اطاعت على حقيقته لأجلته وأحلامته أعلى مقام (١) . ولا أريد من ذلك الطعن في حب الشهرة وتضعيف هذا المشرب وهو مبعث الهمم ومثار كوامن الفضائل ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة . ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هي درجة الفضل ، فكم في الروايا من خبايا . كذلك لم أعز رأيي في الشعراء بالشواهد من أقوالهم ولعلى أرجع الى البحث واختار من

(١) ومن هؤلاء أخى نسيب رحمه الله الذي كان من فحول الشعراء ولا يكاد يعرفه الا الذين أتبع لهم أن يعرفوه اتفاقاً وذلك لفراره من الشهرة . وقريباً سيصدر ديوانه فيعلم الناس علو منزلته في الشعر وندور أمثال ملكته في العربية . ولعله لو عاش الى اليوم ما طبع ديوانه

دواوينهم على مهل فقد وجدت الشواهد التي أوردتها غير وافية وقد أهمل ما هو أحسن منها . وإنما استحسنيت ما أطيل من شواهد شعر السكاظمي لأنه كان غنى صوتاً واحداً في وادي النيل فلم تتحقق فضله على طوله فإذا به بعد هذه الأصوات كلها مضمّن على أصول . والله تعالى ذو الفضل العظيم (يزيد في الخلق (١) ما يشاء)

قد كان هذا كلامي في شوقي منذ خمس وعشرين سنة وفي هذه المدة كان قد انطوى البارودي فأصبح شوقي نسيج وحده لا يجده الناس عنه عوضاً ولا يبتغون به بدلاً وأصبح آثر في النفوس من كل شاعر سواء . ولم ينحصر المجد في نفسه بل تناول وطنه مصر فصارت تزهر به على غيرها ، ولما كان لها المكان الأول في الشرق وكان خليفاتها أن تكون ذات المركز الأول في كل فن جاء شوقي فحقق لها مكانها الأول في الشعر برغم أن كلا من الشام والعراق واليمن والسودان وتونس الخضراء فيها الشعراء المفاخرون الذين لا يشق لهم غبار . وقد صدق شيخ الأدباء في هذا العصر مصطفى صادق الرافعي في قوله : ان اسم «شوقي» «كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ومتى ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة »

وقال الرافعي في مكان آخر : «انفالت شوقي من تاريخ الأدب لمصر وحدها كأنفالات المطارة من سحابها السائر في الجو فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر وهي لم تذكر قديماً في الأدب إلا بالنكتة والرقعة وصناعات بدعية ملفقة ولم يستفرض لها ذكر بناهجة ولا عبقرى وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر في العالم » ولست متفقاً كل الاتفاق في هذا القطع مع أبي السامى . فالبلد الذي نبغ فيه مثل ابن الفارض والبيهاء زهير وظافر الحداد والابوصيري صاحب البردة الشريفة في القديم ، ومحمود سامي البارودي ومحمود صفوت واحمد شوقي وحافظ ابراهيم واحمد

(١) وقرئ « في الخلق » بالخاء المهملة

محرم واسماعيل صبرى وغيرهم فى الحديث لا يقال انه منقوص الحظ من الشعر ، وان كان لم ينبغ فى مصر أمثال بشار وأبى العتاهية وأبى نواس وأبى تمام والبحتري والمتنبي والمعري ممن أحببتهم الشام والعراق . على أن الرافضى مصطفى صادق ، صادق فى قوله : ان جميع شعراء مصر فى القديم والحديث « لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفروق مصر ووضعوه شوقى وحده » وما أحسن قوله كذلك : « ولم يترك شاعر فى مصر قديما وحديثا ماترك شوقى وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمر كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبرة التي لاحيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تمليه أو يزيد ما تنقص أو ينقص ما تريد . وقد حاولوا اسقاط شوقى مرارا فأراهم غباره ^(١) ومضى متقدما ورجع من رجع منهم ليغسل عينيهِ ويرى بها أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجدد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره » الى أن قال : « ثم تولاه الخديوى عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

واذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه فى ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مرشف معانٍ بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى تعمل لاهياء التاريخ فى النفس المصرية وتبصيرها بمظلمتها وإيقاعها فى معارك زمنها وتهيئتها للدافعة » وأحسن من قوله هذا قوله الآخر : « ان السياسة التي ارتاض بها شوقى ولا بسها من أول عهده واتجه شعره فى مذاهبها من الوطنية المصرية الى النزعة الفرعونية الى الجامعة الاسلامية كانت سبب نبوغه ومادة مجسده الشعرى وكانت هي بعينها مادة نقائصه فقد ابلته بحب نفسه وحب الثناء عايمها وتسخير الناس فى ذلك بما وسعته قوته الى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعر كل شعرة منها اذا جاءها الحسن بشائية . وهى غيرة وان كانت مذمومة فى صلته بالأدباء الذين لدعوه بالجر ونحن منهم غير

(١) قال المتنبي :

اذا رام أن يلهو بالحية أحق أراه غبارى ثم قال له الحق

أنها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو اذ جماعته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى
ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ونافس المعاصرين ليكملهم كأنهم ليسوا معه
ونافس ذاته أيضاً ليكمل شوقي أشعر من شوقي «
(شكيب أرسلان)

قبيل وفاة شوقي

هذا ولما اجتمعت بشوقي في السويس آتياً من القاهرة اليها لزيارتي وكانت
وا أسفاه الملاقاة الأخيرة بيننا لحظت عليه آثار الضعف بادية وكأنما كان أكبر من سنه
بعشر سنوات على الأقل . وعجبت من أن تنال الشيخوخة منه هذا النيل وبين
الاخوان الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من هم أعلى سناً بكثير ولم يتقوَّس لهم ظهر ولم
يتخضن لهم جبين ولم يأخذ منهم الدهر ما أخذ من شوقي ، فشعرت في نفسي بالخوف
على صحته ورأيت أنه قد سبق سنه بمسافة طويلة . فبعد أن تفارقنا كنت لا أزال أترقب
أخبار صحته وأعني لو يأتي الى السويس فأشاهده ، وما زلت أحسر على تلك الفرقة
وأنشد قول العباس بن الأحنف :

سبحان رب العلا ما كان أغفاني عما رمتني به الأيام والزمن
من لم يبق فرقة الأحباب ثم يرى آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن

خبر وفاته

وبينا أنا في أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية أقرأ جريدة الطان اذ وقعت
عيني على خبر وفاة كبير الشعراء في مصر ووقع في اسم «شوقي» خطأ فهامت لهذا الخبر
واضطربت أعصابي وقلت لا يكون هذا الفقيه غير شوقي . ونأني يوم تحققنا الخبر وكان
يوماً له هوله . ولما جاءت جريدة «الجهاد» علمت منها أن أمير الشعراء فصل من هذه
الدنيا الى رحمة ربه في منتصف الساعة الرابعة من صباح الجمعة ١٤ جمادى الآخرة سنة

١٣٥١ وفق ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ وقد أبناه الأستاذ البليغ توفيق دياب بعبارات متناسبة مع علو مقامه في الأدب لسكنى استنشقت منها راحة مؤاخذه بعضهم للفقيد في السياسة فانه يقول : « ان الذى سيمهم الوارثين لآثار شوقي من عشاق الادب فى الأمم العربية هو نفاسة ماترك من كنوز عبقريته وذخائر أدبه فهذه هى الباقية أما ما عداها مما كان لشوقي أو عليه فى أيام العمر الفانية فقد انقضى أمره بانقضاء الأجل فليقل من يشاء فى دنويات شوقي ما يشاء ولكن الأدب دولة عالية العروش سينادى منادى الخلود من فوق منارتها العليا : لقد مات أمير الشعراء غير منازع . لقد مات شوقي . فليكنه المصريون وليكنه العرب فى كل بلد عربى أو يقطنه عربى وبيكنه المسلمون فى أنحاء المعمور فقد كان شوقي شاعر العربية وشاعر الاسلام وكان أئمن درة فى تاج الأدب »

وكان حافظ رحمه الله قد قضى نحبه قبل ذلك بأشهر ورناء شوقي رناء موجع القلب وكانها كان ينعى نفسه . ولم يكن حافظ فى حياته شديد الخلطة بشوقي بل ربما غلبت المنافسة على العلاقات بينهما ، إلا أن حافظاً بايع شوقي فى يوم عيده وإذا كان حافظ ابراهيم وهو طريد شوقي فى الشعر والمزاحم له بالنكب ومن الناس من يفضل على شوقي قد بايع لخصمه فلا مشاحة أنها قد تقطعت عن منافسة شوقي أنفاس النظراء وأنه قد انتهت اليه رئاسة الشعراء

قصيدة المؤلف فى رناء شوقي

ولما تحققت خبر شوقي رثيته بالقصيدة التالية :

قد أعجز الشعراء طول حياته	واليوم يعجزهم بنسب مماته
هيئات يوجد فى البرية منهم	كفؤ ليرثيه بمثل لغاته
كان الأمير لجيشهم مستنة	فرسانهم فى الظل من راياته
ما عاب أهل العبقرية أنهم	قد قصروا فى الخب عن غاياته

هذا أمير الشعر غير مدافع
 لو كان وحي بمدوحى « محمد »
 السحر في نقشات الزهر في
 رقت لنفتمته القلوب فكيفها
 تفدو الماني وهي شمس مقادة
 وإذا أراد الصخرة الصماء من
 مارام شارح حكمة في نظمه
 جليّ الاله له الأمور كأعما
 فكسا الطبيعة من نسيج بيانه
 فترى الطبيعة قبل نظراته لها
 والحسن يشرق في العيون بذاته
 من كل بيت في رفيع عماده
 كالدر في لماته والبدر في
 ولقد رويت الشعر عن أحاده
 وقضيت فيه صبوتي وصبابتي
 وأثرت في البسداء بزل فحوله
 فرأيت شوقي لم يدع في عصره
 الفرد في اسداحه ونواحيه
 وإذا تعرض للغرام فهل درت
 ما في الهيام كوجده وحنينه
 وإذا تحدث بالربيع وروضه
 أوبات يبعث بالشراب أضاف من
 أوخاض في ذكرى العذيب تشابهت
 أو سلّ في وصف الوقائع صارما
 في الشرق أجمع منذ فتق لهاته
 لا نشق ذاك الوحي عن آياته
 نفحاته والدهن بعض روايته
 غنى بها رقصت على نبراتيه
 فيقودها قود الغلام لساته
 أغراضه رقت نظير سحاته
 إلا أصاب سميمها بشعائته
 يلقي عليها الشمس من نظراته
 حللا خلت من غير طرز دواته
 غير الطبيعة وهي في مرآته
 وهنا يضيء بذاته وصفاته
 تتقاصر الأقدام عن عتباته
 قسامته والصباح في نسامته
 وألفت للسباق في جلساته
 وقطفت منه خير نواته
 وأطرت في الآفاق شهب بزاته
 قرناً يهز قناته لقناته
 والفد في أمثاله وعظاته
 لغته الغرام نظير شوقياته ؟
 أو في النسيب كظبيه ومهاته
 أنساك بالتحبير وشي نباته
 كلساته حبيباً الى كلساته
 أعطاف مستميه مع باناته
 نخلت العدى سالت على شفراته

قد بذآلهمة القريض بأسرهم
 نحت القوافى السائرات أوأبدآ
 ولستم مررت بحاسدين لفضله
 لآند يمدله وكم من مجلس
 يتمثل العصر الحديث بشعره
 ولرب بيت يستقل بحملة
 لم يفتن من عصره بمساوى
 قد لازم الانصاف فى أحكامه
 واذا سألت عن الجهاد فانه
 كالسيف فى أوضاعه ومضائه
 ماحل بالاسلام حيف مصيبة
 يحمى حقائقه ويوضح سبله
 يلقي على غمرات كل ملهمة
 ويظل يرسلها قصائد شردا
 كانت قصائد، هى الصوت الذى
 بعثت به روح الحياة كأنها
 قد كان أدري الناس بالداء الذى
 داء هو الأخلاق فى اضمحلالها
 وفى عن الشرق القديم فضاله
 قد زاد عنه بقلبه وبلبه
 ماض يحذره استلاب ترائه
 أعلى منار الشرق فى أوصافه
 أوحى الى الشرق بالطرق التى
 أملى مكافئة الذئاب عواديا
 ومحا عبادة لآله ومنازه
 ماذا يفيد الذبح من أثلاته
 رغم القلى يروون من أبياته
 أشعار شوقي الندا فى سمراته
 حق التمثل من جميع جهاته
 تغنى عن التاريخ فى صفحاته
 كلا ولم يغمطه من حسناته
 لافرق بين صحابه وعداته
 منذ الحداثة كان فى سرواته
 واليث فى وثباته وثباته
 إلا وكان بها لسان شكاته
 ويقيل طول الوقت من عثراته
 قولاً يزيل اجاجها بفدراته
 غررا تشق الفجر عن ليلاته
 سرى عن الاسلام ثقل سباته
 هى صور إسرافيل فى زعقاته
 قد حط هذا الشرق عن صهواته
 فلذا يرى الاخلاق رأس وصاته
 من يوم نشأته ليوم وفاته
 شأن الابى يذود عن تركاته
 منه ويحفزه لآخذ ترائه
 وأجاد وصف الغرب فى آفاته
 يمشى النجاء بها لأجل نجاته
 فى الواد قد حلوا مكان رعاته
 (م - ٧)

الجائسين يبره ويبصره
 والفاسبين لزعه ولضرعه
 أشماره تحي وتحي أمة
 ياراحلا ملا الزمن بدائما
 أتركت بمدك شاعراً ترضى بأن
 يسكى بك الاسلام خير جنوده
 وكأن وادي النيل من أحزانه
 ونوادر العربية الفصحى لها
 أنظر إلى الاخوان كيف تركتهم
 أنظر لحال أخ فداك بروحه
 قد كنت طول العمر قرة عينه
 مضت السنون الأربعون ونحن في
 أروعك عن بمد وترعاني على
 قد كنت أطمع أن تُرى لي رائياً
 كنا نخاف رداك قبل وقوعه
 تباً لميش قد يكون مساؤه
 والمرء إن ينظر لما يبلى به
 فاليت وهو يذوب في حشرات
 ترجو لك الدار التي عمارها
 يضفي عليك الله من آلائه
 قد كنت في الدنيا هزراً صادحا
 فاليوم كن بجلال ربك ساجداً

والجائشين بنجده ووطاته
 والآكلين لتمره بنواته
 تجد الحياة الحق في كلماته
 من قبل أن نزل القضا بسكاته
 ترعى جياذ الفكر في تلعاته ؟
 أبدا ويرثي الشرق رب حماته
 يلقى على الشطين من زفواته
 نذب عليك يذيب في رناته
 من كل مضطجع على جمراته
 لو كان يحى الميت عزم فداته
 والآن تجري السخن من عبراته
 هذا الاخاء نمر من قهواته
 عهد نهز الرطب من عذباته
 يا من غدوت اليوم بين رناته
 فلنا الأمان اليوم من دهشاته
 ترحاً وكان سروره بغداته
 لا فرق بين بقائه وفواته
 كالحى وهو يذوب في حشرات
 هم كل من صنع الجليل لذاته
 والله لا تحصى ضروب هباته
 يشجى ويسلى الناس في نغماته
 والطائر المحكى في جناته

من الذي راضه شوقي وحافظاً

في السمر

الوسيلة الأدبية ومأخذها من القلوب بما تضمنته من شعر محمود سامي

مراسلات المؤلف مع محمود سامي

يقول الاستاذ الراجحي: « ان الكتاب الاول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعه وصحح نشأته الادبية هو بعينه الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكروا في مقالنا عنه أى كتاب الوسيلة الادبية للمرصفي . وليس السر في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فهذا كله كان في مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي ولكن السر ما في الكتاب من شعر البارودي لانه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب ان كان الصواب وعلى خطأ ان كان الخطأ . وقد تصرمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره نجم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يخلد الجيل منهم إلا لما رأى في عصره ولا يستفتح غير الباب الذي فتح له . الى أن كان البارودي وكان جاهلاً بفنون المربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئاً وجهله هذا هو كل العلم الذي حول الشعر من بعد فيالها عجيبة من الحكمة وهى دليل على ان اعمال الناس ليست إلا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس . واكب البارودي على ما اطافه وهو الحفظ من شعر الفحول إذ لا يحتاج الحفظ الى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة وكانت فيه سليقة فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية والصدر الاول من الحفظ والرواية وجاءت بذلك الشعر الجزل الذي نقله المرصفي بالهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقي وغيرهما . فكل ما في الكتاب انه ينقل روح المعاصرة الى روح الاديب الناشئ فتبعته هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فاذا هو على ميزة وبصيرة واذا هو على الطريق التي تنتهى به الى ما في قوة نفسه ما دام

فيه ذكاء وطبع وبهذا ابتداء شوقي وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معا غير طريقة البارودى « اهـ .

قلت : والظاهر ان الوسيلة الادبية للمرصفي بما فيها من شعر البارودى قد انشأت اكثر من شوقي وحافظ وبعثت الشعر العالى من مرقده وأحييت للادب العربى دولة جديدة بعد أن كان الناس يظنون ان الشعر هو عبارة عن النكتة ، وكان جُهادى الشاعر من المتأخرين أن يضمن كل بيت نكتة من أدب أو تاريخ أو مثل سائر أو تورية أو استخدام بديعى أو طباق أو مقابلة أو لف ونشر أو جناس لفظى أو معنوى أو غير ذلك مما استقصاه علماء البديع .

فأما أسلوب الجاهلية والمخضرمين والطبقة التى جاءت بعدهم ممن عاشوا فى أوائل الدور العباسي ولم يكن طراً الوهن على ملكاتهم فقد كان محفوظاً فى الكتب حفظ النفاثس فى الخزائن وكان يرى الناس بدعاً أن ينسجوا على منواله ولا يزالون يرون ان البيت اذا خلا من النكتة فلا يعد شعراً ولو كان منحوتاً من أحسن مقاطع البلاغة .

وبقى الامر كذلك حتى نبغ البارودى بانطباعه على شعر الاولين وارساله تلك القصائد التى عارض فيها آياتهم الكبر فلم يقصر عنهم وصار الناظر فى شعرهم وشعره لا يفرق بين النسخين . وسواء عرف البارودى شيئاً من قواعد النحو والصرف أو لم يعرف فقد كان المثل الاعلى فى نقاء اللغة وبداعة الاسلوب ومثانة التركيب وكنت إذا قرأت شعره ملك عليك مشاعرك وهزتك هزة لا تجد لها إلا فى شعر الفحول المقلقين مثل زهير وعنترة والاعشى والنايفة الديباني وبشار وأبي تمام ومن فى ضربهم . كأنما قميصه زُرَّ على واحد من هؤلاء .

فالذين اهتموا من ناشئة العصر الى الوسيلة الادبية للمرصفي وجدوا فيها ضالتهم التى طالما نشدوها فلم يجدوها إلا فى شعر محمود سامى . رأوا نسبة معاصريه له نسبة البغاث الى الباز . ولا أعلم هل كانت الوسيلة الادبية هى التى بعثت الشعر فى شوقي وحافظ أم كانت لهما وسائل غيرها لأنى لم أشاهد حافظاً فى

حياتي ، وعند ما كنت اذا كر شوقي وأنشده من شعر محمود سامي لم يقل لي شيئاً يتعلق بكونه إنما نسج على طرازه أو ان شعر محمود سامي هو الذي أرهف قريحته . وقصارى ملاحظته من شوقي في الشعر إلا من رواية الرافعي هذه وهذا القول جدير بان يكون صحيحاً لأنني أعرف ذلك من نفسي . فقد كان اطلعنا على شعر محمود سامي بواسطة الاستاذ الامام حجة الاسلام الشيخ محمد عبده يوم كان منزلياً في بيروت وكنا نلزمه استفادة من واسع علمه واستفاضة من عارض فضله ، فهو الذي عرفنا بالوسيلة الأدبية للشيخ حسين الرصفي وكنا أنا وأخي نسيب رحمه الله نصيبو من صباهنا الى طريقة الأولين في الشعر ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطان الأول من المولدين على شعر أهل الأعصر الأخيرة مهما حلت نكاتهم وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم ولم نكن نجهل علم البديع ولا كان يفوتنا شيء مما في خزانة ابن حجة ولكن ذلك كله كان عندنا لعباً ولهواً بالقياس الى المعلقات السبع وشعر النابغة والأعشى ثم شعر الأخطل وجريز والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة ثم شعر أبي العتاهية وأبي نواس وبشار ومسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصة وأبي تمام والبحترى وطبقتهم . وكان المتنبي كله لا يروقنا إلا من جهة الأمثال والحكم وكنا نرى شعره في الأحايين نازلاً عما يجب أن يكون . فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ورقصنا على قصبه وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها في أنفسنا من قبل أن عرفناه وعلمنا ان في المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين وأن يسامي بنفسه أنفاسهم .

وكنا من قبل محمود سامي نظن الأولين غاية لا تدرك وأنهم إذا قرن بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض . وبقي فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامي وحفظنا جميع قصائده التي في الوسيلة الأدبية فلم نكن لشدة إعجابنا بها نخرم منها بيتاً واحداً . وكان حفظنا لها من أعمال عوامل الشعر فينا ، بل كنا نشعر إذ ذاك بحاسة طرب تهتز لها جوارحنا كلما رويها شعر البارودي في أنفسنا أو أمام الناس . وكما قال كارليل عن شكسبير

« اننا نحن معاشر الانجليز نرى شكسبير آمن لنا من الهند » فقد كنت أقول في نفسى إن محمود سامى هو بذاته مملكة عربية . وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده بمكانه من رئاسة الدولة الفكرية يذهب إلى ما يقوى فينا هذه العقيدة ولذلك كنت أنا أرانى خريجاً فى الشعر لمحمود سامى البارودى وإلى هذا أشرت فى أول قصيدة أجبته بها يوم بدأ بمراساى من منفاه فى سيلان فقال لى :

أشدت بذكرى بادئاً ومقبلاً وأمسكت لم أهمس ولم أتسكلم
وما ذاك ضمنا بالوداد على امرئ حبانى به لكن تهيبت مقدمى
فأما وقد حق الجزاء فلم أكن لأنطق إلا بالثناء المنمى
وكيف اذود الشكر عن مستقره وأنكر ضوء الشمس بعد توسم
وأنت الذى نوهت باسمى ورشتنى بقول سرى عنى قنصاع التوهم
لك السبق دونى فى الفضيلة فاشتمل بحلتها فالفضل للمتقدم
ودونكها يا ابن السكرام حبيرة من النظم سدأها بمدح العلى فى
فأجبت به بقصيدة أقول له فيها :

لك الله من عان بشكر منمى لتقدير حق من علاك محتم
وشهم ابى النفس أضجى يرى يداً تذكر فضل أو جميل لمنمى
رأى كرمًا منى تذكر قوله فدل على أعلى خلال وأكرم
ولو كان يدرى فاضل قدر نفسه رأى ذكره فرضاً على كل مسلم
أعجب من تنويه مثلى بمثله لعمري الذى قد شق فى شعره فمى
ومهما يكن من أعجم فبفضله يرى ثقفاً فى الورى كل أعجم
إذا أمطر الغيث الرياض بوابل فأى يد للطائر المستترنم
إذا ما نصبت بالعميد صباحة بوجهه فما فضل العميد التيم
وهل ينكر الاحسان إلا لامة وينكر حسنا غير من طرفه عمى
وهل فى شهود الشمس أدنى مزية وقد جاء ضوء الشمس لم يتكتم
رويدك لا تكتر الدهرك تهمة ولا تياسن من أهله بالتوهم

فما زال من يدري الجليل ولم يكن
وأنت الذي لو أنصف الدهر لم يكن
جمعت العلى من تلدها وطريفها
غدت خطى إما يراع ومخندم
ولم أر كفاً مثل كفك أحسنت
جمعتهما جمع القدير بكفه
ولو كان يرقى المرء ما يستحقه
وأنت الذى يا ابن الكرام أعدتها
وأنشرت ميت الشعر بعد مصيره
وأشهد ما فى الناس من متأخر
ولو شعراء الدهر تعرض جملة
لأبصرت شخص البحتى معك بحتراً
لك الآبدات الآنسات التى ثأت
لكم أسهرت جفن الرواة وخالفت
شغفت بها طفلاً فأروى بديعها
ولا عجب انى أحسن صبابة
أفى كل يوم فيك وجد كأنه
أحمل ربح الهند كل تحية
وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى
حلفت بما بين الحطيم وزمزم
لألفيت عندي دوس مشتجر القنا
أقل بقاى فى المواقف هيبه
وهب انى باز قد انقض أشهب
ولكن لى من عفو مولاي ساراً

لتأخذه فى الحق لومسة لوم
لفيرك فى العلياء صدر التقدم
فجاءت كعقد فى ثناك منظم
وانك قطب فى يراع ومخندم
الى المجد إرغاف المداد مع الدم
الى محمد سام الى المجد ينتهى
اذن لبلغت النيرات بسلم
لأفصح من عهد النواسى ومسلم
لأعظم نثراً من رفات وأعظم
يدانيك فيه لا ولا متقدم
بمنجدهم من كل حى ومتهم
وخلق ابى تمام غير متمم
وأنست عكاظ الشعر بل كل موسم
حظوظك منها شرد غير نوم
ولم أرو من وجدى بها نار مضرم
فيسرى الهوى بالقول المتكلم
طوى جانحاً منى على نار ميسم
فكم من صبا منها عليك مسلم
تردها ما بين اقدم وأحجم
وبالروضة الزهرا أليّة مقسم
وخوضى فى حوض من الدم مفعم
واهون من ذاك المقام المعظم
فهل يطمع البازى بلقيان ضيغم
فها أنذا منه به بت أحتمى

أحمد ساهى ان يك الدهر خائناً وطال عليك الزجر طائر أشأم
فما زالت الايام بؤسى وأنما وحظ الشقا بالمكث حظ التنعم
ولولا الصدى ما طاب ورد ولا حلا لك الشهد إلا من مرارة علقم
عسى تعتب الاقدار والههم ينجلي وينصاح صبح السعد في جنح مظلم
وأهديك في ذاك المقام تهاثراً حبيرة مسدٍ في ثناك وملحهم

فانت ترى من كل حرف من حروف قصيدتي هذه حالتى النفسية التى تتلخص
في هذه الجملة : ان البارودى هو إمامى فى الشعر . ولا انكر اننى قبل أن قرأت شعر
البارودى بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لى نظم غير قليل وكان اطالع عليه الشيخ
محمد عبده نفسه فقال لى فى اجتماع فى الجامعة الاميركية فى بيروت وقد عرفوه بى :
أنت ستكون من أحسن الشعراء . وكذلك قال العلامة الشيخ ابراهيم الأحمب الذى
كان الصدر المقدم فى الأدب وقد قرأ لى أبياتاً فى إحدى الجرائد وأنا بمد فى المدرسة
ان هذا الولد سيكون شاعراً . إذن لم يكن نظمى للشعر موقوفاً على حفظى لشعر
البارودى ولكن هزنى من شعر هذا الرجل ما لم يهزنى شعر شاعر من أول وآخر
فكنت أرى منتهى السعادة فى أن تكون لى معه مراسلة وان امت اليه بصلة كما
كنت أحن الى مثل هذه العلاقة مع السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده بما
اسمع عنهما وأقرأ لهما الى أن ظفرت بذلك . وجميع الشبان المتأدبين كما لا يخفى لهم
ولوع شديد بل هوس بتقليد كبار علماء عصرهم ووجد مبرح للاتصال بهم والاخذ
عنهم . وهو ما قد عبرت عنه من جهة محمود ساهى فى قولى :

أفى كل يوم فيك وجد كأنه طوى جانحا منى على نار ميسم
أحمل ربح الهند كل تحية فكم من صبا منها عليك مسلم

وكنت كثيراً ما احدث نفسى بنشيدان وسيلة لتحكك بها بهذا الشاعر الكبير
فأحصل منها على جواب منه فأكون سعيداً ولكننى كنت أنهيب الاقدام وأخشى
أن تنزل منى الأقدام فأعود فأنكص عن اجراء فكرتى هذه ، والى هذا أشرت
بقولى بعد أن بدأ هو بالمراسلة :

وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى ترددها ما بين أقدم وأحجم
 حلفت بما بين الحطيم وزمزم وبالروضة الزهرا ألية مقسم
 لأفريت عندى دوس مشتجر القنا وخوضى فى حوض من الدم مقعم
 أقل بقاى فى المواقف هيبه وأهون من ذاك المقام المعظم
 ولكن كما كان الاقدام على ذاك المقام أشق من خوض الممارك واقتحام
 المهالك كان الشوق أيضا الى صاحب تلك القصائد التى كنت أتلوها كل يوم من بعد
 تلاوة كتاب الله وأترنم بها فى نجوى وأجعلها نقل أسمارى وغبوق ليلى وصبوح
 نهارى من نوع البرحاء التى لاتدافع ومن نعط النزعات التى لا تنزع ، فعدت الى
 طريقة ثانية أبلغ بها مرامى وأروى أواحى وهى أن أستشهد بشعر البارودى فى
 مقالاتى التى كنت أنشرها إذ ذاك فى جريدة الاهرام فاستشهدت له احدى المزار
 ببيتين بدون تصريح باسمه ، وهما قوله :

فياقلب صبرا إن أضر بك الهوى فكل فراق أو تلاق له حد
 فقد يشعب الالفان أدناها الهوى ويأتى الضدان أقصاهما الحقد
 واستشهدت مرة اخرى ببيت له عن أهل كريت وذلك مع التصريح باسمه ومع
 نعتة بقلب « أمير الشعراء » وقد كانوا ناروا على الدولة :

قوم أبى الشيطان إلا خسروهم فتسللوا من طاعة السلطان
 ولما كان من التجاذب بين الارواح مهما تباعدت الاماكن وتراخت المساكن
 ما لا يقل عن انتقال الاصوات بتموجات الهواء ونفوذ الكهرباء كان حنينى هذا الى
 معرفة محمود سامى قد لاقى مثله الى وقد كان يقرأ مقالاتى فى الاهرام فيشعر لسكاتها
 بماطفة لا يعرف لها سببا خاصا وما زال كذلك حتى رآنى أستشهد بشعره أولا وثانيا
 فعلم أن مابه من جهتى هو بى من جهته وان بين الروحين رسائل من غير كتب ووسائل
 بلا أسلاك فعندها جاءنى منه الايات التى يبدى فيها بقوله :

أشدت بذكري بادئا ومعقبا وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم
 وما ذاك ضنا بالوداد على امرئ حبانى به لكن تهيت مقدسى

ثم بعد أن أحببته على أحيائه هذه بالقصيدة التي تقدمت جاءني منه هذا الكتاب
الذي أنا أنقله الآن بحروفه :

عن كندى في ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣١٥

تقبل يا شبيب ثناء حر أمين الغيب محمود السلوك

سرت نزوات ودك في عروقي مسير السكرباءة في السلوك

سيدى الأمير :

لولا حنين النفس وهو علاقة الحب لصبرت على المكاتبة هنيئة خفاة الاملال
ولكنى راجعت النفس فأبت على زاعمة ان الأغباب يكون في الزيارة لاني الكتابة .
وبعد فقد نلقيت اليوم متفضلاًم به على بيد تروعد فرحاً وفؤاد يهتز مرحاً وما عساي أن
أقول في نظم لو وصفته اقلت سحراً ، ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً ، انها وايم
الله منة لا يقوم بها الشكر ولا يتدرج الى معروفها الشكر ، كيف لا وقد أضاعت على
غيابة الوحشة وسرت على ضبابية الحسرة ، فالحمد لله الذي صدق ظني وحقق أمني ، فاني
منذ طالعت آثار قلوبكم في جريدة الاهرام شعرت بميل في النفس اليكم ونزاع منها الى
التعارف بكم ثم لم ألبث ان رأيت بها تعريضاً خفياً سمعت منه هاتفاً روحانياً يدعوني
اليكم فحدثت نفسي بمد أسلاك المراسلة لتبادل كهرباءة المودة معكم ولكنى راعيت الحال
فأمسكت على مضض حتى سمعت هاتفاً آخر يدعوني باسمي صراحاً فلم أتمالك ان لبيت
دعوته فتم الأمل بتعارف الارواح قبل تقارب الاشباح هذا ما كنت أجد في نفسي
أذكره لىكم على سبيل الغرابة وسأكتب بعد هذا ان شاء الله فاقبلوا تحية فؤادى
وخالص ودادى ودمتم

الداعى محمود سامى

ان هذه الحالة التي وقعت بينى وبين محمود سامى هي تصدق الحديث «الارواح
جنود مجتدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»

وبالجملة فبينما أنا كنت أروى قصائده ولا أروى ظمأ فؤادى إلا بالتعارف معه كان
هو يشعر بميل خاص الى كتاب تلك المقالات في الاهرام قبل أن يعرفه بل بمجرد

التجاذب الروحي والتعارف الغيبي وبسائق تلاؤم الاشكال الذي قرر الحكماء انه منشأ الحب بين الخلق ثم انه رأى أنه أستشهد بشعره ولكن بغير تصريح باسمه فسكاد يجاذبي حبيل المراسلة الا أنه توقف قليلا ثم رأى أني أصرح باسمه وأقول انه أمير الشعراء فلم يملك نفسه بعد ذلك عن البديهة بالخطاب والاسراف في الثناء فأرسل الى بتلك الابيات الميمية والى هذا المعنى الاخير أشار بقوله :

فأما وقد حق الجزاء فلم أكن لأنطق إلا بالثناء المنعم

ويوم وصفت محمود سامي بقولي : انه « أمير الشعراء » لم يكن شوقي قد طارت شهرته الى أن صار يزاحمه على هذا الاسم ولا كنت أنا أجهجم عن شوقي اني أعد محمود سامي أبا الشعراء في وقته ولا كان قد جاء الدور الذي أصبح شوقي يرى نفسه فيه الجواد المبر على الجميع والفد الذي تأخذه النخوة على نظرائه ولا يرى فيه أحدا من اكفائه بل كنت مادام البارودي حياً أول من بايعه بالامامة ولم يضع أحدا أمامه الى أن مضى لسبيله فكان من جملة مآثره به قولي :

كان الأوائل في الانظار معجزة حتى أتى فشأى من جد من قدما
لو كان في الزمن الماضي وعاصره حكيم ككندة لم يزعم بما زعما
لو كان أدرك عصرأ قد تقدمه عبي حبيب عن الانشاد معتصما
فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبة معه وقولوا لشوقي انه يتما

ولكن من يدري فقد يكون شوقي غص برئاسة البارودي من ذلك العهد وقد تكون الفترة التي ظهرت لي منه عندما جئت الى مصر قاصدا طرابلس الغرب وما رأيت من تدالهِ ولحظت من تسجبه أثراً من أثر المقالة التي أجبت فيها سليم سر كيس عن أراهم أشعر الشعراء في هذا العصر وأسجلت فيها ان الاول فيهم هو محمود سامي والثاني هو شوقي والثالث هو حافظ ابراهيم فجاءت مقالتي هذه قرعا على كبده رحمه الله. ولعل الأخ شاعر القطرين خليل مطران يدري من هذا الأمر مالا أدريه أنا لانه قد كان بينه وبين شوقي من الخلطة والمودة والتبذل في الحديث من لم يكن بين اثنين . وكيف كان الامر فقد صدق مصطفى صادق الرافعي في قوله : ان شوقي أصبح بعد أن صار شاعر الامير

كالحجود العتيق ينافس حتى ظله . وقد صدق الرافعى أيضاً في قواه : ان طريقة شوقي في الشعر لم تكن طريقة البارودى لان شوقي كان يضعف عن طريقة البارودى ولم تكن تهيأ في أسبابه وخاصة في أول عهده . وهذا شئ لا يختلف فيه اثنان فكل من هذين طريقة خاصة به والغالب على البارودى هو علو النفس والجزالة والغالب على شوقي هو الرقة والحكمة والتأثير في النفس

أمايل من شعر شوقي

وقد حان الآن أن نذكر أمايل مما يعجبنا من شعر شوقي وقد سبق للادباء حتى في حياته أن تكلموا في هذا الموضوع وأشاروا الى المختار من شعره والاثير من قوله واتفق الجميع على أن القصيدة التي أولها :

تدعوها بقولهم حسناء

هى من عيون قصائده التي رزق فيها من التوفيق ما لم يقع فيه جدال مع أنها مما نظمه في أول شبابه . وقد نشر الاديب الضائع أنطون بك الجليل رسالة بعد وفاة أمير الشعراء ضمنها مآرآه الاحسن في نظره وهو لا يخرج عما كان يؤثره له الناس في حياته ويأثرونه دائماً عنه . وسأقل انا أيضاً من جملة الناس ما يعجبني من شعر شوقي غير ذاهب مذهب الاطالة في التحليل ولا مقتصر على مجرد السرد بدون تذييل فأقول :

ينقسم شعر شوقي الى ثلاثة أقسام أحدها الشعر الشخصى وهو ما اصطاح الافرنج على تسميته بالشعر المطرب Lyrique والشعر التاريخى أو شعر الوقائع وهو ما يقولون له épique والشعر الروائى وهو القصص المنظوم شعراً ولشوقي عدة روايات منظومة لم أكن اطلمت عليها الا بعد وفاته . فالشعر الشخصى هو الجانب الاوفر من شعر شوقي واذا اراد الناقد أن يمتام جيده لا ينتهى منه الا بديوان كبير لان شعر شوقي نسج واحد لا يكاد ينزل ولو وضع كلامه في أتفه المواضيع ، فالغثاة وشوقي على طرفي نقيض .

من أحسن ما يعجبني من شعره الشخصى ما افتتح به ديوانه المطبوع أول مرة
وذلك تحت عنوان « الى مولانا امير المؤمنين عبد الحميد الثانى أيداه الله »

سلام الله لا أرضى سلاى فكل تحية دون المقام
وعين من رسول الله ترى وتحرس حامل الامر الجسام
وتنجد مقالة فى الله يقضى وتحلفها على أم نيام
تقلب فى ليال من خطوب تركن المسلمين بلا سلام
ومن عجب قيامك فى الليالى وانت الشمس فى نظر الانام
أحب خليفة الرحمن جهدى وحب الله فى حب الامام
وأجعل عصره عنوان شعرى وحسن العقد يظهر فى النظام
فان تفت الموانع منه حظى فليس بفائت حفظ الكلام
وقد برعى الغمام الارض اذناً وأبن الارض من سم الغمام

وبعد أن قدم هذه التحية الى الخليفة عاد فشفعها بتقديمه الى الخديوى فقال :

الى ابن محمد أهدي كتابى وقد يهدى القليل الى الكريم
وما أهدي له الا فؤادى وما بين الفؤاد من الصميم
وغرس طفولتى وجنى شبابى وما أوعيت من وحى قديم
وما حاولت من عصر عظيم من الآداب للوطن العظيم
وكان محمد أوفى وأرعى لهذا الدر من راعى اليتيم
فكفنه يا ابن توفيق فانى فنجم الظن فى الجاء الفخيم
وان الشعر ربحان الموالى وراحة كل ذى ذوق سليم
وما شرب الملوك ولا استعادوا كهذى الكأس من هذا النديم

والبيت الاخير هو بيت القصيد وفى قوله : وكان محمد أرعى لهذا الدر من راعى
اليتيم تورية لطيفة ولسكنه استعمل لفظة «نجيم» ولا يوجد فى العربى «فخيم» وانما
هو «الفخم» وقد انسابت هذه اللفظة الى كلام شوقى من كلام الدواوين ومن المعلوم
ان لغة الدواوين فى القرون الاخيرة كانت عليها مسحة تركية

ومن شعره الذى شرق وغرب وذهب كل مذهب ولم يبق أحد إلا رواه قوله :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يفرهن الثناء

وهى أبيات ممدودات أحسن فيها غاية الاحسان ولا سيما عند قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فهوعد فلقاء

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فلو قال أحد انه ما قيل فى هذا المصنوع شعر أشعر من هذا فى الغزل ما أبعد . وله أبيات لو لم أقرأها فى ديوانه لظننت أنها من شعر أبى العتاهية الذى استولى على الامد فى نظم الزهد بالسهل الممتنع الذى يقرأ منه الانسان ويعيد ولا يعمل ولا تخلق طلاوته ولا تذهب حلاوته . قيل لابي نواس وقد عظم أبا العتاهية كثيراً : لأنت أشعر منه . فأجاب : ما رأيته قط إلا ظننت انه سباء وأنا أرض . وأبو العتاهية هذا نسيج وحده فى الممتنع السهل والمهلل الجزل لو نسبت اليه هذه الابيات الخفيفة اللطيفة التالية لكانت به جديرة وهى :

كم لنا من عجيبة طى هذى البسيطة

أمم قد تغيرت وبلاد تولت

وبهار تحولت من مكان لبقعة

ثم نابت جزيرة عندها عن جزيرة

أيها الأرض خبرى عن شباب البسيطة

دول قد تصرمت دولة إثر دولة

وقرون تلاحت وعصور تقضت

ذهب الدهر كله بين يوم وليلة

نعم على هذا الشعر مسحة عصرية جيولوجية لا توجد فى شعر أبى العتاهية .

ومن شعر شوقى فى انكار رفع الصوت أمام الجنائز :

أرى زُمرّاً مشيعة وأسمع أيما صوت

ولو عقولوا لما فعلوا جلال الموت فى الموت

ومن قوله في الرضى بما قسم الله :

أعاذلتى في اختيار الرضى ولا تُمنى في اعتقاد القدر

تجىء النفوس الرضى مرة اذا هى لم تنتفع بالضجر

ومن حكمه شوقى السائرة وأبياته النادرة ما قاله في مداراة العدو وما ذهب اليه
من أن أشد الناس على العدو أخذهم له بالحيلة فهو يقول :

قد أتعب الاعداء من داراهمو فاقم عدوك بالليان وأقمعد

ان الاراقم لا يطاق لقساؤها وتسال من خلف باطراف اليد

ومن حكمه :

ان الوفاء سبيح أخلاق الفقى من حازه حاز المحامد أجمعها

كم من لبيب كان يرجى نفعه لكن أبى عدم الوفا أن ينفعها

ومن لطائفه :

رمينا بابليل من حلق ولم نرم بالتاجر الفاسق

وكم في الخوانيت شيخ أحق بقطع اليمين من السارق

ومن أقواله المأثورة :

جهول الناس للنصحاء قل وعند أخى النهى لهمو ملال

عليك النصيح ان صادفت أهلا وليس عليك في النصيح الجدال

وقد كرر هذا المعنى في مكان آخر فقال :

لك نصيحى وما عليك جدالى آفة النصيح أن يكون جدالا

وكرره ثالث مرة فقال :

آفة النصيح أن يكون جدالاً وأذى النصيح أن يكون جهارا

وقد ذهب السيد مصطفى صادق الرافعى الى أن شوقى أخذ هذا من قول ابن

الرومى :

وفي النصيح خير من نصيح مواعع ولا خير فيه من نصيح موائب

ولا حاجة الى الابداد كل هذا فأقرب اليك من قول ابن الرومي المثل المشهور :
لا تبالغ في النصيحة فتهجم بك على الفضيحة .
ومن حكم شوقي :

كم ساهر خائف والدهر في سنة وراقد آمن والدهر في شهر
فلا تبين محتالا ولا ضجرا ان التدابير لا تغني عن القدر
ومن مرقصات شعر شوقي القصيدة المشهورة في وصف ليلة راقصة بسراى
عابدين مطالعها :

حف كأسها الحبيب فهى فضة ذهب
ومما يعجبني فيها :
أشرقت نوافذه فهى منظر عجب
واسستار رفرفه والسجوف والحجب
تعجب العيون له كيف تسكن الشهب
أقبلت شمس ضحى ما لمن منتقب
الظلام رايتها وهى جيشه اللعجب
في هواجس عجلا بالجياذ تنسحب

فقد كان هذا قبل اختراع السيارات الكهربائية ثم قال :

قام دونها سبب واستحشا سبب
فهى تارة مهمل وهى تارة خبب
يرتمى بهن حمى لا يجوزه رغب
بابه لداخله جنة هى الأرب
قامت السراة به والمعينة النجب
وانبرى النساء له عجمهن والعرب
العفاف زينتها والجمال والحسب
أنجم مطالعها عابدين والرحب

إلى أن يقول :

الليوث	مائلة	والطباء	تنسرب
الحرير	ملبسها	واللجين	والذهب
والقصور	مسرحها	لا الرمال	والعشب
يستفزها	نغم	لاصدي ولا	لجج
يستمد	مرقصه	تارة	ويقتضب
فانسدود	بان ربي	يبد أنها	تثب
يلعب	العناق بها	وهو	مشفق حذب
فهي	آنة صعد	وهي	آنة صلب
وهي	ها هنا	وهنا	تلتقي وتصطحب
مثلا	التقت أسل	أو	تعانقت قضب
الرؤوس	مائلة	في الصدور	تحتجب
والنهود	هامة	والحدود	تلتب
والخصور	واهية	بالبنان	تجذب

إلى أن يقول :

هكذا الكرام	كرا	م وإن همو	طاروا
ليالة	علت وغلت	ليت	فجرها كذب
يكفل الأمير	لنا	أن	تعيدها الحقب

وله في وصف متنزه الخديوي :

متنزه العباس	للهجتلى	آمنت بالله	وجناته
العيش فيه	ليس في غيره	يا طالب العيش	ولذاته
قصور عن	بإذخات الذرى	يودها كسرى	مشيداته
دارت على البحر	سلاييمه	فبتن أطواقا	للبناته
عن عمل الانس	سوى انها	تفسي	سايان وجناته

الى أن يقول:

ومن ظباء في كناساتها تهيج للماشق لوعاته
يرتعن والآساد في ألفة من عدل حلمي ومساواته
وله في وصف الشروق والغروب وهو في سفينة :

ويا للمصور آثارها بكل بحار وفي كل بيد
وازرأؤها كل جم السنا وازوأؤها كل عال مشيد
من النار لكن أطرافها تدور بياقوتة لن تنيد
من النار لكن لألامها الأبية زينت للعبيد
هي الشمس كانت كما شاءها ممات القديم حياة الحديد
ترد المنياء الى حدها وتبقى جبال الصفا والحديد
وتطلع بالعيش أو بالردى على الزرع فألمه والحصيد
وتسمى لذا الناس مهما سمعت بخير الوعود وشر الوعيد
وقد تسجلى اذا أقبلت بنعمى الشقى وبؤس السعيد
وقد تتولى اذا أدبرت وليست بمأمونة أن تعود
فما للغروب يهيج الأسى وكان الشروق لنا أى عيد
كذا المراء ساعة ميلاده وساعة يدعو الحمام العنيد
وليس بجبار ولا واقع سوى الحق مما قضاه المرید

على هذه الأبيات الاخيرة مسحة من شعر المعرى الذى يختلط الشعر فيه بالفلسفة .
وله وصف طلوع البدر وهو في السفينة أيضاً :

وزهت لناظرها السماء وقرما في البحر من عيب ومن تيار
وأهل لله السراة وأزلفوا لك في السكال تحية الا كبار
وتأملوك فكل جارحة لهم عين تسامر نورها وتسارى
والبدر منك على العوالم يجتلى بشر الوجوه وزحمة الابصار

انظر الى قوله « زحمة الابصار » هنا كم فيه من البلاغة اذا تأملت تطالع الناس

الى البدر في الليلة البلياء

ثم يقول :

متقدم في النور محبوب به موف على الآفاق بالأسفار
يادرة الغواص اخرج ظافراً يمناه يجلوها على النظار
متهللاً في الماء أبدى نصفه يسمو بها والنصف كاس عار
وافى بك الأفق السماء فأسفرت عن قفل ماس في سوار نضار
ونهمت زهو الكون منك بمنظر ضاح ويحمل منك تاج فبخار
الماء والآفاق حولك فضة والشهب دينار لدى دينار
والفلك مشرقة الجوانب في الدجى يبدو لها ذيل من الأنوار
وكأنها والموج منتظم وقد أوفيت ثم دنوت كالمختار

وقد استعمل شوقي لفظة «المختار» ولا يوجد فعل مطاوعة من «حار» ولكن
استعمل ذلك بعض الاعلام متابعة للعامة وقال الشيخ عبد الغنى النابلسي :
حكيم حارت البرية فيها وجدير بأنها مختار

وسمى فقيه عصره السيد محمد بن عابدين حاشيته على الدر المختار باسم «رد المختار»
ولم يسلم من الاعتراض
وله في البحر المتوسط الابيض :

أى الممالك أيها في الدهر مارفعت شراعك
يا أبيض الآثار والص فحات ضيع من أضاعك
ان البيان وان حس ن العقل ما زالا متاعك

يشير بذلك الى أن الأمم التي عاشت على ضفاف هذا البحر هي التي فرطت الى
حوض المدنية مثل مصر وفينيقية واليونان ورومة وانها هي التي اشتهرت بذلاقة
اللسان وسداد المنطق ، ثم يقول :

أبدأ تذكرنا الذي ن جلوا على الدنيا شعاعك
وبنوا منارك عالياً متلايلاً وبنوا قلاعك

وتحكموا بك في الوجو د تحكما كان ابتداءك
أى ان البحر المتوسط هو الذى سهل الفتوحات للذين ملكوا على شواطئه.
وله فى وصف سويسرا :

ناجيت من أهوى وناجاني بها	بين الرياض وبين ماء سويسرا
حيث الجبال صفارها وكبارها	من كل أبيض فى الفضاء وأخضرا
تخذ الضام بها بيوتاً فأنجيات	مشبوبة الاجرام شائبة الذرى
والصخر عال قام يحكى قاعدا	وأناك مكشوف الجوانب منذرا
بين الكواكب والسحاب ترى له	اذناً من الحجر الأصم ومشفرا
والسفح من أى الجهات أنيته	ألفيته درجاً عوج مدورا
نثر الفضاء عليه عقد نجومه	فبدا زرجده بهن مجورها

الى أن يقول :

والماء من فوق الديار وتحتها	وخلاها يجري ومن حول القرى
متصوباً متصعداً متمهلاً	متسرعاً متسلسلاً متعشراً
والأرض جسر حيث درت ومعبر	يصلان جسراً فى المياه ومعبرا
والفلك فى ظل البيوت مواخرا	تطوى البحائر نحوها والأنهرا

ان هذا الاسلوب فى وصف الطبيعة هو الذى جرى عليه الشعراء من قديم الزمان
يأتون بالتشبيه المرقصة والكنايات المطربة فى نظم كأنه يمشى الخشب وشعر كأنه يتحدر
من صبيب فتعرف القافية قبل أن تصل اليها وتستدل على اللفظة بما حوالها ، وتظن
نفسك على ضفة نهر مطرد يتدفق ، أو أمام غمام منسجم يتبعجس ، وقد تكثر
الترادفات فى مثل هذا الوصف فلا ترعج ، وتتوالى التجانسات فتعجب وتبهج ، وكأن
الموصوف يخلع على الوصف حلاه ، وكأن الشاعر يأخذ من الطبيعة لفظه كما يأخذ معناه .
وقلما قرأت شعراً من الزهريات أو الطرديات أو غير ذلك مما وصفوا به الطبيعة
إلا رأيت مسحوباً هذا السحب مسكوباً هذا السكب كأن لكل مقام لغة تناسبه
وليس كل موضوع أسلوباً خاصاً لا يجيد فيه من يجانبه . واما لفظه « البحائر » التى أتى

بها شوقي هنا بمعنى الأبحرة أو البحيرات فليست من اللغة وإنما البحيرة هي الناقة التي شقت أذنبا من فعل بحر بمعنى شق . قال الله تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة) وقال أبو اسحق النحوى : أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت اذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرًا بحروا اذنبا أى شقوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبيح ولا تحلاً عن ماء ترده ولا تمنع عن مرعى ، واذا لقيها المعبي المنقطع به لم يركبها . قالوا وجمع البحيرة على بُحْر وهو جمع غريب في المؤنث إلا أن يكون قد حمل على المذكور نحو نذير ونذر . وليس لهذه اللفظة وجه هنا ، إلا أن يقال ان البحار جمع بحيرة وهذه فعيلة من فعل بحر أى شق . وقد قيل ان البحر انما سمي بحراً لأنه شق في الأرض فهل يصل تسامح علماء اللغة الى إجازة هذا القياس ؟ إنهم إن أجازوا مثله فقد فتحوا باباً يتعذر سده . ثم يقول شوقي من هذه القصيدة :

وخرجت من بين الجسور لعلى استقبل العرف الجيب اذا سرى
أوى الى الشجرات وهى تهزنى وقد اطمأن الطير فيها بالكرى
ويشوق منى الماء فى لمعانه فأميل أنظر فيه أطمع أن أرى
وهناك ازدهت السماء وكان أن ، آنست نوراً ما أجمل وأبهرا
فسريت فى لألائه واذا به بدرى تسايه الكواكب معشرا
حلم اعارتنى العناية سمعها فيه فما استتممت حتى فسرا
فرايت صفوى جهرة وأخذت أنسى يقظة ومناى ابّت حضرا

ثم يذكر شروق الشمس فيقول :

تبدو هنالك للوجود وليدة تهنا بها الدنيا ويغتبط الثرى
وتضىء أئناء الفضاء بغسرة لاحت برأس الطود تاجاً ازهرا
فسمت فكانت نصف طار مابدا حتى أناف فلاح طارا أكبرا

لا أعلم ماذا يريد بقوله « طار » إلا أن يكون يريد الاطار بالألف فاطر الألف
لضرورة الوزن وليس هذا بجائز لأنه لم يرد إطار بمعنى طار فى فصيح اللغة

ثم يقول .

سالت به الآفاق لكن عسجدا وتفشت الاشباح لكن جوهرها
واهتز فالدينا به مهتزة وأنار فانكشف الوجود منورا
حتى اذا بلغ السمسمو كاله أذنت لداعي النقص تهوى القهقري
فدنت لناظرها ودان عنانها وتبدل المستعظم المستصغرا
واصفر أبيض كل شيء حولها واحمر برقعها وكان الاصغرا
وسما اليها الطود يأخذها وقد جمعت أعاليه شريطاً أحمر
مسته فاشتعلت بها جنباته وبدت ذراه الشم تحمل مجرا
فكأنما مسدت به نيرانها شركا لتصطاد النهار المدبر
حرقته واحترقت به فتوليا وأتى طولهما الظلام فمسكرا
فشروقا الأمل الحبيب لمن رأى وغروبها الاجل البغيض لمن درى
خطبان قاما بالفناء على الصفا ما كان بينهما الصفاء ليعمرا
تفسير الاشياء مهما عاودا والله عز وجل لن يتغيرا

ثم انه يصف جبل السليف الذى فوق جنيف فيقول :

انهارتا تحت السليف وفوقه ولدى جوانبه وما بين الذرى
مشياً وركاباً وزحلاقة على عجل هنالك كهربائى السرا

هنا محل نظر فانه اذا أراد مشياً وركاباً وزحلاقة على أنها مصادر وبلا تشديد
لفظة ركاب لم يستقم الوزن واذا كان يشدد ركاب بمعنى جمع راكب أو كانت غلطة
مطبعة وأصلها ركبان فهي فى قلق زائد فى هذا المحل لأنها تكون جمع اسم فاعل بين
مصدرين المشى والزحلاقة . وربما قاسها شوقى على كذب كذاباً بالتشديد ولكن ليس
القياس فى اللغة بالمذهب الراجح . والركاب بالتشديد هو الكابوس وليس هذا
هو المراد هنا . وقد حاولت أن أجعلها مشياً وركاباً وزحلاقة الخ ولكنى لم أجد مساعداً
لتكثير المصدر من كل فعل إلا إذا أخذنا القياس ، فاما متون اللغة فانك تجد فيها أفعالا
تأتى مصادرهما على تفعال فيقولون مثلاً سكب الماء والدمع سكباً وتسكاباً وهتان الغيث هتناً

وهتوتنا وتهتانا وعليه قلت من قصيدة في هذه الأيام الأخيرة :

نار تأجج في قلبي فهل لكما أن تطفئها بتسكاب وتهتان
ولكن هذا غير مطرد وان كان المتنبي قال :

وان تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جرى فلي فيهن تصهال

فانك لا تجد تصهال في كتب اللغة وانما قاسمها المتنبي على غيرها والقياس في اللغة
مذهب ضعيف . وقد نظرت في كتاب سيمويه فرأيت أنه يقول : (هذا باب ما تكثر فيه
المصدر من فعلت فتأحق الزوائد وتبنيه بناء آخر كما أنك قلت في فعلت فعلت) (بالتشديد)
حين كثرت الفعل وذلك قولك في الهدر التهدار وفي اللعب التلعب وفي الصفق
التصفاق وفي الرد الترداد وفي الجولان التجوال والتقتال والتسيار وليس من هذا
مصدر فعلت (بالتشديد) ولكن لما أردت التكثير بنيت المصدر على هذا كما بنيت
فعلت على فعلت (الثانية بالتشديد) انتهى . قلت ولا يستفاد من هذا أنه يجوز
اطراد مصدر تفعال من كل الافعال لانه لو كان ذلك كذلك لما كان جامعوا اللغة قالوا
هتن يهتن هتونا وتهتانا ولم يقولوا ركب يركب ركوبا وتركابا . ولنترك ركابا هذه
على حالها ونكمل وصف شوقى لجبل السليف فيقول :

في مركب مستأنس سالت به قضب الحديد تعرجا وتحذرا

ينساب ما بين الصخور تمهلا ويخف بين الهوتين تخطرا

ولو جاء شوقى جنيف كما دعوته يوم تلاقينا في السويس لرأى الآن شيئا أعجب
وأغرب وهو أنهم وضعوا من حذاء السليف الى رأس الجبل مركبة سالكية كهربائية
يقال لها « تلفريك » يظنها الرائي طيارة طائرة في الجو ويقطع فيها الركاب هذه المسافة
من ذيل الجبل الى رأسه في ثمان دقائق بسرعة برقية وهذه المركبة من بعيد تلوح
كالزنبيل معالقا في الهواء . ثم قال :

لما نزلنا عنه في أم الذرى قمنا على فرع السليف لننظرا

أرض تموج بها المناظر جمّة وعوالم نعم الكتاب لمن قرا

قد صغر البعد الوجود لنا فيا لله ما أحلى الوجود مصغرا

ولشوقي قصيدة ، عن رومة فيها أبيات جديدة بأن تحفظ :

وجرت ههنا أمور كبار واصل الدهر بعدها جريانه
راج دين وجاء دين وولى ملك قوم وحل ملك مكانه
والذى حصل المجدون اهرا ق دماء خائقة بالصيانه
ليت شعري إلام يقتل النسا س على ذى الدنيّة الفتانه
بلد كان للنصارى قتادا صار ملك القسوس عرش الديانه
وشعوب يمحون آية عيسى ثم يملون فى البرية شاناه
ويهينون صاحب الروح ميتا ويعزون بعده أكفانه
عالم قلب وأحلام خالق تتبارى غباوة وفطانه
رومة الزهو فى الشرائع والحسك مة فى الحكم والهوى والمجاناه
والتساهى فما تعدى عزيزا فيك عز ولا مهيناً مهانه
يصبح الناس فيك مولى وعبدا ويرى عبدك الورى غامانه
أين ملك فى الشرق والغرب عال تحسد الشمس فى الضحى ساطانه
وله على قبر نابليون أبيات منها :

مرمر أضجع فى مسنونه حجر الارض وضرغام العرب
هل درى المرمر ماذا تحته من قوى نفس ومن خالق متين
ينمحي الميت ويبل رمسه ويقول الربع ما غال القطين
حصنوا ما شئتم موتاكم هل وراء الموت من حصن حصين ؟
ليس فى قبر وإن نال السهى ما يزيد الميت وزنا ويزين
فأنزل التاريخ قبراً أو فم فى الثرى غفلا كبعض الهامدين

وله فى توت عنخ آمون قصيدة يقول فيها :

ملوك الدهر بالوادي أقاموا على وادى الملوك محجبتنا
فرب مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفدينا
تقيّد فى التراب بغير قيد وحل على جوانبه رهينا

تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة منطقينا
ويخاطب اللورد كارنارفون الذي اهدى سنة ١٩٢٢ الى ما اهدى اليه من
الكنوز تحت مدفن رعمسيس السادس فقال :

أبوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبه لناهبينا
مكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا
يقول الناس في سر وجهر ومالك حيلة في المرجفينا
أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوكة مكفينا؟

يريد أن يقول ان الناس اتهموا اللورد الذى كشف الكنوز بأنه استأثر لنفسه
بها والحال انها حق مصر وقد حامت الظنون حول هذه القصة وقال الناس : أألفذين
سرقوا الخليفة وهو حى لا يسرقون كنوز الملوك وهم أموات ؟ إشارة إلى ان الانجليز
نقلوا الخليفة وحيد الدين من قصره فى الاستانة إلى مالطة بعد أن انتهت حرب اليونان
وتركيا واتسق الامر لحكومة أنقرة، والسبب فى فرار الخليفة حينئذ ما بلغه عن نية
حكومة أنقرة محاكمته والحكم عليه بالقتل بحجة انه خان الوطن

وكان السلطان وحيد الدين فى بدء احتلال الانجليز للاستانة بعد الحرب العامة
قد اعتقد ان الانجليز يقدررون على كل شئ فأطاعهم خوفاً لا خيانة ولم يشأ أن يذهب
إلى الأناضول وينضم إلى رجال الحركة الوطنية اعتقاداً بأنه إن خرج من الاستانة لن
يمود ملك آل عثمان اليها أبداً وان الانجليز وغيرهم من الاجانب يريدون فرصة لاعادة
القسطنطينية الى الروم، وقد كانت فى أوروبا - ولا سيما فى إنجلترا - حركة شديدة لهذا
الغرض فتضافرت الاسباب كلها لبقاء السلطان فى الاستانة حتى لا تخرج هذه العاصمة
المنقطعة النظير من يد الاسلام ، ولما كان الانجليز هم المحتلين وهم أصحاب الكرامة العليا
بعد الحرب الكبرى لم يجد وحيد الدين بداً من مطاوعتهم فانتهز أعداؤه الفرصة
لاتهامه بالخيانة والخروج عن رأى أمته ، ولما كان بين الاتراك حركة قديمة ترمى الى
نيل العرش العثماني وتأسيس حكومة جمهورية وهذه الحركة لا يقدر أصحابها على

التظاهر بها خوفاً من الشعب التركي المتمسك بآل عثمان فقد استغل هذه المرة رجال تلك الحركة طاعة وحيد الدين لانبجاسة الناشئة عن الخوف وجعلوها من باب الخيانة ونشروها بين الشعب التركي وفي الآفاق وبنوا عليها فيما بعد اسقاط سلطنة آل عثمان واسقاط الخليفة والخلافة مع ان مجلس أنقرة الكبير كان قد قرر ان الحركة التركية الاستقلالية انما كان المقصد منها انقاذ الخليفة الذي هو أسير بين أيدي الانجليز، وقد اضطر السلطان الخليفة وحيد الدين أن يفر من الاستانة حتى لا يصاب على جسر الخليج فقصد مالطة على باخرة انكليزية ثم جاء منها الى الحجاز، وبعد أن أقام أياماً في مكة وأياماً في الطائف ذهب إلى أوروبا وأقام في سان ريمو من ايطاليا ولم يعيش بعد سقوطه مدة طويلة وعند ما مات كان يعاني من جهة أمر معيشته مع حاشيته أزمة شديدة ، وكانت عليه ديون لاصحاب الدكاكين الذين كانوا يبيعونه بالنسيئة ويصبرون عليه . فلما مات قاموا يطالبون بحساباتهم وطلبوا تأخير نقل الجثة من سان ريمو حتى يكونوا استأدوا أموالهم فبقيت الجثة في سان ريمو أسبوعين أو ثلاثة رهناً حتى يأتي من آل عثمان من يؤدي الحسابات التي كانت على السلطان المتوفى !! وفي ذلك الوقت قال لي سمو الخديوي السابق : ان هذا عار على الاسلام وكان من الواجب أن يتبرع ذوو الحماية من المسلمين بالمبلغ الباقي على السلطان المرحوم حتى يتيسر نقل جثمانه الى الشام لدفنه فيها كما أوصى بذلك . فقلت له : ومن أولى منك بهذا الأمر؟ فذكر لي محذوراً سياسياً يمنعه من التظاهر بهذه القضية وأشار بان اكتب الى سمو الامير عمر طوسون الذي هو المفزع للاسلام عند كل حادثة . فكتبت الى الامير المشار اليه ولا شك انه لم يكن ليتأخر عن الواجب ولكن في أثناء ذلك جاء الخليفة عبد المجيد ابن عم السلطان وحيد الدين من بلدة نيس التي يقيم بها وأدى المبلغ الباقي لاصحاب الحسابات وهكذا تمكن من شحن جثة السلطان الى دمشق حيث دفنت في التكية السليمانية

ومن هنا يعلم القارئ ان السلطان وحيد الدين كان خالي الوفاض وانه لو كان خائفاً لامته كما يتشدد بعض الناس الذين يهرفون بما لا يعرفون وكان خادماً لاغراض انجلترة كما يزعمون لكانت انجلترة تقوم بنفقاته وتكفي أهله تلك الاهانة

التي وقعت بإبقاء جنّته رهينة مدة ثلاثة أسابيع على حسابات دكا كين سان ريمو .
ومما تحقّقته والحال تؤيده انه لما برح السلطان وحيد الدين الاستانة وكان
الذي في يده من المال نزرّاً لا يكفيه أن يعيش سلطاناً بل لا يكفيه أن يعيش
كسائر الناس مدة طويلة مكفياً قوت يومه أشار عليه بعض أعوانه بقوله :
انك تقدّر أن تأخذ بعض قطع من جواهر التاج المحفوظة في خزانة سراى طوبقو
والتي فيها من النفائس ما يقوم بمدة ملايين من الجنيهات وانت معذور في ذلك
حتى تتمكن من معيشتك في الغربّة بالمقدار الضروري . فقال له السلطان وحيد
الدين : « بن بويله خر سلق يا عم » أي لست أنا من يرتكب هذه السرقة ،
وهذه الرواية مؤيدة بواقع الحال إذ لو شاء السلطان وقتئذ أن يأخذ شيئاً من تلك
النفائس ما كان أحد يقدر ان يمنعه ولكنه أبى لنفسه أن يلوثها بفمالة كهذه « والحر
حر ولو مسه الضر » وكل يذكر ان إحدى نسائه جاءت الى مصر وبلغ منها الفقر
مبلغاً ان قذفت بنفسها في النيل لتخلص من هذه الحياة، وان اناساً أدر كوها فانتشلوها
ووضعت في المستشفى

ومن قصائد شوقي البديعة ما خاطب به ام الخديوى السابق التي كان يقال لها أم
الحسين بعد نهضتها تلك في حرب طرابلس الغرب :

ارفعى الستر وحيي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج فينا ساعة نقبّس من نور أم الحسين
واتركى فضل زماميه لنا نتناوب نحن والروح الأمين
قد سقيننا بمحياك الحيا ولقمنا حول يمينك اليمين
ثم يقول :

يامثالا للعقيلات العلي وكمالا للنساء العالمين
جارة الاسلام في محنته على الجارات مما تعلمين
ذكرين فروقاً وصفي طلعة الخيل عليها والسفين
وولياً للطواغيت بها كان يدعى بأمر المؤمنين

يقول لها وهي راجعة من الاستانة الى مصر لتحدث عن حال الاستانة وهنا تسكّم

فى السلطان وحيد الدين بما كان وقتئذ شائماً ورأئجاً من انه خان امته ومالاً الانجليز عليها وما أشبه ذلك من الاقاويل التى كان يذيعها الكماليون وكانت تنشر فى الخلق وتجد هوى فى نفوسهم لشدة ماعانى أهل مصر وأهل الشرق أجمع من ظلم الانجليز وما وقر فى قلوب الناس من بغضهم

وحقيقة الحال هى ما ذكرناه من كون السلطان محمد السادس انما غلب عليه الخوف واعتقاد انه ان خالف الانجليز لم ينفعه نصير فى العالم وقد يخرجونه من الاستانة ويعيدونها الى الاروام. ومن كان فى ذلك الوقت يعتقد أن الانجليز سيرحون الاستانة أو أن الحركة الوطنية فى الاناضول ستؤول الى نجاح ؟ بل رجال تلك الحركة أنفسهم كانوا يقولون انهم لا يريدون أن يسلموا تركيا بمن نجس أى أنهم لا يأملون الفوز لكنهم يريدون ألا تذهب بلادهم رخيصة . وهناك امور نحب أن تبقى مطوية على غرّها واسماء اشخاص هم على رأس تركيا اليوم كانوا قطعوا الأمل من استقلالها الى حد أنهم أجمعوا على وجوب جعلها تحت انتداب احدى الدول العظام لكنهم اختلفوا فى الدولة التى يجب أن تكون منتدبة عليها فبعضهم أشار بانجلترا والآخرين أشاروا باميركا ، وتوجد وثائق خطية تثبت كون هؤلاء الذين يديرون تركيا اليوم لا غيرهم قد وصل بهم اليأس الى أن أشاروا بجعل تركيا تحت انتداب احدى الدول العظام وهى تلك المماكة التى كانت بالامس احدى الدول السبع العظام اللواتى اليها الحل والعقد فى العالم . فلا نعلم بعد هذا وجه التشدق والتنطق فى حق السلطان وحيد الدين وتخصيصه باليأس دون سواء وقد كانوا باجمعهم يائسين .

يرى القارئ اننا فى التعليقات على قصائد شوقي التاريخية لم نستكشف أن نخرج على التاريخ ولو بصورة مجملّة أو باشارات خفيفة وذلك لان الشعر التاريخى يحتاج أحياناً الى تفسير يقويه ويجلى بداعة نكته . ومع هذا فلو شئنا أن نتوسع فى هذه المواضع التى طرقها شوقي فى شعره لاستهدف لنا غرض لا ينتهى وعرضت تفاصيل لا تنقضى ، ونحن كل ما أردناه انما هو الاتيان المختار والسائر على ألسن الناس من شعر شوقي وما نراه نحن من شعره منيفاً على غيره فان للناس أذواقا مختلفة وقد يرى الواحد مالا يرى

الآخر ، وفي عرض هذه الشواهد قد تعن لنا ملاحظة فنبيدها على غير اطراد وبدون أن نتخذ ذلك قاعدة وبدون أن نخوض في نحو ولغة وبيان وبديع وعروض الا ما عرض اتفاقاً فليس ما علقناه على هذه الشواهد من شعر أمير الشعراء شرحاً ولا تفسيراً إذ لو توخينا ذلك لطال بنا الأمر وخرجنا عن الخطة التي رسمناها في عملنا هذا الذي هو عبارة عن عهد بين صديقين وذمة بين أخوين .

وانى لأخجل من نفسى اذا رأيتنى قصرت فيما يجب علىَّ نحو شوقى بعد وفاته وانى لأتخيل شوقى - وهو الذى يقول كما جاء فى جريدة كوكب الشرق : انى أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعز أحداً عليهم - قد نظر الى من برزخه وأطل على من نافذة الغيب وحدق بى بعيونه تلك التى كان يقول فيها صديقنا الشيخ على اللبى (محاجر مسك ركبت فوق زئبق) وقال لى : أهكذا ضمنتنى يا أخى بعد وفاتى ؟ وانه فى تلك الساعة قد ينشدنى قول أبى العتاهية :

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى ويحدث بعدى للخليل خليل
اذا ما انقضت عنى من الدهر ليلة فان بكاء الباكيات قليل

فأبدأ أجيبه قائلاً : لو نسى عهدك الاولون والآخرون لما خفرت لك عهداً ولا مذقت لك ودأ وانك فى الغيب عندى لكما فى المشهد وانت تعلم أنها صداقة أربعين سنة تساقيد كؤوسها صفواً بدون قذى وتبادلتا رباحينها عفواً بدون أذى فان أظماً عهدك النسيان فى مدامع ترويه ، وان شطت بشعرك النوى فان الدهر كله يرويه ، وانه وإن بكاك الناس حباً بالأدب ورحمة للسان العرب فانى لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البر بلغته الغيور على صناعته ، وصفة الأخ الضنين باخوته الحريص على مروءته ، فأنا فى مقدمة من لك من الاخوان والأتراب الذين يكون فضلك ويذكرون عهدك الى أن يواروا فى التراب

نقلنا هذه الشواهد من الطبعة الأولى من الشوقيات وهى التى فيها المقدمة التى بقلم شوقى ومن الطبعة الثانية التى مقدمتها وأظن تفسيرها بقلم الدكتور محمد حسين هيكل وكأهدانى شوقى الطبعة الاولى بخط يده فقد أهدانى الطبعة الثانية أيضاً بخط يده

وكتب عليها هذه العبارة : (الى مولاي وصديق الكريم الأمير شكيب أرسلان) .

المخلص شوقي

٣٠ ابريل سنة ١٩٢٦

فسلاماً يا أخى ومولاي وبنور عيوني وتحيية طيبة والله أسأل أن يجعلنا أخوين في
عالم الغيب كما كنا في عالم الشهادة ولا يجعلها بيننا آخر معهد

ومن رقيق شعر شوقي :

لا السر يطويه ولا الاغضاء ليل عداد نجومه رقباء
داجى عباب اليم فوضى فلكه ما للهموم وما لها ارساء
أغزاله الاشواق أنت من الدح ومن السهاد لو التفت شفاء
رفقا بجفن كلما أبكيت سال العقيق به وقام الماء
ما مداهدا ليصطاد الكرى إلا وطيفك فى الكرى العنقاء
كان القرير وكنت زهو عروشه فخلون منك ونابت الاقضاء
وخسرتن لياليا نهل الصبا مما أفضن وعات الاهواء
وله من قصيدة الى الجناب الخديوى :

وشمس تعالت أن تنار وان ترى وان تدعى شرقا وان تدعى غربا
وما جات الاضواء عنها وانما بهرن بها من حيث كن لها حجبها
أغر ن بها الدنيا هوى فتغيرت وما زالت الدنيا لضراتها حربا
رمى بي القوافى من رمى السحر قبلها بموسى وأعيى بابن مريم الطبا
فأسمعت عباس الندى كل آية من الشكر لم تترك لذى منطق ريبا
فتى الملك ما هذا السمو ببيتته تركت السهى حيران فى بابها صبا
لك العرش والتاجان والمطرف الذى تسير على التيجان تسجبه سحبا
وملك عريق فى الوجود ودولة أظل بها آباؤك العجم والعربا
ولما أتيت القيصرين ويوسفا وأسكار والمختار فى قومه الندبا
نخذت اليهم على الذكر مركبا وجم الثنا زادا وشم العلى صعبا
وقيل ابن رب النيل فاقترت القرى وناجى الثرى لعليك يستوهب الخصب

وطالت عروش المالسين تشرفا
ولكن عرشا تحته النيل جاريا
ومن شعره في الخديوى :

صحوت واستدركتني شيمتى الأدب
وما رشادى الا لمع بارقة
دعت فأسمع داعيها ولو سكنت
وهكذا أنا فى همى وفى همى
ولى همامة نفس حيث أجعلها
لاحيث تجعلها الأحداث والنوب

كل من يقرأ هذه الأبيات يلحظ أن شوقى أراد بها معارضة محمود سامى فى قصيدته
البائية التى يقول فيها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب
وما كنت ممن تأسر الخرابه
ولكن أخوهم اذا ما ترجحت
نفى النوم عن عينيه نفس أبية
بعيد مناط الهتم فالغرب مشرق
له غدوات يتبع الوحش ظاهها
همامة نفس صغرت كل مأرب
ومن تكن العلياء هممة نفسه
اذا أنا لم أعط المكارم حقها
ولا حملت درعى كهيت طمرة
أسير على نهج يرى الناس غيره
فلست لامر لم يمن متوقعا
خلقت عيوقاً لا أرى لابن حرة
وإنى اذا ما الشك أظلم ليلاه

وغيرى بالذات يلهى ويمجب
وعلك سمعته اليراع المنقب
به سورة نحو العلا راح يدأب
لها بين أطراف الأسنة مطالب
اذا مارى عينيه والشرق مغرب
وتغدو على آثارها الطير تنقب
فكلفت الأيام ما ليس يوهب
فكل الذى يلقاه فيها محب
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا دار فى كفى سنان منرب
لكل امرئ فيما يحاول مذهب
ولست على شىء مضى أتعقب
لدى يداً أغضى لها حين يغضب
وأمتت به الأحلام حيرى تشعب

صدعت حفاقي طرته بكوكب من الراى لا يخفى عليه المغيب
ونقم من الهيجاء خضت عبا به ولا عاصم إلا الصفيح الشطب
تظل به حمر المنايا وسودها حواسر فى ألوانها تتقلب
وقد عارض محمود سامى بقصيدته هذه قصيدة الشريف الرضى التى أولها :
لغير العلى منى القلى والتجنب ولولا العلى ما كنت فى الحب أرغب

ومع جلالة قدر الشريف الرضى وعلو كعبه فى الشعر وفخولة لغته التى ينزع بها
عرق الهاشمية الكريم ومجدها الصميم لا يقدر أحد أن يقول ان البارودى قصر عن
الرضى فى شىء بل ربما أناف عليه، ولثل قصيدة البارودى هذه وأشباهها صرحت بأنه
سيد الشعراء فى وقته وقلت فى رثائه :

كان الأوائل فى الأنظار معجزة حتى أتى فشأى من جد من قدما
ولاشك أن شوقى لا يرقى فى الجزالة وعاو النفس الى هذه السماء ولكن له أسلوب
آخر كما تقدم الكلام عليه طابعه السلاسة ومزجه الرقة وانظر الآن الى قوله :
أرشكت أتلف أقلامى وتلفنى وما أنلت بنى مصر الذى طلبوا
هو رأوا أن تظل القضب مغمدة فإن تذيب سوى اغمادها القضب
رضيت لو أن نفسى بالرضى انتفعت وكم غضبت فما أدنانى الغضب
نالت منابر وادى النيل حصتها منى ومن قبل نال اللهو والطرب
وملعب كمعانى الحسلم لو صدقت وكالأمانيّ لولا أنها كذب
تدفق الدهر باللذات فيه فلا عنها انصراف ولا من دونها حجب
وجاملت عصبة يحيا الوفاء بهم فهم جمال الليالى أو هم الشهب
باتوا الفراق لألاء وما سفروا عليه والبان أعطافا وما شربوا
وأسعدت مشرفات من مكانها حمر المناقير فى لباتها ذهب
مستأنسات قريرات بأخبية من سندس الروض لم يمدد بها طنب
ما بين حام يهاب الجار ساحته وناشئ يزدهيه الطوق والرغب
وغادة من بنات الايك ساهية ما تستفيق وأخرى همها اللعب

قريرة العين بالدنيا مروعة بالاسر تضحك أحياناً وتنتحب
وتبرح الفرع نحو الفرع جاذبة بالغصن فالفرع نحو الفرع منجذب
وهنا أراد شوقي أيضاً أن يعارض محمود سامي فيما بقي من قصيدته البائية التي أوردنا
مأوردنا منها وفي قصيدة رائعة يتكلم بها عن الحمام.

واليك ماقال محمود سامي في قصيدته البائية هذه مما تعلم منه أن شوقيا أراد أن
يجرى مجراه ولكنه جرى ضمن أسلوبه وعلى شاكلة لغته . قال محمود سامي :
كذلك دأبى في المراس واننى لأمرح في غي التصابي وألعب
وفتيان هو قد دعوت وللكرى خباء بأهداب الجفون مطلب
مامسرت في حياتي بجملة أعلى في درجة البلاغة وأبدع في التصوير من قوله
(وللكرى خباء بأهداب الجفون مطلب) وكيف لا يكون شاعر الأولين والآخرين
من يغزى هذا الغزى ؟ ثم يقول :

الى مربع يجرى النسيم خلاله بنشر الخزامى والندى يتصبب
فلم يعض ان جاءوا ملبين دعوتى سراعا كما وافى على الماء ررب
بخيل كآرام الصريم وراءها ضواري سلوق عاطل وملب
من اللاء لاياً كن زاد أسوى الذى يضرسنه والصيد أشهى وأعذب
نرى كل محرم الجمال بقى فاجر الى الوحش لا يألو ولا يتنصب
يكاد يفوت البرق شداً إذا انبرت له بنت ماء أو تعرض ثعاب
فلان الى واد كأن تلاعه من العصب موشى الجبائل مذهب
تراح به الآمال بعد كلالها ويصوب اليه ذوالحجا وهو أشيب
فبيننا نرود الارض بالعين إذ رأى ربيثنا سرباً فقال ألا اركبوا
فقمنا الى خيل كأن متونها من الضمر خطوط الصيمران المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت فما كان إلا لفظة الجيد أن غلت
وقلنا لساقينا أدرها فانما قدور وفار اللحم وانفض مأرب
قصارى بنى الايام أن يتشعبوا (م - ٩ شوقي)

فقام الى راقود خمر كأنه اذا استقبلته العين اسود مغضب
 يمج سلافا في اناء كأنه اذا ما استقبلته الانامل كوكب
 فلم نأل ان دارت بنا الارض دورة وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب
 الى أن تولى اليوم الأقبله وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
 فرحنا نجر الذيل تيهما لمنزل به لأخى اللذات والاهو ملعب
 مسارح سكير ومربض فانتك ونخدع أكوأب به الخمر تسكب
 فلما رأنا صاحب الدار أشرقت أساريه زهواً وجاء يرحب
 وقال : انزلوا يابارك الله فيكمو فعندى لكم ما تشتهون وأطيب
 فما زال حتى استل منه سبيكة من الخمر تطفو في الاناء وترسب
 فيا حسن ذاك اليوم لو كان باقياً ويأطيب هذا الليل لو دام طيب

لا جرم ان هذه هي الفصاحة التي تأخذ بجماع اللب وتفك أغلال القلب والتي
 من أجابها قال مصطفى صادق الرافعي ان شعر محمود سامي هو الذي بعث الشعر في
 الناس وأنجب لمصر مثل حافظ وشوقي

فأما ما عارض به شوقي محمود سامي من وصف الحمام فهو يشير الى رائية محمود
 سامي التي عارض بها أبا نواس عندما مدح الخصيب أمير مصر، قال أبو نواس :

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فقال محمود سامي :

أبي الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير
 وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينم عليها مدمع وزفير
 خضعت لأحكام الهوى ولطالما أبيت فلم يحكم على أمير
 أفل شباة الليث وهو مناجز وأرهب لحظ الريم وهو غرير
 ويجزع قلبي للصعدود وإني لدى البأس إن طاش الكمي صبور
 وما كل من خاف العيون يراعة ولا كل من خاض الحتوف جسور

إلى أن يقول :

ويارب حتىّ قد صبحت بغارة تسكاد لها شم الجبال تمور
وقد كان أبو نواس خرج من بغداد قاصداً مصر ليمدح أبا نصر الخصيب ابن
عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بها فأنشده القصيدة وذكر المنازل التي مر عليها في
طريقه وهي من أذكى ما أثمر الشعر العربي ومن مشهور أبياتها :

تقول التي من بيتها خف محملى عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواذر جرت فجري من جريهن غدير
ذريني أكثر حاسديك برحلة الى بلدة فيها الخصيب أمير
إذا لم تر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب تزور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ويمعلم أن الدائرات تدور
ومنها :

فمن كان أمسى جاهلاً بمقالتي فان أمير المؤمنين خبير
وما زلت توليه النصيحة يافعا الى أن بدا في العارضين قتيير
إذا غاله أمر فاما كفيته وإما عليه بالكفى تشير

ثم يقول :

زها بالخصيب السيف والرمح في الوري وفي السلم يزهو منبر وسرير
جواد إذا الأيدي قبضن عن الندى ومن دون عورات النساء غيور
فانى جدير أن بلغتك للغنى وأنت لما أملت منك جدير
فان تولنى منك الجميل فأهله وإلا فانى عاذر وشكور
ويقال ان أبو نواس لما عاد الى بغداد مدح الخليفة فقال له : وأى شيء تقول فينا
وقد قلت في بعض نوابنا :

إذا لم تر أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب تزور

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأشد :

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لفيرك إنساناً فأنت الذي تمنى
هكذا روى ابن خلكان في وفيات الأعيان وقد روى ابن خلكان أيضاً معارضة
لهذه القصيدة النواسية لأبي عمرو بن محمد بن دراج القسطلي الأندلسي كاتب المنصور
ابن أبي عامر وشاعره ، وهذه المعارضة هي من غرر الشعر ومن أبدع أمثلة الأدب
العربي قال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفني طول السفر وأنه لتقبيل كف العامري سفير
دعيني أرد ماء المفاوز آجنا إلى حيث ماء الكرمات تمسير
فإن خطيرات الممالك ضمنت لراكبها أن الجزاء خطير
ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هما بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبعوم النداء صغير
عبي بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
فكل مقداة الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيح النفس فيه وقادني رواح لتدأب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من دعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيورا فأنى على عزمي من شجوها لغيور
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي على ورقراق السراب يمور
أسلط حر المهاجرات إذا سطا على حر وجهي والأسيل هجير
واستنشق النكباء وهي لواقح واستوطى الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلون وللدعر في سمع الجريء صغير
لبان لها أنى من البين جازع وانى على مض الخطوب صبور

أمير على غول التناثف ماله اذا ربيع الا المشرفي وزير
ولو بصرت بي والسرى جل عزمي وجرسى لجنان الفلاة سمير
واعتسف المومة في غسق الدجى وللأسد في غيل الغياض زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها كواكب في خضر الحدائق حور
وقد خيلت طرق المجرة انها على مفرق الليل البهيم قشير
وثاقب عزمي والظلام مروع وقد غص أجفان النجوم فتور
إذا أيقنت أن المني طوع همي واني بعطف العامري جدير
وأحسن ما في هذه القصيدة قوله في علو الهمة :

دعيني أرد ماء المفاوز آجنا الى حيث ماء السكرمات نير
فان خطيرات المهالك ضمن لراكبها ان الجزاء خطير
وقوله في وصف الطفل وقد فارقه أبوه وهو في سريه وكننا قد عرف لوعه
هذا الفراق :

عيّ بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهواء النفوس خبير الخ
ومما استولى فيه على الامل وصفه مشاق السفر وقطع الفياق في حر الهواجر
وذلك عند قوله :

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي على ورقراق السراب يمور الخ
فقصيدة ابن دراج القسطلي تصح أن تكون ضرة لقصيدة أبي نواس وان
كان في شعر ابن دراج شيء من الصنعة وكان شعر أبي نواس أقرب الى الطبيعة
وكل منهما في نظري ليست أبرع ولا آنق ولا أعب بالأللاب من قصيدة البارودي
التي فيها من النسيب واللهو والشراب ووصف الحمام الى الفخر الى الحماسة
ماليس وراءه لتطالع .

ولحمود سائي جولة أخرى في وصف الحمام في القصيدة التي بعث بها الى من
سيلان اذ فيها يقول :

وترنمت فوق الأراك حمامة تصف الهوى بلسان صب مولى
تدعو الهدبل وما رأتها وتلك من شيم الحمام بدعة لم تسمع
ريا المسالك حيث أمت صادفت ما تشهى من مجثم أو مرتع
فاذا علت سكنت مظلة أيبكة واذا هوت وردت قرارة منبع
أملت على قصيدة فجعلتها لشكيب تحفة صادق لم يدع

فأنت ترى اذا أنعمت النظر فى أبيات محمود سامى التى يصف بها الحمام ثم كررت
بنظرك على أبيات شوقى من عند قوله :

وأسعدت مشرفات من مكائنها حمر المناقير فى لبساتها ذهب
ان شوقى أراد أن يعارض شيخ الشعراء فى وقته وان كلاهما قد بلغ شأوالاجادة
ضمن دائرة ديابجته

وهذه القصيدة البائية لشوقى هى من عيون قصائده وهى التى فيها يقول :
والصدق أرفع ما اهتز الملوكة له وخير ما عود ابناً فى الحياة أب
وأما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
أليس هذا هو البيت الذى سار مسير القمر وصار حديث السمر وأصبح مثلاً
مضروباً يستشهد به كل يوم ويدور على ألسن العوام فضلاً عن الخواص فلو لم يكن
لشوقى غيره لاخلده . ومن أرق أغزال شوقى :

لى الله ما أغرى الغرام بهجتي وأهدى لاقمار المنازل مقلتي
بدورأتانى من مطالعها الهوى فما أوقعتنى فيه حتى استسرت
فبت برينى الوهم فى الجو ساما ومن لى فى سكنى السماء بحيلتي
خليلى مالى بالديار موكلأ أروح لا تلافى وأغدو لفتنتي
طرقت فتاة الغرب والليل مقبل طروق ابن آوى من حذار ورقبة
فقات عجزوز يا أخا الشوقانها تخاف أباهاً فأتها بعد هجعة
سيسأل عنها الساهرون على الحى ويسمع عنها نسوة فى المدينة
فقلت هبها مريماً أنا يوسف تعالى ضميرى أن يهيم بريسة

أبت لي الدنيا عزة عربية ودين يرى الفحشاء شر ذريعة
فلا رحم الرحمن بعد كثير محبا ولا صلي على غير عزة
وأيضاً

يود من الأرواح ما لا توده ويفتك فيها مسرفاً وهي جنده
غير تواليه المحاسن وّردا وتنهل منه النفس لو راق ورده
مروع بالسام النسيم مروع بماض خفيف ينزع اللب حده
إذا استلّه في أنسه أو نفاره فكل فؤاد في البرية غمده
وان هز أعطافاً فما مركز القنا بأشقى من الأكباد فيهن قده
خذوه بنفسى انه هو قاتلي ولا تقتلوه انى أنا عبده
ولا تسألوه ما ذنوبى واسألوا قبول مثابى قبل ذنب أعدى
ولا تذكرونى عنده بشفاعه فان شفيع الواجد الصب وجده
فان يك فيما يزعم الناس قد سلا فما بال قلبى عنده لا يرده
لجافى الذى لم يعرف السهد جفنه ولم تدر تقليب المضاجع كبده
وقاطعنى من كنت أرجو وفاءه وأين أخو الود الذى دام وده

دفع اعتراضه

ربما يعترض بعض القراء على سردى هذه الأمثال من شعر شوقى من دون أن أعلق
عليها ما يمن لي فيها وما أجد من محل اعتراض أو من مكان إعجاب والجواب انى لو شئت
أن أردف كل بيت بما يبدو لي فيه لاستغرق ذلك أجلاً داءاً. والحال اننا من البدء ما قصدنا
شرح شعر شوقى ولا التعليق عليه بما يبدو لنا في كل بيت منه وانما هي رسالة توخينا
فيها تجديد ذكرى شاعر كبير وتسجيل علاقاتنا مع أخ قديم انجازاً لوعده قطعناه على
نفسنا يوم فجعنا به والأخاء اخاء في الحياة وبعد المات وعلى اللاحق أن يحفظ عهد

السابق . وأراني قد أشفقت على عهد شوقي أن ينسى وتخلت روحه من وراء الغيب
تنشدني :

سيمر ض عن ذكرى وتنسى مودتي ويحدث بمدى للخيال خليل
إذا ما انقضت عني من الدهر ليلة فان بكاء الباقيات قليل
ولما كانت ذكرى شاعر كبير لا بد من أن تسدى وتلحم بالشعر فقد أوردنا
ما أوردناه من الشواهد لا على سبيل شرح ولا على نية تفسير ولكن ان خطرت في بالنا
جملة أرسلناها عقوا أو عدت ملاحظة يروق الادباء قيدها لم نجمع بها . وسنتبع هذه
الطريقة الى الآخر

رأى للمؤلف

فأما أسلوب التحليل الذي درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة
من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الافرنج لا في المعنى فقط بل بالألفظ تقريباً
ويورد الواحد منهم البيت فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه
ويشير الى ما هنا من عاطفة جريئة وما هناك من ابتسامة بريئة ويستعمل في الوصف
تلك الألفاظ الأوروبية التي ليس فيها من العربي الا الحروف بحيث ان كثيراً من
العرب لا يفهمون منها قليلاً ولا كثيراً فلسنا من هذا الأمر في قبيل ولا دبير . واننا
لا نحب أن نخلط العربي بالاعجمي ولا أن نخطب العرب الا بما يعقلون ويشعرون
وما تسيغه أذواقهم فان لكل أمة أدبا ولكل قوم مشربا وان الخلط بين شعبان
ورمضان اظهارا لسعة العلم وتريدا بما ليس من مقتضى الواقع ليس بطريقتنا واننا نؤثر
على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوروبية رأساً كما يفعل المستشرقون
الاوروبيون اذا أخذوا كتابا عربياً فشرعوا في تحليله ، نعم نؤثر الكتابة بلغة أوروبية
في هذا الموضوع على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوروبية في حروف عربية يمشي فيها
القارئ مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الانفاظ المترجمة وبهذه الاعلام التي
هي غريبة عن قومه

فالدی يحمل نفسه على قراءة هذه التحليلات التي نحاول أن نجري فيها
مجرى كتاب الاوروبيين تراه أبدا يشرب ولا يرتوى . ومن الناس من يظن
عدم عقله لها ناشئاً عن مجرد جهله والحقيقة ليست كذلك بل انها من باب وضع الشيء
في غير محله . لا بأس في الاحايين في أن يورد الكاتب في تحليله لببيت من شاعر
عربي معنى قد توارد عليه مع شاعر اجنبي او ملاحظة ظهر فيها شيء من الموافقات
أو المفارقات بين أدبنا وادبهم ، فأما اتخاذ هذا الاسلوب دأباً وديناً كما اردنا ان
نصف بيتاً لطرفة بن العبد أو قصيدة للاعشى لزمنا ان نفهم فيها فيكتور هوغو والفرد
ديعوسيه ولا مارتين وغوته وشكسبير وان نكثر على قراء العرب من سرد اعلام لا يعلمون
عنها شيئاً تقريباً فهذا تنطع بالفارغ وتحذلق غير سائغ والأولى بنا أن نراعي قبل كل
شيء الذوق العربي وان نستشهد بادباء العرب ونعلم انه كما كان العربي يعاف طعام الأمم
الأجنبية وشرابهم فانه لا يتسوغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم وليس الشعر والأدب
ميكانيكيات ومواد ، يستوى فيها العربي والعجمي . وقدفات الناس ان الشعر هو شيء
والعلم شيء آخر فلو فكروا ملياً في هذا الأمر لأراحوا أنفسهم مما يعانونه هم ويعانيه
قراؤهم معهم

عود الى غمر شوقي

ومن غزل شوقي عفا الله عنه :

عرضوا الأمان على الخواطر	واستعرضوا السمر الخواطر
فوقفت أحذرهم وياً	بي القلب إلا أن يخاطر
يا قلب شأنك والهوى	هذى الغصون وانت طائر
ان التي صادتك تر	عى بالقلوب لها النواظر
ياتغرها انا فيك كالـ	غواص أحلم بالجواهر
يا لحظها من امها	أم من أبوها في الجآذر
يا خصرها لي منك في	ليل الهوى وهم مسامر

ياردفها بالله كن بعريض جاهك لى مؤازر
ياشعرها لا تسع فى هتكى فشأن الليل ساتر
ياقدها حتام تغدو عادلا وتروح جائر
مولاي عبدك ما غوى لكنها خطرات شاعر
عفواً فاست بأول فى ذا المقام ولا بآخر
ومن مرقص أشعار شوق قصيدة فى الخديوى منها .

نفدى المسافر والسفر والأقربين من النفر
وركابهم لما مشى وقطارهم لما صفر
ومسيرهم بين السلا مة والكرامة والظفر
وقدمهم اسكندرية والايب المنتظر
وطلوهم والصبح فيها بالحجول وبالغرر
قل للعباد هو الهلا ل ولبلاد هو المطر
فى ذمة الآيات رحلته وفى حفظ السور
ملك أبوه محمد لا غرو أن يقفو الأثر
من فى السراة سواك تجلوه المنازل كالقمر
وتحله فى ثغرها يوماً . ويوماً فى البصر
ولقد أقول اذا بلة مت بلثم راحتك الوطر
ياروض هل لك فى الشذى ياجر هل لك فى الدرر

ومن قصائده فيه :

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا
وقلنا فباتت مصر فى مجدها مصر
ومنها :

سندعو بنى الدنيا الى النيل دعوة
وملكاً كما تهوى الأحاديث عالياً
فتمرح فى أيامه النفس حرة
كأن الخديوى فيه قيصر أو كسرى
تناولها قشباً وتلبسها خضرا
تلون منها الجاه والنائل الغمرا

استطراد ورأى في المديح

ولقائل أن يقول : ما هذه إلا أمداح فارغة ، ومنازع قديعة أشبه بمنازع الشعراء الذين كانوا ينتجعون الملوك طمعاً في الجائزة . وقد كان الأليق أن يضع براعته حيث يضع الناس عقيدتهم لا حيث يرجو هو منزلة سامية ونعمة هامية فإن هذه محاولات شخصية لا تفيد وطناً ولا تؤيد قوماً إلى غير ذلك مما طالما أخذوه على شوقى وعلى غيره من شعراء الملوك ، ولقد قدمنا في هذا الباب ما فيه مقتنع وهو أن شعراءنا لم يفارقوا الطريقة القديمة التي معناها أن الشاعر يجود على الملك بنفائس أدبه ليجود عليه الملك بنفائس نشبه أو ليحله محل القرب والتقديم ويبلغ به آمالاً ويرفه حالاً . وسواء كانت هذه الطريقة قديمة أو حديثة فالشاعر في هذا الوطن لا يفترق عن غيره من البشر الذين كل منهم يرتاد لمعيشته وينتجع لسد مفارقة وما زالت أعمال الناس أجمع شباكا تلتقي في بحر الوجود ليصطاد بها الانسان ما يقسم له حظه وان القول هو من جملة الشباك التي تنال بها الخطوط . وقد قال أبو بكر الخوارزمي : لاصيد أعظم من انسان ولا شبكة أصيد من لسان وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته وبين من اقتنص إنسياً بمقالته

ولعمري لا غضاضة على من حاول مثل هذا الاقتناص اذا لم يشب ذلك بالسعادة والوشاية والاضرار بالناس وجعل الباطل حقاً والحق باطلاً فما نهى الله الانسان عن السكده لأجل معيشته ولكنه نهى عن إتيانه هذا الباب عن طريق الباطل وبالوسائل غير المشروعة وأيضاً فان الشاعر لا يزال يلتمس موضعاً يشجذ فيه غرار قريحته ومجالاً يركض فيه جواد ملكته فلا يجد لذلك خيراً من خطاب الملوك الذين ان لم يستحق الواحد منهم كل هذه المدائح بمحاسن خلاله وجلائل أعماله فقد استحقها بالمقام الذي يشغله على رأس الأمة ، فتعظيم الملك هو تعظيم الأمة التي هو ملك عليها وتعزيز المقام انما يكون بتعزيز المقيم .

ولقد ذكرنا فيما تقدم أن استيلاء الأجانب على أكثر بلاد الاسلام واستئثارهم

بالامر والنهي والقطع والوصل وتركهم ملوك المسلمين عبارة عن أشباح ماثلة حمل كثيراً من مفكرى الاسلام شفاقاً على ملكهم وضناً بدولهم أن يتقربوا من ملوكهم وأمرائهم الذين يرون فيهم رض السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق وأن يشيدوا بذكرهم ويهتفوا بمبايقتهم في وجه الأجانب وأنهم لما فاتهم الفعل فزعوا الى القول يذكرون به أقوامهم وكأنهم يقولون لهم ان هذا هو سلطانكم الشرعى الذى يجب أن تجتمعوا حوله وتستردوا به الحقوق المخصوصة وأن الحق حق لا يذهب باعتداء الأجانب ولا بما يطرأ من الغير فيهم يحاولون إحياء فكرة الاستقلال في صدور الامة وتلقيها أن ما هي عليه من الخنوع للأجنبي إنما هي حالة مؤقتة وأن الأمر لا بد أن يمود الى نصابه . وبالجملة فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد .

مه معارضات شوقي

ولشوقي قصيدة في الخديوى يمارض فيها قصيدة البحترى الرائية في المتوكل على الله العباسى . قال شوقي :

أشكو هـواك لمن يـوم فيعـذر	وأجادل العـنـال فيك وأكـثر
وأبيت أجتنب الرقيب وأتقى	وأخاف ألسنة الوشاة وأحذر
وأصون ذكرهـواك عن هذا الـورى	وأجل سرك أن يذاع وأكبر
وأردد الزفرات فيك وأشتكى	وأعلل القلب الشقى وأصبر
الله في صبب قضى إنسانه	سهرأ عليك ومن بحبك يسهر
وجوانح بليت وما بلى الأسى	وحشى تموج به الضلوع وتظهر

فشوقي عندما كان يقول هذه القصيدة الرائية كان كأنه ينظر الى قول أبى عبادة :

أخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر	وألام فى كمد عليك وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن	عهـد الهوى وهـجرت من لا يهـجر
وطلبت منك مودة لم أعطاها	ابن المعنى طالب لا يظفر
هل دين علوة يستطاع فيقتضى	أو ظلم علوة يستفتى فيقصر

ثم تخلص شوقي من النسب الى المديح اقتضاباً على طريقة البهتري فانه بينما كان ينسب ويقول : وحشى تموج به الضلوع ويظهر . اذا به خاطب الممدوح فقال :

هجر السكرام اليك يا ابن محمد ورحابك الدنيا التي لا تهجر
تهتز من كرم وترتجل الندى وتنيل من فوق الظنون وتغمر
وتعيد عهد الجود بالنعم التي يحيا الزمان ببعضها والأعصر
ثم يقول :

وكذا الأصيل إذا سما للخليقة شرعت مناسبة وسن العنصر
لولا دماء في العروق كريمة ماعف كسرى أو تواضع قيصر
ثم يقول :

وأعدت للنيل الملووم وعهداها والعالم تاج للبلاد ومظهر
ماجل عيب أو تناهت سوءة الا وعيب أخى الجهالة اكبر
واذا الفتى لم يحمله عرفانه فالحسن أول شائن والمنظر
أيدت أعلام الامارة بعد ما طوت الخطوب وأقسمت لا تنشر
وكذلك البهتري بينما يقول :

إنى وان جانفت بعض بطانتي وتوهم الواشون انى مقصر
ليشوقنى سحر العيون المجتلى ويروقنى ورد الحدود الاحمر
إذا به انتقل الى المديح اقتضاباً فقال :

الله مكن للخليفة جعفر ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلهما والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقبل على الغنى والمسكر

وكان شوقي يهنى الخديوى بعيد مولده فقال :

شرفا جهادى نات بالعباس ما لا ترجيه من البدور الأشهر
أو كلما جددت الدنيا سننا ذكرت ولاد السعد فيما تذكر

في المهد يرعاه الرجاء ويرتجى
وتطول أعناق السراة برهبها
يوم هو الأعياد إلا أنه
حسب الزمان به يتيه ويفخر

والبحتري كان يهني المتوكل بمعيد الفطر فهو يقول:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم
فانعم بيوم الفطر عينسا إنه
وبسنة الله الرضية تفرط
يوم أغر من الزمان مشهر

ووصف البحتري موكب الخليفة وكان هذا من الاوصاف التي لا تزال تعد من غرر

الشعر وتخصي في منتخبات الشعراء قال :

أظهرت عز الملك فيه بجحفل
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
فالخيل تصهل والفوارس تدعى
والأرض خاشعة تميد بثقلها
والشمس مائعة توقد بالضحي
حتى ظلمت بضوء وجهك فأنجبت
وافتن فيك الناظرون فاصبع
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
ذكروا بطاعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت الى المصلى لا بسبا
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو ان مشتاقا تكلف غير ما
أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النبي مذكرا
ومواعظ شفت الصدور من الذي
صلوا وراء الآخذين بعصمة
لجب يحاط الدين فيه وينصر
عددا يسير بها العديد الأكثر
والبيض تلمع والأسنة ترهـر
والجو معتكر الجوانب أغـر
طوراً ويطفشها العجاج الا كدر
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
يومي اليك بها وعين تنظر
من أنعم الله التي لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يزهي ولا يتكبر
في وسعه لسعي اليك المنبر
تنبي عن الحق المبين وتخبر
بالله تنذر تارة وتبشر
يعتادها وشفـاؤها متعذر
من ربهـم وبذمة لا تخفر

فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر
فعارض شوقى أبا عبادة البحرى فى وصف الموكب فقال :

باكرت دار الملك فيه بموكب قام السراة به وحف المسكر
راعت روائعه النهار جلالة فالشمس تجفل والضجى تستأخر
كسبى الخيس به جمالك رونقا وأعير غرتك اللواء الأحمر
فالأرض مأجبة المذاهب بالقنا والافق خال بالسيوف مجوهر
والخيل تمجى بالكماة وتنثى وتشير تيهها بالوجوه وتخطر
ومن السلامة فى ركابك هاتف ومن الدعاء مهال ومكبر

من قرأ القصيدتين البحرية والشوقية لم يتردد فى أن يقول ان التقديم طبع والجديد
تطبع وان الاول توليد وان الآخر تقليد . ولكن لو تأمل المتأمل وكان بصيراً
بشعر الجاهلية والخضرمين والمولدين لعلم ان البحرى والمتنبى وأبا تمام واولئك الفحول
لم ينطبعوا إلا على غرار من تقدمهم فان القراءة تستقر فى الذهن وان القوالب ترسخ
فى الطبع فتتلف بمثلها سليقة الشاعر وقد يكون لا يتذكرها ولا يتعمد محاسنها
ولا يحسب انها من محفوظه فيظن من لا بصيرة له أن هذا الشاعر قد سرق من
ذلك الشاعر الذى تقدمه . وهو فى هذا الحكم ظالم متعسف أو جاهل لا يعرف لأنه
ليس كل من جاء فى كلامه شيء متوارد مع كلام آخر يجب أن نعهده سارقاً . وقد
كنت أروى مرة قصيدة محمود سامى التى سبق ايرادنا منها وهى التى يعارض فيها رائية
أبى نواس فى الخصيب ، وذلك أمام رجل من الادباء رواة الشعر الجيد ، فلما وصلت
الى قول محمود سامى :

ولى شيمة تأبى الدنيا وعزيمة تفل شبابة الخطب وهو عسير
معوذة أن لا تكف عناها عن الجسد إلا أن تستم أمور

قال لى ذلك الأديب : ان هذا من قوله :

معوذة أن لا تسل نصالها فتعتمد حتى يستباح قتيل

فقلت له : اذا كنت تلزم هذا المذهب فلا يبقى شاعر إلا وهو سارق ولا يلبث

فوق الغربال لا متنبى ولا بحترى ولا غيرهما فان هذه المشابهات قد وجدناها بين كلامهم وكلام الجاهليين والمتقدمين في مواضع كثيرة. وماذا تقول في قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
ثم قول طرفة بن العبد :

وقوفا بها صحى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
فالبيتان بيت واحد لا يختلفان الا في لفظي (تجمل) و (تجاد) وكلاهما بمعنى واحد والحال ان الشاعرين كل منهما محل لا يحتاج أن يستعير من الآخر وكلاهما بحر لا تنزحه الدلاء .

ولشوقي من جيد الغزل أبيات تخلص منها الى مديح الخديوى وهى هذه :

دع عنك ماصاغ الوشاة وزخرفوا واسمع لحسنك انه بى أعرف
أ يكون عندك فى يدبك وجوده ويكون للعذار فيه تصرف
ماذا أقول وكيف وصفى مهجة فعلت بها عيناك مالا بوصف
يا من حوى روحى وضم بنظرة لا أنت ذو بخل ولا أنا مسرف
ما بت فيك معاديا طيب الكرى إلا وأنت على عدوى أعطف
رفعت لناظرك المحاسن دولة القول فيها ما يقول المرفف
وجبتك من بين الملاح بوجنة كالنار لا تالوى على ما تتلف
أما عدولى فى هواك فطاعنى لم يلق ما التى فكيف يعنف
أنا لا أميل الى الملامة فهى من بدع الهوى ولكل شرع زخرف
حاشا المروءة منذ سن خلا لها عباس حلمى فى الكرام ليقترفوا
ومن الغزل الذى تخلص به الى المديح قوله .

حسبو الوعود متى وفاك أترك منجزها تراك
من كل لفظ لو قبلت لأجله قبلت فساك
يروى الحلاوة عن ثنايا ك العذاب وعن لماك
رخصت به الدنيا فيكي ف إذا أناته يداك

ظلمًا أقول جنى الهوى لم يجن إلا مقلتك
 غدًا منية من رأي ت ورحلت منية من رآك
 والنفس تهلك مرة والنفس يشفيها الهلاك
 من علم الاجفان في أهدابها مد الشباك
 وتصيد الآساد بالآجام تسلبها الحراك
 يا قاسي القلب اتهد وأقل صدك في جفالك
 ماذا انتفعاعى فيك بالرحماء من بك وشاك
 نفس قضت في الحب من أولى برحمتها سواك
 عباس عش للآل عش للملك عش لبني ولاك
 قابلت بالتاج الهلاك ل وجزت بالعرش السماك
 ونهضت تبعث من ثنا لك للنجوم ومن سناك
 ومن القصائد المرقصة ما قاله في المرحوم الخديوى مهنتاً له بعيد الأضحى .
 لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها ولك البلاد عريضها وطولها

ومنها :

يسمو بك الآباء أو تسمو بهم في دولة عليا ء أنت سايها
 فحمد في الترك كان عليها يمتز معشرها به وقبائها
 ولكن غدا للعرب بيتك كعبة يسعى لها فأبوك اسماعيلها
 وإذا تسابقت الفوارس تصطلى نار الوغى فأبو أليك خيالها
 مولاي مصرك لا تزال عزيزة بين الممالك زاهرا بك جيلها
 ألفت مفاتيحها اليك فأصبحت بزن الزمان كنوزها ويكيلها
 دانت لأمرك في الامور عظام مازال مأمونا عليك سبيلها
 وتهيات لملك مملكة سما نحوا السهى بك وازدهى اكليها
 واخضر من غرس المحامد ريقها وايض من صفو الموارد نيلها
 (م - ١٠ شوقي)

فالأرض مشرقة بنور عزيزها يتلو ضحاها في الشروق أصيلها
والنيل منفجر الصيون خلاها تحليه من نغمى يديك سيولها
سمعت الوفود الى رحابك سمعها للبيت شوقا والرجاء دليلها
وكأنما علمت بمقصودك القرى فعدا يصفق زرعها ونخيلها
حسدت أهلها عليك فلو مشيت لسمعت اليك حزنونها وسهولها
حتى اذا بلغت حماك أظلم لك من ظلال المكرمات ظليلها
فرايتها مثلاً ببابك عالياً تكبيرها متواصلاً تهليلها
وتجلت الذات الموقفة التي ملك القلوب جمالها وجهيلها
يا مكرم الشعراء كم من آية لي فيك ليس لشاعر تبديلها
ألبستني حلل القلوب فنلت شأ وآ في القوافي لم ينله فحولها
وإليكها عنراء لا يرجى لها وصل ولا باع الشيوخ يطولها
تهنئ أعطاف الملوك لمثلها لو كان يوجد في القريض مثيلها
أما وقد رفعت اليك فلها جرّت على هام السالك ذبولها

من تأمل في شعر شوقي في اقتباله لا يجده نازلاً عن شعره بعد اكتماله بل تجد
الشاعرية فيه أقوى وأظهر في مبدأ أمره وريمان شبابه وتأمل في هذه القصيدة فهي من
المرقص المطرب المؤنق المعجب، وما أنس لا أنس انى عندما قرأتها ترنح لها عطف طرباً
وقلت : قد نال شوقي شأ والقوافي وبذ الفحول . وقد مضى على هذه القصيدة أربع
وأربعون سنة وما برحت أتذكر وقعها في نفسي كأن ذلك من حوادث أمس . ولا
جزم أن الذكرى التي تمضي عليها هذه المدة الطويلة ولا تزال غضة طريئة لا تكون إلا
على أثر وقع عظيم في النفس

وله مهنئاً الخديوى بالوسام العثماني المرصع :

لمن الباب عالياً ومؤمل يمثل الدهر في تراه القبل
ومنها :

ولمن راية هنالك وافي ظاهها النصر ثم لم يتحول

يمنع الدين أن يميل وتحمل ركنه الشامخ الذرى أن يزلزل
ومنها :

يا مليكي عباس صدرك صدر في العالى وذا المرصع أول
هو مثل السماء صفوا ورحبا وهى ذى أنجم العلى تنزل
عرف المالكون قدرك لكن ما رآه فيك الخليفة أفضل
فهنأ علياء وافتك منه يذكر النجم من حباها فيخجل
ووساما مرصعا ما رأينا قبله جوهرها الى البحر يحمل

وبمناسبة قوله «جوهرا الى البحر يحمل» ذكرت بيتاً انتقدته على الشاعر الاديب
الشيخ خليل اليازجى ، فقد كان نظم رواية اسمها «المروءة والوفاء» وجعلها مقدمة لأخيه
الأستاذ الكبير اللغوى. الشهير الشيخ ابراهيم اليازجى ولكنه استهل المقدمة
بهذا البيت :

لما رأيتك مثل بحر زاخر ألقيت بين يديك بعض جواهرى
وكنت أنا لذلك العهد فى المدرسة لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر ولكنى كنت
بدأت بالنظم وكانت جرائد بيروت تنشر من شمرى وهذا مصدق وهذا مكذب ومن
الناس من يقول : لا يمكن ان ناشئاً فى هذه السن الحديثة يفرى هذا الفرى ومازالت
الشبهة تعترض حتى كثر النظم وتواترت الأدلة فزالت الريبة وانقلبت الشبهة ولم يمض
مدة ثلاث سنوات حتى كان لى ديوان اسمه «البا كورة» جعلته مقدمة للاستاذ الامام
الشيخ محمد عبده وكان إذ ذاك فى بيروت وجعلت قصيدة المقدمة من ذلك البحر
وتلك القافية

وهذا نصها وكانت بعنوان :

اهداء الباكورة

لحضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل واسطة عقيد الحكماء ودرة تاج البلغاء
الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيدته الله تعالى

لو هاج مثل الفضل خاطر شاعر
أو لو وجدت مثل فضلك عادلا
لمكن سطوت على القريض بأسره
فزهوت بين مدارك ومشاهد
أو كيف لا تسمو ومثلك من حوى
علم على عمل على قلم غدا
وفضائل تستنطق الأفواه من
علامة العلماء والبحر الذى
يا أيها العلم الذى أوصافه
شهد الزمان لنا بانك فرده
يا أوجد العصر الذى عقدت على
لا غرو أن أهدى إليك رقائقي
ليس القريض سوى تأثر خاطر
تمسى المحاسن وهى فيه بواعث
غرر على الأيام لولاها لما
لم تبرح الشعراء صرعى نشوة
فاذا أنجلى في مثل ذاتك مرة
يا من غدا بعوارف ومعارف
أهديك بعضاً من عقيق قريحتي
ألقيت بين يدي سواك بواكرى
كان الكمال اذا سلوتك عاذرى
وغدوت أعذب منهل للخاطر
وسموت بين بصائر وبواصر
بأعز نفس كل خالق باهر
في الخطب يهزأ بالحسام الباتر
كل البرية بالثناء العاطر
لا ينهى مثل البسحار لآخر
أضحت رياض قرأني وضائر
من كل باد في الأنام وحاضر
تقدمه في الفضل خير خناصر
وانا رقيق فضائل ومآثر
مما به المرء قرة ناظر
للشعر بين مسبب ومباشر
لاحت وجوه الدهر غير بواسر
برحيقها من سالف ومعاصر
كنت الأحق بكل مقول شاعر
يزرى على لحج العباب الزاخر
يا بحر لكن لا أقول جواهرى

أبيات احسان وليس جميعها من كل بيت بالمحسن عامر
قد جادها صوب الصبا وبشرها نتم الصبا عن كل عرف ذافر
درجت معى اطوار عمر واصل ما جاش من يوم بليل ساهر
قد باكرتني قبل صادق فجره مذكنت من أعوامه فى العاشر
أوحت الى قلبى الهوى فشعرت اذ غصن الصباة لا يعيل لهاصر
ففضيت بين كئائل ومفاخر ومشيت بين خمائل وأزاهر
ما قلت ذا فخرأ ولا عجبأ وما من معجب فى نظمها أو فاخر
لكن لترفق غير مأمور بها فلکم خطت طورأ لنيل الحاضر
ان تأتني عفوأ فكم هذبها من سخف لفظ أو روى نائر
مكنتها بعد النزاع وكم حكمت قلق القداح بدت بكفى يامر
حتى أنت من بعد تربيتي لها حسبي وان لم تغد ملء محاجرى
عوضت ما خسرتة من حسن بما رفعت اليك فلم اكن بالخاسر
فكن الوصى على يتامى ناظم وبنات فكر فى ثناك قواصر
أهديتها لا كى تليق وطالما قبل الكبير هدية من صاغر
هى دون ما يهدى اليك وأما مثلى على ما فاق ليس بقادر

عود الى شوقى

وقد كنت يوم نظمت هذه القصيدة فى السادسة عشرة من العمر
ونعود الى شوقى فنرى فى هذه القصيدة الالامية ما يدل على انه لم يمدح الخديو مجانأ
وانه ما أصاب تلك النعماء الوارفة الا بما سير من المدائح فى الجنب الخديوى وانه حام
فسورد وغنى فأطرب ورقع معيشته بفيض قريحته . وكان اذا أغضى الخديو على خلته
(بفتح الحاء) ولم يجدها قذى عينيه لم يهمل أن استرعاه النظر اليها على طريقة المتنبي
ففى هذه القصيدة يقول شوقى :

يا عزيز الزمان سمماً لئاء قد دعاكم على النوى وتوكل
أتجد الأيام في هدم بيتى ونداكم بكل بيت موكل
أى عذر للدهر عندي وركنى أنت مهما تكلف الدهر يفعل
نظرة نظرة وعذرا لمبد عهده فيك منعماً ليس يسأل
ومن قصائد شوقي الخديوية قصيدة يقول فيها :

أيها المنكر الغرام عايننا حسبك الله قد جحدت الجمالا
آية الحسن للقلوب تجت كيف لا تمشق العيون امثالا
لك نصحى وما عليك جدالى آفة النصح أن يكون جدالا
هب من العقل انسى أنا أسلو ما من العقل أن تروم محالا
ان نجد من مثال لقمان جيشاً ما غلبت الأهواء والأميالا

سيعيب علماء اللغة قوله « الأميال » فالأميال هى جمع ميل بكسر الميم لا جمع ميل بفتحها وذلك لأن المصادر على فعل بالفتح لا تجمع على أفعال ولذلك تجد الكتاب عدلوا الى لفظة « ميسول » تخلصاً من هذا المحذور . وما وجدت فى الكلام العربى القديم لفظة « ميول » ولكن القياس بوجوبها
ومن هذه القصيدة قوله :

ليت شعرى هل يبتلى مصر بالأج يال أم يبتلى بها الأجيالا
هيكل تعقل المالك فيه ونضحى معالما ورجالا
قوضت كل بنية وهو باق تبصر الدهر دونه أطلالا
يا ابن توفيق أى أصليك نسلو جدك الجود أم أباك النوالا
أم علياً ومصر لولا على لم تذق نعمة ولا استقلالالا
ويظهر انه لما نظم هذه القصيدة كان الممدوح فى المقيم المقعد مع بعض الأحزاب فى مصر فانه يقول :

انت روح ومصر جسم وهل تر جو لجسم من غير روح مآلا
والذى بالبلاد غيرك داء صيرته بنو البلاد عضالا

واذا عاكس الزمان بلادا جعل الأهل حربها والنكالا
 نام قومي عن المعالي ورامو ها فكان النصيب منها خيالا
 حسبوا العيش غيبة واضطغانا وسكونا الى المنى واحتمالا
 واذا كانت النفوس صنارا علقت بالصغائر الآمالا
 وله في الخديوى قصيدة ميمية من بحر السريع أراه يعارض بها محمود سامى فى
 قصيدة من البحر والقافية ومطلع قصيدة شوقى:

هل تيم البان فؤاد الحمام فراح فاستبكى جفون الغمام
 ومنها :

ياخير من سن خلال الوفا وخير من زكى وصلى وصام
 يهزك الاسلام مهما دعا مؤيداً منك بمضب حسام
 أنت لهذا الدين ما يشتهى ظل له ضاف وركن حسام
 مولاي ذا شهر الصيام انقضى أحياكم الله الى كل عام

فأما قصيدة محمود سامى فليست فى ديوانه المطبوع لأن الجزء الثانى انتهى بحرف
 «لام» ولم أعلم أنهم طبعوا جزءاً ثالثاً . وانما يجد الانسان هذه القصيدة فى « الوسيلة
 الأدبية » المرفوعة ، وهى ليست تحت يدى فى هذه الساعة ، ولا أزال أتذكر من
 قصيدة البارودى هذه بيتين فى منتهى البداعة

يا ليتنى فى انسالك حرف سرى أوريثة بين خوافى الحمام
 حتى أوافى مصر فى ليلة أقضى بها فى الله حق الذمام
 ولشوقى فى الجنب الخديوى :

أمغنم الفرصات بشراك بالغنم فسادت الاوطان إلا لدى هم
 وقل لدخيل فى المعالى يريدنا بلا بدل أمّلت صيداً ولم ترم
 ومنها ما رى به شوقى أبعد شأؤ المرتضى فى الفخر والبأؤ وقد جاز هنا الحد الذى
 اقتنع به فى قصيدته الدالية التى سبق الاستشهاد ببعض أبياتها
 فلا حكمتى دعوى ولا منطقى هوى ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد

فانه في هذه القصيدة اليمية يقول :

إذا أنا لم تسكفل لي الخلد حكمتي ولم ألتسه في بياني وفي علمي
فلا استرجعت بي الضاد بنيان مجدها ولا لقيت بي العصر في البذخ الجم
(البذخ محرّكة هو المجد) ثم يقول :

ولا جاز شعري النيرات ولا اعتلى لسدة عباس الفتى العلم النجم
جمل شعره فوق النيرات ومع هذا فهى من دون سدة الممدوح ثم يقول :
ومهلارو يدأ في الكمالات والحجى فما أعطى الناس النبوة بالحلم
وخف لعباد الله أن يتوهموا قرب يقين للعقول من الوهم
تحاول من دنياك ما أنت عارف وتصحب أحوال الزمان على علم
وتظهر في عز من الصدق باهر إذا التمت أعداؤك العز في الاثم
يدارى أناس بالجرأة طيشهم ويتمب قراء المواقب بالحزم
ثم يقول :

وعرشيكما ما خنتما الحق مرة ولا حدثما عن حكمة الله في الحسكم
ولكن تهيج الحاسدين علاكا وهيهات يبقى الفرقدان بلا خصم

ولا شك أنه يشير الى ما كان يقع بين الممدوح وبين الأحزاب في مصر من
التضاد والتشاد وأي بلاد لا تصاب بمثل هذه الفتن؟ وشوقي على كل حال شاعر الأمير
لا يفتأ ينضح عنه بشعره وربما كان لسانه أرد عن ممدوحه من جيش وأمضى من سيف
فان يكن الخديو قد أغرق شوقي بالانعام والاحسان فقد أثنى شوقي عليه ثناء حسان
على غسان ففاز كل منهما بطلبته . فلم يكن شوقي اذن على مذهب محمود سامي الذي
يقول :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة المدح والذم
قد طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله إما شئت في حكمة أو عظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب الى الرامي

نعم لم يكن محمود سامي لينظم الا في الغزل والنسيب والفخر والحماسة ووصف
الوقائع والحكم والمواعظ والثناء والاخوانيات والزهديات والطرديات وغير ذلك من
مقامات الشعر المختلفة حاشا المديح فقد كان يتجنبه ما أمكن واذا مدح فانما يمدح
من كان من أقرانه أو اخوانه . ولم أجده مديحاً لكبير الا الخديو اسماعيل يوم
جلس على أريكة مصر وكان ذلك سنة ١٢٧٩ أى أيام كان محمود سامي في ريعان شبابه
ورأيت له في ديوانه أبياتاً امتدح بها الخديو السابق بعد رجوعه من سرنديب .
وكذلك قصيدة في تهنئة الخديو توفيق بالجلوس على الاركة الخديوية سنة ١٢٩٧
فشعر البارودي في المديح لا يكاد يذكر وهو في جانب ديوانه ثم في جانب بحر .
وقد وصف البارودي الشعر في إحدى قصائده فقال: -

لشعر في الدهر حكم لا يغيره	ما بالحوادث من نقص وتغيير
يسمو بقوم ويهوى آخرون به	كالدهر يجري بميسور ومعسور
له أوابد لا تنفك سائرة	في الارض ما بين ادلاج وتهجير
من كل عائرة تستن في طلق	يغتال بالبهر أنفاس المحاضير
تجري مع الشمس في تيار كهربية	على إطار من الاضواء مسعور
تطارد البرق ان مرت وتتركه	في جوشن من حبيك المزن مزور
صحائف لم تزل تتلى بالسنه	للدهر في كل ناد منه معور
يزهى بها كل سام في أرومته	ويبقى اليأس منها كل مغمور
فكم بهار سخت أركان مملكة	وكم بها خدمت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به	ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً وكم اودى بمنقبة	رفعاً وخفضاً بمرجو ومحدور
أبقى زهير به ما شاده هرم	من الفخار حديثاً جد مأثور
وفل جرول غرب الزبرقان به	فباء منه بصدع غير مجبور
أخزى جرير به حى النير فما	عادوا بغير حديث منه مشهور
لولا أبو الطيب المأثور منطلقه	ماسار في الدهر يوماً ذكر كافور

فأنت ترى أن البارودي وإن لم يكن مداحاً بنفسه ولم يقع منه مدبح إلا في الندرة وغير متكسب مالا ولا جهاها كان في غنى عنهما فإنه يعترف بكون الشعر يرفع ويضع ويسم ويصم ويخلد المآثر وبقيد المآثم ويقول كم وطد الشعر أركان ملك وذل أعراف مجد ، ولين أعطاف سعد ، وقرب غايات جد ، وأخرت كلمة منه قوماً وهزت عرشاً وحسبك أنه وقع زلزال عظيم بمصر في أيام كافور الاخشيدى فدخل أحد الشعراء على كافور والناس تفر من كل حذب إلى الصحراء فأنشده قصيدة قال له فيها :

مازلت مصر من خوف يراد بها لكنّها رقصت من عدله طرباً
فيكان لذلك من حسن حظ الوقع على كافور ما أجاز له بصلته ولا كالصلوات
وقيل إن المتنبي لم ينتجع كافوراً إلا بعد سماعه بهذا الخبر . فالبارودي وإن لم يذهب
هو هذا المذهب ولا كان له فيه مأرب لم يقدر أن ينكر مكان الشعر من الاجتماع
ولا تأثيره في الاتضاع والارتفاع ولا تخليده للذكر ولا تسجيله للفتكة البكر .
ونعود إلى شوقي فنقول : من جملة قصائده في الخديو قصيدة يقول في مطلعها :

صريع جفنيك ينفي عنهما التهما فما رميت ولكن القضاء رمى
الله في روح صب يغشيان بها موارد الختف لم ينقل لها قدما
ومنها خطاباً للدوح :

وابغ الا حادith واستعصم رايتها سيان قدت خميساً أم ملكت فما
ان الزمان لعال في مقائسه فلن يعظم حيا أو يرى عظما
أعطيت مصر آمن العرفان حصتها ومن كمصر مكاناً لا مرى علما
شاد الزمان وأبناء الزمان لها فلم يزيدوا إلى أهرامها هرما
يخلد العلم للبلدان منزلة في العالمين وتحى الحكمة الأما

ان من وجوه الشبه بين شوقي والمتنبي انك لا تسكاد تقرأ قصيدة لكل منهما مهما
ضربت في واد من أودية قولها إلا وجدت بها حكماً جارية مجرى الامثال ومن انطوى
على شيء فاض على لسانه في كل موقف

ولشوقي في الخديوى تهنئة شهر الصيام وإهداء السلطان عبد الحميد له قصر بيك
في الاستانة وهى قصيدة استهلها بقوله :

الله فى الخلق من صب ومن عان تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى
صونى جبالك عنا اننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى
ومنها :

أمن هجرت الى الاوطان رؤيتها فرحت أشوق مشتاق لأوطان
تعهدين حنبنى فى الزمان لها وسكبى الدمع من تذكراها قانى
وغبطى الطير آتية أصبح به ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى
مُصرى عصى الكرى يغشى مجاملة وسامحى فى عناق الطيف أجفانى
لئن ضننت فمالى ما أضن به على الفناء سوى آثار وجدانى
ومنطق يرث التاريخ جوهره عن الزمان وعن عباسه الثانى

ومنها :

وان حامى لتستكفى البلاد به كالعين تمت معانيها بانسان
لما بدا الشهر واستقبلت غرته لاح الهلال ولاح البدر فى آن
وقمت تسطع بالأنوار من أفق بالمسلمين وبالإسلام مزدان
كأنك البدر فى غايات رفعة لو كان للبدر كرسى وتاجان
فاهناً مكانك واهناً ما يروح به لرب يلذ من آثار احسان
أهدى الخليفة ما أهدى ببشرنا ان الوداد بأساس وأركان
قصرا على اللج لولا أن مهديه عبد الحميد لقلنا القصر نعمانى

يشير الى الخورنق والسدير من قصور النعمان بن المنذر ثم يقول :

بيت من عزة البوسفور صاحبه على مكان من الدنيا وإمكان
إذا الاكارم سنوا للندى سبلا سننت أجمالها يا فرع عثمان
يظل يسجعم فى الاسلام شاعر كم كأن أيامه أيام حسان
ويشتهى الدولة العليا معزة من الوثام بأنصار وأعوان

لا يجهل شوق مكان شعره من الخليفة والحديد واحتياج العروش الى الشعراء
يحمون حوزة الملك بأفلامهم احتياجهم الى القواد يحمونها بسيوفهم أفلا تراه يقول
في أبيات سبقت :

وابغ الاحاديث واستمصم برايتها سيان قدت خميسا أم ملكت فما
كأنه يقول للحديد : انك وقد ملكت في فقد قدت جحفا جرارا، ثم يقول انه
قائم في جانب الخلافة مقام حسان بن ثابت في جانب الرسالة . فشوقي يشعر بغناء
الشعر في جانب الملك وكأنه يخشى أن يغفل ممدوحه عن هذه الحقيقة فهو يذكره
بها وله من قصيدة في الحديدى تتضمن أبيانا رشيقا في وصف استقباله وقد عاد من
الاسكندرية الى مصر :

حتى نرى الدر وقد زينت وزين الميدان والسلمان
وازدحم الباب وساحاته وسدة الركن وماج المكان
وقامت الراية خفاقة للمجتلى من بعد طول اكتنان
حمراء فوق الحصن ممدودة توى الى القصر بشبه البنان
قد بشر الناقوس بالمسلم ال عادل من قبل أن يشير الأذان

شوقي فى الرثاء

ولنختم بهذا الذى أوردناه باب المديح من الشوقيات ولنأت ببعض الأمثلة من المراثى
وأولها مرثية شوقي للمرحوم الحديدى توفيق التى تتضمن أيضاً تهنئة الحديدى السابق على
تولييه منصب أبيه قال :

بين ماضى الاسى وآتى الهناء قام عذر النعاه والبشراء
نبأ معذر نفى بعضه به ضاً فكان السفية فى الأنباء
سر من حيث ساء كل مصاف ساء من حيث سر كل مرأى
ما نظرنا محمداً فى فتاه أن غفرنا الضراء للسرائ
ها بنا الدهر فيه حياً وميتاً فأتانا من دائنا بالدواء

وعزاء البلاد أن يخلد لك ويحيا الآباء في الأبناء
ومنها خطابا لمرحوم :

يا أميري أبا أميري المفدى من لشعري بذاك بالأصغاء
اسهرتني المنون فيك ونامت لاخلاب عينيها من الاقضاء
وأطارت عن المضاجع قلبي أسكن الله جنبها كل داء
ومنها :

جاء والمصر فخره بينيه وفخار المصرى بالقدماء
فبنى في البلاد للعلم دورا تتباهى بالفتية النجباء
وأبى أن يقال عن مصر والاه رام فيها ترضى بالبناء
وأبى الدهر سرعة فيه إلا أن يتم ابنه نظام البناء
يا مليكي عباس هنتها على ياء جاءت تمشي على استحياء
هو ذا الدهر عند بابك ألقى عذره فاعف لا يمد للرياء
وتجلد لأجل مصر فلولاً لك لما هم قلبها بالعزاء
واحمل السيف والبس التاج وارق العرش وانهض بالدولة العليا
وزد الملك من شبابك حسناً وأنر عصره بذاك الذكاء
ثم يقول :

وتعزز برب يلدز حامى حوزة الدين قدوة الخلفاء
ان عبد الحميد سيف فضته آل عثمان هاشمي المضاء
صدق الوعد مصر فيك ومازا ل حفيا بآ لك الصكرماء

وهنا الدليل من أدلة لا تحصى على استمسك شوقي من الاول الى الآخر بالجامعة
الاسلامية تجدد هذه الروح فائضة من شعره منبثة في جميع جوارحه بحيث قد قيل
بحق انه شاعر الاسلام والمسلمين وقد مضى الى ربه وهذه الخدمة التي لم يتخلف عنها
دقيقة واحدة من عمره نور يسعى بين يديه

ومن مرأى شوقي الشهيرة قصيدته في اسماعيل باشا الخديو الاسبق وهي التي

يقول فيها :

حلم مده الكرى لك مدا وسدى ترتجى لحملك ردا
وحياة ما غادرت لك فى الاحـ ياء قبلا ولم تذر لك بعدا

ومنها :

يا أجل الكرام جاهاً ووجهها وأبر الورى حفيداً وجدا
وكبير الحياة فى العصر والعا لى فيه فما أرى لك ندا
أين كسرى وأين قيصر مما نلت بالمجد أو بلغت مجدا

ومنها :

وغزاة فى البيض والسود تبغى مصر فيها مجدداً مستردا
وبريد لها تسيل به القضا ب وثان بالبرق أجرى وأهدى
وخطوط بها التناهى تدان وبخار به الأقاليم تندى

ثم يقول :

فتركت السرير مضطرب الأح وال من نأى ربه ليس يهدا
لم تكن من جنى عليه ولكن عودته الأيام ان يستبدا
منعت مصر أن تتوج مصر وأبى النيل أن يجرد وردا
وفىها يصف وفد الملوك يوم فتح ترعة السويس :

نهضت مصر بالزمان نزىلا وبأهليه يوم ذلك وفدا
خطروا بين زاخرين ولاقوا ثالثاً من نذاك أحلى وأندى
بين فلك يجرى وآخر راس ولواء يحدو وآخر يُحدى
وملوك « صيد » يراح بهم فى واسع الريف والصعيد ويُغدى
صور لم تكن حقاً وحلم فجع الصبح فيه لما تبدى

يظهر أن شوقى هو ممن يجيز استعمال « تبدى » بمعنى بدا أى ظهر إذ لا ينحى وقوع الاختلاف فيه ومن الناس من يذهب الى أن تبدى لا تفيد الا معنى الدخول فى البداوة . ثم يقول :

وقناطير يجفل الحصر عنها كل يوم تعدها مصر عدا
وملكت السودان في الطول والعرض وفي شأنه المعظم عبدا
نلت بالمال والدماء منه أرضا ببحال الياقوت والدر تفدى
ثم نظمته ممالك كانت نار تنظيمها سلاماً وبرد
ثم يشير الى الواقعة التي وقعت بين مصر والحبشة والى تمحيص الجيش المصرى
فيها فيقول :

ليت لم تغش بعده في حماها حبش المسكر والخديعة أسدا
سلبوا مصر أى جيش كريم كان المجد والفخار أعدا
أنت أنشأته فلم تر مصر جحفا بعده ولم تر جندا
وتوليت به بعطفك والبر والمكر مات لم تأل جهدا
فهوى جيشك العظيم ومالت راية كان حقها أن تسدا
ونفضت اليدين يأساً على الرغى م كأن لم تجدد من الصبر بددا
واذا لم يكن من الله عون فاطراح الآمال بالنفس أبدى
بالعصر رآك في العز لاير سل دمعاً ولا يبلل خندا
أين ود عهدت منه وعطف وولاء مؤكدا كان أبدى
ومسلوك له أنتك وسادا ت حداها اليك وفداً فوفدا
أبت الناس فيك للناس الا أن يجاروا الزمان وصلا وصدا
فرأيت الحميم أول جاف ووجدت الولي في البؤس ضدا
ورجالا لولالك لم يعرفوا العيد ش أبوا أن يقدموا لك حمدا

نعم هذا حال الناس مع الزمان يدورون حيث دار ثم يقول :

بان مجد البلاد إذ بنت والصفى ووكان الرجاء حياً فأودى
فبكي البائسون منك حساماً طالما قد هامة الخطب قدا

ان تأ كيد المفعول المطلق يصح في الحقيقة لا في المجاز كما هي القاعدة أى يقال

سال السحاب سيلا لأنه حقيقى ولا يجوز أن يقال سال كرم حاتم سيلا لأنه مجاز .
غير أنى لا أرى هذه القاعدة مرعية عند الشعراء من القديم
ثم يقول :

عد الى مصرك الوفية وانزل فى ثراها واسكن من المهد لحدا
لا تقل أعرضت بلادى وصدت مصر خير هوى وأكرم عهدا
وقبيح بالدار أن تعرف البغض وبالمهد أن يبأسر حقدنا
غفرت مصر ما مضى لعلى وبنيسه وللحفيد المفدى
فشوقى كان لا ينسى (الحفيد المفدى) كيفما انقلب اذ هو شاعره والذي يريد
شوقى أن يدير الكلام كله عليه وان انخرف عنه عنة أو يسرة فلا يكرهه اليه
ومن أحسن ما نظم شوقى فى الرثاء وفى غير الرثاء قوله عند وفاة والده على بك شوقى:
سألونى لم لم أرث أبى ورثاء الأب دينى أى دين
أيها اللوام ما أظلمكم أين لى العقل الذى يسمع ابن
يا أبى ما أنت فى ذا أول كل نفس للمنايا فرض عين
هالكت قبلك ناس وقرى ونى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وان طال المدى آخذ يأخذه بالاصغرين
وطبيب يقول عاجزاً نافضاً من طبه خفى حنين
أنا من مات ومن مات أنا لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة فى بدن ثم صرنا مهجة فى بدنين
ثم عدنا مهجة فى بدن ثم تلقى جثة فى كفنين

وهذا من أعلى الفلسفة . وقد يقال ان هذا معروف ليس فيه معنى مبتسك
والجواب على ذلك ان أفصح الكلام هو ما تضمن المعنى المعروف لا المعنى الغامض
ولكن العبرة فى القوالب . وأنى نجد هذه الحقائق فى مثل هذه الرقائق . وبعد ان
ذكر كيف كان هو وأبوه واحدا ثم صارا اثنين عاد فقال ان هذين الاثنين سيصيران الى
واحد هو ابنه على :

ثم نحيا في عليّ بمدنا وبه نبعث أولى البعثين
انظر الكون وقل في وصفه كل هذا أصله من أبوين
وهذا أيضاً من أعلى الفلسفة ومما جاء في كتاب الله قال تعالى (ومن كل شيء
خلقنا زوجين) وقال تعالى (وأُنثت من كل زوج بهيج) وقال تعالى : (وأنه خلق
الزوجين) وقال تعالى (وخلقناكم أزواجاً) وقال تعالى : (والذي خلق الأزواج)
وغير ذلك من الآي العظام في هذا المعنى وقد فسر العلامة الرياضى الفريد الغازى مختار
بإشارحه الله في كتابه (سرائر القرآن) هذه الآيات وغيرها بقوله : ان جميع الكون
مبنى على الزوجية فالعالم الحيوانى كله أزواج كما هو ظاهر والعالم النباتى أيضاً لا يختلف
عن العالم الحيوانى فى الزوجية . والجمادات فيها القوتان السلبية والايجابية من
الكهربائية أى فيها الزوج كالحيوانات والنباتات فالكون كله أب وأم . ثم
قال شوقى :

ما أبى الا أخ فارتقى به وده الصديق وود الناس مين
طالب قمنا الى مائدة كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من اناء واحد وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدي فى يده من رآنا قال عنا أخوين
نظر الدهر الينا نظرة سوت الشر فكانت نظرتين
يا أبى والموت كأس مرة لا تذوق النفس منها مرتين
كيف كانت ساعة قضيتها كل صعب قبلها أو بعد هين
أشربت الموت فيها جرعة أم شربت الموت فيها جرعتين
كأن شوقى يسأل أباه رحمه الله كيف تجرع تلك الكأس ؟ هل تجرعه نفساً
واحداً أم تجرعه أنفاساً ؟ فقد صار الآن يدرى ما دراه أبوه وكل حى فهو دارها
فى يوم من الأيام . ثم قال :

لا تخف بعدك حزناً أو بكاء جمدت منى ومنك اليوم عين
أى جمدت عين أبيه بالموت وجمدت عينه بكونه أصبح لا يبكى لمصيبة بعد موت
(م - ١١ شوقى)

أبيه اذ المصائب كلها تهون بعد هذا المصاب . وهذا معنى طرقه الشعراء فليس بمجيد
ولى أنا فى رثاء صديقى محمود سامى باشا :

هانت بمصرعك الأرزاء أجمعها فليس يعظم من رزء ولو عظما
وقد كررته فى قصيدة حديثة هى رثاء لصديقى الحاج عبد السلام بنونة عميد بلاد
الريف بالمغرب :

يقل بعدك مدفوناً فجعتُ به أن استطارَ على ضعفى لحدّ ثان
ثم يقول شوقى :

ليت شعرى هل لنا أن نلتقى مرة أم ذا افتراق الملوين
واذا متْ وأودعت الثرى ألتقى حفرة أم حفرتين

لعمري هذا هو المشكل الذى أعني على الثقلين عرفانه ولم يضىء من طريق العقل
برهانه وإنما هو مما أوحى به الدين وحيّاً لا يخالف العقل بل هو يؤيده وقد قال أحد
السادة الصوفية : ما رأته العيون ينسب الى العلم وما رأته القلوب ينسب الى اليقين .
وهذا مما تراه القلوب لا العيون

ثم يتساءل شوقى : هل بعد هذه الدنيا اجتماع حتى يجتمع بأبيه ؟ وهل هذه
هى الحفرة الأخيرة أم يعود فيلد مرة أخرى ويستقبل حفرة ثانية وهلم جرّاً . وقد
ذهب الناس من كبير وصغير ودرج الخلائق من أول وأخير وهم فى حسرة أن يعرفوا
من طريق الفكر هذا السر فى هذه الحياة الدنيا قبل أن يموتوا فماتوا والحسرة فى قلوبهم .
ثم برئى جدته :

خلقنا للحياة والعمات ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعيش ويمت كأَن لم يمرَّ خياله بالكائنات
هى الدنيا قتال نحن فيه مقاصد للحسام وللقناة
وكل الناس مدفوع اليه كما دفع الجبان الى الثبات
نزوع ما نزوع ثم نرمى بسهم من يد المقدور آت
ومراد الشاعر هنا ان الانسان يروع طول حياته ويقضيها كلها فى آلام وأهوال

ثم ينتهي منها الى أعظم البلاء الذي هو الموت .
ولى في هذا المعنى في رثائي للمرحوم احمد باشا تيمور وهو توارد خواطر :
لعمرك ما بالعيش إرب لعاقيل توغل في علم الحقيقة خاطره
تسلسل آلام وترداد محنة تراوحه في كربها وتساكره
وخيبة آمال وفقد أعزة وبعد طوال السجن فالوت آخره
ثم أهني الفقيد بأنه جاز هذه الدنيا الى حياة لا يروع فيها دائماً باستقبال الموت
فأقول :

ليهنك يا تيمور أنك جزتها الى ملاء لا يعرف الموت زائره
وفارقت داراً لا يزال قطينها يفكر في الهول الذي هو غارره
فان تلك عقي الدار قسمة فاضل فأقصى أمانيك الذي أنت صائره
ثم يقول شوقي لجده :
تبناك الملوك وكنت منهم بمنزلة البنين أو البنات
يظنون المناقب منك شقي ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك في سوق ولكن لدى ظل القنا والمرهفات

أى انها لم تكن أمة اشتراها الدخاس في سوق ولكن كانت من جملة السبي في
الحرب ثم يفصل ذلك :

عنت لهم بمودة بنت عشر وسيف الموت في هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيداً واسطة لعقد المسلمات
تبعتم محمداً من بعد عيسى لخيرك في سنيك الأوليات
وتحزير الخبر انها كانت من جملة سبي حرب المودة فهي رومية الجنس نشأت في
الاسلام وهي بنت عشر سنوات ولم يشأ شوقي أن يجعل المثنوي وحده حصاة الفخر
بجده ويجعل لجده حق الفخر به فالمثنوي يقول في رثاء المرحومة جدته :
ولو لم تكوني بيتاً كرم والدك لكان أباك الضخم كوني لى أما

أى أنها تقدر أن تفتخر بنسب ابنها ولكن لو فرضنا أنها لم تكن بنت أب كريم
لكان يجزيها في مقام الفخر كونها جدة أبى الطيب.
وهنا شوقي يقول :

ولو لم تظهرى في العرب إلا لأحمد كنت خير الوالدات
تجاوزت الولائد فاخرات الى فيخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم في يراع وأبلغ من تبلغ من دواة
وأبرأ من تبرأ من عدا وأزه من تنزه عن شنات
وأصون صائن لأخيه عرضاً وأحفظ حافظ عهد اللدات
وأقتل قاتل للدهر جرءاً وأصبر صابر للغاشيات

والحاصل انه أفضى بجميع ما عنده من حسن الظن بنفسه رحمه الله فلولاً قليل
لبلغ من الفخر مبلغ ابن سناء الملك ولكن الذى حفزه الى ركوب هذا المركب في رثاء
جده هو ان والده الروحى أبا الطيب قد ركب هذا المركب من قبل في مثل هذا المقام
ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده .

ولما كنا في باريس انا وشوقي لأول معارفتنا وكلانا في الثالثة والعشرين من العمر
كان يذكر لى دائماً محبة عبد الرحمن باشا رشدى له ويطلعنى على كتب من هذا الوزير
اليه . ولما كنا نخرج ونعبث ويقول كل منا للآخر كل شيء يخطر بباله قال لى مرة : انه
يحب عبد الرحمن باشا رشدى مثل والده وانه متى مات سييادر برثائه فكانت نكتة
ضحكنا لها كثيراً وقالت له : ما احسن وفاءك . وقد حصل ذلك فعلاً فان عبد الرحمن
باشا رشدى بعد هذا الكلام بسنوات قد مضى الى رحمة ربه وقد أنجز شوقي وعده
برثائه وقال فيه ما يدل على شدة تعلقه به ، فقال :

يقولون رشدى مات قلت صدقتمو ومات صوابى يوم ذاك وآمالى
وركنى الذى للنائبات أعده وذخرى فى الماضى وعونى على الحال
أرشدى لقد عشت الذى عشت سيداً ولم تك عبد الجاه والأمر والمال
ولم تأل كتب العلم درساً ومطلباً ولم تك عنها فى الثمانين بالسالى

وكننت تحمل الفضل اسمى محلة وتنزل أهل الفضل في المنزل العالي
ولم تتخير الف نخل وصاحب ولكن من تختاره الواحد العالي
فشوقي في رثاء عبد الرحمن باشا رشدي لم ينس أن يمدح نفسه أيضاً ثم يقول :
حبيبك والدنيا تحبك كلها وزدتك حباً عند ما كثر القالي
وقست بك الأعيان حياً وميتاً فوالله ما جاء القياس بأمثال
ولو أن إنساناً من الموت يفتدى فديتك بالنفس النفيسة والآل
ورئي فقيدى العلم الوزير على باشا مبارك والطبيب سالم باشا سالم ، فقال :
ما لنا الدهر ماله والدعائم أعلى بالأمس واليوم سالم ؟
نقص الله مصر من طرفيها بالفقيدين من طبيب وعالم
الذي كان مظهر العلم فيها والذي كان طبعها والبراهم
وإذا قدر الآله شقاء لبلاد أصاب فيها الأعظم
وله رثاء في غاية السلاسة للمرحوم سليمان باشا أباطة قال فيه :
من ظن بعدك أن يقول رثاء فليرث من هذا الورى من شاء
ومنها :

أبا محمد انشد في ذا النوى وارفق بآلك وارحم الأبناء
واستبق عزهم بطهراء التي كانوا النجوم بها وكننت سماء
أدجى بها ليل الخطوب وطالما ملئت منازلها سنى وسناء
وإذا سليمان استقل محلة كانت بساطاً للندى ورخاء
لاشك أن شوقي عندما لفظ اسم سليمان خطر بباله سليمان بن داود فتذكر معه
بساط الريح والريح الرخاء فجاء بهما في البيت وحوطهما الى معنى آخر وهكذا هو
الشعر كثرة شجون وانتقال أفكار ، وأحسن الناس شعراً أسرعهم انتقالاً . ثم يقول :
سارت جيازة كل فضل في الورى لما ركبت الآلة الحدياء
وتيمم الأيتام أول مرة ورمى الزمان بصرفه الفقراء
ولقد عهدتك لا تضيع راجياً واليوم ضاع الكل فيك رجاء

وعلمت أنك من تود ومن يفي فقف الغداة لو استطعت وفاء
أبنيه كونوا للعدى من بعده كيداً وكونوا للولى عزاء
وكان سليمان باشا أبظة من أفاضل مصر لاثقا بهذا الرثاء وقد تعرفت اليه بواسطة
استاذنا الشيخ محمد عبده وسمروا عنده ليلة في سنة ١٨٩٠ فرأيت كثيراً من نبله وسمعت
جزيلاً من فصله ولشوقي رثاء رثى به سليم بك تقلاً مؤسس جريدة الاهرام فقال :
ضن الزمان به وكان كريماً واعتل بمسد أن استقام سليماً
فقدت يده منه أسمر حالياً لدينا كما تهوى الأمور قوياً
بكت القلوب عليه قبل عيونها فجرين حبات ولسان صمياً
أمودع الأوطان تارك عهداً حكماً وآداباً به وعلوماً
ماذا رحيلك إنها كانت ترى لك أن تدوم لمجدها فيدوماً
لله أهرام الزمان وما جلا فيها لسان الصدق منك كريماً
أودعتها لمح الهدى وبدائياً لو كن للجوزاء كن نجوماً
فارحل حبيباً ما يطاق رحيله واقدم مرجى ما يطاق قدوماً
واستحفظ الاهرام قومك انهم سم الاعادى حادثاً وقديماً
وله رثاء لعلى حيدر باشا يكن :

قلت لما لقيت حيدر يوماً هكذا هكذا الدم العلوى
هكذا البر والندى والأبدي والمعالي والسودد اليكنى
أنت لو كان فى الغنى لك ثنان لم ييغض الى الفقير الغنى
شرفت بالوزير أسرة مجد مثل ما شرفت بمحاتم طى
كان ركننا لبيتهم وعماداً فتولى فانهد ركن قوى
وأصيت وزارة وبلاد لعلى فيها المقام العلى
ثم عزى فيها ولدء صفر بك فقال :

العزاء العزاء يا صفر الخي ر فأنت الفتى اللبيب التقي
حكم الله فى أبيضك وحكم الله فى الخلق سابق مقضى

كلنا من بكى أباه وكل بعد حين مودع مبكى
ورثي المرحوم أمين باشا فكري وكان أمين باشا صديقاً للمرحوم اسماعيل باشا
صبرى فقال يرثي الأول ويعزى الثانى :

يا أقرب الناس من امين	وأفقد الناس للثمين
خطبك هذا أجل خطب	فخذ له الصبر باليمين
أسليك فيه ولى فؤاد	يذوب للميت والحزين
فقم بنا نندب المعالى	فجرحها اليوم فى الوتين
أمثل فكري بأحسين	يموت فى نضرة السنين
والناس فى حاجة اليه	والقطر يرجوه للشؤون
مؤمل الكل فى شباب	ومرتجى الأهل والبنين
كذلك الموت كل يوم	يبدى فنونا من الجنون
فلو علمت المنون شخصاً	أقلت لا عقل للمنون

وكان اسماعيل باشا صبرى كالا يخفى من كبار الشعراء ومن حسنات مصر الكبرى
وقد رثى صديقه أمين باشا فكري بقصيدة أثبت بها شوقى فى ديوانه تعظيماً لمقام الراى
والمرثى فيها أنذا أيضاً أقفو أثر شوقى فأنشر رثاء شوقى ورثاء صبرى وأعززهما بثالث
هو رثائى لأمين باشا . فقد كان صديقى وكان من شبان مصر المشار اليهم بالبنان
والذين يجدر بمصر وبغيرها من بلاد العرب أن ترثيهم وتبكيهم على طول الزمان . قال
اسماعيل باشا صبرى :

وهبتك يا دهر من تطالب	أبعد أمين أخ يصحب
طويت المودة فى شخصه	فأى وداد امرى أخطب
وأى بديل له أرتضى	وأى شمائله أندب
أمين اتشد فى النوى وارعى	فبينى وبينك ما يوجب
أتذكر إذ أنت منى النياط	من القلب أو أنت لى أقرب
وإذ نحن هذا لهذا أخ	وهذا لذا ابن وهذا أب

ومن قال عنا من الناظرين نديمي جذيمة لا يكذب
حسبت بأنك لي خالد فيسكان الذي لم أكن أحسب
كم تتوارد الخواطر بين الشعراء فاني عندما قرأت هذا البيت تذكرت قولي منذ
شهر من الزمن لا غير في رثاء صديقي الحاج عبد السلام بنونة :

قد كنت آمل ان نحى معاصرة مديد عمر والقاء ويلقاني
أدعوه له في جناني كلما انفردت نفسي بنجوى وأرعاه ويرعاني
فخيَّـب البين ما قد كنت آمله وكم أرتنى الليالي ضد حسبانى
ثم يقول اسماعيل صبرى :

أفى ذا الشباب وهذا الـأهـاب يموت الفتى الطاهر الطيب
عجيب من الموت أفعاله وعـتـبـى على فعله أعجب
بذا حكم الله فى خـالقه لكل امرئ أجل يكتب
وجدت الحياة طريق الممات وكلُّ الى حتفه يسرب
وبعثر فيه الفتى بالشباب ويدلف بالمـلـة الأشيب
ويتعب بالزاد فيه الفقير وأهل الغنى بالغنى أتعـب
ويشقى أخو الجهل فى جهله ويخرج بالعالم المذهب
موارد مشروعة للحياة فأى موارد الأعدب
أتعلم عين الردى من تصيب وتدرى يد الموت من تضرب
المـآ تكامل نور الأمين وتاه به الشرق والمغرب
وأوفى المكارم ما أمت وطواه الردى علماً فانطوى
فيا نائياً والهوى ما نأى به امل مقبل نزقـب
هنيئاً لدار تيمّمـتها وذكره فى البال لا تغرب
لقد زارها الملك الاطـيب

ومنها :

حسبت على رحمت الرحيم وجادك رضوانه الصيب

ولا زالت السحب منهلة وأنت لا ذبا لها تسحب

وروتك منا دموع تسيل تخامرها مهبج تسكب

وأما رثاء كاتب هذه السطور للمرحوم أمين باشا فكرى فهو هذا :

بقية مجد ودعت يوم ودعا وآمال عز آن أن تنقطع

ولم تنعه الأيام الا وأدجت من الشرق شطرا في منيته معا

لقد جاءنا نوء الزمان مصائباً يلوح لنا أن مزنها ليس مقلعا

وسبجان من ساق الردى بوجوهه فلقى لعمري الجمع والفرد مصرعا

إذا شن جيش النحاس في القوم غارة فما أجدر الارزاء أن تننوعا

وقد وقع مصاب أمين باشا فكرى في أيام كانت كلها مصائب سياسية على مصر من جعلتها استيلاء الانجليز على السودان :

وما كنت حتى اليوم أحسب دهرنا إذا ساء لا يرتاد للعذر موضعا

ألم يكفه ما غال من كل غاية وأفسد من معنى وعطل مرجعا

وضيق أرجاء الرجاء فسدها وراخى مجالات المرائى وأوسعا

كذا فليجل الخطب وليفدح الاسى وتقلب العليا بمارن أجدها

حلفت فلا تمرى النوادب عبرتى على فائت ولينع دهرك من نعى

فهيئات ما ان أستنار لفاجع إذا كان من أودى الأمين المشيعا

أحببنا ان قيل فى الصبر رجلة فانى فتى أبغى أنوح وأجزعا

تركت لكم فضل التصبر صبرة وقلت لطرفى اليوم لا تأل مدمعا

وشعشم كؤوس الدمع بالدم ساقياً فشكل شراب زينه أن يشعشعا

واعتدها نحو الأمين خيانة إذا أنا لم أمتف ذا السكأس مترعا

فما كان ودى للاعزة ضائماً ولا كان قلبى من أخى الود بلقعا

حملت له بين الضلوع أمانة لو احتملتها الشم مالت تصدعا

وأصفيته منى إخاء لو انه أعار الليالى صفوه رقى مشرعا

وما زلت أرعاه على البعد صاحباً وقبلى نجوم الافق مثلى من رعى

فان يك هذا الترب غرب بدره
ولا لمت تلك التروق وقد خبت
قضى اليوم من راع البرية رزؤه
ولم يأت فيه المات مصرع واحد
أصاب الحجي والعلم والحزم والمضا
وما بقيت في المسكرات سجية
فلو نفعت عند المنون شفاة
ودافع عن حوائثه طيب الفنا
ولكن داعى الموت لا يقبل الرشى
مصاب له الأقطار إذ شاع زلزلت
أذل إباء الدمع من كل جامد
ولم أر في الارزاء أبعد غارة
عشية مافى الناس مالك عبدة
عشية لم تبق الفجبة مسكة
عشية وارى الناس شمساً وأظلمت
فكم من يد أضحت تدق بأختها
فان يك وادى النيل أشعر فقده
كريم به لفظ الكريم مقصر
توخى طريق الخير محضاً كأنه
له خلق سهل ونفس أيسة
وأقلام صدق راجع فى ولائها
فمن بعد عبد الله كان مؤملاً

هذه ثلاث مرات فى أمين باشا فكرى لثلاثة أصحاب من أعز الناس عليه وأعزهم
له . ولو فسح المقام لا ستوفيت له ثلاثين مرثية وكان بها قمتاً . وقد تأملت الآن كيف

كنا أربعة أصحاب كل يحب اخوانه الآخرين ويحلمهم ، فقد كنت أحب أمين باشا وأجله وكانت بيننا مراسلة بعد مراسلة مع أبيه عبد الله باشا فكري الأديب المشهور وكنت أحب اسماعيل باشا صبرى وأجله اجلالى لأخيه أمين باشا . ولما كان صبرى محافظا للأسكندرية وقدمها من أبناء عمى الامير عارف أرسلان احتفى به اسماعيل باشا جده الاحتفاء فلما عاد ابن عمى الى سورية رغب الى فى أن أرسل قصيدة بامضائه الى اسماعيل باشا شكرآ له على حفاوته فنظمت قصيدة سيقراها قراء ديوانى الذى تحت الطبع . وكنت أحب شوقى وأجله وأقدسه كما يدل عليه كتابى هذا وكان شوقى يحب صبرى وفكري ويحلمهما كما ترى من شعره . فمؤلا ثلاثة اخوان فى نسق قد طوتهم المنون من دونى وبقيت فى حياة موحشة بفقد أصحابى مقفرة من أنس أترابى أتسلى عنهم بالآثار والذكريات وأرسل وراءهم الحشرات والزفرات الكبريات قائلا : لا حياة بعد صدع ذلك الشمل ، وبى منهم فوق الرمل ما بهم فى الرمل ، كما قال ابو الطيب من قبل .

ولما أصاب اسماعيل باشا صبرى حادث فى القطار الحديدى بعث شوقى اليه بهذه الابيات التى يصح أن تكون من جملة مختاراته :

أتنى الصحف عنك مخبرات	بحادثة ولا كالحادثات
بخطبك فى القطار أبا حسين	وليس من الخطوب الهيئات
أصيب المجد يوم أصبت فيه	ولم تخل الفضيلة من شكاة
وساء الناس ان كبت العالى	وأزعجهم عثار الكرمات
ولست بناس الآداب لما	ترأت ربها متلفات
وكان الشعر أجزعها فؤادا	وأحرصها لديك على حياة
هجرت القول أيلما قصارا	فكانت فترة المعجزات

فما أبدع قوله : فكانت فترة للمعجزات

شعره العائلى

ولشوقى من الشعر العائلى لاسيا فى خطاب أولاده ما يرويه الناس ويستلطفونه ،

وانى لأختار منه قوله لولده على بك يوم ولادته :

رزقت صاحب عهدى وتم لى النسل بعدى
هم يحسدونى عليه ويغبطونى بسعدى
ولا أرانى ونجلي سنلتقى عند مجد
وسوف يعلم بيتى أنى أنا النسل وحدى
فيا على لا تلمنى فما احتقارك قصدى
وأنت منى كروحي وأنت من أنت عندى
فان أساءك قولى كذب أباك بوعد

قيل لنا بليون الأول : نريد أن نكتب تاريخ عائلتك وقد تحيرنا من أين نبدا ؟
فقال : ابدأوا بى فانى أنا عائلتى . وشوقى يريد أن يقول ان ولده ان يبلغ عبقريته فلذلك
سيكون شوقى وحده هو نسل شوقى وليس فى ذلك تصغير لابنه أى لا غضاضة على
ابنه ان قصر عن شأو أبيه فليس كأبيه كثير من الخلق، فشوقى يعرف من نفسه أنه
سينفرد وأن ابنه ان يدركه وهذا يشير الى المعنى الذى قلته أنا من رثاء شوقى :
هذا أمير الشعر غير مدافع فى الشرق أجمع منذ فتق لهاته
ما عاب أهل العبقرية انهم قد قصروا فى الجرى عن غاياته
ومثله قولى فى الافرنج يوم هزمهم صلاح الدين فى وقعة حطين :
لم يجبنوا ساعة وان فشلوا وانما الليث دونه النمر

وكان لى صاحب لا بأس به وكان تام الرجولية فارسا مغوارا قاريا للضيف وانما
كان له أب أعلى منه بدرجات فكان الناس يرونه صغيراً فى جانب أبيه ويقولون لى :
ولد النجيب لا ينجب فكان يقول لى : انى والله لم أكن مقصراً فى وعى ولا فى ندى
ولا ممن يجد الناس فيه منتقداً ولكن أبى فضحنى وأظهر قصورى ولو كنت ابن
رجل آخر لكان أظهر لنجابتى فانما الناس تصغر وتكبر بالقياس

الخطبات في شهر شوقي

ولم يجتزئ شوقي من الشعر بالامداح والمراثي والامثال الحكمية والمراسلات الاخوانية بل هاجم في جميع أودية الخيال وضرب من عالم الانشاد في كل منكب وأبى إلا أن يكون شاعراً كاملاً الأدوات مستوفياً الشروط قابضاً على ناصية الفصاحة في كل موضوع، فنظم شعراً كثيراً من الحكايات على نسق لافونتين، ونظم على ألسن الطير والحيوانات والحشرات. وله في الجزء الأول من الشوقيات أربعون أو خمسون صفحة مملأى بهذه الخرافات جعل كلامه فيها مناسبا لموضوعها، فهو كما يعلو في المقامات العالية ويختار لها نغم الكلام وشريف اللفظ يسف في المقامات الساذجة ويلبسها القوالب الخفيفة السهلة اللائقة بها فتراه مثلاً يقول في حكايته عن الخماش ومليكة الفراش:

مرت على الخفاش مليكة الفراش

تطير بالجموع سعيا الى الشموع

فعطفت ومالت واستضحكت فقالت:

أزريت بالغرام يا عاشق الظلام

صف لي الصديق الأسود الخامل المجردا

قالت سألت فيه أصدق وأعفيه

هو الصديق الوافي الكامل الاوصاف

جواره أمان وسره كتمان

وطرفه كليل اذا هفا الخليل

يحنو على العشاق يسمح المشتاق

وجملة المقال هو الحبيب الغالى

فقلت الحقاء وقولها استهزاء

أين ابوالمسك الخصى ذوالثمن المسترخص

من صاحب الأمير الظاهر المنير

إن عد فيمن أعرف أسمى به وأشرف

وإن سئلت عنه وعن مكانى منه
أفاخر الأتراك وأنثى إعجابا
فقال يا مليكة ورببة الاريكه
ان من الغرور ملامسة الغرور
فأعطى قفالك وامضى الى الهلاك
فكركته ساخره وذهبت مفاخره
وبعد ساعة مضت من الزمان فانقضت
مرت على الخفاش مليكة الفراش
ناقصة الاعضاء تشكو من الفناء
فجاءها منهمكا يضحك منها البكا
قال ألم أقل لك هلكت أولم تهلك
رب صديق عبد ابيض وجه الود
يفديك كالرئيس بالنفس والنفيس
وصاحب كالنور فى الحسن والظهور
معتكر الفؤاد مضيع الوداد
حباله اشراك وقربه هلاك

نعم كم من شخص حسن الوجه سىء الفعل هذا الذى يريد شوقى أن يستفصه
من هذه الحكاية كما أراد أن يستخرج من هذه الحكايات كلها العبر التى استخرجها
أمثاله من الشعراء أو من الكتاب الذين تسكلموا على ألسن الحيوان والطير ورموا
مراعى حكيمة بعيدة من هذه الحكايات الصغيرة، وهم مثل صاحب كيلة ودمنة وغيره.
ومن أقوال شوقى فى هذا الباب حكاية عن الأسد عندما استوزر الحمار:

لليث ملك الفقار وما تضم الصحارى
سمعت اليه الرعايا يوما بكل انكسار
قالت تعيش وتبقى يا دامى الاظفار

مات الوزير فمن ذا يسوس امر الضواري
قال الحمار وزيرى قضى بهذا اختياري
فاستضحكت ثم قالت ماذا رأى فى الحمار
وخلفته وطارت بمضحك الاخبار
حتى اذا الشهر ولى كيلة أو نهار
لم يشعر الليث الا وماله فى دمار
القرد عند اليمين والكاب عند اليسار
والقط بين يديه يلهو بمضامة فار
فقال من فى جدودى مثلى عديم الوقار
ابن اقتدارى وبطشى وهيتى واعتبارى
فجاءه القرد سرا وقال بعد اعتذار
يا على الجاه فينا كن على الانظار
رأى الرعية فيكم من رأيكم فى الحمار

وقال فى القبرة وابنها :

رأيت فى بعض الرياض قبره تطير ابنها بأعلى الشجره
وهى تقول يا جمال العش لانتعتمد على الجاح الهش
وقف على عود بجنب عود وافعل كما أفعل فى الصمود
فانتقلت من فنن الى فنن وجعلت لكل نقلة ثمن
كى يستريح الفرخ فى الاثناء فلا يمل ثقل الهواء
لكنه قد خالف الاشاره لما أراد يظهر الشطاره
وطار فى الفضاء حتى ارتفعا نخانه جناحه فوقما
فانكسرت فى الحال ركبناه ولم ينل من العلا مناه
ولو تانى نال ما تمنى وعاش طول عمره مهنا
لكل شئ فى الحياة وقته وغاية المستعجلين فوته

وقال في الثعلب وهو في السفينة :

أبو الحصين جال في السفينة	فعرف السمين والسمينه
يقول إن حاله استحالاً	وان ما كان قديماً زالاً
لكون ما حل من المصائب	من غضب الله على الثعالب
ويغلظ الايمان للديوك	لما عسى يبقى من الشكوك
بأنهم إن نزلوا في الارض	يرون منه كل شيء يرضى
قيل فلما تركوا السفينه	مشى مع السمين والسمينه
حتى اذا ما نصفوا الطريقا	لم يبق منهم حوله رفيقا
وقال إذ قلوا عديم الدين	لا عجب ان حنثت يميني
فانما نحن بنو الدهاء	نعمل في الشدة للرخاء
ومن تخاف أن يبيع دينه	تكفيك منه صحبة السفينه

وخلاصة القول أن شوقي لم يهمل هذا الباب أيضاً وأنه دنا في اللفظ الى الغاية التي تدركها الأطفال ويحفظها الجاهل ولكل مقام مقال . وكان مثله في هذا مثل بشار فقد حدث ابن مهبويه عن أبيه قال :

قلت لبشار يا أبا معاذ إنك لتأتى بالأمر المتفارق فمرة تنير بشعرك العجاج فتقول:

إذا ما ضربنا ضربة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما
إذا ما أعرنا سيدها من قبيلة ذرى منبر صلي علينا وساما

ثم تقول :

رباب ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت

فقال بشار :

« انما اكلم كل انسان على قدر معرفته فأنت وعلية الناس يستحسنون ذلك، وأما رباب فهي جارية تربي دجاجا وتجمع بيضهن فاذا أنشدتها هذا حرصت على جمع

البليض وهو أحسن عندها وأنفق من شعري كله . فاذا أنشدتها في النمط الأول ما فهمته ولا انتفعت بها »

قلنا : وهذه قضية لا جدال فيها فالثوب ينبغي أن يفصل على قدر القامة ، والقول يجب أن يتناسب مع الحالة ، وقد أورد أبو العلاء المعري قصة بشار هذه في عرض الكلام على قصيدة المتنبي السخيفة في ضبة وهي التي أولها :

ما أنصف القوم ضبة وأمه الطرطبة

فقال :

ان أبا الطيب اجتار يوما بالطف فنزل بأصدقاء له وصادف هناك ولدا اسمه ضبة يغدر بكل أحد وسارت الخيل الى هذا العبد واستركبوه فازمه السير معهم فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه وليس سلاحه لهم الا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ويسمى أبا الطيب بشتمه وأراد القوم أن يجيبه أبو الطيب بمثل الفاظه القبيحة وسألوه ذلك فتكاف لهم على مشقة وعلم أنه لو سبه لهم معرضا لم يفهم ولم يعمل فيه ، عمل التصريح فخطابه على ألسنتهم من حيث هو فقال تلك الايات :

ما أنصف القوم ضبة الخ

وروى المعري عن ابن جني انه قال : ورأيت (أى رأى المتنبي) وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر انشادها .

قلت : وهذا دليل على ان المتنبي كان خجل من نفسه وندم على ارسال تلك الكلمة المشنومة التي صارت السبب في قتله وحرمان الناس من ذلك اللسان وذلك الجنان اللذين بخل بمثلها الزمان . فأما المعري فلشدة إعجابه بالمتنبي وما اشتهر من حبه له فقد حاول أن يتمجج له عذراً وأن يدمج هذه القصيدة تحت حكم « لكل مقام مقال » وهذا التشبيه محال . ثم حاول من جهة أخرى عذراً ثانياً وهو أن يجعل هذه القصيدة على ألسن أولئك الجماعة الذين كان يشتمهم ضبة وهو أيضاً عذر ضعيف أرق من خيط باطل إذ المتنبي يعلم انه مهما قال فقله لا بد أن يسير وان الكلمة المفردة من مثله تحفظ وتبقى وتعالى في الأذهان فكيف المنظوم الذي

تسير به الركبان . والحقيقة أنها كانت سويعة نحس غفل فيها المتنبي عن نفسه وغاب عن حسه فأرسل هاتيك الابيات وهو يظن أنها لن تتجاوز ذلك المكان وانه انما يشفى بها غليل جماعته أو انه يضحكهم على ضبة ونسى انه بهذا العمل قد وضع نفسه في صف ذلك السفية الذى وصفوا ما وصفوا من سفاهته وحمقه ومن ذا بعض الكلب اذا الكلب عضه ؟ فكانت من أبى الطيب هذه النبوة القبيحة سبباً في إنلافه ومصيبة الأدب العربى بفقد رجل كان من أرجح ادباء الدنيا ميزانا وأقواهم برهانا وأذلهم لساناً . ومن هذه القصة يجب أن تؤخذ العبرة اللازمة والعظة التى لا يجوز أن تفارق الخاطر، وهى ان الرجل الكبير يجب أن يبقى كبيراً فى جميع أطواره وأن يعلم أن كل ما يقوله سيسير ويحفظ عليه، وانه سيبقى وينسب اليه . والقول لقائله كالولد لئلاجله . ومن أحسن مزايا شوقى انه لم يتأولت بشيء من هذه القاذورات وان أدب النفس كان أثيره، فتره عن المرافقة قليل نظمه وكثيره، فلا أثار بقوله حفاظ ولا حاج أحقاداً وقد مضت جميع معاركه الادبية على سلامة

شعر المهرصم

وقد آن لنا الآن أن نصف من شعر شوقى القسم الذى هو فيه الشاعر الفرد والأسد الورد وهو شعر الملاحم érique أو الشعر التاريخى الذى بدأ فيه الأولين والآخرين وسما وحلق فى عيون جميع الناظرين وإلى برغم عصبيتى لصديقى محمود سامى باشا البارودى أقول انه قد فاته هذا الغرض ولم يقبض له الله هذه الفتوحات التى قبضها لشوقى والتى ضارع فيها شعراء الافرنج وكفر عن سيئاته فى المديح ومبالغاته إن كان لا بد أن يحسب ذلك عليه من السيئات

وقد فرط شوقى الى هذا الحوض من أول مرة وتنبه له فى مستقبل عمره ، ففى سنة ١٨٩٤ أى بعد اجتماعنا فى باريز بسنتين لا غير كانت له تلك الهمزية التى قالها عن وادى النيل وأنشدها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف وهى التى يقول فيها :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

ضرب البحر ذو العباب حوالى ها سماءً قد أكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الأرز ض شباكا تعدها الدأماء
وجبالاً موائجاً فى جبال تتدجى كأنها الظلماء
ودويا كما تأهبت الخيل ل وهاجت حماتها الهيجاء

هذا البيت الأخير ينظر الى قول المتنبي عن بحيرة طبرية :

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قَطْمٌ
كأنها والرياح تضربها جيشاً وغى هازم ومنهزم

ثم يقول :

لجة عند لجة عند أخرى كهضاب ماجت بها البيداء
وسفين طوراً تلوح وحيناً يتولى أشباحهن الخفاء
نازلات فى سيرها صاعدات كالوادي يهزهن الحداء

هذا من الوصف الذى يصح أن يكون مثلاً فى الابداع وصحة التصوير فتأمل
عندما تكون فى عرض البحر الخضم تنظر السفين عن بعد تارة تلوح لك أشرعتها من
بعيد وطوراً تحديق فلا تراها من سعة اليم وارتفاع أمواج الخضم وتأمل أيضاً تشبيهه
للسفن فى صعودها ونزولها على ظهر الموج التى تتقاذفها بالابل السائرة فى البيداء
فراكب السفينة كراكب البعير لا يفتأ يشمر بنفسه صاعداً نازلاً . ثم يقول وهو
من أبدع ما قيل :

رب ان شئت فالفضاء مضيق واذا شئت فالمضيق فضاء
فاجعل البحر عصمة وابعث الرحمة فيها الرياح والأنواء
أنت أنس لنا إذا بعد الأنا س وأنت الحياة والاحياء
يتولى البحار مهما ادلهمت منك فى كل جانب الألاء
واذا ما علت فذاك قيام واذا مارغت فذاك دعاء
فاذا راعها جلالك خبرت هيبة فهى والبساط سواء
والعريض الطويل منها كتاب لك فيه تحية وثناء

لا تظهر عبقرية شوقي ظهوراً باهراً مثلاً تظهر في هذا النوع من الشعر فلو قلت ان كل ما قاله شوقي في باب المديح وباب الرثاء وباب الحكايات لا يوازي هذه الايات لم أكن مبالغاً . فكأن شوقي كلما علا الموضوع علا هو معه فلما رأى أمامه جلالة هذا الخلق العظيم وتأمل جلالة خالقه تعالى ارتفع به البيان الى الدرجات العلى وتعلق بسدرة المنتهى التي تليق بوصف تلك الجلالة . وأما الكتاب الذي يتكلم عنه وهو عبارة عن المريض الطويل من هذا الخلق العظيم الذي هو البحر فان لي حكاية هي من هذا الموضوع بسبيل .

كنت أيام الحرب مبعوثاً لسورية في الاستانة دار الخلافة العثمانية تولاهما الله برحمته وكانت بيني وبين عبد الحق حامد بك الذي يقال له أديب الأتراك الاعظم مودة أكيدة ولم تنحصر في لجة الأدب بل تجاوزت الى لجة النسب لأن أديب الأتراك الاعظم عربي الأصل ينتمي الى عبد الحق السنباطي وقد جاء سلفه الى استانبول فاستركوا وكانت لي معه - فسح الله في أجله لانه لا يزال حياً - مجالس نتناشد فيها الأشعار ونتناقل الآثار وفي ذات يوم صادفته ذاهبا الى اسماعيل حقي بك - من أدباء الترك، كان واليا لبيروت يوم انتهت الحرب - وهو من مریدی عبد الحق حامد فأخذ يمدى وقال لي تعال معي حتى نقرأ عليك شيئاً من آثاری الجديدة فضيت معه حتى وافينا منزل اسماعيل حقي . وما استقر بنا الجلوس حتى بدأ اسماعيل حقي يتلو علينا رواية « طارق » التي منها ماهو نظم ومنها ما هو نثر وكل ذلك بالتركي فوصلنا الى مكان يسميه عبد الحق حامد (مناجاة) وهو أن طارقاً يولى وجهه شطر السماء ويناجي ربه بأقوال يضرع بها اليه ولست متذكراً منها الآن الا قوله : يا رب ألم تقل لنا كذا وكذا في كتبك المنزلة ؟ ألم تقل كذا وكذا بلسان الطبيعة التي هي أيضاً من كتبك المنزلة ؟ الى آخر ما يقول . فلما وصل الى هذه الجملة وهي أن الطبيعة هي من الكتب المنزلة قلت أنا فوراً : وربما كانت أقدمها . فاهتز لذلك عبد الحق حامد وقال لاسماعيل حقي : « أمان أمان بوني يازيكز » أي بالله عليك اكتب هذه . وبقي يردد هذه النكتة وهي أن الطبيعة هي أقدم الكتب الالهية . وبعد ذلك بمدة وجسدت رسالة طارق

مطبوعة وفي حاشية الفصل الذي اسمه « مناجاة » مكتوبة هذه الجملة : « وربما كانت هي أقدم الكتب المنزلة » وبجانبها يقول : « هذه الجملة هي من الأمير شكيب أرسلان » فقضيت العجب من أمانة هذا الشاعر الكبير الذي أبى أن ينسب هذا المعنى لنفسه وأصر على نسبته إلى بالصراحة بينما كثير من الشعراء والادباء ينتحلون أقوالاً لم يكونوا هم قائلينها ويتبنون معاني قد يكون نجاحها غيرهم . ولكن عبد الحق حامد أغنى من أن يسرق .

والشاهد هنا أن الخواطر تواردت وأن شوقي يرى البحر كتاباً من كتب الله له فيه تعالى تحية وثناء وأن عبد الحق حامد الذي هو في الترك كشوقي في العرب يرى في الطبيعة كتاباً إلهياً أنزله الله ليقراء عباده وأن هذا المعاجز يرى هذا الكتاب أقدم الكتب الإلهية لأن الله خلق الطبيعة قبل أن بعث الأنبياء وأنزل عليهم الوحي . ثم يقول شوقي :

يا زمان البخار لولاك لم نفجج بنعمى زمانها الوجناء
فقدماً عن وخدها ضاق وجه الأرض وانقباد بالشرع الماء
وانتهت إمرة البحار إلى الشر ق وقام الوجود فيما يشاء
وبنينا فلم يخل لبان وعلونا فلم يجزنا علاء
وملكنا فلما لكون عبيد والبرايا بأسرها أسراء
قل لبان بنى فساد فغالى لم يجز مصر في الزمان بناء
ليس في الممكنات أن تنقل الاجبال شماً وان تنال السماء
اجفل الجن عن عزائم فرعون ودانت لبأسها الآباء

يريد أن يقول ان الأولين كما رأوا عجباً عدوه من صنعة الجن وان فرعون مع ذلك جاء بالاهرام التي لم ينسبها أحد الى الجن وهي أعجب وأصعب من كل ما نسب الى الجن من بناء البشر . ثم يقول :

وقبور تحط فيها الليالي ويوارى الاصباح والامساء
تشفق الشمس والكواكب منها والجديدان والبلى والفناء

فاعذر الحاسدين فيها اذا لا
زعموا انها دعائم شيدت بيد البغي ملأوها ظامساء
دُمِر الناس والرعية في تشبيدها والخلائق الأسراء
أين كان القضاء والعدل والحكمة والرأى والنهى والذكاء
وبنو الشمس من أعزة مصر والعلوم التى بها يستضاء
فادعى ما ادعى أصاغر آثي لنا ودعواهم خنى وافتراء

يريد أن يقول ان يونان التى زعمت كون هذه الاهرام بنيت بالظلم والقسر على
أيدي العبيد وأنفقت عليها أموال الرعية انما قالت ذلك حسدا ونفاسة لعجزهم عن مثلها
وان قولها خفى وافتراء. ثم أثبت على الفراعنة الذين شيدوا تلك الأبنية الخالدة على الدهر
تتحدى الزمان وتبارز الحدثان. وقال : ان تلك الدولة قد انتقلت الى أناس خالفوا سنن
من قبلهم وهم ملوك الرعاة فساموا مصر العذاب فتراه يقول فى هؤلاء :

واذا مصر شاة خير لراعى السوء تؤذى فى نسلها وتساء
قد أذل الرجال فهى عبيد ونفوس الرجال فهى إماء
ولقسوم نواله ورضاهم ولاقوام القلى والجفاء
ففریق ممتعون بمصر وفریق فى أرضهم غرباء
إن ملكك النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء

يعنى براعى السوء أحد الملوك الرعاة الذين يقال لهم الهكسوس والذين شوق
يقول فيهم :

أعلنت امرها الذئاب وكانوا فى ثياب الرعاة من قبل جاءوا
وبعد أن وصف هذه الدولة بما وصفها به من استعباد مصر التفت فنصح الإنجليز
الذين يحتلونها اليوم مستبدين فقال لهم : ان كنتم ترون أنفسكم قد تغلبتم على أهل مصر
فلا ينبغي أن تأمنوا انتقاضهم بعد خضوعهم لكم بالقوة فان للنفوس ثورة ومضاء. وان
الوحش تتحرك لتتغلبت من القيود فكيف لا تتحرك البشر لتطحيم القيود ؟ وليس لى

اعتراض هنا إلا على قوله يسكن الوحش للوثوب من الأسر الخ فان السكون والوثوب لا يقتربان ولو أنه قال ينزع الوحش للوثوب من الأسر لكان أقعد
ثم أتى شوقي على تاريخ رمسيس وسيزوستريس وأشاد بكبرها إشادة تجدر بعظمة مصر في تلك الأعصر الخوالى ، وما زال الى أن وصل الى قبيلز ملك الفرس الذى استولى على مصر وجعل أعزة أهلها أذلة ، ووصف ما حل بملوك مصر فقال:

بنت فرعون بالسلاسل تمشى أزعج الدهر عريها والحفاء
فكان لم ينهض بهودجها الدهر رولا سار خلفها الأمراء
أعطيت جرة وقيل اليك الله هر قوى كما تقوم النساء
فمشت تظهر الإباء وتحمى الله مع ان تسترقه الضراء
والأعادى شواخص وأبوها بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعون ن وفرعون دمه العنقاء
فأروه الصديق في ثوب فقير يسأل الجمع والسؤال بلاء
فبكى رحمة وما كان من يه كى ولكن ما أراد الوفاء

يريد أن يقول، ان فرعون لم تبدله دمة لما رأى ابنته تحمل الجرة وتذهب الى النهر لتستقي كالحدى الإماء ، ولكنه لما رأى أحد أصدقائه يسأل الناس من فقره أجبهش ولم يملك دمه. وما كان سريع الدمة ، ولكن الوفاء غلب عليه

ثم ذكر كيف ان الاسكندر غلب على مصر وأزال منها حكم الفرس فقال :

طلبة للعباد كانت لاسكندر در في نيلها اليد البيضاء
شاد اسكندر لمصر بناء لم تشده الملوك والامراء
بلداً يرحل الأنام اليه ويحج الطلاب والحكماء
والجوارى في البحر يظهرون عز ال ملك والبحر صولة وثرء
والرعايا في نعمة ولبطاي موس في الارض دولة علياء

يقول ان مصر في عهد البطالسة صارت دار علم وحكمة واستراحت فيها الرعايا وغلظ أمرها ، وكان لها أسطول حربى وأسطول آخر تجارى عبر عنهما بقوله (والبحر

صولة وثراء) ثم ذكر خراب دولة البطالسة بمجىء كليوباترة فقال :
 ضيقت قيصر البرية أنثى يالربى مما تجرّ النساء
 فتنت منه كهف روما المرجى والحسام الذى به الاتقاء
 فأناها من ليس تملكه أذى ولا تسترقه هيفاء
 أشار كيف لعبت كليوباترة بقلب قيصر ثم بقلب انطونيوس حتى جاءها
 أوكتافىوس الذى لم يؤثر فيه جمالها فغلب عليها وانتحرت بان وضعت حية على صدرها
 وهو ما أشار إليه بقوله :

سلبتها الحياة فاعجب لرقطا ٠ أراحت منها الورى رقطاء
 ثم جاء هنا بالمقطع الذى هو بيت القصيد والذى لم أزل أبحث فى شعر المعاصرين
 فلا أجد ما يدانيه ولو كان شوقى لم يقل غيره لكان كافياً لمجده وأجره ولجزاه دنياه
 وآخرة تأمل فى هذا الفصل المدهش فى جلالة معناه وجزالة مبناه قال :

رب شقت العباد أزمان لا كتبها يهتدى ولا أنبياء
 ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى جمعتها الحقيقة الزهراء
 فاذا لقبوا قويا إلها فله بالقوى اليك انتهاء
 وإذا آثروا جمالا بشرب ه فأن الجمال منك حباء
 وإذا أنشأوا التماثيل غرا فإليك الرموز والإيماء
 وإذا قدروا الكواكب أربا با فملك السنا ومنك السناء
 وإذا ألهموا النبات فمن آ ثار نعماك حسنه والسماء
 وإذا يعموا الجبال سجودا فالمراد الجلالة السماء
 وإذا تعبد الملوك فان ال ملك فضل تحبو به من تشاء
 وإذا تعبد البحار مع الأسماك والعاصفات والأنواء
 وسباع السماء والأرض والأر حام والأمهات والآباء
 لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنسات إماء
 أراد شوقى أن يسرد تاريخ ديانات أهل مصر فقال : أنهم قبل أن تنزل الكتب

السموية كالنوراة والانجيل والقرآن تحيروا في العبادة وذهبوا مذاهب شتى يجمعها حقيقة واحدة هي الاعتقاد بالله ، ولكنهم نشدوه من طرق مختلفة فهذا يعبد القوى وذلك يعبد الجميل وذلك ينحت التماثيل ومنهم من عبدوا الكواكب ومنهم من قدسوا الأشجار ومنهم من انحنوا للجبال ومنهم من ألهموا الملوك ومنهم من سجدوا للبحار والأسماك والعواصف والطيور والوحش وغير ذلك، وكل المراد المقصود المنشود هو الحقيقة الالهية . كأنما شوقى يعتذر عن تنوع عباداتهم هذه وتسفل بعضها حتى صارت الى الحيوانات بجهل الناس هناك الطريق القويم لعدم وجود الدليل فكانت عقول الخلق في طفوليتها وكانوا يخشون ويرجون ويفزعون ويضرعون ولا ينزل عليهم وحى يعرفون انه الحق فيعولون عليه، وما زالوا في هذه الحيرة حتى جاءت الرسل فأنارت الطريق وحصل الحق . وقد قدم شوقى هذا الاعتذار عن تخبط البشر في عقائدهم بقوله : يا رب إننا عشقناك وهما وراءك في كل مكان فلا عجب ان كنا ضلانا السبل

رب هذى عقولنا في صباها نالها الخوف واستباها الرجاء
فعشقناك قبل أن تأتي الرسـ ل وقامت بحبك الاعضاء
واتخذنا الاسماء شتى فلما جاء موسى انتهت لك الاسماء
ثم ذكر كيف أن فرعون ربي موسى واعتمد على وفائه فخانه موسى لأجل ربه
لأنه لاطاعة المخلوق في معصية الخالق فقال :

ظن فرعون أن موسى له و ف وعند الكرام يرجى الوفاء
لم يكن في حسابه يوم ربي ان سيأتى ضد الجزاء الجزاء
فرأى الله أن يعق ولله تفي لا لغيره الانبياء
مصر موسى عند انتماء وموسى مصر ان كان نسبة وانتماء
فيه فخرها المؤيد مهما هز بالسيد الحكيم اللواء
فقد خرجنا هنا بالمصريين من عهد الرموز والتماثيل والعبادات المتنوعة والآلهة
أشكالا وألواناً الى عبادة الواحد الأحد الذى دل عليه موسى غايه السلام فوضع أساس
الشرعية الالهية . ثم تلاه عيسى عليه السلام أيضا فوصف شوقى مولد عيسى عليه

السلام بما لا أظن عيسويا على وجه الأرض قال أحسن منه ولا مثله ألا ترى انه ليس

فيمن ينطق بالضاد من مسلم ومسيحي تقريباً من يجهل هذه الآيات :

ولد الرفق يوم مولد عيسى	والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت	بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يشهد	مرى من الفجر في الوجود الضياء
تملاً الأرض والعوالم نورا	فالثرى مائج بها وضياء
لا وعيد لا صولة لا انتقام	لا حسام لا غزوة لا دماء
ملك جاور التراب فلما	ملّ نابت عن التراب السماء
واطاعته في الآله شيوخ	خشع خضع له ضعفاء
أذعن الناس والملوك الى ما	رسموا والعقول والعقلاء
فلهم وقفعة على كل أرض	وعلى كل شاطئ إرساء
دخلوا ثيبة فأحسن اقيما	هم رجال بثيبة حكماء
فهموا السر حين ذاقوا وسهل	أن ينال الحقائق الفهماء
فاذا الهيكل المقدس دير	وإذا الدير رونق وبهاء
واذا ثيبة لعيسى ومنفيع	س ونيل الثراء والبطحاء
انما الأرض والفضاء لربى	وملوك الحقيقة الأنبياء
لهم الحب خالصاً من رعايا	هم وكل الهوى لهم والولاء
انما ينكر الديانات قوم	هم بما ينكرونه أشقياء

بعد أن ذكر مجيء موسى بالشرعية الالهية جاء الدور الى عيسى فقال انه بمولده

ولد الرفق والحياء والمروءة وانتشر النور في الأرض وكانت شريعة ايس فيها شيء غير اللين والعطف واللطف وتحمل الاذى وحب الاعداء والعفو عن الذنب وعدم مقابلة الشر بالشر وقد عاش عيسى عليه السلام معاش الى أن رفعه ربه الى السماء فتاب عنه في الأرض الحواريون وهم قوم ضعفاء مساكين صيادو سمك أطاعوه فصاروا بطاعتهم له سادة الأرض وخضعت لهم الملوك والقيصرة فضربوا في البلاد وقطعوا البحار ونزلوا

بكل شاطئ وجاء أحدهم (مرقص) فدخل ثيبة إحدى عواصم مصر فتلقاه أهلها وكانوا حكماء فذاقوا الكلام الذي جاء به مرقص واتبعوا ذلك النور الذي معه ، وليس بمجب أن يفهم الحكمة الحكماء ، فردوا هيا كلهم كنائس وصارت مصر لعيسى ، وحقيقة الأمر أن ملوك العالم هم الأنبياء فالناس تطيعهم من دون الملوك لأن طاعة الأنبياء تخالط القلب وطاعة الملوك لا تخالط إلا الجسم ، والأنبياء لهم الباطن والملوك لهم الظاهر وما أنكر الأديان قوم إلا شقوا بما أنكروه. ثم قال :

هرمت دولة القياصر والدو لات كالناس داؤهن الفناء
ليس تغنى عنها البلاد ولا ما ل الاقاليم ان أتاها النداء
نال روما مانال من قبل آثيد نا وسيمته ثيبة العصاء
سنة الله في الممالك من قبل ومن بعد ما لنعمى بقاء

أراد شوقي هنا أن يذكر هرم الدولة الرومانية وأن الدول تهرم كما يهرم الرجال حسبما قال ابن خلدون وأنها لا يغنى عنها كثرة الملك والمال إذا أتاها أمر ربها (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . فرومة نالها مانال من قبلها آثينا عاصمة يونان وثيبة عاصمة مصر ولم تكن دولة تبقى الى الابد . ولما هرمت الدولة الرومانية انتشرت في نواحيها الضلالة ففتك بها الجهل وتشبعت المذاهب وأخذ الناس يقتتلون على العقائد وعادوا الى مثل الوثنية الاولى وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل فرأى الله أن لا بد من القوة لاقامتهم على الحق وأنه لا بأس بالسيف اذا لم ينجم الوعظ ولم تغن النذر وقد يقطع الطبيب عضواً من الجسم لسلامة سائر الاعضاء فقال شوقي وقد جعل هذه الحالة توطئة لظهور محمد عليه الصلاة والسلام :

وتولى على النفوس هوى الاو وان حتى انتهت له الاهواء
فرأى الله أن تطهر بالسيه فوان تغسل الخطايا بالدماء
وكذلك النفوس وهى مراض بعض أعضائها لبعض فداء
لم يعاد الله العبيد ولكن شقيت بالغباوة الاغبياء
واذا جلت الذنوب وهالت فمن العدل أن يهول الجزاء

أشرق النور في العوالم لما بشرتها بأحمد الأنبياء
باليتم الأئمة والبشر الموحي إليه العلوم والأسماء

فهو يقول: ان الله لا يريد لعباده الا الخير ولكن بعض عباده أصروا على المعاصي
ومردوا على النفاق . واذا كانت الذنوب عظيمة وأعظمها هو الشرك فمن العدل أن
تقمع بالسيف إذ لا حيلة فيمن كانت قلوبهم غلفاً وآذانهم صماً ولذلك أرسل الله الرسول
العربي اليتيم الامي الذي أزل عليه الفرقان فمحا الشرك وشدخ يافوخ الكفر، وقد كنت
أحب أن يستعمل شوقي محل قوله : فمن العدل أن يهول الجزاء . قوله : فمن العدل أن
يجل الجزاء . لأن جزاء تلك الذنوب التي عددها لم يكن قاسياً هائلاً بالنسبة اليها .
وكان ينبغي لشوقي أن يذكر مبدأ الرسالة المحمدية بالنصح والقول الحسن ودعوة الناس
الى الحق مدة مديدة من الزمن ليس فيها بأس ولا شدة ولا شيء يختلف عن دعوة عيسى
لقومه الى أن أصر المشركون على عنادهم وحاولوا قتل الرسول الأمين لأجل بلاغه المبين
فهاجر الى قوم نصره وآزره حتى لا تموت الدعوة ولا تذهب الحقيقة ضحية أهواء
ذوى السلطة وأنصار الضلالة فلم يقع الجزاء إلا بعد ان انقطع الرجاء وما كان
إلا جزاء وفاقاً .

ثم قال :

قوة الله ان تولت ضعيفاً تعبت في مراسه الاقوياء
شرف المرسلين آيته النطق مبيناً وقومه الفصحاء
لم يفه بالنوايح الغر حتى سبق الخلق نحوه البلغاء
وأنته العقول منقاداة اللب ولبى الاعوان والنصرءاء
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء
وحى الله مستباح وشرع الله والحق والصواب وراء
فلجبريل جيئة ورواح وهبوط الى الثرى وارتقاء
يحسب الافق في جناحية نورا سكنته النجوم والجوزاء
تلك آي الفرقان أرسلها الله ضياء يهدي بها من يشاء

نسخت سنة النبيين والرسول كما ينسخ الضياء الضياء

وحماها غر كرام أشداً على الخصم بينهم رحماء

قال: ان الله اذا تولى ضعيفاً لم تقدر على مقاومته الأقوياء ومن ينصره الله فلا غالب له وهو يشير الى قوله تعالى: (وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) وقال: ان محمداً هو أشرف المرسلين وان الله بعث كل رسول بآية وان آية محمد عليه السلام كانت النطق المبين لأنه بعث في قوم فصحاء، لسانهم أفصح الألسنة وقراءتهم أصفى القرائح فهم أقرب أن يتأثروا بالفصاحة من كل قبيل، ولذلك لم يفهم الرسول بتلك الكلمات النوايح حتى أقبل البلاء عليه قبل غيرهم وانقادوا له وقد كان الناس أوانث في شقاق بعيد وفي ارتكاب محارم يثدون بناتهم ولا يملكون حلالاً ولا حراماً وكان يتسلط قوتهم على ضعيفهم ويجعلون الحق دبر آذانهم فنزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بالشرعية التي ألفت بين قلوبهم وجعلتهم اخواناً وظهرت خلافتهم من تلك الآثام التي كانوا منغمسين فيها ونقلتهم من عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن وذلك كله بآيات القرآن الذي نسخ ما قبله لا نسخ ضياء اظلام بل نسخ ضياء لضياء لأن شريعة موسى كانت حقاً فجاءت شريعة عيسى فأكملتها ولأن شريعة عيسى كانت حقاً فطرات عليها طواري فجاءت شريعة محمد فقومتها وأعادت بها الى أصلها.

قال: وقد تولى حماية هذه الشريعة الجديدة صحابة للرسول كرام (أشداً على

الكفار رحماء بينهم) ثم قال:

أمة ينتهى البيان اليها	وتؤول العلوم والعلماء
كلما حثت الركاب لأرض	جاور الرشداً أهلها والذكاء
وعلا الحق بينهم وسما الفض	ل ونالت حقوقها الضعفاء
تحمل النجم والوسيلة والمي	زانت من دينها الى من تشاء
وتنيل الوجود منه نظاما	هو طيب الوجود وهو الدواء
يرجع الناس والعصور الى ما	سن والجاحدون والأعداء

فيه ما تشتهى المزائم إن هم ذووها وتشتهى الاذكياء
فمن حاول التعميم نعيم وابن آثر الشقاء شقاء
أبى العجيم من بنى الظل والدماء عجيباً أن تنجب البيداء
وتثير الخيام آساد هيجاء مراها آسادها الهيجاء
ما أنافت على السواعد حتى الأرض طرأ في أسرها والفضاء
تشهد الصين والبحار وبفدا د ومصر والغرب والحراء

يقول: ان الامة العربية أمة ينتهى اليها البيان وتجد فيها العلوم صدوراً منشروحة
فهى تقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزناً للعلماء حيث كانوا فكانت كلما استولت على قطر
اهتز العلم فيها ورباً ونشأ فيه العلماء الفحول وعلت راية الحق ونال كل انسان
ما يستحقه بعمله واضمحلت الطبقات وارتفعت الفروق وعلم الناس أنهم شرع في نظر
الشرع وان أكرمهم عند الله أتقاهم وان الملك والسوقة سواء وان جبلة الايهم اذا لطم
الاعرابى يقاد منه في الحال وان الحد الشرعى يقام على الجميع من دون مراعاة وعلى ابن
الخليفة، وأن الرسول يهتف قائلاً: (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لأمرت بقطع يدها)
وأن عمر يقول: (والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهدم أولى بمحمد
منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة ولا يعمل لمسا عند الله فان من قصر به عمله
لا يسرع به نسبه) وأن الرسول كان يقيد من نفسه وأن عمر كان يقيد من نفسه وأن
علياً كان يساوى اليهودى في القضاء فكانوا يصدعون بمبادئ القرآن ويطبقونها على
الكبير والصغير، وصادف أن الدولة الفارسية والدولة الرومانية كانتا قد أسرع اليهما
الفساد وضاعت فيهما الحقوق وعلا القوى فوق الضعيف فماظهر الاسلام حتى انهارت
الاولى لديه انهياراً تاماً وتقلصت الثانية أمامه تقلصاً أورث الاسلام ثاى ممالكها .
فالعرب حملوا العدل الذى فى دينهم الى الامم التى استولوا عليها وأثاروا فيها حب
ال عمران والسعى فى مناكب الارض وصار هذا الدين نظاماً للوجود يرجع الناس اليه
فى أمور الدنيا والعقبى ولم يكن بدين آخرة فيحسب بل كان ناظماً للدنيا والاخرى
معاً، أحل الله فيه الطيبات ويسر ما تشتهى نفوس الاذكياء وانما حرم الاسراف

والخيلاء والأثم والاعتداء والمشى فى الأرض مرحاً فهو دين بر بمن بره صارم على من عقه . ثم قال :

ولم يكن عجباً أن أبناء الصحراء يفوقون أبناء الظل والماء ويتزود منهم ممالكهم
فطالما كانت الصحارى مواطن الآساد فما ثارت هذه الآساد من بادية العرب حتى رأينا
الأقطار تنتظم فى ملكهم من الصين شرقاً الى المغرب والأندلس غرباً . ثم قال :

من كعمرو البلاد والضاد مما شاد فيها والملة الغراء
شاد للمسلمين ركنا جسماً ضافى الظل دأبه الايواء
طالما قامت الخلافة فيه فاطمأنت وقامت الخلفاء
فابك عمراً أن كنت منصف عمرو أن عمراً لنير وضاء
جاد للمسلمين بالنيل والنيل لمن يقتنيه أفرقاء
فهى تملو شأننا اذا حرر النير لى وفى رقه لها إزراء

لم يكن لشوقى بد من ذكر عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو فاتح وادى النيل
للاسلام ومتمعه بتلك النعم الجسام . قال شوقى : ان العروبة والاسلام كانا فى مصر
من غرس يدى عمرو وانه جعل من مصر ركناً للملة الاسلامية تأوى اليه وتدر
خيراتها عليه فاذا مست المجاعة أهل المدينة (دار الخلافة وقتئذ) أغاثها عمرو بالأرزاق
المتصلة من وادى النيل . قال : ففضل عمرو على الاسلام لاحد له لأنه ملك المسلمين
النيل والنيل هو افرقيا وكفى بذلك وصفاً لعظمة العمل الذى قام به عمرو بن العاص .
ويظهر أن شوقى استطال تاريخ مصر فى الاسلام فلم يشأ أن يعرج منه إلا بالحدوثات
الكبرى وطوى دور الأمويين فى مصر ودور بنى العباس فلم يقل شيئاً عن آل طولون
ولم يعرج على الفاطميين مع أنه كانت لهم دولة زاهرة لمعت ردىاً من الدهر ولعله تجانف
عن ذكرهم بحيدهم عن طريق السنة والجماعة وبالجمله فقد قفز شوقى من زمن عمرو بن
العاص طفرة واحدة الى زمن صلاح الدين الأيوبي ، فقال :

واذكر الغر آل أيوب وامدح فمن المدح للرجال جزاء
هم حماة الاسلام والنفر البيب ضى الملوك الأعزة الصالحاء

كل يوم بالصالحية حصن وبيليس قلعة شماء
وبعصر للعلم دار والضيافة ن نار عظيمة حمراء
ولأعداء آل أيوب قتل ولأمرهم قري وواء
يعرف الدين من صلاح ويدري من هو المسجدان والاسراء
إنه حصته الذي كان حصناً وحماه الذي به الاحتماء

أشار الى ما كان عليه بنو أيوب من الحماية وعزة النفس الاسلامية والصلاح
والجهاد وأنهم كانوا يبنون الحصون ويشيدون دور العلم ويقرون الضيوف ويوقدون
نار الوغى للأعداء ونار القرى القصاد وبكرمهم أمرهم بشأن الابطال الكرماء وان
الدين الاسلامي يعرف مقام صلاح الدين من حمايته وان الحرم الثلاثة تعرف خدمته
العظيمة . أشار بقوله المسجدان الى مكة والمدينة وبقوله الاسراء الى القدس الشريف
وقال انه كان حصناً للقدس وحمى لتلك الحمى . ثم أتى على ذكر الحرب الصليبية
لأنها من الملاحم الكبرى فقال :

يوم سار الصليب والحامول ومشى الغرب قومه والنساء
بنفوس تجول فيها الأمانى وقلوب تنور فيها الدماء
يضمرون الدمار للحق والتنا س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدون بالتلاوة والصل بان ما شاد بالقنا البناء
قتلتهم عزائم صدق نص للدين بينهن خباء
مزقت جمعهم على كل أرض مثلما مزق الظلام الضياء
وسبت أمرد الملوك فردة ه وما فيه للرعايا رجاء
ولو اب الملك هيب أذاه لم يخلصه من أذاها الفداء
هكذا النسمون والعرب الخا لون لا ما تقوله الأعداء
فيهم في الزمان نلنا الليالى وبهم في الوردى لنا أنباء
ليس للنل حيلة في نفوس يستوى الموت عندها والبقاء

من أحسن مزايا شوقي رسوخه في اللغة فهو يقول (قومه والنساء) وذلك لان

القوم هم جماعة الرجال خاصة لأنهم يقومون بمظائم الامور
وقد قابل القوم بالنساء كأنه يقول : ومشى القرب رجاله والنساء وقد كانوا في
حرب الصليب جاءوا بالفعل رجالا ونساء .

أما النساء فمنهن من كن قد جئن مع أزواجهن ومنهن من كن قد استجلبن
للرفث وكان هذا الجيش من النساء كثيراً في جيش الافرنج وقد وصفهن العباد
الاصغفاني الكاتب في الفتح القدسي بأسجاعه المبهودة وجناساته المعروفة وصفاً يلذ
الحجان ولكنه يني بحقيقة تاريخية تدل على أن هذا الأمر قديم العهد في جيوش الافرنج
ثم ان شوقي يشير كيف جاء الصليبيون بنفوس ملأى بالأمانى وصدور مفعمة
بالأحقاد يريدون أن يقضوا على الاسلام ويخنقوا كل من دان به وأن يهدموا الحق
وأن يدمروا من جاء بالحق .

وقال : انهم لما هاجروا بلاد الاسلام تلقتهم من المسلمين عزائم صادقة نهض بها الدين
فنثرت جموعهم على كل أرض واسرت في بعض هذه الحروب لويس التاسع ملك فرنسا
الذي يقال له القديس لويس وانقطع أمل قومه منه ولكنه فدى نفسه بالمال بعد مدة
من أسره ولو كان المسلمون خافوا عاقبة اطلاقه ما قبلوا منه الفدية ولكنهم كانوا أوثق
بانفسهم واعظم اتكالاً على الله من أن يخافوا عاقبة تسريح ملك من ملوك أوربة .

قال : وكان هكذا المسلمون من العز والمنعة . وعطف على قوله : (المسلمون) بقوله :
(والعرب الخالون) من باب التخصيص على حـسـد (حافظوا على الصلوات والصلوة
الوسطى) وانهم لم يكونوا كما يصورهم الافرنج للناس ، واننا بهم سدنا في العالم زمناً
طويلاً وورثنا ما ورثناه من تاريخ مجيد . وقال : إذا استوى عند أمة الموت والحياة فلا
حيلة فيها للمدو وهو من قبيل :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ولا بد لي هنا من الوقوف بعض الشيء بل من الاعتراض على شوقي رحمه الله
فقد قصر المسافة بين زحف الصليبيين وبين تلقى المسلمين لهم بعزائم الصديق . والحال
(م - ١٣ شوقي)

ان بين العهدين حقبة يصبح أن تسمى دهرًا، وذلك ان أول وقعة أصلتها الجموع الصليبية الجيش الاسلامي كانت واقعة نيقية في الأناضول التي وقعت بين الصليبيين والترك وفاز بها الصليبيون واسترجعوا نيقية وتاريخها ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧ ومنذ ذاك اليوم الى واقعة «حطين» التي قضت على دول الصليبيين في الشرق تسعون سنة كان فيها الصليبيون يسرحون ويمرحون في ظل فوزى الاسلام ومشاقة بنيه بعضهم لبعض فانه ما رأى الراءون ولا روى الراوون ولا يمكن أن يتصور العقل مهما كان واسعًا ولا الخيال مهما كان خصبًا درجة الفوضى التي كانت عليها الدول الاسلامية وقتها زحف الصليبيون الى الشرق. ففي كل بلدة أمير ناز على سلطانه وفي كل قصبة شيخ ناز على أميره وفي كل قطر دولة تناوى أختها وفي كل مملكة وزراء يمدون أيديهم في الخفاء إلى أعداء دولتهم والفاطميون في مصر حرب على العباسيين في بغداد والسلاجقة حرب بعضهم على بعض بين فرع ألب أرسلان أصحاب فارس وفرع قطولش أصحاب قونية والأناضول وجميع السلاجقة أعداء للدانشمندان أصحاب شرقي الأناضول. وهذا كله سهل لا يعد شيئًا بالقياس الى فوضى سورية التي كان كل من فيها تقريبًا يريد أن يكون مستقلًا

فالشام في يد دقاق السلجوقي، وحلب في يد رضوان أخيه وهما يقتتلان برغم أنهما أخوان، وحماة في يد أمير. وحمص في يد أمير آخر. وطرابلس لها أمراء وفلسطين يتقاسمها الفاطميون والسلاجقة ولا يقيم العامل في عمله أكثر من أشهر معدودة حتى يشور على دولته طمعًا في الاستقلال. ولا يوجد قائد حصن إلا وهو يأبى أن تكون فوق يده يد، وقد جاء الصليبيون فارتكبوا من الذبح والفتك والقتل العام وحصد الرؤوس بلا استثناء واستئصال الأهالي المسلمين كالحاربين واتلاف النساء والأطفال والشيوخ والأسرى والتجاوز على الأعراض وانزال المعرات ببيوت الصون والستر مالا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على بال، وأسالوا من الدماء في انطاكية ومعرة النعمان وحارم وتل باشر وعزاز والرها وسروج وشيزر وحماة والملاذقية وطرابلس وبيروت وبافا وعسقلان وعكا ما لا نصف هوله الألفاظ ولا تباع كنهه العبارات. والطامة الكبرى في القدس حيث تعترف تواريخهم نفسها بأن الخيل غاصت في الدماء

الى صدورهما وتوارىخ العرب تقول ان الذين ذبحهم الصليبيون في المسجد الاقصى كانوا سبعين ألفا بينهم النساء والاطفال .

وكل هذا لم يكن كافياً في نظر المسلمين مدة تسعين سنة أن يتحدوا في وجه العدو، وأن يتركوا الشقاق والعداء فيما بينهم ، ويتخلصوا من هذه المجازر المستمرة التي كان الافرنج يرتكبونها فيهم ويفتنونهم - لا في كل عام بل في كل يوم - مرة أو مرتين وهم لا يدركون ، بل كانوا يمدون أيديهم لمعاهدة الافرنج وقد يجتمعون معهم على إخوانهم وجيرانهم ويكون الافرنج قد قفلوا من بلدة المسلمين فتحوها واستأصلوا جميع من فيها فيأتى اليهم أمير من أمراء المسلمين وهم غائصون في دماء المسلمين يعاهدهم ويمشي معهم على أمير آخر من قومه كأنه لم يفعل شيئاً .

ولما فتح الصليبيون انطاكية وذبخوا تلك الالوف المؤلفة من مسلمي انطاكية وما يجاورها كانت الدولة الفاطمية ترسل وفداً من القاهرة لتهنئة الصليبيين بهذا الفتح العظيم وتعرض عليهم الخلف، وكان الصليبيون قد ظفروا بالمسلمين في إحدى الوقائع يوم كان الوفد الفاطمي ضيوفاً عندهم فأرسل أمراء الصليبيين الى الوفد الفاطمي ثلاثمائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين بنفحون الوفد بها ويكرمونه بمشاهدتها كما لو قدموا لهم شيئاً من الفاكية مثلاً . وكان الفاطميون يظهرون سرورهم بذلك الفوز الصليبي وكان الأمراء بنو عمار أصحاب طرابلس ينصحون الخدمة للصليبيين ولولاهم لانكسر بودوين الأول عند ما كان في شمالي سورية . ومن أمثال هذه النوادر أشياء لا تدخل تحت الاحصاء قد استقصيتها كلها من كتب العرب وكتب الافرنج معاً ومحستها تمحيصاً لا يدع إمكاناً لمعارض شك ينقدح في صحتها

ولم تكن هذه الحوادث عبارة عن فلتات جاءت على خلاف القياس أو وقعت في الأحياء من غير انتباه بل استمرت هذه الفوضى الاسلامية بشكل لا يمكن عقل عاقل أن يدرك مداه مدة ستين الى سبعين سنة . وما كفى تمزيق المسلمين بعضهم لبعض حتى نجمت منهم فرقة الاسماعيلية الحشاشين وتمالآوا مع الافرنج وصار هؤلاء كما خشوا عادية أمير مسلم يرون فيه خطراً عليهم أو يبدو لهم منه أنه يسعى في جمع شمل

الاسلام رموه بهؤلاء الخشاشين فذهب هؤلاء واغتالوه. وقد يكونون في هذه المؤامرة في اتفاق مع أناس من ملوك المسلمين وذلك كما اغتيل مودود قائد الجيش السلجوقي الذي جاء لاستنقاذ مسلمي سورية فخاف طغتكين أمير دمشق من مغبة الأمر وأرسل من اغتاله في الجامع الأموي وهو يصلي وكان ذلك بتواطؤ بين طغتكين والصليبيين، وكما اغتيل برسق صاحب حلب والموصل وهو يصلي في جامع الموصل وكان من كبار المجاهدين. وكثيراً ما جاءت جيوش جرارة من آل سلجوق مجتمعة من فارس والعراق والجزيرة لاجل استخلاص سورية من أيدي الأفرنج فلم تكن تصل هذه الجيوش الى سورية حتى نجد كثيراً من أمراء المسلمين في سورية قد انحازوا الى الأفرنج ووقفوا صفاً واحداً معهم في وجه تلك الجيوش الآتية لاستنقاذهم وقتلواها أشد قتال. ثم ترجع هذه الجيوش الى بلادها وترك المسلمين في سورية بازاء الأفرنج فيعود الأفرنج ويكررون على المسلمين وينقضون العهد الذي كانوا عاهدوه إياه ويدبحون الرجال والنساء والأطفال ثم لا تجد المسلمين يتوبون ولا يذكرون، ولا تجد مع ذلك أمراء الاسلام في سورية مستفيدين أي عبرة من نكث الأفرنج المتكرر ولا متناهين عن غيهم وغرامهم بالشقاق وقتال بعضهم بعضاً.

واني لأجد هذا الشقاق في كل أمة ولا يخلو منه مكان وقد وقع بين الصليبيين أنفسهم، ولكن ان كان الشقاق عاماً فلا شك في أن تسمية أعشاره هي عند المسلمين والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها. وان فسح لي الوقت لأكتب كتاباً وأسميه (الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين، والوحدة الإسلامية وما جنته للمسلمين) وحسبك أن الصليبيين بعد فتحهم للقدس رجع أكثر المقاتلة منهم الى بلادهم. قيل انه رجع منهم عشرون ألف مقاتل فلم يبق في القدس الا عدة مئات لا غير أي كان بيت المقدس بقي بلا حامية وكانوا أو انشدوا لوجعوا جميع جنود الصليبيين في سورية لما زادوا على أربعة أو خمسة آلاف وهم مع ذلك أشنات في كل بلدة منهم شرذمة يسيرة. ومع هذا فإن فوضى المسلمين قد كافت الصليبيين انبقاء والاطمئنان ولم تحذهم أنفسهم بأن يتحدوا على هذه الشرذمة المشنة ويخلصوا بلادهم من العبودية لها

وما زال هذا الامر على هذه الصفة التي ليس لها مثال في التاريخ حتى ظهر عماد الدين زنكي وهو عامل من عمال السلاجقة، فكان أول واضع لأساس الوحدة السورية في وجه الصليبيين بعد أن أدب ملوك الطوائف من المسلمين، وتلاه ابنه نور الدين العادل الشهير الذي وطد تلك الوحدة فتمكن من الايقاع بالصليبيين وأراهم أن في السويده رجالاً، ثم تلاه صلاح الدين يوسف فكان ما كان مما لا يحتاج الى بيان .

وقد حذف شوقي هذا القسم المؤلم المخجل المدمي للقلوب من تاريخ الاسلام في قصيدته هذه وطوى هاتيك الحقة التاعسة التي وصمت الاسلام بالعار وأدهشت الافرنج أنفسهم مما رأوا من تخاذل المسلمين، وجاء رأساً ينوه بعزائم صلاح الدين ورهطه التي بدلت الأرض غير الأرض ورأى فيها الافرنج من الاسلام غير الاسلام الذي عرفوه من قبل

ولراقم هذه السطور قصيدة في صلاح الدين هي من شعر الملاحم نظمها إذ أنا في طبرية سنة ١٩٠٢ ومطلعها :

أحسن ما فيه يسرح النظر واد بحيث الأردن ينفجر
وقد كانت مجلة المقتطف نشرتها في حينها ثم أعادت جريدة الفتح نشرها في العام الماضي وهي ستظهر في ديواني الذي هو الآن تحت الطبع فلذلك لا أجد داعياً لاعادتها هنا برمتها ولكني أذكر منها بعض أبيات :

أسس عيسى هنا شريعته وقوم موسى توراتهم فسروا
وفي حروب الصليب قدر فت رايات دين الذي نمت مضر
وقبل أن دخلت في تاريخ صلاح الدين وجدت فرضاً ذكر المقدمة التي مهدت له طريق الوحدة الإسلامية بازاء الافرنج بدلاً من تلك الفوضى وهي دولة آل زنكي عماد الدين بن آق سنقر ثم ولده نور الدين العادل المشهور بالعدل والزهد وحب الجهاد فقلت فيه :

فاتحة النصر في ولاية نورالد بن ملك بالعدل يأثر
تقر عين النبي سيرته ويرضى مثل هديه عمر

مجاهد ماهد بفرته زال البلاء واستحالت الغير
ثم ذكرت تربية نور الدين لصالح الدين وكيف أصلح صلاح الدين يوسف أحوال
الملكة المصرية فقلت :

أصلح شعث الامور فانقلبت بيوسف مصر وهى تفتخر
وأما يوم حطين فقلت فيه :

يا يوم حطين كم حططت من الاعدوا على الشرق بالجوش فلم
وكل جيش أراد صدهم عادوا به وهو للقنا جزر
ومنها فى وصف الواقعة :

الشرق والغرب بعد طول ونى تبارزا والبراز مختصر
ثلاثة والنزال بينهما نزال من بعد يومه العصر
فمن هنا آل احمد دلف والذكر يتلى فى الصف والسور
ومن هنا معشر المسيح مشى والصلبوت الشهير والصور
كأنما قومنا وقد وثبوا زعازع للغصون تهتصر
كأنما قومنا وقد ثبتوا شمع حصون لها القنا جدر
كم من بغى طيره بأجنحة اذ قصرت عن ضميره الضمر
ذاق العدى من سلاف طعنهم خمرأ بغير العنقود تعصر

ثم ذكرت كيف دارت الدائرة عليهم وفر منهم امبراطور طرابلس مع خيله ووقع
جيشهم كله فى الاسر :

لما رأوا الأمر غير ما حسبوا والناس من فوق صبرهم صبروا
ولوا ظي يوسف ظمورهم وتأخذ منها فوق الذى تذر
وأدبر القمص مع فوارسه ما غره مثل غيره الغرر
والهيكليون مع قساورهم لم يبق الا هياكل دثر
لم يجبنوا ساعة وان فشلوا وانما الليث دونه النمر

أوثق بالأسر كل جيشهم وأصبح الملك ضمن من أسروا
قاصمة الظهر للفرنج غدت وقعة قرني حطين مذ ظهروا
بها جدود الاسلام قد صعدت من بعد ما كان أهله عثروا
حظ ابن أيوب أن يفوز بها والله في خلقه له أثر
وحظ قوم بغوا الجهاد فلم يشغلهمو عن جهادهم وطر

ومنها في كيفية استحياء صلاح الدين للفرنج بعد أن صاروا جميعاً في قبضة يده
قيل كان عددهم ذلك اليوم ثلاثين ألف مقاتل وقيل خمسين ألفاً :

أبى عليه الإيذاء مصرعهم وعفوه والخلايق الزهر
أراد أن يشهدوا باعينهم عفة أهل الاسلام إذ قدروا
ان ذويه الأعلون فضلمو في الحرب والسلم ليس ينحصر
وانه في السلام غالبهم وغالب الحروب تستعر
عومل بالأسر موقن بردى وجل ملكا مع العمى العور

ومنها في كيفية قتله للبرنس ارنات أمير الكرك وهو من امراء فرنسا . يقال له
reinaud de chatillon وكان هذا الأمير من أخبث امراء الافرنج خلقاً وأسوأهم
عهداً وأكثرهم نكابة بالمسلمين، ومراراً أراد صلاح الدين أن يصمد اليه في الكرك
ويريح الاسلام منه فكان يستشفع لديه ويتعهد باصلاح نفسه، وكان صلاح الدين رحمه
الله يصفح عنه لما هو معروف به من سعة الصدر والميل الى العفو . ولكن ارنات كان
غداراً لا حيلة فيه

وأخيراً قبض أرنات على قافلة من الحجاج قاصدة الى الحجاز فألقى بهم في سجن
قلعة الكرك ونهبهم وجردهم من كل ما معهم وقال لهم : ادعوا محمدكم يخلصكم
ووصل خبر هذه الواقعة الى صلاح الدين وكان وقتئذ في الديار الجزرية يفتقد ملكه
هناك ، فألقى الناس على السلطان صلاح الدين باللائمة وقالوا له : انك ما زلت تعفو
عن هذا الرجل الذي لا يستحق العفو فتأمل الآن ماذا صنع بعد عفوك . وكان صلاح
الدين ذلك اليوم مريضاً قد اشتدت به العلة . وما زالوا به حتى أقسم لهم بأنه اذا وقع

ارناط في يده ليقنانه بيده فكان وقوع ارناط في يوم حطين مع ملك القدس وسائر
امراء الافرنج وجلس السلطان بعد انتهاء الواقعة وجلس أمامه الامراء الافرنج ومن
شدة الحر جيء بماء مثلوج فشرب منه السلطان وأعوانه وشرب أمراء الصليبيين ،
ولما وصل الدور الى ارناط قال السلطان للساقى : أنت سقيته أما أنا فلم أسقه . قال
القاضى بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المسماة بالمحاسن اليوسفية وكان
ملازماً للسلطان يقيد كل ما يراه ويسمعه : ان صلاح الدين كان على جميل عادة العرب
لا يجوز قتل من نزل وأكل من الزاد وشرب من الماء، فأراد أن يقول ان الساقى هو
الذى سقى ارناط من نفسه .

ففهم الناس من هذا أن السلطان لا يريد أن يعفو هذه المرة عن برنس الكرك
بعد أن نذر بقتله . ثم قام السلطان وانتهر ارناط وضربه بالسيف فرماه وأجهز عليه
الاعوان وعند ما رماه في الأرض قال له : أنا اقتص منك لحمد . فأخذ ملك الافرنج
يرتجف ظناً بان السلطان قاتله في تلك الساعة كما قتل ارناط فقال له صلاح الدين :
ليسكن روعك فان الملوك لا يقتل بعضهم بعضاً وإنما نذرت قتل هذا الرجل لكثرة
ما أخش من النكايه بالمسلمين وكل مرة كنت أصفح عنه وهو يعود الى غدره ثم انه
قذف علناً نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلهذه الامور قد استثنيت من العفو .
ولقد أوردت هذه الحادثة في الايات الآتية :

عفواً به عمهم وأخرج من	بنكته السهل ضاق والوعر
وفي بأرناط نذره يبد	إذ طالمالم تحك به النذر
وقال إذ تله بصارمه	ها أنذا للنبى انتصر
أزوج تحت التهليل مهجته	مخضوبة صارما هو الذكر
فأصبح الملك وهو مرتجف	يملاه بعد ما رأى الذعر
أبصر جسم البرنس منعزلاً	فقال إثر البرنس أقتفر
فأفرخ الرّوع منه ساعة إذ	أبلغ ان ان يصيبه ضرر

ومنها في ذكر حب صلاح الدين للعفو وشدة تخرجه من سفك الدماء حتى غابه

بعض المؤرخين وقالوا: انه بمنه عن الافرنج وتركه اياهم بعد حطين وبعد فتح القدس مكثفياً بتجريدتهم من السلاح قد جر على الاسلام مصيبة عظيمة فانهم ذهبوا الى صور واعتصموا بها ولما توافر جمعهم زحفوا منها وقتلوه اشد قتال :
ان عيب بالحلم والوفاء رجل فانه خير ما هفوا البشر
وقلت عن شدة تعظيم الافرنج الى الآن لقد صلاح الدين بسبب هذه الاخلاق
المالية :

وكان من حرمة العدو له أن ذكره في بلادهم عطر
وذكرت زيارة الامبراطور غليوم الثانى عاقل المانيا لفرج صلاح الدين فى دمشق
وما أظهره من الخشوع فى ذلك المقام :
تعدو عظام الملوك واقفة يابه وهو أعظم نحر
وينحنى حاملاً بترتبه رأس بأعلى التيجان معنجر
وقد ذكر هذه الزيارة شوقى بعد وقوعها بقليل أى سنة ١٨٩٨ فقال تحت عنوان
تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر :

عظيم الناس من يبكى المصنما	ديسبهم ونو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل	فنى يحى بمدحتة الكراما
وما عذر القصر عن جزاء	وما يجزيهمو إلا كلاما
فهل من مبلغ غليوم عنى	مقالا مرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام	تمهد فى الثرى ملكا هماما
أرى الزيان اظمأه فلما	وقفت بقبره كنت الغماما
تقرب عهده للناس حتى	تركت الجبل فى التاريخ عالما
أندرى أى سلطان تحيى	وأى مملك تهدى السلاما
دعوت أجل اهل الأرض حربا	واشرفهم اذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ماوكا	تعود ان يلاقوه قياما
وكم جمعهم حرب فكانوا	حدائدها وكان هو الحساما

كلام للبرية داميات وانت اليوم من ضمد الكلاما
فلما قلت ما قد قلت عنه واسمعت الممالك والأناما
تساءلت البرية وهي كلى أحباً كان ذاك ام انتقاما ؟
وأنت أجل أن ترى بميت وأنت أبر أن تؤذى عظاما
فلو كان الدوام نصيب ملك لنال بمجد صارمه الدواما
وقد ترجمت من عهد غير بعيد هذه الأبيات لجلالة الامبراطور غليوم الثانى وذكرت
له من شوقى فى العالم العربى وانه كان اشعر شعرائنا، فارتاح جداً لهذه الابيات وترجم
على قائلها . واما البيت الاخير فقد وقع بينى وبين شوقى توارد خواطر على معناه لاني
لما زرت مقام سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه فى حمص كتبت هذين البيتين على
الجدار :

مغيبك سيف الله فى غمدك الثرى دليل بأن الله لا شك واحد
فلو أن فرداً خلده فتوحه لما كان فى الاقوام إلاك خالد
وتاريخ هذين البيتين اقدم من تاريخ ابيات شوقى .

ولولم يكن لشوقى الا ما قاله فى هذه القصيدة عن الحرب الصليبية لكان ذلك كافياً
له حتى يلقب بالشاعر الاسلامى وهى الصفة التى استمالت له قلوب المسلمين شرقاً وغرباً
فكيف وله فى هذا الباب يتألم تقلد بها جيد الدهر، وقد ذكر منها الكاتب البليغ الاستاذ
محب الدين الخطيب مطلع قصيدته فى حرب الدولة العثمانية مع اليونان :
بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيا ن تضرب
وما السيف إلا آية الملك فى الورى وما الأمر إلا للذى يتغلب
فأدب به القوم الطغاة فانه لنعم الربى للطفاة المسؤوب
وقوله عند سقوط ادرنة :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام
بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغيب الصمصام
وقوله يوم أسقط السكاليون فى تركيا منصب الخلافة :

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعمت بين معالم الافراح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواحي
يا للرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
ان الذين أسست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو بغير جراح
هتسكوا بأيديهم ملاءة فخرهم موشية بمواهب الفتاح
إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك في صريع الراح

وذكر له ما قاله في الحج عندما دعاه الخديوى أن يكون معه وهو في الدرجة
القصى من التأثير لا يقرأه قارىء الا ويستعبر

لك الدين يارب الحبيب جمعهم لبيت ظهور الساح والعرصات
دعاني اليك الصالح ابن محمد فكان جواني صالح الدعوات
وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى وجئت بضمفى شافعا وشكأتى
وفى راحتى ماض اذا ماهزته تركت عدو الله فى السكرات
أنت به يارب نورا وحكمة وزهته عن ريبة وأداة
وتشهدما أذيت نفساً ولم أضر ولم أبغ فى جهري ولا خطرأتى
ولا غلبتني شقوة أو سعادة على حكمة آتيتنى وأناة
ولا جال الا الخير بين سرأرى لدى سدة خيرية الرغبات
ولا بت إلا كابن مريم مشققا على حسدى مستغفراً لعدأتى
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسى فى فعلى وفى نفتأتى
وانى ولا من عليك بطاعة أجل وأغلى فى الفروض زكأتى
أبالغ فيها وهى عدل ورحمة ويتركها النسك فى الخلوات
وأنت ولى العفو فامح بناصع من الصفح ما سودت من صفحتأتى
ومن تضحك الدنيا اليه فيغترر عت كقتيل الغيد بالبسمات

ولعمري من عرف شوقى معرفة تامة واختلط به لم يجده مبالغاً فيما ناجى به ربه
ولشوقى عدا هذا قصائد نبوية مشهورة منها هذه الممزجة :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
الروح والملائك حوله
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى
وحديقة الفرقان ضاحكة الربى
والوحى يقطر سلسلا من سلسل
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة
اسم الجلالة فى بديع حروفه
ياخير من جاء الوجود تحية
بيت النبيين الذى لا يلتقى
خير الأئمة خارهم لك آدم
هم أدركوا عز النبوة وانتهت
خلقت لبيتك وهو مخلوق لها
ومنها :

بسوى الأمانة فى الصبا والصدق لم
يا من له الأخلاق ما تهوى العلى
لوم تقم ديناً لقامت وحدها
أما الجمال فأنت شمس سمائه
والحسن من كرم الوجوه وخيره
واذا سخوت بلغت بالجود المدى
واذا عفوت فقادراً ومقدراً
واذا رحمت فأنت أم أوأب
واذا غضبت فانما هى غضبة
واذا رضيت فذاك فى مرضاته
واذا خطبت فالمنابر هزة
يعرفه أهل الصدق والأمناء
منها وما يتعشق الكبراء
ديناً تضىء بنوره الآناء
وملاحاة الصديق منك إباء
ما أوتى القواد والزعماء
وفعلت مالا تفعل الأنواء
لا يستهين بعفوك الجملاء
هذاب فى الدنيا هما الرحماء
فى الحق لا ضغن ولا بغضاء
ورضى الكثير تحلم ورياء
تعرو الندي وللقلوب بكاء

واذا قضيت فلا ارتياب كأنما
 واذا حميت الماء لم يورد ولو
 واذا أجرت فأنت بيت الله لم
 واذا ملكك النفس قت يرها
 واذا بنيت فخير زوج عشرة
 واذا أخذت العهد أو أعطيته
 يا أيها الأئمة حسبك رتبة
 الذكر آية ربك الكبرى التي
 صدر البيان له اذا التقت اللغى
 نسخت به التوراة وهى وضيفة
 بك يا ابن عبد الله قامت سمحة
 بنيت على التوحيد وهو حقيقة
 لما دعوت الناس لبي عاقل
 أبوا الخروج اليك من أوهامهم
 ومن العقول جداول وجلالهم
 داء الجماعة من ارسطاليس لم
 فرسمت بمدك للعباد حكومة
 الله فوق الخلق فيها وحده
 والدين يسر والخلافة بيعة
 جاء الخصوم من السماء قضاء
 أن القياصر والملوك ظماء
 يدخل عليه المستجير عدا
 ولو ان ما ملكك يدك الشاء
 واذا ابتليت فدونك الآباء
 فجميع عهدك ذمة ووفاء
 في العلم ان دانت بك العلماء
 فيها لباغى المعجزات غناء
 وتقدم البلاء والفصحاء
 وتخلف الانجيل وهو ذكاء
 بالحق من ملل الهدى غراء
 نادى بها سقراط والقدماء
 وأصم منك الجاهلين نداء
 والناس فى أوهامهم سجناء
 ومن النفوس حرائر وإماء
 يوصف له حتى أتيت دواء
 لا سوقة فيها ولا أمراء
 والناس تحت لوائها أكفاء
 والامر شورى والحقوق قضاء

قد ذكر شوقى هنا ما لم يكن أتى به فى همزية وادى النيل وما أشرت اليه فى تعامق
 على قصيدته تلك فأنت ترى انه لا يفوته شيء إن نقص كلامه فى محل كمل فى محل
 آخر ثم يقول :

الاشتراكيون أنت امامهم
 داويت متشداً وداووا طفرة
 لولا دعاوى القوم والغلواء
 وأخف من بعض الدواء الداء

أى ان الزكاة المشروعة فى الاسلام والتى هى والصلاة توأمان تضمن من سد
الفقر وتقريب الطبقات بعضها من بعض ماتضمن المبادئ الاشتراكية التى قاموا بها
فى العصر الحاضر ولكن الاشتراكيين غاوا وأرادوا الطفرة فكان عمالهم أبلغ فى
الضرر من الحالة الأولى التى أرادوا الخلاص منها . ثم يقول :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة لائمة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقي الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان انساناً تخير ملة ما اختار الا دينك الفقراء

هو يقول ان الحرب فى تأييد الحق مشروعة فى الاسلام لاغبار عليها وهى دواء
لسموم الضلال الناقعة وان البر ليس بفضيلة اختيارية فى الاسلام ولا ايثار بل هو
فرض كفرض الصلاة لايجوز قطعه وان الزكاة يجب على المسلم اخراجها اذا أراد أن
يكون مسلماً . فلا تنود الى ارادته والى خلقه من كرم أو لؤم وليس هذا فرضاً فى سائر
الأديان كما هو فى الاسلام . يقول ان الفقراء قد كفاهم الاسلام مؤونة الاحتياج وذلك
بالزكاة التى انتصف منها الفقراء من الأغنياء . ومن قوله فى الاسراء :

يا أيها المسرى به شرفاً الى ملا تنال الشمس والجوزاء
الله هباً من حظيرة قدسه نزلاً لذاتك لم يجزه علاء
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم حاشا لفيرك موعد ولقاء
ومن قوله فى شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم :

الخيلى تأبى غير أحمد حاميا وبها اذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس يعلمون مكانه ان هيئت آساده الهيجاء
واذا تصدى للظي فهند أو للرماح فصعدة سمراء
ساقى الجربج ومطعم الأسرى ومن أمنت سنابك خيله الاشلاء
ان الشجاعة فى الرجال غلاظة مالم تنها رافة وسخاء

لله در شوقي في هذا الوصف الذي يليق بأن ينشد عنده :

وان احسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا إنشدته صدقا
نعم كان محمد عليه الصلاة والسلام أشجع الشجعان وأقدمهم اذا حذى الوطيس
وأثبتهم اذا دارت الدائرة على الصحابة كما ظهر في يوم أحد وغيره وكان مع صلابته
هذه أرف الناس وارقهم قلباً واندهم محجراً وكان اذا ظهر على عدوه يعرف أن يرق
ويعفو ولم تكن خيله لتدوس على المطروحين بالعراء من أعدائه . ثم يقول :
الحق عرض الله كل أيبة بين النفوس حى له ووقاء
والحق والايمن ان صبا على برد فقيهه كتيبة خرساء
ويقول عن الصحابة الكرام :

نسفوا بناء الشرك فهو خرائب واستأصاو الاصنام فهي هباء
يمشون تغضى الارض منهم هيبة وبهم حمال نعيمها إغضاء
حق اذا فتحت لهم أطرافها لم يطغهم ترف ولا نعماء
ثم يقول مخاطباً الرسول :

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوك عن قوم الضماف لأزمة في مثلها يلقى عليك رجاء
أدرى رسول الله أن نفوسهم ركبت هواها والقلوب هواء
متفككون فما تضم نفوسهم ثقة ولا جمع القلوب صفاء
رقدوا وغرهم نعيم باطل ونعيم قوم في القيود بلاء
أقطعهم غرر البلاد فضيتوا وغدوا وهم في أرضهم غرباء
ظلموا شريعتك التي نلتها بها ما لم ينل في رومة الفقهاء

ما اصدق قوله : « وغدوا وهم في أرضهم غرباء » الا ما ندر .

ولشوقي غير هذه الهمزية في الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة معارضة للبردة
الشريفة رضى الله عن صاحبها ولو استشارني شوقي في هذه المعارضة لتهيته عنها . وهل
نظامه في هذه المعارضة للبردة أقل إبداعاً من سائر نظمها ؟ أو أنزل عن طبقتها المعهودة ؟ .

لا والله فنظمه نظمته نسج واحد هو نسج وحده في هذا العصر ولكن ياسبحان
الله متى قابلته بالبردة فقد رونقه ذاك وصرت تريد أن تطويه على غره وتتجاوز به الى
غيره فما اتقى الله بردة الفصاحة على قصيدة نبوية كيميية صاحب البردة هكذا كتب في
الروح وجف القلم وآثر الله الأوصيري ببكارة البردة وأعجز كل فيحل عن افتراع
مثلا فما كانت ممارسة شوقي للبردة بالرأى الموفق ولو كانت أبيات قصيدته كلها
غامرة بالمحسن ولستشبه مع ذلك ببعض ما قاله فيها مثلا :

يأنفس دنياك تخفى كل مبهية وإن بدا لك منها حسن مبسم
فضى بثقواك فاهما كذا ضحكك كما يفض أذى الرقشاء بالترم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة جرح بأدم يبكى منه في الأدم
لا تحفل بمجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
هنا جاء شوقي بمعنى عصرى وهو أن الكربون يقتل في الزهر كما يقتل في الفحم
ولم أجد لذلك ظلاوة لأن الشعر بعيد عن الكيمياء بعد الأرض عن السماء ثم يقول :

يا ويلتاه لنفسى راعها ودهى مسودة الصحف في مبيضة اللهم
ركضتها في مريع المعصيات وما أخذت من حمية الطاعات للتحكم
هامت على أثر اللذات تطلبها والنفس إن يدعها داعى الصبا تهم

اجتهد بقدر إمكانه أن يقلد الأباصيري في نهجه وإن يأتي بمثل ديباجته وإن يقابل
بيتاً بيت ويخوض قنزة بقنزة فحاش وما نزل ورمى وما قرطس إلا أنه لما وصل الى المديح
ارتقى عن ذى قبل وجاء بما من حقه ان تسمعه ولو كان من دون البردة :

لزم باب أمير الانبياء ومن عسك بفتحاح باب الله يغتم
فكل فضل وإحسان وعارفة ما بين مستلم منه وماتزم
علقت من مدحه حبلا أعز به في يوم لا عز بالانساب والرحم
يزرى قريضى زهيرا حين أمدحه ولا يقاس الى جودى ندى هرم
محمد صفوة البسارى ورحمته وبغية الله من خلق ومن نسم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة متى الورود وجبريل الأمين ظمى

ثم يقول :

لما رآه بحيرا قال نعرفه
سائل حراء وروح القدس قد علما
بما حفظنا من الاسماء والاسم
مصون سر عن الادراك منكم
ثم قال :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها
هناك اذن للرحمن فامتلات
جاء النبيون بالآيات فانصرمت
أى بالقرآن الحكيم
آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جلال العتيق والقدم
ومن مستحسن أبياتها :

جبت السموات أو ما فوقهن بهم
ركوبة لك من عز ومن شرف
مشيئة الخالق الباري وصنعتة
حتى بلغت سماء لا يطار لها
وقيل كل نبي عند رتبته
على منسورة وردية اللجم
لا في الجياد ولا في الاينق الرسم
وقدرة الله فوق الشك واتهم
على جناح ولا يسعى على قدم
ويا محمد هذا العرش فاستلم
ولما كان صاحب البردة قال :

فان لي ذمة منه بتسميتي

أزاد أحمد شوقي أن يباريه في ذمة مثلها من التسمية بأحمد :

يا أحمد الخير لي جاء بتسميتي
الملاحون وأرباب الهوى تبع
الله يشهد أنى لا أعارضه
وانما أنا بعض الغابطين ومن
وقد أحسن أبو على بهذا الاستدراك وتنصله من معارضة سيد من جاء بالسهل الممتنع
والداني المرتفع . ثم قال خطابا للرسول عليه السلام :

(م - ١٤ شوقي)

ان قلت في الامر لا أو قلت فيه نعم فخيرة الله في لامنك أو نعم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الأمم
ودخل شوقي في جدل مع الذين اعترضوا على الاسلام وقراع مع القادحين
فيه فقال :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
سهل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

يريد أن يقول ان كلام هؤلاء المعارضين سفسطة محضة لأن الله يزع بالسلطان مالا
يزع بالقرآن، وان نبي الاسلام في بدء دعوته لم يأل جهداً في الدعوة بالرفق والمقارعة
بالبرهان، وانه ما دفع الى الضرب والحرب الا من بعد أن رأى عقم الوعظ والنصح، وان
لاحيلة في الجهل والظلم اذا مرد الناس عليهما الا بالتأديب ان هذه المسيحية التي تعلن
انها دين السلام أصابها من الطرد والقتل والتعذيب والانتقام والاصطلام مالا تسعه
الكتب المؤلفة ، وبقي ذلك مدة ثلاثمائة سنة الى أن تنصر قسطنطين حينئذ استقرت
قواعدها وانتشرت في الأرض وأمنت الغوائل، ولم تنتشر في الأرض الا بقوة ملوكها
وسلاطينها وكم من ملك من ملوك النصرانية بث المسيحية أو الكاثوليكية بالسيف
مثل شارلمان وملوك فرنسا ومثل قيصرية بيزنطية ومثل ملوك الروسية وملوك المجر وغيرهم.
ثم عزز كلامه هذا بشواهد العصر الحاضر ، فقال :

تلك الشواهد ترى كل آونة في الاعصر الغر لافي الاعصر الدهم
بالامس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف لم تتلم ولم تصم
أشباع عيسى أعدوا كل قاصمة ولم نمد سوى حالات منقصم
جاء في الطبعة الثانية من ديوان شوقي تعليقا على هذه الايات ولعله بقلم الكاتب

الفاضل حسين بك هيكل ما يلى : ان التشيعيين اليوم للدين المسيحي « دين الهدوء والسلام » هم أهل القوة الحربية الدائبون على إعداد المہلکات فى الحروب حتى كأنهم أصبحوا ولم يبق لهم من شغل يشغلهم الا استخراج الذهب من بطون الأرض وانفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب فى طول الأرض وعرض البحر ، وقد افتنوا فى أسباب الاهلاك والتدمير ولم يكفهم أن يدمموا على الناس ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شئائهم ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم حتى قاموا على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رؤوسهم بكل دهياء الخ.»

ثم هاجت بشوق نحوه الاسلام، شأنه فى كل موقف، وحنى أنفه للمدينة الاسلامية وقارن بينها وبين غيرها فقال :

وأترك رعمسيس ان الملك مظہرہ فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألفت يد السلم
ما ضارعتها بيانا عند ملئام ولا حكنها قضاءً عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتبائهم تصرقوا بحدود الأرض والتخيم
ويجلسون الى علم ومعرفة فلا يدانون فى عقل ولا فہم
وختم شوقى هذه القصيدة بأبيات فى غاية التأثير تذوب لها القلوب حسرة وذكرى
وتتجدد العبرات شفعاً ووتراً وتشهد اشوقى فوق شهادات لا تحصى بأنه شاعر الاسلام
بجميع جوارحه رحمه الله وجزاه عن الاسلام خيراً:

يارب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس وملك أنت مالكة تدبيل من نعم فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم
يارب أحسنات بدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

ومن احسن ما قال شوقي الخطاب الذى خاطب به الخديوى عند زيارته المدينة المنورة :

اذا زرت يا مولاي قبر محمد	وقبلت مثوى الأُظم المطرات
وقاضت من اللمع العيون مهابة	لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية	وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق تنوفة	وبانى صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله : يا خير مرسل	أبئك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف فى عميق سبات
بايمانهم نوران ذكر وسنة	فما بالهم فى حالك الظلمات
وذلك ماضى مجدهم وفخارهم	فما ضرهم لو يعملون لآت
وهذا زمان أرضه وسماؤه	مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم فى السماء وأنشأوا	بوارج فى الأبراج ممتنعات
فقل رب وفق للعظام أمسى	وزين لها الافعال والعزمات

شوقى والخزفة

وجاء فى ديوان شوقى الذى طبعه مؤخراً وعليه مقدمة من قلم محمد حسين بك هيكى تحت عنوان « خلافة الاسلام » ما بلى :

ما كاد العالم الاسلامى يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم فى ميدان الحرب والسياسة ذلك النصر الحاسم الذى كان حديث الدنيا والذى تم على يد مصطفى كمال باشا فى سنة ١٩٢٣ - قلنا : هذا غلط مشهور فالحركة الوطنية فى تركيا قام بها كاظم قره بكير وغيره قبل مصطفى كمال ثم إنها بعد أن التحق مصطفى كمال بالحركة لم يكن فيها وحده بل كان فيها عدة ابطال مثل كاظم قره بكير وحسين رؤوف وعلى فؤاد ورأفت وعلى احسان ونور الدين وعمر فوزى وغيرهم ممن انقذ تركيا اجتماع مجهوداتهم واكثر الفضل فى

انقياد الشعب التركي لهؤلاء يرجع الى علماء الدين الذين تقدموا الى الشعب باسم الدين ولولاهم لم يقم أهل الأناضول بهذه الحرب الاستقلالية - حتى أعلن هذا الغاء الخلافة ونفى الخليفة من بلاد الأتراك فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة وينبه ممالك الاسلام الى اسداء النصيح لهذا الرجل لهله يبني ما هدم وينصف من ظلم:

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تباج الاصباح
أى ان مجلس أنقرة الكبير ومصطفى كمال نفسه أعلنوا بمنشور رسمي يوم أسسوا
الحكومة التركية في أنقرة بأن جل مقصدهم من هذه الثورة على الدول الأجنبية المحتلة
هو انقاذ الخلافة الاسلامية واستخلاص خليفه الذى هو أسير في استامبول بين أيدي
الانجليز وأعلنوا هذا القرار على جميع سكان تركيا بل أوصلوه الى جميع العالم الاسلامي
وكتبوا به الى الامام يحيى وغيره من ماوك الاسلام . فانقاذ الخلافة كان هو الغرض
الأول بزعم مصطفى كمال من هذه الحرب الاستقلالية فلما انتهت الحرب بالطائفة
للأتراك كان أول ما فعله مصطفى كمال الغاء نفس هذه الخلافة التي زعم انه انما ثار
لأجل المحافظة عليها فكان دفنها ليلة الزفاف كما قال شوقي. ثم قال :

شيعت من هلع بعبرة ضاحك في كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينه أحما من الارض الخلافة ماح ؟
بأت لك الجمع الجلائل مأتما فقمدين فيه مقاعد الانواح
يا للرجال لحة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
ان الذين أسس جراحك حربهم قتلتك سلامهم بغير جراح
أى ثاروا لاجل أن يضموا جراح الخلافة بزعمهم فلما اتسق لهم النصر قتلوا هذه
الخلافة نفسها بغير جراح وبئس العهد وساءت الشيمة

هتكوا بأيديهم ملادة فخرهم موشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الاعناق خير قلادة ونضوا عن الاعطاف خير وشاح

حسب أنى طول الليالى دونه قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانت أبرّ علائق الارواح
نعم كانت الخلافة هى أحسن علاقة جامعة بين المسلمين وكان أربعمئة مليون مسلم
فى العالم يتولون حكومة تركيا بحجة أنها دولة الخلافة. فجاء مصطفى كمال وقطع هذه العلاقة
بين تركيا والعالم الاسلامى وزعم أنه لا يلوى على علاقة غير علاقة الترك خاصة وان سائر
المسلمين والأجانب فى نظره سواء، وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع ولمصلحة ، وكان
أنور رحمه الله يقول لى : ان الأتراك الذين فى الروسية لا يعطفون علينا نحن أتراك
تركيا بسبب أننا ترك بل بسبب أننا مسلمون . وهؤلاء الأياقوت الذين هم فى سيبيريا
هم ترك فى المحتد مثلنا ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم
ولا يعرفوننا ولا نعرفهم .

جمعت على البر الحضور وربما جمعت عليه سرائر النزاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم فى كل غدوة جمعة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عرييد القضاء وقاح
وقد علق تحت هذا البيت تفسيراً للعرييد وهو الشرير الكثير العريدة وهى سوء
الخلق من السكر

أفتى خزعبله وقال ضلالة وأنى بكفر فى البلاد براح
ان الذين جرى عليهم ققهه خلقوا لفقهِه كتيبة وسلاح
أى ان هذه النظريات إنما انقاد لها أناس لا يعلمون شيئاً سوى الحرب والضرب
فأما الذين يفكرون فى مصائر الامور ويفهمون شذوذاً من السياسة فلا يمكن أن تعجبهم
ان حدثوا نطقوا بنخرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصم رماح
أستغفر الأخلاق لست بجاحد من كنت أدفع دونه والاخى
مالى أطوِّقه السلام وطالما قلته المأثور من أمداخى

لا جرم أن شوقى وغير شوقى قد استعجلوا فى الحكم وأنا نفسى من هؤلاء
المستعجلين وطالما عذات صديقى أنور على خلافه مع مصطفى كمال ولما كان مراد أنور

بعد الحرب أن ينسل نجياً من برلين الى الاناضول ويأخذ بنصيبه من الجهاد لاستقلال تركيا نهيمته عن هذا الأمر خشية أن يكون ذهابه الى الاناضول مشار فتنة بينه وبين مصطفى كمال تكون نتيجتها صدع الوحدة وتشظية العصا .

وقد استعنت عليه بالديكتور ناظم بك - أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي والوطني المشهور الذي كانت زواجه أشهر من أن تذكر ، وشنقه مصطفى كمال بتهمة المؤامرة على حياته ، وهو برىء من تلك المؤامرة براءة الذئب من دم يوسف ولكنه كان ينتقد سياسة الغازي علناً - فهذا الرجل هو الذي أعانني على أنور عندما كنا في برلين حتى توقف عن الدخول الى الاناضول . وهكذا أمنا شر الاختلاف بين قائدي الأتراك الكبيرين . ولكن مصطفى كمال الى ذلك العهد كان جاعلاً شعاره الاسلام لا غير وكان يشهد الجمع ويحضر قراءة الموايد ولا يبرح يخطب قائلاً : أخواننا العرب ، أخواننا العرب ، أخواننا المصريين وأخواننا المسلمون في مشارق الارض ومغاربها

وقد ذكرت مرة في إحدى الجرائد كيف قال لي : لا بد أن نسترجع القدس ان شاء الله وهذا محقق وإنما أقول ان شاء الله كسلم لا أقول اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله .. فهذه النعمات التي كان يسمعها الناس منه دائماً ولا يعلمون ما يطوى في قلبه من دونها حمت الناس على حبه والثناء عليه بأسراف . فلما انعقدت معاهدة لوزان وتم الصلح مع تركيا وظن الغازي أنه أمن المستقبل قلب ظهر المجن ونسي ما كان يقوله وجاهر بعكس ما كان يجاهر به من قبل :

هو ركن مملكة وحائط دولة	وقريم شهيداء وكبش نطاح
أقول من احبي الجماعة ملحد	وأقول من رد الحقوق اباحي ؟
الحق أولى من وليك حرمة	واحق منك بنصرة وكفاح
فامدح على الحق الرجال ونالهمو	أوخل عنك مواقف النصاح

لا شك بان الحق أولى بان يقال ، ولكن نقطة العراك هنا هي تعيين الحق فانه بعد أن استقلت تركيا ضل الناس سبيل الحق في تاريخ حوادث هذا الاستقلال فجعلوا الفضل كله في تحرير تركيا لمصطفى كمال وزعموا انه هو الذي أوجدها من العدم بعد أن كان قضى عليها القضاء المبرم . وهذا خلاف الحق وهو الخطأ المشهور

الذى لا بد للتاريخ من أن يصححه في يوم من الأيام، ولو كان مصطفى كمال خدام تركيا
في الحرب الخدمة الكبرى وكان من أعظم القواد بلا تكبير :

ومن الرجال اذا انبريت لخدمهم هرم غليظ منكب الصفاح
فاذا قذفت الحق في اجلاله ترك الصراع مضعضع الالواح
أدوا الى انغازى النصيحة ينتصح ان الجواد يشوب بهد جماح
ان الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيا لك في صريع الراح
نقل الشرائع والمقائد والقرى والناس نقل كتائب في الساح
أى أراد أن يلقى العقائد وانتقاليد القديمة والاضاع التى مضت عليها القرون
بمجرد أوامر عسكرية أشبه بالأوامر التى يصدرها في ساحة الحرب

تركته كالشبح المؤله أمة لم تسلم بعد عبادة الاشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم حتى تناول كل غير مباح
قرنه طاعات الجوع ودولة وجد السواد لها هوى المرتاح
واذا أخذت المجد من أمية لم تعط غير سرايه اللماح
من قائل المسلمين مقالة لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة في أول ذائد عن حوضها بيراعة النضاح
لم يتخلف شوقى عن موقف صادق من مواقف الاسلام جميعها ومن جعلها تأييد

الخلافة الاسلامية وقد سبق لنا شواهد كثيرة من شمره تؤيد صحة دعواه هذه

حب لذات الله كان ولم يزل وهوى لذات الحق والاصلاح
إنى أنا المصباح لست بضائع حتى أكون فراشة المصباح
غزوات أدهم كللت بنوا الى وفتوح أنور فصلت بصفاحى

أدهم هو أدهم باشا قائد الجيش العثمانى المظفر فى الحرب اليونانية وأنور هو أنور باشا
الشهور أحد أبطال الاسلام فى التاريخ

ولت سيوفهما وبان قناهما وشبا يراعى غير ذات براح
لا تبدلوا برد النبى لماجز عزل يدافع دونه بالراح

بالامس أو هي المسلمين جراحة واليوم مد لهم يد الجراح
فلتسمعن بكل أرض داعيا يدعو الى الكذاب أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة فيها يباع الدين ببيع سماح
رحم الله شوقي فلم يكن طبيب أبصر منه بعالم الاسلام الحاضرة وكان يعلم ان
أكثر من يبيعون الدين ويفتون لاعداء الاسلام بما يريدون منه هم من رجال الدين
ومن ذوى العاظم والالاسف، فقد جنت هذه الطبقة على الدين جنائيات لا توصف وأخذت
بالمصادقين المخلصين من هذه الطبقة ومنهم فقهاء الاناضول الذين لولا هم لم يتم القيام
لمحاربة اليونان والحلفاء

يفتى على ذهب المعز وسيفه وهوى النفوس وحقدها الملاح

قصيدة في المولد النبوي

وله في ذكرى المولد قصيدة ليس للقلب طاقة أن يمر بها فلا يأخذ منها الى هذا
الكتاب شيئا ولا سيما أن في أولها أبياتاً هي اليوم لسان حالى الباعث في لهذه الذكريات
أضمد بها جراح النوى وأرد أورد الاسى ، فهو يقول :

وكل بساط عيش سوف يطوى	وان طال الزمان به وطابا
كأن القلب بدمهم غريب	إذا عادته ذكرى الاهل ذابا
ولا ينبيك عن خاق الليالى	كمن فقد الأحبة والصحابا
أبنا الدنيا أرى دنياك أفعى	تبذل كل آونة اهابا
فمن يغتر بالدنيا فاني	لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان الى غي	ولى ضحك اللبيب اذا تغافى
جنيت بروضها وردا وشوكا	وذقت بكأسها شهدا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما	ولم أر دون باب الله بابا
ولا عظمت فى الاشياء الا	صحيح العلم والأدب اللبابا
ولا كرمتم إلا وجه حر	يقلد قومه المن الرغابا
ولم أر مثل جمع المسال داء	ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها	كما تزن الطعام أو الشرابا

أى حفظ المال ينبغي أن يكون بميزان كما وزن الانسان طعامه وشرابه على قدر حاجته اليهما فلا يسرف ولا يقتر ويكون بين ذلك قواما . ثم يقول :

وخذ لبنيك والايام ذخرا وأعط الله حصته احتسابا
فلو طالعت أحداث الليالي وجدت الفقر أقربها انتيابا
وان البر خير في حياة وأبقى بمد صاحبه ثوابا
وان الشر يصدع فاعليه ولم أر خيرا بالشر آبا
فرققا بالبنين اذا الليالى على الاعقاب أوقعت العقابا
ولم يتقلدوا شكر اليتامى ولا ادرعوا اللعاء المستجابا
عجبت لعشر صلوا وصاموا ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيسال المال صا اذا داعى الزكاة بهم أهابا

وهذا مرض المسلمين في الوقت الحاضر تجدهم اختلفوا في كل شيء الا انهم اجتمعوا على خلق واحد وهو الامساك الشديد في المصالح العامة مع انهم يرون النصارى واليهود ماذا يبذلون وماذا يتكفون على مصالحهم العامة وانهم يجودون في هذه السبيل جود من لا يخشى الفقر . وكأن المسلمين يريدون أن يكتبوا بالصلاة والصيام دون الزكاة التي لا يكون الاسلام اسلاما من دونها . وهذا أكثر الاصل في بلادهم الذي يتخبطون فيه . وقد وفى شوقي هذا الموضوع حقه وكان كما قلنا نطاسيا تاما في معرفة علل الاسلام الحاضرة :

لقد كنتموا نصيب الله منه كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحسب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخابا
أراد الله بالفقراء برا وبالايتام حبا وارتبابا
فرب صغير قوم علموه سما وحما المسومة العربا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان أذى وعابا
فعل ما استطعت لعل جيلا سيأتى يحدث العجب العجابا
ولولا البخل لم يهلك فريق على الاقدار تلقاهم غضابا
تعبت بأهله لوما وقبلى دعاة البر قد سئموا الخطابا

وكان شوقي سخيًّا بما يملك لا يأبى أن يجمع المال ولكنه كان يجمعه لينفقه
ويعطى البر حقه ويمتع به أهله الذين كان لهم كما قال خليله المطران « ربُّالاً في اللاأواء »
وكان فعل شوقي مطابقاً لقوله من جهة مؤاساة الفقراء . ثم انه أخذ يبين المساواة
الطبيعية بين البشر ليتبصر بها الذين يستأثرون بالمال لأنفسهم ولا يريدون أن يجعلوا
للفقير نصيباً .

ألم تر للهواء جرى فأفضى إلى الأكواخ واخترق القبابا
وان الشمس في الآفاق تغشى حتى كسرى كما تغشى اليبابا
وان الماء يروى الأسد منه ويشفى من تلعلمها السكلابا
وسرى الله بينكم المنايا ووسدكم مع الرسل الترابا
ومن هنا تخلص الى ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي لم يشرف
الفقراء ولا اليتامى بشيء مثل كونه خرج منهم فقال شوقي :

وأرسل عائلاً منكم يتما دفا من ذى الجلال فكان قابا
نبي البر بيته سبيلا وسن خلاله وهدى الشعابا
تفرق بعد عيسى الناس فيه فلما جاء كان لهم مثابا
وكان بيانهم للهدى سبلا وكانت خيمته للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الاقدام كان لهم ركابا

هذه الايات تكاد تكون أمثالا سائرة أشبه بقول شوقي « وانما الامم الاخلاق

ما بقيت » ثم ذكر شوقي مولد الهادى عليه السلام فقال :

تجلى مولد الهادى وعمت بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهاجاً منيراً كما تلد السموات الشهابا

ثم خاطب النبي قائلا له : انى سألت الله النصر لأبناء دينى فان كنت أنت الوسيلة عنده تعالى فانه المجيب هذا الدعاء فهو يقول :

سألت الله فى أبناء دينى فان تكن الوسيلة لى أجابا
وما للمسلمين سواك حصن اذا ما الضر مسهمو وناجا
كأن النحاس حين جرى عليهم أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخلوا الركن فانهدم اضطرابا

فكيف قلبت نظرك فى شعر شوقى وجدته يطوف فى الآفاق ويرجع الى مركز واحد هو الاسلام فى دينه ، والشرق فى وطنه ، والعربية فى لغته والأخلاق فى وصيته والعلم فى رغبته ، فكان عقله قوياً وذوقه سليماً ووفاءه عظيماً ، وقد قلت فيه يوم رثيته :

كانت قصائده هى الصوت الذى سرى عن الاسلام ثقل سباته
بعثت به روح الحياة كأنها هى صور اسرافيل فى زعقاته
وقلت :

ما حل بالاسلام حيف مصيبة الا وكان لها لسان شكااته
يحمى حقائقه ويوضح سبله ويقيل طول الوقت من عثراته
وقلت :

وفى عن الشرق القديم نضاله من يوم نشأته ليوم وفاته
أبدأ يحذره استلاب ترائه منه ويحفره لأخذ ترائه
لم يفتن من عصره بمساوىء كلا ولم يغطه من حسناته
قد لازم الانصاف فى أحكامه لا فرق بين صحابه وعداته

ملحمة شوقى فى حرب اليونان

ولا مرأ فى انه لم يقل شوقى من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائية فى الحرب العثمانية اليونانية التى أولها

بسيبك يعلو الحق والحق أغلب

فانها القصيدة الغراء واليتيمة الدهماء والكلمة التى طارت فى الآفاق فحلقت

فوق المحلقات ولا نطن أنه يوجد عربى يمت الى الأدب بسبب الا وهو يروى من هذه القصيدة كثيراً أو قليلاً. ونحن أولاء الآن نروى منها بعض المقاطع التى يلوح لنا أنها آخذ للأبواب ، وأملك للقلوب من غيرها والا فهى من الألف الى الياء محكمة السرد متساوية النسيج لا تجد فيها عوجاً ولا أمثاً .

قال :

ومملكة اليونان محلولة العرى رجاؤك يعطيها وخوفك يسلب
هددت أمير المؤمنين كيائها بأسطع مثل الصبح لا يتكذب
وما زال فجراً سيف عثمان صادقاً يساويه من على ذكائك كوكب
إذا ما صدعت الحادثات بحده تكشف داجى الخطب وانجاب غيب
سما بك يا عبد الحميد أبوة ثلاثون حضار الجلالة غيب
يريد أنه سليل ثلاثين سلطاناً ان كانوا قد درجوا فان جلالتهم لا تزال حاضرة
فى الاذهان

قياصر أحياناً خلائف تارة خواقين طوراً وانفجار المقالب
يريد بقوله قياصرة انهم استمروا على عرش القسطنطينيين مكان قياصرة الرومان ،
وبقوله خلائف انهم تسلموا الخلافة الاسلامية منذ عهد سليم الأول من بنى العباس ،
وبقوله خواقين بأنهم سلاطين الاتراك لأن ملك الترك يقال له خاقان ، قال الحسن
ابن هانى :

كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى
ثم قال :

نجوم سعود الملك أقدار زهوه لو ان التجوم الزهر يجمعها أب
تواصوا به عصراً فمعصراً فزاده معممهم من هيبة والمعصب
ثم يقول :

ظهرت أمير المؤمنين على العدى ظهوراً يسوء الحاسدين ويتعب
سل العصر والايام والناس هل نبا لرأيك فيهم أو لسيفك مضرب

هو ملأوا الدنيا جهاماً وراه
فلما استلالت السيف أخاب برقهم
أخذتهم لا مالكين لحوضهم
ولم يتكلف قومك الاسد أهبة
كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم
ومن شرف الاوطان أن لا يفوتها
بعيد معنى بيته (وانما الامم الاخلاق) يذكر أن الاوطان لتكون عزيزة محتاجة
الى الجهر بين السيف والقلم . ثم يقول :

ملك سبيلهم في الشرق مضرب
ثمانون الفاً أسد غاب ضراغما
إذا حلت فالشر وسنان حالم
فيا لى أفشى في البلاد من الضحى
تلوح لهم في كل افق وتعتلى
وتغشى أبيات الماقل والذرى
يقود سراياها ويحمى لواءها
يجىء بها حيناً ويرجع مرة
ومنها :

ونادت فلبى الخيل من كل جانب
خفافاً الى الداعى سراعا كأنما
منيفين من حول اللواء كأنهم
وما هى إلا دعوة واجابة
فأبصرت مالم تبصرا من مشاهد
ولبسى عليها القصور المترقب
من الحرب داع للصلاة مثوب
له معقل فوق الماقل أغلب
ان التحمت والحرب بكر وتغلب
ولا شهدت يوماً معد ويعرب

هنا جاشت الفكرة برأس شوقى فذهبت به الى أبعد حدود المبالغة فلا نزاع في
الترك اذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا في الذروة العليا التي ينحط عنها

السيل ولكن القول بأن مشاهدتهم لم تشهدها معد ويعرب فيه نظر . ولمرى أن
معداً ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل في ساحات لا يحصيها العدد
فبينما جيوشها تحاصر القسطنطينية كانت جيوش أخرى تفتح اسبانيا وجنوبي فرنسا
وأخرى تقاتل أمة البربر العاصية وأخرى تتوغل في افريقية وجحافل تغزو الهند
وفياق تغزو الخزر وجيوش فيما وراء النهر تغزو الأتراك في عقر دارهم . وكل ذلك
في وقت واحد لا تلهيهم حرب عن حرب ولا تشغلهم ساحة قتال عن ساحة قتال
وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة يستقل بها قائد مثل
قتيبة بن مسلم الباهلي تجتمع عليه الترك من كل حدب فيوالى عليها الهزائم ويقودها
بالخزائم وهو في قلة بالقياس الى أمم الترك التي اجتمعت عليه من كل صوب، وما زال
يثخن فيها حتى ضرب عليها الذلة والمسكنة الى حدود الصين ولاذت أخيراً من بأسه
بالاسلام ودانت به فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك في الدين العربي فصاروا
فيما بعد أحصى حماه وأمضى سيوفه . ولكن لا يقال ان أمة من الامم تقدر أن تبد
العرب في ميادين القتال اذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد . وما أتى العرب
الا من تقطع ما بينهم وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد . وفي هذا يفضلهم الترك وبهذا
سادوا عليهم .

ومن أحسن ما قال شوقي في حياته في هذه القصيدة وفي غيرها وما قاله شاعر قديم
أوحديث وصف عبور الجيش العثماني مضيق (ملونا) في الحرب العثمانية اليونانية ولا
يكاد يوجد في العرب من يمت الى الأدب بسبب الا وهو يعرف هذه الأبيات قال :

جبال ملونا لا تخورى وتجزعى	اذا مال رأس أو تضعضع منكب
فما كنت الا السيف والنار مركباً	وما كان يستعصى على الترك مركب
علوا فوق علياء العدو ودونه	مضيق كحلق الليث او هو اصعب
فكان صراط الحشر ماثم ريبة	وكانوا فريق الله ماثم مذنب
يمرون مر السبق تحت دجسة	دخاناً به اشباحهم تتجلبب

الى ان قال فى قتال الحاج عبيد الأزل باشا قائد فرقة الفرسان الذى اقتحم الموت
جهرراً لا يمشى اليه الضراء وذلك طمعاً فى الشهادة

واشمط سوّاس الفوارس اشيب يسير به فى الشعب اشمط اشيب
رفيقا ذهاب فى الحروب وجيئة قد اصطحبوا الحر للحر يصحب
اذا شهداها جددا هزة الصبا كما يتصانن ذو ثمانين يطرب
فيهن هذا كالحسام وينثنى وينفر هذا كالغزال ويلعب
توالى رصاص المطلقين عليهما يخضل من شيبهما ويخضب
فقليل أنل اقدمك الارض انها ابر جواد ان فعلت وأنجب
فقال أيرضى واهب النصر اننا نموت كموت الغايات ونعطب
درونى وشأنى والوغى لا مبالياً الى الموت أمشى أم الى الموت أركب
الى أن يقول :

فهل من ملونا موقف ومسامع ومن جبليها منبر لى فأخطب
فاسأل حصنيتها العجيبين فى الورى ومدخلها الاعصى الذى هو أعجب
ويلاحظ هنا على قوله : (منبر لى فأخطب) بضم الفعل المضارع وقد سبق ذلك
استفهام فى قوله : (فهل من ملونا) فالقاعدة هى ان الفعل ينتصب بعد الفاء اذا سبقه
نقى او استفهام . ثم يقول عن الترك :

هل البأس الا بأسهم وثباتهم أم الحزم الا عزمهم والتلب
أم الدين الا ما رأيت من جهادهم أم الملك الا ما أعزّوا وهيبوا
وأى فضاء فى الوغى لم يضيقوا وأى مضيق فى الوغى لم يرحبوا
وقال عن تلاقى الترك واليونان فى سهل فرسالة :

وفرسال اذ باتوا وبتنا أعاديا على السهل لدأ يرقبون ونزق
وقام فتانا الليل يحمى لواءه وقام فتائم ليله يتلعب
توسد هذا قائم السيف يتقى وهذا على أحلامه يتحسب
وهل يستوى القرنان هذا منعم وغير وهذا ذو تجارب قلب

إلى أن يقول :

ورحنا يهب الشر فينا وفيهم وتشمل أرواح القتال وتجنب
أى أن رياح الحرب تهب شمالا وجنوبا
ثم يقول :

كأننا أسود رابضات كأنهم
كأن خيام الجيش في السهل أينق
كأن السرايا ساكنات مواجبا
كأن القنا دون الخيام نوازلا
كأن الدجى بحر إلى النجم صاعد
كأن المنايا في ضمير ظلامه
كأن صهيل الخيل ناع مبشر
كأن وجوه الخيل غرا وسيمة
كأن أنوف الخيل حرا من الوغى
كأن صدور الخيل غدر على الدجى
كأن سنا الابواق في الليل برقه
كأن نداء الجيش من كل جانب
كأن عيون الجيش في كل مذهب

يريد بعيون الجيش جواسيسه وارصاده ثم يقول :

كأن الوغى نار كأن جنودنا
كأن الوغى نار كأن الردى قرى
كأن الوغى نار كأن بنى الوغى
وثبنا يضيق السهل عن وثباتنا
مشت في سراياهم فلت نظامها
فلمنا مشينا أدبرت لا تعقب

لم يعربى في الشعر العربى كأنات أحلى وأجزل من هذه الكائنات التى هى مع
(م - ١٥ شوقى)

وصف عبور ملونا واستشهاد عبد الازل باشا عيون هذه الملحمة الجبارة ثم يقول :

فما في القوى أن السموات ترقى بجيش وان النجم يغشى فيغصب
سموتهم اليه والقنابل دونه وشهب المنايا والرصاص المصوب

يريد بالقنابل كرات المدافع المنفجرة وهو خطأ دخل على لغة شوقي من كلام الجرائد وكم للجرائد من فريسة في ميدان اللغة . فالقنابل في اللغة جمع قنبلة وهو مصيدة يصاد بها أبو براقش والقنابل أيضا جمع قنبل بفتح فسكون ففتح وهو الطائفة من الناس والطائفة من الخيل قيل من الخمسين فصاعدا وقيل من الثلاثين الى الأربعين . وأما الكرة المحشوة بالديناميت التي تنفجر عند قذفها من فم المدفع فقد شبهوها بالقنبلة لا بالقنبلة أى بالراء لا باللام ووجه الشبه أن الكرة لها رأس ناتئ محدد وأن القنبلة وهى نوع من الدجاج لها فضل ريش في رأسها وهذه الكرة في شكلها كالقنبلة وأظن هذا الاستعمال بدأ في زمان محمد على أمير مصر لأنى رأيت هذه اللفظة في قصيدة للشيخ أمين الجندى الشاعر الحمصى حيث يقول :

ان قيل ابراهيم جاء محاربا سقطوا ولو كان الكلام تقولا
قامت قيامة عكة من بأسه وأحاط من كل الجهات بها البلا
بمدافع ما ان لها من دافع وقنابر تحكى القضاء المنزلا
ثم يقول شوقي :

صعدتم وما غير انقنا ثم مصعد ولا سأم الا الحديد المذرب
كما ازدحمت بثران جو بمورد أو ارتفعت تلقى الفريسة أعقب
فما زلتمو حتى نزلتم بوجهه ولم تحتضر شمس النهار فتغرب

والشطر الثانى من البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة ينظر الى قول محمود سامى :

ونقم كموج البحر خضت غماره ولا عاصم الا الصفيح المشطّب

وأما قوله (ولم تحتضر شمس النهار فتغرب) فالأولى فيه نصب فعل تغرب لأنه وارد بمد نفى كما تقدم الكلام عليه . وفي آخر القصيدة يقول شوقي مخاطباً السلطان عبد الحميد ولا ينسى في هذا الخطاب نغمته الدائمة وهى انه شاعر النيل غير مدافع :

وانى لطير النيل لا طير غيره وما النيل الا من رياضك يحسب
اذا قلت شعراً فالتقوا فى حواضر وبغداد وبغداد ويثرب يثرب
ولم اعدم الظل الخصب وانما أجاز بك الظل الذى هو أخصب
فلازلت كهف الدين والهادى الذى الى الله بالزلفى له يتقرب
وهذا البيت الاخير ينظر الى قول القائل وأظنه الكميت فى قصيدة يمدح بها آل
البيت منها :

من النفر البيض الذين بحبهم الى الله فى ما نابى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فانى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

قصيدة شوقي بمناسبة مجيئ ملنر الى مصر

ولشوقي يوم جاء اللورد ملنر الى مصر سنة ١٩١٩ قصيدة رنانة عن المشروع الذى
يسميه المصريون بمشروع ملنر لأن شوقي لم يغفل حادثة سياسية ذات بال فى الشرق
حتى مهرها منظومة لتسجل تلك الحادثة على الدهر قال :

اثن عنان القلب واسلم به من ررب الرمل ومن سر به
ومن تشي الغيد عن بانه مرتجة الأرداف عن كئبه
الى أن يقول :

يا ظبية الرمل وقيت الهوى وان سعت عيناك فى جلبيه
ولا ذرفت الدمع يوماً وإن أسرفت فى الدمع وفى سكببه
هذى الشواكى النجل صدن امراً ملقى الصبسا أعزل من غربه
صياد آرام رماه الهوى بشادن لا برء من حبه
شاب وفى أضلعه صاحب خلو من الشيب ومن خطبه
وامر بجنبى خافق كلما قلت تنهاهى لى فى وثبه
ما خف الا للهوى والعللى أو جلال الوفسد فى ركه

بدأ هذه القصيدة بالنسيب ككثير من قصائده لأنه كان على عادة شعراء العرب في تقديم النسيب . وأما الذي لم يرافق صاحبه في الشيب وشاب الصاحب ولم يشب المصحوب فيريد به القلب، لأنه طالما يكون الانسان شبيخاً ويكون قلبه شاباً ، وتقول العامة لمن كان في هذه الحالة « نفسه خضراء » وأما قوله « واه بجنبي خافق » فهي كلمة للشيخ احمد الزرقاني الشاعر الذي أنشدني قصيدة من شعره يوم ذهبت الى مصر قمتي الاولى اليها منذ خمس وأربعين سنة . وما زال عالقا بذهني منها ما يلي :

أرى لوعة بين الجوائح لا تهدأ أهذا الذي سماه أهل الهوى وجدا ؟
ويا أيها الواهى الخفوق بجاني أنت هو القلب الذي يحفظ الود ؟
وكانت في شعر الزرقاني رقة يشعر بها كل سامع . ثم يقول شوق :

ما بال قومي اختلفوا بينهم	في مدحة المشروع أو ثلبه
كأنهم أسرى أحاديثهم	في لين القيد وفي صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى	بالقيد واستكبر عن سجنه
لو أن قيذاً جاءه من عل	خشيت أن يأبى على ربه
وهذه الضجة من ناسه	جنازة الرق الى ترابه
من يخلع النير يعميش برهة	في أثر النير وفي ندبه
يا نشأ الحى شباب الحى	سلالة المشرق من نخبه
بنى الألى أصبح احسانهم	دارت رحي الفن على قطبه
موسى وعيسى نشأ بينهم	في سعة الفكر وفي رجه
وعالجا أول ما عالجا	من علل العالم أو طبه
مانسيت مصر لكم برّها	في حازب الأمر وفي صعبه

يقول لأهل مصر : ما لكم تحتلفون في درجة الحرية التي هي مدار الخلاف بينكم وبين إنجلترا ان هذا الزمان قد رمى القيود كلها وأبى أن يسحب قيذاً ولو كان القيد من السماء وان هذه الضجة التي ترونها ان هي الا ضجة جنازة الرق المحمولة الى الدفن

ولكن من كان يحمل النير فانه وان تخلص منه فلا يزال عليه أثر جرحه . ثم يذ كر
أهل مصر بماضيهم العظيم وبما هم جديرون به في المستقبل (١)

رثاء المؤلف لمحمد فريد رحمه الله

وقد ذ كرتنى هذه الأبيات أبياتاً قلتها في رثاء المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب
الوطني الذي توفي سنة ١٩١٩ في برلين ولم اكن اطلعت على قصيدة شوق هذه بل
كانت وفاة فريد قبل مشروع ملنر وانما توارد الخاطر مع الخاطر . قلت :

فانظر الى مصر العزيزة بعضها	مثل البريم ببعضها مشدودا
تمشى الى التحرير لا هيابة	خطراً ولا الموت الزوام مبيدا
حاشا ولو جار القوي ولو طغى	أحرار مصر ان تكون عبيدا
دعها استعز الغالبون بجندهم	فالحق اعظم قوة وجندودا
قد اقبل الزمن الذي أبناؤه	لا يحملون سلاسل وقيودا

وهذا هو بيت القصيد . ومنها خطابا لفريد رحمه الله :

لله وفيت الأمانة حقها	وبذلت فيها طارفاً وتليسا
وأذبت في حسراتها كبداً بها	أوديت تحرق من ذوبك كبودا

وكان موت فريد بمرض الكبد . ثم قلت :

لم تدخر في حب مصر واهابا	وسماً ولا جهدا هناك جهيدا
ما عز عندك أن تركت لأجلها	وطناً وقصراً كالسيد مشيدا
ولذا اذا ونفائساً أورثتها	عنها انصرفت وعيلا ووليدا
غادرته طفلاً وطال بك النوى	فحزمت منظره وصار رشيدا
لخلاص مصر قد تركت ما ترا	بيضا سهرت لها ليالى سودا
كنت المتسليم والعميد بحبها	فلماذا لفتيتها غدوت عميدا
كم خطأوك وعاندوك وكل من	يفرى فريبك لم يزل محسودا

(١) آه لو عاش شوقي الى اليوم ورأى بعينه تعظيم هذا القيد وتحرير مصر اذا لغى الصوت
الذي يرن في الخافقين ولسقى من كرمه ابن هاني ما تغنى وترقص له جبال حنين

حتى تخضعت السنون حقائقا خروا لديها ركعاً وسجودا
علموا بأنك لم تكن مشهوراً بل كنت تنظر منذ نظرت بعيدا
عمدوا رأيك فانقلبت وتلك من نعم الآله مؤيدا تأييدا
لم تحتضر إلا ومصر كلها انظير صنعك تستحث وفودا
فأشد ما فرقت عيونك عند ما حفّ الجميع لواءك المعقودا
لا شك أن الكثيرين ممن كانوا يرمون محمد فريد بالتهور وعقم الساعي عادوا بعد
الحرب العامة الى أفكاره حتى أصبح الجميع وطنيين يدينون من العقيدة الوطنية بما كان
يدين به فصار الجميع حزبا وطنيا . ومنها :

نم يا فريد على يقينك انه يوم تأذن بالخلاص عتيذا
لا بد من فرج قريب عنده مصر تؤمّم شخصك الملحدوا
وبدشرونك بالخلاص الى الثرى أن قم وشاهد يومك الموعودا
ولعمري كان جديراً بالمصريين بعد عقد المعاهدة التي انعقدت بينهم وبين الانكليز
أخيراً أن يؤموا قبري مصطفى كامل ومحمد فريد ويترحموا عليها وعلى الشيخ جاويش
في يوم مشهود

يبقى مع الأهرام ذكرك ثابتاً ويظل قبرك مثابها مشهودا
وهناك تنقلب المدامع قرة ويعود مأتمك المفجع عيدا

ولهذه المراثية نكتة لا بأس بآرادها، وما زال الحديث شجوناً، وذلك اني لما سمعت
نعي محمد بك فريد كنت في برن من سويسرة وكنت أسكن أنا وسعادة الدكتور
عبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين اليوم في أوتيل واحد على قمة الجبل
المشرف على برن . فلما جاءنا خبر فريد وكان عزيزاً على كل منا بلغ الأسى منا مبلغه ،
فقال عبد الحميد بك : لا بد أن تراثيه . فقلت له : وهو كذلك . وثاني يوم قال لي بعد
أن نهضنا عن الطعام : هل عملت انثناء للمرحوم فريد ؟ فقلت : لا . قال فيجب أن
تعمله الآن . قلت : لا بد لي من القيلولة بعد الطعام . قال : إلا أن البريد سيمشي الآن

فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء . فصعدت الى غرفتي ونظمت هذه الأبيات في نصف ساعة ورجعت الى عبد الحميد بك فناولته إياها فدهش وقال لي : اذهب الآن ونم . وحقيقة الحال أن سرعة النظم هي على قدر عمق التأثر ودرجة الاقتناع بالموضوع ، فإذا كان الانسان ملآن من الموضوع انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صلب آخذاً بعضها برقاب بعض . وإذا كان الانسان محمولا على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادى الاقتناع كان في نظمه أو نثره متعملا متكلفاً كأنما يصعد جبلاً . فأوصاف محمد فريد وأعماله هي التي أملت على ناظم هذه المراثية ما أملته حتى قال هذه الابيات في نصف ساعة وهو ثقيل الاجفان يريد أن ينتهى منها ليأخذ نصيبه من الراحة .

ولنعد الى قصيدة شوقي في مشروع ملنر فهو يقول :

يا رب قيد لا تجبونه زمانكم لم يتقيد به
ومطلب في الظن مستبعد كالصبح للناظر في قربه
والياس لا يجمل من مؤمن مادام هذا الغيب في حجبته

قصيدة شوقي في مشروع ٢٨ فبراير

وقال شوقي في مشروع ٢٨ فبراير وياليتيه عاش حتى رأى مصر حرة مطلقة من عقالها كما هي اليوم :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبنا وفاز بالحق من لم يأله طلبا
وجاء في حاشية هذه القصيدة هذا التفسير وأظنه لمحمد حسين بك هبكل : « لم يأل لم يقصر قال تعالى (لا يألونكم خبالا) وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء فكهم وراء جهاد الحياة من راحة وكهم وراء الضعف من قوة » . قلت : ان لشوقي بلا نزاع حكما غالية لم تكن تتاح لغيره إلا أنه لم يكن أباعذرة هذه الحكمة التي استهل بها هذه القصيدة فان أبا تمام الطائي من قبله هو الذي قال :
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب

وهي من قصيدته التي هنا بها المعتصم على فتح عمورية :
 السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
 بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
 ثم يقول شوقي :

وما قضت مصر من كل لبائنها حتى تجر ذبول الغبطة القشبا
 في الامر ما فيه من جد فلا تقفوا من واقع جزعاً أو طائر طربا
 لا تثبت العين شيئاً أو تحققه إذا تحير فيها الدمع واضطربا
 يريد أن يقول ان من الناس من استطاره طرباً هذا الاستقلال المقيد لأنه رآه
 بالقياس الى الماضي غير منتظر . ومنهم من استطاره جزعاً لأنه نصف استقلال
 وليس هو بنشيدة آمال المصريين . فهو ينهى الفريقين هذا عن الطرب وهذا
 عن الجزع . ثم يقول للجازع : ان العين لا ترى الرئيات جيداً إذا كان يحول الدمع في
 ما قدها فارفع الدمع من عينك حتى تقدر أن ترى جليلاً

إذا طلبت عظيماً فاصبرن له أو فاحشدين رماح الخط والقضب
 ولا تعدّ صغيرات الأمور له ان الصغائر ليست للعلی أهبا
 ولن ترى حجة ترضى عواقبها كالخق والصبر في أمر اذا اصطحبا
 ان الرجال اذا ما ألجئوا لجأوا الى التعاون فيما جيل أو حزبا
 قال : اما الصبر واما الحرب فأما الصغائر فلا تصل بكم الى غاية . ثم قال :

تمهدت عقبات غير هينة تلقى ركاب السرى من مثلها نصبا
 وأقبلت عقبات لا يذللها في موقف الفصل الا الشعب منتخبا
 كم صعب اليوم من سهل هممت به وسهل الغد في الاشياء ما صعبا
 ضموا الجهود وخلوها منكورة لا تملأ والشدق من تعريفا عجباً

يريد أن يقول ان عقاباً كآداء قد تمهدت ولا تزال عقاب لا تقل عن تلك غير
 ممهدة . ولكن اذا اتفق الشعب وانتخب نوابه فقد يصل الى أربه وربما تيسر في
 الغد ما لم يتيسر اليوم (ولقد تيسر ما تسكن به شوقي بعد ثمانى سنوات مما قال)

فضموا مجهوداتكم واجعلوها فكرة منسوبة للبلاد بأسرها ولا تضيعوا الوقت في نسبتها الى الاشخاص وتفضيل زيد على عمرو والاختلاف على من كان هو العامل أفي الوغى ورحى الهيجاء دائرة تحصون من مات أو تحصون ماسلبا خلوا الاكاييل للتاريخ ان له يداً تؤلفها درا وغشابا أمر الرجال اليه لا الى تفر من بينكم سبق الأنباء والكتبا يقول : اذا كانت الهيجاء دائرة فليس من العقل أن يشتغل الناس باحصاء من ذهب أو احصاء مذهب بل هذا متروك الى ما بعد انتهاء المصاف كذلك الممارك السياسية التي التاريخ وحده هو الذي يعطى فيها كل مقاتل حقه فالى التاريخ مرجع الفصل في هذه القضية، وأما أنتم فلستم الآن في تاريخ بل في سياسة تجب معالجتها بما يناسبها ثم يقول :

قالوا الحماية زالت قلت لا عجب بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حرماً يقطع الذنبا
ولقد آتى الله السكينة حرماً كافياً في أثناء غارة ايطاليا على الحبشة فاستغلت الخصام
الايطالى الانكليزى وقطعت ذنب تلك الحماية

لو تسألون «ألنبي» يوم جندلها بأى سيف على يافوخها ضربا
يافاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
اذا نظرت الى أين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة وان للحق لا للقوة الغلبا
أي أن الصليب كان خشباً لا حديداً وكان أصحابه أضعف خلق الله ومع هذا فقد
انتهى أمرهم الى ما انتهى اليه من القوة فلا ينبغي أن يعتمد القوي على قوته ويسرف
في الاعتماد عليها وكم من الله على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمة

وهذه الآيات الثلاثة الأخيرة هي من الآيات الخالدة التي يحفظها مئات الألوف
من الناطقين بالضاد ولا يرحون يطرزون المجالس بها ولو ترجمت الى لغة أجنبية لما
خسرت شيئاً من طلاوتها ولا من قوة معناها كما هو الشأن فيما يحول من لغة الى لغة

قصيدة سوقي عن تأجيل حفلة التتويج لملك انكلترة

ولشوقي قصيدة في تأجيل حفلة التتويج لملك انكلترة ادوارد السابع ، وقالوا انها تأجلت لإصابة الملك بدمل ، ومطلع هذه القصيدة هو هذا :

لمن ذلك الملك الذى عز جانبه لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه
ومنها :

أبطل عيد الدهر من أجل دمل وتخبو مجاليه وتطوى مواكبه
ويرجع بالقلب الكسير وفوده وفيهم مصاييح الورى وكواكبه
وتسمو يد الدهر ارتجالا بيأسها الى طنب الاقواس والنصر ضاربه
ويستغفر الشعب الفخور لربه ويجمع من ذيل الخيلة ساحبه
ما أحسن قوله يجمع من ذيل الخيلة ساحبه أى يقصر من ذيل الخيلاء الذى
كان يجوره

ألا هكذا الدنيا وذلك ودها فهلا تأنى فى الأمانى خاطبه
أعد لها ادوارد أعياد تاجه وما فى حساب الله ماهو حاسبه

قصيدة سوقي فى ذكرى كارنارفون

وقال شوقي فى ذكرى كارنارفون :

من سره أن لا يموت فبالعلي خلد الرجال وبالفعال النابه
ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه
قل للمدل بماله وبجأه وبما يجل الناس من أنسابه
هذا الأديم يصد عن حضاره وينام ملء الجفن عن غيابه
يريد بالأديم وجه هذه الأرض

إلا فتى يمشى عليه مجددا ديباجتيه معمرا لخراجه

قصيدة شوقي في تكريم الريحاني

وله في اكرام الفيلسوف الاديب الكبير الأستاذ أمين الريحاني اللبناني عندما جاء الى مصر وأقام له الأدياء حفلاً على سفح الاهرام قال :

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس أو ناد ؟
ومنها :

ايه أمين لمست كل محجب في الحسن من أثر العقول وباد
قم قبل الاحجار والايدي التي أخذت لها عهداً من الآباد
وخذ النبوغ من الكنانة إنها مهد الشمس ومسقط الآراد
مازال يغشى الشرق من لمحاتها في كل مظلمة شعاع هاد
كم من جلائل أنعم لمحمد بل كم لاسماعيل بيض أياد
لولا اهتمامهما لظل الشرق في واد وأبناء الزمان بواد
ثم يخاطب الريحاني وهذا الخطاب يذكركني بدويا سمع مديحاً في رجل كبير فقال :

القول على الفعل يزين

يانجم سوريا ولست بأول ماذا نمت من نير وقاد
أطلع على يمن يمينك في غد وتجل بعد غد على بغداد
وأجل خيالك في طول ممالك مما تجوب وفي رسوم بلاد
يقول له : لست أنت أول نجم من أنجم سورية فقد طلع منها نيرات وقادة قبلك
فاطلع الآن بعد مصر على اليمن وتجل على العراق لترى ماترى في رسوم تلك الأربع
وتذكر مجد العرب القديم . ولقد قام الريحاني وإيم الله بهذه المهمة وكتب عن أحوال
جزيرة العرب الكتب الممتعة ودعا الى وحدة العرب بكل طريقة ولا بد من الاعتراف
بهذه الحقيقة . ثم قال له :

قضيت أيام الشباب بعالم لبس السنين قشيرة الأبراد
ولد البدائع والروائع كلها وعدته أن يلد البيان عواد
لم يخترع شيطان حسان ولم تخرج مصانعه لسان زياد

الله كرم بالبيان عصابة في العالمين عزيزة الميلاد
يقول للريحاني انك قضيت أيام شبابك في عالم جديد أذل الله له أعراف البدائع
الصناعية وألان أعطاف الروائع العلمية ولكنه لم يدرك شأو العرب في فصاحة اللسان
ولم يلد شعراء كثيرين مثل حسان بن ثابت ولا خطباء كثيرين مثل زياد بن أبيه. ثم قال :
هومير أحدث من قرون بعده شعراً وان لم تخل من آحاد
والشعر في حيث النفوس تلمذه لافي الجديد ولا القديم العادى
يقول: ان هومير وهو أقدم الشعراء لا يزال شعره حديثاً طليماً لم يبلغ درجته شعراء
كثيرون تأخروا عنه عشرات من القرون وذلك أن الشعر ليس فيه قديم وجديد وانما
فيه لذيذ وغير لذيذ . فما استلطفته النفوس فهو شعر لا تخلق ديباجته ولو كان قديماً .
وما مجته الأذواق فليس بشعر ولو كان جديداً .

رأى المؤلف في قديم الشعر وهومير

قلت : ولو كانت القدمة مما يهجن الشعر لوجب أن يكون هومير منبوذاً فإنه
أقدم شاعر . ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد
من الشعر ويزعمون أن لكل عصر « مدرسة » على قولهم في الشعر : ان هذه « المدرسة »
تكون في العلم وتكون في الصناعة وتكون في الزراعة وتكون في كل شيء الا في
الشعر . فان مدرسته هي القلب وان طريقته هي النفس وان النفس البشرية لم تتغير
ولن تتغير فهي هي في أذواقها ومشاربها ومواردها في الحياة ومصاويرها . فاذا كان
العلم يتغير بظهور حقائق جديدة وبروز أسرار كونية كانت حتى اليوم خافية فان العلم
شيء والشعر شيء آخر

وما سمعنا - ياليت شعري - أن الانجليز زهدوا في شعر شكسبير لكونه عاش
قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة ، ولا أن الألمان عابوا غوته لقدم عهده ومجيئه قبل اليوم
بمائة وخمسين سنة . ولم يزل غوته هو عند الألمان سيد الشعر ولم يزل شكسبير
عند الانكليز أكبر الشعراء . وشكسبير وغوته وملتون وكورنيل وراسين ودانتى
وكل هؤلاء لم يعرفوا شيئاً من أوضاع العصر الحاضر ببداية كونهم قد سبقوه بأعصر
وهم على كل حال متقدمون لا محدثون .

وكم من مرة نقول لهم : ليس الشعر بكيمياء ولا طب ولا جغرافية ولا طبيعيات وانما هو تأثرات نفسية وانطباعات فكرية لا غير . هذا من جهة الشعر على العموم واما من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن تفرنجوه فالشعر العربي لا يكون شعراً الا إذا وافق ذوق العرب ولائم مشارب أنفسهم وجانس مذاهب لغتهم واتصل بمناحي حياتهم نظمه قديم أو متوسط أو محدث كلهم على حد سواء . فاذا باين الشعر العربي أساليب العرب في بيانها وطرقها في التعبير عن خواجج نفوسها لم يتأثر به قارئ ولا تسوغه سامع من العرب وربما لم يفهموه أصلاً على حد ما قال الأستاذ محب الدين الخطيب : ان الواحد من هؤلاء « يظل يومه يسطو على منظومات الافرنج يستل منها معانيها الغريبة عن الاذواق العربية فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلحن بعضها بعضاً فلا يفهم منها القارئ العربي الا بقدر ما أفهم أنا من الصينى » . وأنا أيضاً معترف بأنى لأفهم هذه اللغة التى يكتبون بها . ثم يختم شوقى خطابه للريحانى :

أودع لسانك واللغات فرجا غنى الأصيل بمنطق الأجداد
إن الذى ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره فى الضاد

اصبرى قصائد شوقى فى السلطان هجر الحمير

ولما أقيمت قذيفة على السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ونجا السلطان منها هناء شوقى بقصيدة مطلعها :

هنيئاً أمير المؤمنين فاعلم نجاتك للدين الحنيف نجاة
ومنها :

بلوناك يقظان الصوارم والقنا اذا ضيع الصيد الملوك سبات
سهرت ولذّ النوم وهو منية رعايا تولاها الهوى ورعاة
فلولاك ملك المسلمين مضيع ولولاك شمل المسلمين شتات
لقد ذهبت راياتهم غير راية لها النصر وسمم الفتوح شيات
حنيفية قد عزها وأعزها ثلاثون ملكاً فاتحون غزاة
حماها وأسمها على الدهر منهمو ملوك على أملاكه سروات

أى أن سلاطين آل عثمان هم ذرى ملوك الاسلام

غمائم في محل السنين هواطل مصابيح في ليل الشكوك هداة
تهادت سلاماً في ذراك مطيفة لها رغبات الخلق والرهبات
تموت سباع الجو غرثي حياهما وتحبي نفوس الخلق والمهجات
سنت اعتدال الدهر في أمر أهله فبات رضيعاً في ذراك وباتوا
أكان لهذا الأمر غيرك صالح وقد هونتـه عندك السنوات
أى صارت ادارة الملك ملكة عندك بطول اضطلاعك بها .

ومن يسس الدنيا ثلاثين حجة تعنه عليها حكمة وأناة
وما زلت حسان المقام ولم تزل تلينى وتسرى منك لى النفحات
زهدت الذى فى راحتك وشاقتى جوائز عند الله مبتغيات

يحمل نفسه من السلطان الخليفة بمقام حسان من رسول الله عليه السلام ويقول
انه لم يزل مغموراً بعطايا الخليفة ولكنه هو انما يرغب فى جوائز الله بتأييد خليفته فى
الأرض لا فى جوائز هذه الدنيا . ولم يشأ شوقى أن يمدح الخليفة من دون أن يمدح نفسه
مقتدياً فى ذلك بامامه ابى الطيب المتنبي الذى كان يقول :

فدع كل صوت غير صوتى فافنى أنا الطائر المحسكى والآخر الصدى
ويقول :

خيلى انى لا أرى غير شاعر فلم منهم والدعوى ومنى القصائد
ويقول وقد تجاوز الحد وانتهى بذلك الى الحق :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم
وهذه قصيدته « وا حر قلباه ممن قلبه شبح » ملائ بأوأوعجباً وعجرفة لا يشك
سامعها فى أن المتنبي قصد يومئذ فراق سيف الدولة وقطع صلته به ومن إعجاب الشعراء
بأنفسهم ما يفتقره لهم الناس مثل قول المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

ولكن منه ما يسهج على كل حال مثل قول المتنبي « بأننى خير من تسعى به قدم »

شهد لنفسه بما لا يوافق عليه أحد . فأما شوقي فلم يصل الى ذلك الأمد في البأ و
وإن كان لم يقصر في ذلك عند قوله :

ومن كان مثلي أحمد الوقت لم تجز عليه ولو من مثلك الصدقات
ولى درر الأخلاق في المدح والهوى وللمتنبي درة وحصة
أى انه كما كان أحمد بن الحسين المتنبي رجل وقته في الشعر فان أحمد شوقي هو
رجل هذا الوقت وانه بفضل المتنبي يكون شعره سوياً لا تجد فيه عوجاً ولا أمثاً وان
المتنبي كان في شعره يعلو ويسفل ويقرن بين الدر والحصى والسيف والعصا .

شوقي نصير الصور والنفائس

ولشوقي قصيدة القيمة على جمع حافل من سيدات مصر في حديقة الأزبكية تدل
على شدة اهتمامه بصيانة الاخلاق والفضائل وتحصين التربية العائلية من نزعات العصر
الحاضر ونزعات الخلاعة والفجور بينما كثير من الادباء يزبنون للناشئة الخروج على
تقاليد الصون ويريدونها فوضى اجتماعية لا لجام لها . وقال شوقي ولم يزل على صراط
مستقيم :

قم	حى	هذى	النيرات	حى	الحسان	الخيرات
واخفض	جبينك	هيبة	للخرّد	المتخفّرات		
زين	المقاصر	والحجا	ل	وزين	محراب	الصلاة
هذا	مقام	الأمهات	فهل	قدرت	الأمهات	؟
لاتاغ	فيه	ولا	تقل	غير	الفواصل	محكمات
واذا	خطبت	فلا	تكن	خطباً	على	مصر الفتاة
اذكر	لها	الياباب	لا	أمم	الهوى	المتهتكات
ماذا	لقيت	من	الحضا	رة	يا أخى	الترهات
لم	تلق	غير	الرق	من	عسر	على الشرق عات

ينهى اهل مصر عن أن يقوم فيهم من يخطب فيفجر فيكون خطباً على مصر
الناشئة ويرخى فيها من قيود الآداب الاجتماعية ويسهل العبث بالتقاليد القديمة

الكريمة ويقول لهم : تأملوا في اليابان وشدة اعتصامها بتقاليدها مع علو كعبها في المدنية
ثم يقول لهم : ماذا افتتاكم الى ذلك الحد في حضارة أوربية لم تجدوا من ورائها غير
العسر والرق ، ثم يقول :

خذ بالكتاب وبالحدید م وسيرة السلف الثقات
وارجع الى سنن الخلیفة واتبع نظم الحياة
هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
المعلم كان شریعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسیاسة والشئون الأخريات
كانت سکینة تملأ الدنیا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آی الكتاب البینات
وحضارة الاسلام تنطق عن مکان المسلمات
بغداد دار العالمات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمیة أم الجوارى النابغات
وریاض أندلس نغم ن الهاتفات الشاعرات

جزاه الله عن الاسلام خيراً بل جزاه عن المجتمع الشرقی بأسره خيراً فإنه لم يقف
موقفاً من مواقف الاجتماع غفل فيه عن الطريقة المثلی . وهو وان كان كلامه لم ينجع
كما يجب ولم يؤثر بقدر ما يجب بسبب استیلاء الضلالة على العقول وافلات الشهوات
من العقال فلا بد أن تكون للاخلاق كرة وأن يعود السلطان للشریعة ويتناشد الناس
أقوال شوقی هذه ويرحموا علیه . ثم قال :

للصالحات عقائل الی وادی هوئی فی الصالحات
الله أنبتهن فی طاعاته خیر النبات
فأتین أطیب ما أتى زهر المناقب والصفات
لم یکف أن أحسن حتی زدن حظ المحسنات
یمشین فی سوق الثواب مساومات راجحات

مصر مجددها بنسائها المتجددات
التأفريات من الجحود كأنه شبح الممات
هل بينهم جوامدا فرق وبين الموميات
لما حضن لنا القصة ية كن خير الحاضنات
غذيتها في مهدها بلباسهن الطاهرات
ينفثن في الفتیان من روح الشجاعة والثبات
يهوين تقبيل المهنة د أو معانقة القناة
ويرن حتى في الكرى قبل الرجال محرمات

فرق شوقي بين الجمود وبين الاعتصام بالتقاليد الكريمة والمبادئ الفاضلة التي
لا سعادة للمجتمع إلا بها ، فليس هذا من هذا ، بل الجمود ليس من تقاليد هذه الأمة
وإن أحسن ما يعمل في مدارس الاناث هو تحفيظ هذه الأبيات للنساء وتجديد
تلاوتها في المحافل .

شوقي بدمصر على رذيلة الانحمار

ورأى شوقي ما فشا في مصر من انتحار صغار الطلبة لذن سقوطهم في الامتحانات
فنظم هذه القصيدة في ذم اليأس ودعوة هؤلاء الشبان الى الثبات في المعركة والى بسط
الأمل في الحياة فقال :

كل يوم خبر عن حدث سئم العيش ومن يسأم يذر
عاف بالدنيا بناء بعدما خطب الدنيا وأهدى ومهر
حل يوم العرس منها نفسه رحم الله العروس المحتضر
ضاق بالعيشة ذرعا فهوى عن شفا اليأس وبش المنحدر
راحلا في مثل أعمار المنى ذاهبا في مثل آجال الزهر
لا أرى الأباة الا معركا وأرى الصنديد فيه من صبر
ربّ واهى الجاش فيه قصف مات بالجبن وأودى بالخنز
(م - ١٦ شوقي)

لامه الناس وما أظلمهم وقليل من تغاضى أو عذر
ولقد أبلاك عذراً حسناً مرتدى الا كفان ملقى في الحفر
قال ناس صرعة من قدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون جفاء راعه من أبٍ أغاظ قلباً من حجر
وامتحان صعبته وطأة شدها في العلم أستاذ نكور
لا أرى إلا نظاماً فاسداً فككك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه وما أكثرها ذلك الكاره في غض العمر
مارأى في العيش شيئاً سره وأخف العيش ما ساء وسر
نزل العيش فلم ينزل سوى شعبة الهم ويبداء الفكر
ونهارٍ ليس فيه غبطة وليالٍ ليس فيهن سمر
ودروس لم يذلل قطفها عالم ان نطق الدرس سحر
وبعد أن ذكر هذه الأسباب التي تضيق سبيل العيش على الأحداث وأنهى باللائمة
على الأهل والمعلمين عاد فنصح الأحداث بالصبر والتأني والتقدم الى الأمام فقال :
نشأ الخير رويداً قتلكم في الصبا النفس ضلال وخسر
لو عصيتم كاذب اليأس فما في صباها ينحدر النفس الضجر
تضمير اليأس من الدنيا وما عندها من حادث الدنيا خبر
فيم تجنون على آبائكم ألم الشكل شديداً في الكبر
وتعقون بلاداً لم تزل بين اشفاق عليكم وحذر
فمصائب الملك في شبانه كمصاب الأرض في الزرع النضر
ليس يدرى أحد منكم بما كان يُعطى لو تأنى وانتظر
أى ربما كان بين هؤلاء المنتحرين لاجل سقوطهم في الامتحان من لو صبر على
نفسه لجاء عالماً كبيراً وكان في عصره نادراً
روحوا القلب بالذات الصبا فكفى الشيب مجالا للسكر

أى بكرتم فى الغم من هذه الدنيا فسوف تأتكم الشيخوخة بما هو حسبكم من هذه الجهة

عاجلو الحكمة واستشفوا بها وانشدوا ماضل منها فى السير
واقراوا آداب من قبلكمو ربما علم حيا من غير
واغنموا ما سخر الله لكم من جمال فى المعانى وصور
واطلبوا العلم لذات العلم لا لشهادات وآراب آخر
كم غلام شامل فى درسه صار بحر العلم أستاذ العصر

النشأ محرقة جمع نشء وهو النسل وكثيراً ما يستعمل شوقى هذه اللفظة فى خطاب
الشبان هذا وكما أصاب فى قوله اطلبوا العلم لذات العلم فقد رأيت كثيراً من الشبان
يجعلون جميع وكدهم فى تحصيل الشهادة ويرون بها منتهى السعادة وإذا حصل الواحد
عليها ظن نفسه عالماً لا يجوز أن يقال له أخطأت. أو ليس أنه أحرز الشهادة؟ ورأيت
شباناً آخرين يكاد أحدهم يذوب حسرة وتألماً على كونه لم يصب الشهادة ولم يفز بما فاز به
غيره وهو يتخيل أن الأرض قد ابتلعتة فكنت أقول للفئة الأولى: لا يغرنكم نيل الشهادة
فتناموا بعدها قائلين لأنفسكم انكم صرتم علماء بحجة أن الشهادة هى فى أيديكم . بل
يجب أن تثاروا على الدرس والتحقيق كأن شهادتكم لم تكن فالشهادة ليست العلم.
وكنت أقول للفئة الثانية : ما أرى تأخركم فى الامتحان الا خيراً لكم إذ بهذا التأخر
تضطرون الى مراجعة دروسكم المرة والمرة والثلاث فيكون ذلك وسيلة لتمكنوا من
العلم وتعرفوا أكثر مما عرفه أصحاب الشهادات واعلموا أن الشهادة ليست هى العلم
الحقيقى بل هى علامة من علاماته . فمن عرف نفسه قد أحكم الفن الذى عكف عليه
فلا ينبغي أن يحزن على تأخر الشهادة . ومن عرف نفسه لا يزال غير ضائع فى العلم
الذى درسه فلا ينبغي أن يفرح بهذه الورقة التى أعطاه أياها الأساتيد وكثيراً ما قدموا
متأخرين وأخروا متقدماً فكم من طالب تأخر أيام التحصيل ثم بعد خروجه من
الجامعة نبغ وتقدم وصار من كبار العلماء .

وهذا كما يقول شوقى الذى قسم الله له من المنطق ما لم يقسم إلا لأعظم الفلاسفة .

وختم شوقي هذه القصيدة بدم الانتحار واستنكار قتل النفس التي لا يجوز أن
تموت الا باسم الله تعالى ولم يحمّد موطناً يجوز فيه الاستخفاف بالنفس الا موطن الجهاد
فقال رحمه الله :

قاتل النفس ولو كانت له أسخط الله ولم يرض البشر
ساحة العيش الى الله الذي جعل الورد باذن والصدر
لا تموت النفس الا باسمه قام بالموت عليها وقهر
إنما يسمح بالروح الفتي ساعة الروح اذا الجمع اشتجر
فهناك الاجر والفخر معا من يعيش يحمّد ومن مات أجر

سوقى بتوجه على بيروت يوم ضربها الطالبان أيام هرب طرابلس

وله عندما ضرب الأسطول الايطالى مدينة بيروت فى أثناء حرب طرابلس الغرب:
بارب أمرك فى الممالك نافذ والحكم حكمك فى الدم المسفوك
ان شئت أهرقه وان شئت احمه هو لم يكن لسواك بالملوك
ثم يقول :

بيروت مات الأسد حتف أنوفهم لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
سبعون ليثاً أحرقوا أو أغرقوا ياليتهم قتلوا على «طبروك»

يريد بها «طبرق» الواقعة غربى السلوم ضمن حدود قضاء درنة وقد كان الناس
دعوا جنود السفينة الصغيرة العثمانية الراسية فى المرفأ للخروج منها قبل أن يضربها
الأسطول فأبى الضباط ذلك وأصروا على البقاء فى السفينة قياماً بالواجب ولو كانوا
سيموتون لا محالة فتلقوا الموت اليقين حتى لا يقال انهم فروا منه

بيروت ياراح النزيل وأنسه يمضى الزمان على لا أسلوك
الحسن لفظ فى المدائن كلها ووجدته لفظاً ومعنى فيك
نادمت يوماً فى ظلالك فتية وسموا الملائك فى جلال ملوك
ينسون حسناً عصابة جلق حتى يكاد بخلق يفديك

يشير الى قول حسان :

(لله در عصابة آ نستهم يوماً بجلقى فى الزمان الأول)
 تالله ما أحدثت شراً أو أذى حتى تراعى أو يراع بنوك
 ان يجهلوك فان أمك سوريا والأبلى الفرد الأشم أبوك
 لك فى رُبى النيل المبارك جيرة لو يقدرُون بدمعهم غسلوك
 يشير بالأبلى الفرد الأشم الى جبل لبنان وينوه بسورية العزيزة وطن الكرم
 والشجاعة قائلاً لبيروت انها أمك البرة

وصف سُوقى لـاستانبول

ولسوقى وصف للأستانة :

منى لعمرك يافروق تحية كعميون مائك أو رُبى واديك
 أو كالنسيم غدا عليك وراح من فوق الرياض ووشىها المحبوك
 أو كالأصيل جرى عليك عقيقه أو سال من عقبانه شاطيك
 تلك الخائل والعميون اختارها لك من رُبى جنّاته باريك
 قد أفرغت فيك الطبيعة سحرها من ذا الذى من سحرها يرقيك
 خلعت عليك جمالها وتأملت فاذا جمالك فوق ما تكسوك
 عن جيدك الحالى تلفتت الرُشى واستضحكت حور الجنان بفيك
 إن أنس لا أنس الشبيبة والهوى وسوالف اللذات فى ناديك
 ولياليا لم ندر أبى عشائوها من فجرها لولا صياح الديك
 وصبوحنا من (بندلار) (شرشر) وغبوقنا (بترابيا) و (بيوك)
 هذه منازل ومتنزهات فى البوسفور أما (البندلار) فهى أودية ذات سدود
 تشكلت منها بحيرات يذهب ماؤها الى الاستانة . وشرشر هى عين ماء وترابيا هى
 قرية على ضفة البوسفور وكذلك (بيوك دره) ثم يقول :

لا يحزنك من حماتك خطة كانت هى المثلى وإن ساءوك
 وهمو الخفاف اليك كالانصار إذ قلّ النصير وعزّ من يفديك
 والمشتروك بما لهم ودمائهم حين الشيوخ بجبة باعوك

هنا تحامل أخونا شوقي على الشيوخ الذين لولاهم في الحقيقة لم يقم اهل الاناضول ولا لبوا دعوة كاظم قره بكير ولا مصطفى كمال ولا أحد سواهما . فالجهاد التركي في وجه الحلفاء واليونان وبعبارة أخرى الحرب التي يسمونها بحرب الاستقلال لم تكن الا بتحريض الأئمة والشيخ وجميع أصحاب العمام . وذلك بصارخة الاسلام التي لبأها الشعب التركي .

هذه هي حقيقة لا يكابر فيها الا من أعمت الضلالة قلوبهم ومن غلبوا على الأمور اليوم فظنوا أنهم يستخرون الحقائق كما يستخرون الأهالي ويغلبون على التاريخ كما غلبوا على المناصب . ولا نعلم أحداً من علماء الترك باع بلاده من الاجانب بجنة وانما كان بعضهم سي الظن ببعض القواد الذين أقحموا انفسهم بحرب الاستقلال وكانوا مطلعين من قبل على ضمايرهم بحق الاسلام والاخلاق متوقعين من غلبهم أن يؤول الأمر الى ما آل اليه من الإلحاد في الدين ومن هدم الخلافة ومن القضاء على الاوضاع الاسلامية بأسرها مما عاد شوقي نفسه بمد قليل فاعترف به وناح وبكى من أجله وقصيدته الحائية التي مرت أعظم شاهد على ذلك . فالذين أفتوا بما أفتوا به لم يكونوا خائنين لوطنهم وانما كانوا أمناء لدينهم خائفين على الاسلام من امر يأتي . وقد يجد المعترض على كلامي هذا وجهاً للجواب ولكنه يكون جواب سفسطة . ليس هنا محل الشرح والتفصيل لبيانه . وقد زلق شوقي في هذه الفكرة كما زلق ملايين من الخلق ولكن الحقيقة لا يضرها كثرة عدد مخالفها .

قصيدة شوقي في اللورد كرومر

يوم عزل عن مصر

ومن قصائد شوقي المشهورة القصيدة المسماة (وداع اللورد كرومر) :

أيامكم أم عهد اسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل
أم حاكم في أرض مصر بأمره لا سائلاً أبداً ولا مسئولاً
يا مالكا رق الرقاب بيأسه هلا اتخذت الى القلوب سبيلاً

يقول لكرومر : انك غلبت على مصر بقوة الاسطول الانجليزي ، آمناً بذلك

فهل تقدر أن تقول انك ملكت قلبا واحداً من قلوب أهل مصر؟ ومن لم يملك
القلوب فلا يقال انه ملك شيئاً لأن الممالك لا يمكن أن ترتكز على رؤوس الحراب دائماً
أوسعتنا يوم الوداع إهانة أدب لعمرك لا يصيب مثيلاً
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما صاغ الرئيس لك الشنا اكيلاً
انظر الى أدب الرئيس ولطفه تجمد الرئيس مهذباً ونبيلاً
في ملعب للمضحكات مشيد مثلت فيه المبكيات فصولاً
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله وتصدر الأعمى به تطفيلاً

لما جرت حفلة الوداع للورد كرومر في دار الاوبرا يوم خروجه من مصر خطب
رئيس النظار مصطفى باشا فهمى وبحسب العادة في مثل تلك الحفلات أثنى على الودع
وأظهر الأسف لفراقه . فأجابه اللورد كرومر بكلام نال فيه من كرامة الأمة المصرية
ومن الخديوى اسماعيل ولم يُراع شيئاً من شروط السكياسة . وأغرب ما في الأمر أنه
قال ما قال في حضور الأمير حسين كامل بن الخديوى اسماعيل وساطان مصر فيما بعد وهذا
ما يشير اليه شوقى بقوله (شهد الحسين عليه لعن أصوله) وأما الأعمى فهو صديقنا
الاستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان وكان بصره ضعيفاً حتى كاد يكف في الآخر وما
نظن شوقى ذكره هنا الا على سبيل النكتة أو كما يقال جرته القافية فان الشيخ عبد
الكريم لم يكن له شأن في السياسة ولم يكن حضوره تلك الحفلة إلا كما يحضر
سائر الاجتماعات فقد كان مولعاً بذلك وكان الناس يتنادرون عليه في كثرة وجوده في
المآدب والمحافل وكان حلو الفكاهة يطارد في ميدان المداعبة أحسن طراد وكانت
الناس تستخف روحه . فأما أن يقوم الشيخ عبد الكريم ويرد على اللورد كرومر في
وجهه على حين الأمراء والوزراء تحملوا كلامه وألبسوا أمامه فلم يكن من فرسان
ذلك الميدان . ثم يقول :

أندرتنا رقاً يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملك التغير والتبدلاً
الله يحكم في الملوك ولم تكن دول تنازعه القوى لتدولا

فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين المالين قبيل
اليوم أخلفت الوعود حكومة ككنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصر آفكانت كالسلال دخولاً
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى ججدوا الآله وصنعه والنيل

نعم إن الكثيرين من سعاة الأجانب ودعاتهم كانوا دائماً يبينون للناس ما جرى
من الاصلاحات في مصر لمهد الانجليز وينسون أن الله تعالى أنعم على مصر بالنيل وأنه
لولا النيل لم تتسهل هذه الاصلاحات وان الانجليز دخلوا بلاداً غير مصر فلم يوفقوا
الى شيء مما وفقوا به في مصر لأنه لم يكن لتلك البلاد نيل يسقيها ويسيل الذهب في
واديها . ثم ان هؤلاء ينسون شيئاً آخر وهو أن مصر على فرض أن الانجليز لم
يدخلوها ما كانت لتقف في مكانها السياسي والاجتماعي والاداري وتبقى متأخرة عن
عن درجة غيرها . أفلا يرون أن محمد علي كان قد أنشأها نشأة جديدة وبني فيها
المدارس والمعامل ونظم الجيوش وأجرى في البحر الأساطيل ومهد الطرق
وبني السدود وشق الجداول الى غير ذلك مما يعدده شوقي فيقول :

وحياة مصر على زمان محمد ونهوضها من عهد اسماعيل
ومدارساً لبني البلاد حوافلاً حظ الفقير بهن كان جزيلاً
ومعاقلاً لا تمسح آثارها وجيوش ابراهيم والاسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا تذر اليباب مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا كانت حزوناً فاستحلن سهولا
والقطن مزروعاً بفضل محمد في مصر مخلوجاً بها مغزولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى ما تنفقون اليوم عداً بخيلا

يريد أن يقول ان الانجليز كانوا يجورون على خزانة مصر ويحجفون بها أكثر مما
كان اسماعيل يجور عليها فلماذا لا يزالون ينتقدون اسرافه ؟

أو كان قد صرع المفتش مرة فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
 أى انه إن كان اسماعيل باشا ظلم وقتل اسماعيل باشا المفتش ظلما فكم ظلمتم انتم
 وقتلتم ظلما من أناس فى حادثة دنشواى، وهى ان جنوداً من جيش الاحتلال الانجليزى
 اصطادوا حماما لأهل دنشواى (قرية من أعمال المنوفية) برغم رجاء أهل القرية لهم
 أن لا يفعلوا . فوقع بين الفريقين نزاع من اجل صيد الحمام فاعتدى الجنود الانجليز على
 بعض الاهالى فدافعوا عن أنفسهم وفر أحد الانجليز فى الحر فأصيب بضربة الشمس
 فمات وعند ذلك قامت قيامة اللورد كرومر فأمر بأهل القرية فحجروا محكمة صارت
 مثلاً مضروباً فى الظلم وشنق عدة أشخاص من أهل القرية وجلد آخرون وسجن
 كثيرين . وشاعت فظاعة هذه الحادثة حتى فى انجلترا فاضطرت الحكومة
 الانجليزية أن تصرف اللورد كرومر عن مصر بسببها ولذلك غاب عليه الحق فتكلم
 بما تكلم به فى حفلة توديعه وخالف الادب بما فعله وتركها على نفسه سبة باقية زادها
 شعر شوقي تخليداً

لا تذكر الكبراج فى أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيو لا
 أى انه ان كان اسماعيل قد استعمل المقرعة فى أيامه فانت أيها اللورد جعلت لهذه
 المقرعة ذيو لا وجلدت أكثر مما جلد اسماعيل ومن الجملة ما جلدت فى دنشواى
 كم منة موهومة أتبعتمنا مناً على الفطن الخبير ثقيلا
 فى كل تقرير تقول خلقتكم هلا ترى تقريرك التنزيلا
 أى كلما قدم اللورد كرومر تقريراً سنوياً عن مصر والسودان ادعى لنفسه من
 الإصلاحات ما ادعى ونزل ذلك منزلة الحقائق التى لا شك فيها ومن بها على مصر مناً
 ثقيلا كما قال بعضهم :

رأيتك تكوينى بميسم منة كأنا كنت الأصل فى يوم تكوينى
 ثم ذكر كيف أضع اللورد كرومر الجيش المصرى وضعه قوته عمداً وقلم أظفاره
 خبثاً ولؤماً وحرم ضباطه الترقى عن درجات معلومة فصاروا يعيشون بلا أمل ويخدمون
 بلا مكافأة مع أن انجلترا انما فتحت السودان بدم هذا الجيش المصرى لا بغيره . وقد

صاغ شوقي هذا الموضوع بالأبيات الآتية:

أم هل يمدّ لك الاضاءة منة جيش كجيش الهند بات ذليلا
انظر الى فتياه ماشأهم أو ليس شأنًا في الجيوش ضئيلا
حرمهم أن يبلغوا رتب العلا ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد ما زفوا لادوارد العلي فتحاً عريضاً في البلاد طويلا

ثم يذكر شوقي أصناف الناس الذين يحق لهم أن يأسفوا على انفصال كرومر عن ولاية أمر مصر مثل الإنجليز الذين ملكهم كرومر زمام هذا القطر ومثل أعضاء الكلوب أو النسادى فى القاهرة ومثل القسيسين المبشرين ومثل الصرافين بلندن ومثل جريدة التايمس والجراند الاستعمارية ومثل شركة قناة السويس فقال :

لو كنت من حمرا الثياب عبدتكم من دون عيسى محسناً ومنيلا
حمر الثياب كناية عن العسكر الانجليزى المحتل لمصر
أو كنت بعض الانجليز قبلتكم ملكا أقطع كفه تقبيل
أو كنت عضواً فى الكلوب ملائته أسفاً لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشراً رتل آية مدحك ترتيلا
أو كنت صرافاً بلندن دائناً أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت (تيمسكم) ملائ صحائف مدحاً يردد فى الورى موصولا
أو كنت فى مصر نزيلا جاهدا سبحت باسمك بكرة وأصيلا

يشير بالبيت الأخير الى النزلاء الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ولا تقدر الحكومة المصرية أن تواجه منهم أحدا الا عن طريق قنصله . وهذه الامتيازات كان اللورد كرومر من أشد المحافظين عليها رغبة فى تقييد مصر وكسر شوكتها

أو كنت سريوناً حلفت بأنكم أنتم جبوتم بالقناة الجيلا
سريون هذا مدير شركة قناة السويس

عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم لا يبغسون المحسنين فتبلا
أى أن الفرنج لا يبغسون المحسنين حقهم وهل من رجل أحسن اليهم بقدر
إحسانك في مصر؟ وذلك على ظهر أهلها

فأرحل بحفظ الله جل صنيمة مستغنياً إن شئت أو ممزولا
وأحمل بساقتك ربطة في لندن وأخلف هناك غراى أو كيبلا
أو شاطر الملك العظيم بلاده وسس الممالك عرضها والطولا

كان اللورد كرومر قد حمل على الاستعفاء من بعد حادثة دنشواى ولكنه هو
وأصحابه حاولوا اقناع الناس بأنه استعفى بمجرد إرادته واختياره . فشوقي يقول له : على
كل حال قد ذهبت عنا مستغنياً أو ممزولا فأرحل بحفظ الله وقوله (بحفظ الله)
أسلوب من أساليب الكلام التى يقصد بها غير ظاهرها كما يقول الانسان : (اذهب
مع السلامة) لمن يريد أن يتخلص منه . ثم يقول له : كن ما شئت بعد أن تخلصت
مصر منك فليعطوك وسام ربطة الساق ولتخلف هناك الوزير غراى أو الوزير كمبيل
ولتشاطر ادوارد فى ملكه . هذا كله لا يهمنا على شرط أن ترحل عا . ثم يقول :

انا تمنينا على الله المنى والله كان نبيلين كفيلا
من سب دين محمد فمحمد متمكن عند الآله رسولا

يقول لكرومر : قد تمنينا على الله أن يقامك فانقلعت . وهذا كل ما نريد . وان
من سب دين محمد فمحمد عليه السلام له جاء عظيم عند الله فالله ينتقم له . وهذا إيماء
الى ما جاء فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ من أن دين الاسلام دين لا يصلح
لهذا العصر . فقد بلغ من جبروت هذا العميد الانجليزى وغطرسته وعداوته للاسلام
أن قذف بدين أهالى مصر التى كان بلى أمرها وبدين أتباعه وهم خمس العائلة البشرية
وذلك فى تقرير رسمى يقدمه لحكومته وينتشر فى الارض ، فلا جرم أن مصر قد صبرت
على الأذى فى دنياها ودينها الى أقصى مراحل الصبر ، ولقد تأذن الله بفك قيودها الثقيلة
فى هذه السنة بفضل نزاع انكثرة مع ايطاليا (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

ولا نظن أديباً أو شادياً شيئاً من الأدب في مصر وجوارها غير حافظ القصيدة شوقي هذه وحافظ له جميلها فهي لسان المصري الموقر المتأجج صدره وغرا المنتقم لوطنه ودينه وشرفه وملكه وماله الذي ينطق عن قلب ملآن وكبد قد قرحتها الأحزان ويتكلم بلسان من دونه السنان .

قصيدة شوقي في الثورة السورية

ولما دمر الفرنسي دمشق في أبان الثورة السورية - وفي أيام العداوة بين السوريين والفرنسيين - أقيمت في القاهرة حفلة استنكار لذلك العمل وتليت فيه الخطب والقصائد فقال شوقي القصيدة الآتية وتسابت الصحف الى نشرها ، فاشترت جريدة السياسة امتياز السبق الى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً وضم هذا المال الى اعانة منكموبى الثورة السورية :

سلام من صبا بردى أرقّ ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة البراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق
وذكري عن خواطرها لقلبي اليك تلفت أبداً وخفق
وبى مما رمتك به الليالى جراحات لها في القلب عمق
دخلتك والأصيل له ائتلاق ووجهك ضاحك القسماط طلق
وتحت جنانك الأنهار تجري وملء ربك أوراق وورق
وحولى فتية غر صباح لهم في الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء أسنّ وفي أعطافهم خطباء شفق
رواة قصائدى فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق

يقول انه كان حوله يوم دخل دمشق فتية غر الافعال صباح الوجوه هم بلهواتهم كناية عن أفواههم - شعراء لسن جمع السن وهو الفصيح وفي أعطافهم - كناية عن موافقهم - خطباء شفق جمع أشفق وهو المفوه البليغ . ومع هذا فإنهم رواة شعري الذي بكل محلة من الدنيا له رواة . قلت : لم يبالغ شوقي في هذا ولكن لم يرو عنه الرواة من الشعر كما رووا من هذه القصيدة . ثم قال :

غمزت إباءهم حتى تلفت أنوف الأسد واضطرم المدق
وضج من الشكيمة كل حر أبي من أمية فيه عتق
لحاهم الله أنباء توات على سمع الولي بما يشق
يفصلها الى الدنيا بريد ويحملها الى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت وقيل أصابها تلف وحرقت

يقول انه كانت تأتي أخبار هذه القارعة النازلة بدمشق الصاكة للاسماع محملة
بالبرقيات مفصلة بالكتابات يكاد الناس يحسبونها من الخرافات الخييلة . والحقيقة أنها
وقائع وقعت فعلاً وقيل انه دمر ذلك اليوم أبنية تاريخية وبيوت مزدانة بأفخر الصنعة
العربية. ثم قال :

ألت دمشق للإسلام ظئراً ومرضة الأبوة لا تُعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل ولم يومم بأزين منه فرق
وكل حضارة في الأرض طالت لها من سرحك العلوى عرق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يُشق
له بالشام أعلام وعرس بشائره بأندلس تدق

بعد أن ذكر صلاح الدين دفين دمشق ذكر الدولة الكبرى ويريد بالدولة الكبرى
دولة بنى أمية لأنه لم تتسع فتوحات الاسلام في دور كما اتسعت في زمانهم لاسيا خلافة
عبد الملك بن مروان . ويشير بقوله (غبار حضارتيه الخ) الى الحضارة الأموية في
دمشق والحضارة الأموية في قرطبة فان الثانية هذه لها عروق من الاولى ثم قال :

رباع الخلد ويحك مادهاها أحق إنها درست أحق ؟
وهل غرف الجنان منضدات وهل لنعيمهن كأمس نسق ؟
وأين دحى المقاصر من حجال مهتكة وأستار تشق
برزن وفي نواحي الايك نار وخاف الايك أفراخ تزق
أذارمن السلامة من طريق أتت من دونه للعوت طرق

بليل للقذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد احمر أفق على جنباته واسود افق
إذا قرأ القارئ هذه الابيات تصور الحالة كأنه يراها بعينه ، عقائل مقصورات
في الحبال برزن الى الطرق للنجاة والنار تعمل في البيوت وتأخذ على المارين
والماربات أفواء الطرق ، وعلى أيدي أولئك العقائل أطفال كالأفراخ التي ترقها أمهاتها
بمناقيرها ، وقد ضاقت على الناس الارض بما رحبت فكيف سلكوا فهي النار
النازلة عليهم في جوف الظلام تخطف الأرواح وتصعق الأجسام طول الليل — لأن
ضرب دمشق بالمدافع استمر ٥٦ ساعة — كلما نزلت كرة من كرات الديناميت
احمر جانب من الافق بلون اللهب واسود الجانب الآخر بلون الدخان . ويستحيل
على أي شاعر أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة في وصف القذائف الحربية ولا س
تحت الظلام . ثم قال :

سلي من راع غيبك بعد وهن أبين فؤاده والصخر فرق؟
والمستعمرين وإن ألانوا قلوب كاللحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمي فرنسا أخو حرب به صلف وحمق
إذا ما جاءه طلاب حق يقول: عصاة خرجوا وشقوا

يقول: هل من أدخل على نساء دمشق هذا الهول كله يقال إن بين قلبه والصخر
فرقاً؟ لا لعمري إن قلبه كالصخر قسوة وهذه حال الدول الاستعمارية بأسرها فإن
رجالها وإن ألانوا القول فليتهم رياء وفعلهم بعكس قولهم وقلوبهم كاللحجارة أو أشد
قسوة . وقد رماك يدمشق ورمي فرنسا نفس وطنه بسبب رميك قائد متكبر أحمق
يعنى به الجنرال سراي . وقد كان الناس إذا جاءوه يرجونه السكف عن ضرب
دمشق أجابهم أنه إنما يضرب عصاة شقوا عصا الطاعة

ويشير بقوله (رمي فرنسا) الى أن هذا الفعل قد بق سبة وعارا في التاريخ على
فرنسا بسبب هذا القائد ولم يقدر أن يدافع عنه أحد .

قلت : وقد نشرت أنا في ذلك رسالة بالفرنسية وطبعتها في جنيف ووزعتها في

الآفاق واستحسنها الناس وجاءني من المستر ما كدونا لد نفسه استنكار لتدمير دمشق
وقد كان ذلك بعد رئاسته الاولى لنظار انجلترا . ولكن ما كدونا لد هذا لم يكن باقل
ظلماً في عمله لتهود فلسطين التي فجيعتها لا تقاس بها فجيعته ثم قال :

دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم أنه نور وحق
جری فی أرضها فيه حياة كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات رقيتها لتحيي وزالوا دون قومهم ليقوا
وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق ؟

يريد أن فرنسا لها ضراوة بدم الثوار وهي تعلم ما أوجدته الثورة فيها من
حقوق كانت ضائعة وأنوار علم كانت خافية وإن الثورة كانت حياة لفرنسا وقدمات
فيها البعض ليحيي الكل . ومن عادة الشعوب أن تنال حريتها برؤوس الحراب
فكيف يعقل أن سورية تزداد رقاً على رق برؤوس الحراب بعد أن سفك السوريون
دماءهم لأجل الحرية ؟ ثم قال :

بنی سورية اطرحوا الأمانی وألقوا عنكم الأحلام القوا
فمن خدع السياسة أن تغروا باللقاب الامارة وهي رق
وكم صيد بدا لك من ذليل كما مالت من المصلوب عنق
فتوق الملك تحدث ثم تمضي ولا يمضي للتحالفين فتق

يخاطب أبناء سورية قائلاً : ذروا الأمانی وانبدوا الاحلام السكواذب ولا تغتروا
بلقب (الدولة السورية) ولا (لبنان الكبير) ولا (دولة جبل الدروز) ولا (حكومة
العلويين) وما أشبه ذلك من ألقاب مملكة في غير موضعها فإن كل هذه الحكومات اسماء
ما أنزل الله بها من سلطان وكلها مستعبدة لفرنسا . وقد تجدون من عليه لقب أمير أو
وزير وهو جالس على كرسيه وانما هو مائل العنق ينظر الى نقطة واحدة يخاله الناس
أميراً أصيد من شدة كبره . وليس ذلك بعبرة بل المصلوب أو المشنوق يميل بعنقه وهو
ميت . وقد أنت شوقي العنق هنا وليس ذلك بخطأ وإن كان التذكير أقوى . ثم قال
ان فتوق الملك تحدث في كل مكان ولكنها قابلة للارتق إلا اذا انصدعت الوحدة

وتفرقت كلمة الشعب فذلك فتق لا رتق له وشق لا يحاص فايا كم وان تصدعوا
وحدثكم بالخلاف فيما بينكم . ولو عاش شوقي الى اليوم لقرت عيونه بما رآه من وحدة
كلمة السوريين التي حملت فرنسا على الاعتراف باستقلالهم في الوقت الذي كانت
فيه انكلترا تعترف باستقلال مصر فتحرر القطران الشقيقان في وقت واحد
نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلادٌ بيان غير مختلف ونطق
يقول : ايسر مصر والشام بدار واحدة ولكن مصر والشام كلتاها من الشرق
فبينهما جامعة شرقية ولسان كل من القطرين هو اللسان العربي وأية رحم شائكة
أكثر من هذا ؟

وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتهم نعيم الدهر فاشقوا
والأوطان في دم كل حرٍّ يد سلفت ودينٌ مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا اذا الاحرار لم يسقوا ويسقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لأجيال حياة وفي الأسرى فدا لهمو وعق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مزرعة يدق

ينثر شوقي بهذا النظم نصائح الغالية لأهل سورية مبنية على التجربة والتاريخ
والمبادئ السرمدية، فيقول للسوريين : وقفتم الآن بين الموت والحياة فان رمتهم الراحة
الكبرى فاتعبوا وان نشدتم النعيم المقيم فاختاروا لأنفسكم الشقاء مدة من الزمن
لأنه لا يدرج النعيم الا من أوكار العذاب . وان دماء الأحرار المسفوكة في سبيل الأوطان
ديون مستحقة لا بد للدهر من أن يتوفر على ايفائها ومن لعمري يسقى ويشرب بكؤوس
المنايا نهلاً وعلاً اذا كان أحرار البلاد لا يشربون بتلك الكؤوس ولا يسقون بها
وهو معنى فيه شيء من قول الشاعر

سقيناهم كؤوساً سقونا بمنالها ولكنهم كانوا على الموت أصبراً
وقال انه لا شيء يقوم عليه أساس الممالك مثل الضحايا ولا ما يحق الحقوق غيرها

فشكل أمة بذلت في سبيل حريتها دماء فان تلك دماء تنال لها حقوقها في الحرية ولا يقدر أن يكابر فيها مكابر، وبالجملة فلا تحيا الأمم إلا بقتل بعض رجالها ولا يعيشون طلقاء الا بأسر البعض الآخر . وما قرع باب الحرية الجراء الا الايدى الملطخة بالدم . وقد وصف الحرية (بالجرائم) كناية عن كونها لا تنال الا بالدم المسفوك ويجوز أن يقال في معنى « الجرائم » انها « الشديدة » وذلك ان العرب وصفوا الشدة دائما بالحرة ثم قال :

جزاكم ذو الجلال بنى دمشق وعز الشرق أوله دمشق
نصرتكم يوم محنته أباكم وكل أخ بنصر أخيه حق
يدعو لأهل دمشق أن يؤيدهم الله ويذكر أن دمشق في الحقيقة كانت أول مركز عز وسيادة للشرق فان الدولة الاسلامية الأولى وهى دولة بنى أمية انما اتخذت دمشق لها عاصمة . ثم يقول لأهل دمشق : مرحى لكم انتم الذين نصرتكم اخوانكم الدروز يوم زحف اليهم الفرنسيين فلم تذورهم منفردين وشغلتم الفرنسيين من وراء بثورة الغوطة . ولا عجب في ذلك فانكم انما نصرتكم اخوانكم وكل أخ حق بنصر أخيه . وقوله حق : هو بمعنى حقيق أو جدير . ثم يقول :

وما كان الدروز قبيل شر وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف موارد في السحاب الجون بلق
اسكل لبوءة ولسكل شبل نضال دون غابته ورشق
كأن من السموءل فيه شيئا فكل جهاته شرف وخلق

قال : وان اخوانكم الدروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شر وانهم لم يستحقوا النكال الذى أراد الفرنسيين أن ينزلوه بهم . فالدروز في الحقيقة قوم كرام يعزون الضيف ويمتنعون حماهم بالسيف وهم يجمعون بين الرقة والخشونة ، ففي حال السلم وعدم الاعتداء عليهم تراهم أرق الناس خلقا وأكثرتهم أدبا وأخفضهم جناحا فاذا اعتدى عليهم معتد انقلب كل منهم ايثنا عاديا ، بعد ان كان حملا وديعا ، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من (م - ١٧ شوقي)

الصخر في الجمع بين الرقة والجود . ولهم جبل أشم له رؤوس كأنها موارد للسحاب وهذه الرؤوس تجمع بين البياض من صخورها والسواد من السحب التي تتراكم عليها فلذلك هي باق . وإذا اعتدى معتد على الدروز وجدت كل امرأة منهم أسدة تناضل عن قومها وكل شاب أسداً يراشق عن قومه وكأنما هو السموأل في وفائه وشرف نفسه وحماية أنفه مع سعة حلمه ورقة طبعه فهو من كل الجهات شرف وحسن خلق . قال شوقي في الدروز هذه الأبيات وأحسن ما فيها أنه قال قولاً لم ينكره أحد عليه لأن الإجماع واقم على انصاف بنى معروف بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم : إما من التاريخ وإما في أثناء قدماته إلى الشام وإما من الاثنين معا .

ومما أذكره عن هذه الأبيات اني لما قفلت من الحج الشريف ووقفت ألياً في السويس وجاء احمد شوقي رحمه الله يسلم عليّ في تلك البلدة، فيمن جاءوا من مصر للسلام عليّ ، كان لابد من أن نتذكر الشعر فجرتنا القافية إلى قصيدته الدمشقية هذه لأن العالم العربي كله قام لها وقعد وهلل بها وكبر، فلما وصلنا إلى الأبيات المختصة بالدروز قلت له : عند ما بدأت بقولك : (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت أن يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارته ورشق) فقال لي : (وهي إيه) . قلت له : (هي نضال دون غابته ورشق) والغابة هي والمغارة كلتاها مأوى للأسد ولكن الغابة أخف وقماً على السمع وأقرب إلى الانس .

هذا وقيل إن هذه القصيدة التي لم يقل فيها شوقي شيئاً سوى الحق كانت سبباً في غضب الفرنسيين على شوقي وفي حرمانه زيارة المغرب . سمعت أنه استأذن الحكومة الفرنسية في هذه الزيارة فأبت عليه الاذن بها معللة عليه بقصيدته هذه . وقد حرمت عالم الأدب بمنعها شوقي من زيارة المغرب بدائع آثاره ويتألم أشعار كانت تسير في الاقطار فلو رأى شوقي ذلك القطر العظيم بما فيه من آثار المدنية العربية البالغة حد التناهي في الفخامة ودقة الصنعة وسلامة الذوق والتي هي نسج واحد مع جماء غرناطة ومسجد قرطبة وقصر اشبيلية وشاهد من بقايا حضارة الاسلام ما حدا الكتابين الافرنسيين الكبيرين جيروم وجان تارو أن يقولوا : ان الذي لم يشاهد مقبرة الملوك

السعديين في حاضرة مرا كش لم يعلم الى أية درجة تناهت المدنية الاسلامية في العالم وكانت ولا شك قد استفزته تلك المناظر وهاتيك المساكن المتناسبة مع أهلها المأهولة بذلك الشعب المغربي الكريم وتلك الامة الموصوفة بالعزة والمنعة من القديم ما أنطقه بقواف سائرات في الأقطار وفاخرات باللالى الكبار لاسيما وهو شاعر الاسلام غير مدافع وصناجة العرب غير منازع في هذا العصر

قصيدة سوقي في السلطان حسين

ولشوقي قصيدة في السلطان حسين كامل يذكر فيها مفاخر عائلة محمد علي فيقول :

الملك فيكم آل اسماعيل لا زال بيتكم يُظلل النيسلا
لطف القضاء فلم يعل لوليكم ركننا ولم يشف الحسود غاملا
هذي أصولكم وتلك فروعكم جاء الصميم من الصميم بديلا
الى أن يقول :

أخوت اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيل
ولبست نعمته ونعمة بيتيه فلبست جزلا وارتديت جميلا
ووجدت آباءى على صدق الهوى وكفى بآباء الرجال دليلا
رؤيا على يا حسين تأولت ما أصدق الأحلام والتأويلا
القوم حين دهى القضاء عقولهم كسروا لأيديهم بعصر غلولا
هدموا بوادى النيل ركن سيادة لهم كركن العنكبوت ضئيلا

يقول : ان حلم محمد علي بجعل مصر مملكة مستقلة تمام الاستقلال عن السلطنة العثمانية قد تحقق هذه المرة فالأتراك حينما دخلوا في الحرب العامة ساقوا انجلترا الى اعلان فصل سيادتهم عن مصر فكأنهم هم بأيديهم قطعوا روابطهم مع وادى النيل ثم يقول :

يا اكرم الأعمام حسبك أن ترى للعبرتين بوجنتيك مسيلا
من عثرة ابن أخيك تبكى رحمة ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعت إقالة لعناره من صدمة الأقدار كنت مقيلا

يا أهل مصر كلوا الأمور لرؤيتكم فالله خير موثلاً ووكيلاً
جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التحويلاً
أخذت عناثاً منه غير عناثها سبحانه متصرفاً ومديلاً
هل كان ذاك العهد إلا موقفاً للسلطين وللبلاد وبيلاً
يقول للسلطان حسين انك أكرم الأعمام وحسبنا أننا نراك تبكي رحمة على عثرة
ابن أخيك الخديوي عباس كما انك تبكي من خوف الخضوع لمن أجلسوك على العرش
ولعمري لو استطعت أن تعيد ابن أخيك الى سريرته لفعلت ولآثرته على نفسك . ثم
يقول لأهل مصر : دعوا التدبير لله فلقد كان العهد الماضي موقفاً لسلطين متناقضتين
ولم يكن في ذلك خير للبلاد . يريد بالسلطين السلطة الشرعية التي كانت للسلطان ووكيله
الخديوي والسلطة الفعلية التي كانت للإنجليز المحتلين .

قصيدة سوقي في أبي الهول

وله في أبي الهول :

أبا الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غير الضجر
عجبت للقاء في حرصه على لبس والنسور الآخر
وشكوى لبس طول الحياة ولولم تطل لتشكي القصر
ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة لحقت بصانعك المقتدر
فإن الحياة ثقل الحديد اذا لبسته وتبلى الحجر
يقول ان بقاءك يا أبا الهول الى اليوم انما هو لأنك لست حياً فلو كنت حياً
للحقت بالذين نحتوك لأن الحياة ملبست كائننا إلا أبلته ولو كان حديداً .

وقال :

أبا الهول ويحك لا يستقل مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزأت دهرأً بديك الصباح فنقر عينيك فيما نقر
أسال البياض وسلّ السواد وأوغل منقاره في الحفر

فعدت كأنك ذو المحبين قطيع القيام سليب البصر
 كأن الرمال على جانبك وبين يديك ذنوب البشر
 كأنك فيها لواء القضاء على الأرض أو ديدبان القدر
 أبا الهول أنت نديم الزمان نجى الاوان سمير العصر
 بسطت ذراعيك من آدم ووليت وجهك شطر الزمر
 تطل على عالم يستهل وتوفى على عالم يحتضر
 فمينا الى من بدا للوجود وأخرى مشيعة من غير
 فحدث فقد يهتدى بالحديث وخبر فقد يؤتسى بالخبر
 ألم تبل فرعون في عزه الى الشمس معتزيا والقمر
 وأبصرت اسكندرا في الملا قشيب العلا في الشباب النضر
 وشاهدت قيصر كيف استبد وكيف أذل بمصر القصر
 وكيف تجبر أعوانه وساقوا الخلائق سوق الحجر
 وكيف ابتلوا بقليل العديد من الفاتحين كريمي النفر
 رمى تاج قيصر رمى الزجاج وقل الجموع وثل السرر
 فدع كل طاغية للزمان فإن الزمان يقيم الصعر

يقول لأبي الهول : لا يحتقر شيء مع الدهر . الا ترى أنك أنت عندما هزأت
 بديك الصباح أى الزمن الذى لا يخلو من ديك يصبح باكرًا جاء هذا الزمن فنقر عينيك
 فعدت كأنك أبو العلاء المعرى . ثم يقول له : إنك من على عنق الدهر باسط ذراعيك
 تنظر الى الناس ، تودع الغابر من الامم وتستقبل القادم ، فحدثنا عما رأيت فإنك
 تاريخ عام .

ثم أخذ شوقي يسرد الوقائع التاريخية التى مرت على مصر وما قيل فى أبي الهول
 شيء من الشعر يدانى هذه القصيدة .

شعر سوقي في الأزهر

ولشوقي قصيدة في الأزهر مطلعها :

قم في فم الدنيا وحى الأزهرها واثّر على سمع الزمان الجوهرها
واخشع ملياً واقض حق أئمة طلّعوا به زهرا وماجوا أبجرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجمع أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناء قصرا
وأنى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نورا والبيان مثررا

يخاطب نفسه قائلا : قم وحى هذا المعهد العالى الأكبر واخشع له واقض حقوق الأئمة الأبحر الذين ماجوا فيه من قديم الزمان ولا تكن كأولئك المفتونين الذين ينكرون كل قديم ولو استطاعوا لأنكروا آباءهم وهم مع شدة رغبتهم في الهدم وكونهم فرساناً في التخريب نجدهم راجلين في البناء . فاذا دعوت الواحد منهم الى صناعة لم يحسنها أو الى علم لم يأت بشيء منه أو الى بيان ما جاء الا بالثرثرة . ثم يقول : انى وان لم أكن ممن تخرجوا في الأزهر فانى لا أقصر دون غايات البيان وان اصلاح الأزهر ليهمنى كمسلم ولذا قمت مهنتا بهذا الاصلاح باسم الحنيفة

ما ضرني أن ليس أفقك مطالع وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذى وكل البيان اليك لم أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الاصلاح قت مهنتا باسم الحنيفة بالزيد مبشرا
نبأ سرى فكسا المنارة حبرة وزها المصلى واستخف المنبرا

يأتى زها لازماً ومتعدياً

وسما بأروقة الهدى فأحلمها فرع الثريا وهى فى أصل الثرى
ومشى الى الحلقات فانفرجت له حلقاً كهالات السماء منورا
حتى ظننا الشافى ومالكا وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

كيف يتغنى بوصف الازهر ولا يذكر المصلى والمنازة والمنبر ولا يشير الى الاروقة
والى حلقات الدروس ولا يذكر أئمة المذاهب الاربعة انه لشاعر لا يؤتى من جهة
فى فنه .

قصيدة شوقي فى الرحالة حسنين

وله من قصيدة عن الرحالة المصرى محمد حسنين بك وصف فيها رحلته الشاقة
فى صحراء ليبيا جاء فيها :

كم فى الحياة من الصحراء من شبه كلتاهما فى مفاجاة الفتى شرع
وداء كل سبيل فيهما قدر لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع
أى حياة الانسان هى كالصحراء فى كل دقيقة يجوز أن يطلع عليه قدر لا يتوقعه
فلست تدري، وإن كنت الحريص متى تهب ريحها أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئةً من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وإن قدرت مجتهداً متى تشد رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى ان الدليل وان أراك متسرع
وما الحياة إذا أظمت وإن خدعت إلا سراب على صحراء يلتمع
ما نحت شاعر من مقاطع التشبيه أبدع من هذه التشبيه التى وجدها شوقي بين
الصحراء والحياة، كل منهما لا يدري السائر فيها متى تهب عواصفها ومتى تسكن ومتى
يطلع فيها السبع ومتى يختفى ومتى يشد السائر الرحل أو متى يضعه، وانه اذا اتبع دليلا
فهو رهن معرفة الدليل لا مناص له من اتباعه وان أداه الى الهلاك، وانه يلوح فى كل
منهما بارق الأمل فاذا به خائب واذا الشراب سراب . ثم يمدح همة الرحالة حسنين
فيقول :

أكبرت من حسنين همة طمحت تروم ما لا يروم الفتية القنع
وما البطولة إلا النفس تدفعها فيما يبلغها حمداً فتندفع
ولا يبالي لها أهل اذا وصلوا طاحوا على جنبات الحمد أم رجعوا

قال ان الدافع الذى يجعل من الانسان بطلا هو أنه يطمح الى ما لا يطمح القانعون
وان نفسه تسمو به الى ما يبلغها المجد ، ذهبت في سبيل المجد أم رجعت سالمة . ثم هو
يسأل حسنين عما رأى في تلك الصحارى وعن أهله الذين لم يزالوا على الفطرة من عهد
آدم والذين اهتدى اليهم الاسلام في فيا فيهم المنقطعة واهتدوا به وأصبحوا مصلين
صائمين فقال :

رحالة الشرق ان البيد قد علمت بانك الليث لم يخلق له الفزع
ماذا لقيت من الدو السحيق ومن قفر يضيق على السارى ويتسع
وهل مررت بأقوام كفطرتهم من عهد آدم لا خبث ولا طبع
ومن عجيب لغير الله ما سجدوا على الفلا ولغير الله ما ركعوا
ما النافية لا يتقدمها شئ مما في حيزها خلافاً للكوفيين ونحو قول الشاعر :
اذا هي قامت حاسراً مشمعة نخيب القواد رأسها ما تقنع
مع شذوذه محتمل للتأويل :

كيف اهتدى لهم الاسلام وانتقلت اليهم الصلوات الخمس والجمع
جزتك مصر ثناء أنت موضعه فلا تدب من حياء حين تستمع
ولو جزتك الصحارى جئتنا ملكا من الملوك عليك الريش والودع
أى ملكا من ملوك أواسط افريقية الذين عنوان الملك عندهم الريش والودع .

قصيدة له في هفلة تكريم

ومما أحب أن أنوه به من شعر شوقي قصيدته في تكريم الاخوان عبد الملك بك
حمزه واسماعيل بك كامل وعوض بك البحر اوى بعد رجوعهم الى مصر من الغربه
التي اغتربوها أثناء الحرب العامة ، فان شعر شوقي فيهم يعبر عن شعور كثيرين وراقم
هذه الاسطر منهم أو في طليعتهم . قال :

وطن يرف هوى الى شبانه كالروض رفته على ريحانه
هم نظم حليته وجوهر عقده والعقد قيمته يتيم جمانه
يرجو الريسم بهم ويأمل دولة من حسنه ومن اعتدال زمانه

من غاب منهم لم يغب عن سمعه وضميره وفؤاده ولسانه
 واذا أناه مبشر بقدمهم فن القميص ومن شذا أردانه
 ولقد يخص النافعين بمطفه كالشيخ خص نجييه بخنانه
 هيهات ينسى بذلهم أرواحهم في حفظ راحته وجلب أمانه
 وقفوا له دون الزمان وريبه ومشت حدائقهم على حدائنه
 في شدة نقات أناة كهولة فيها وحكمهم الى فتيانه
 هذا البيت الاخير معنى مطروق كثيراً ومما أتذكره منه قول الشيخ ناصيف
 اليازجي شاعر سورية في وقته في الارسلانيين :

فتيانهم في العقل مثل شيوخهم وشيوخهم في البأس كالفتيان
 ثم قال :

قم يا خطيب الجمع هات من الحلى ما كنت تنثره على آذانه
 ناد الشباب فلم يزل لك نادياً والمرء ذو أثر على أخذانه
 ألقى النصيحة غير هائب وقعها ليس الشجاع الرأي مثل جبانه
 قل للشباب زمانكم متحرك هل تأخذون القسط من دورانه ؟
 وقد صادف الاحتفال بتكريم هؤلاء المجاهدين الثلاثة أيام الأزمة المالية في مصر
 وسقوط أسعار القطن فقال شوقي :

يا من لشعب رزؤه في ماله أنساه ذكر مصابه بكيانه
 الملك كان ولم يكن قطن فلم يغاب أبوتنا على عمرانه
 الفاطمية شيدت من عزه وبني بنو أيوب من سلطانه
 بالقطن لم يرفع قواعد ملكه فرعون والهرمان من بنيانه
 لكن بأول زارع نفض الثرى بذكائه وأثاره بينانه
 وبكل محسن صنعة في دهره تتمجب الاجيال من اتقانه
 وبهمة في كل نفس حلفت في الجوار ارتفعت على كيوانه
 ملك من الأخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

ما قاله يوم أطلوا أهد الشبان المفتونين الرصاص على سمير زغلول

وقال في الزعيم الا كبر سعد باشا زغلول عندما أطلق عليه الرصاص أحد الشبان
فأنجى الله سعدا ووقى مصر شرا مستطيرا

نجا وتمائل ربانها	ودق البشار ركبانها
وهلل في الجو قيدومها	وكبر في الماء سكانها
تحول عنها الأذى واتشى	عباب الخطوب وظوفانها
نجا نوحها من يد المعتدى	وضل المقاتل عدوانها
فيا سعد جرحك ساء الرجال	فلا جرحت فيك أوطانها
وقتاك العناية بالراحتين	وطوق جيدك احسانها
رماك على غرة يافع	مثار السريرة غضبانها
وقدماً أحاطت بأهل الأمور	ميول النفوس وأضعفانها
تلمس نفسك بين الصفوف	ومن دون نفسك ايمانها
يريد الامور كما شاءها	وتأبى الأمور وسلطانها
وعند الذى قهر القيصرين	مصير الامور وأحيانها
أرى مصر يلهو بجد السلاح	ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال انعقول	يجيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلاد	ولا همه القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضى دولة	وتقبل أخرى وأعوانها
ولسكن على الجيش تقوى البلاد	وبالعلم تشتد أركانها

وهذا ما قلناه دائماً وما قد انتهت اليه مصر بهذه المعاهدة الأخيرة مع الانكليز

فليكن لمصر الجيش المهيب فكل شيء يتسق بعد ذلك

فأين النبوغ وأين العلوم وأين الفنون واتقانها ؟

وأين من الخلق حظ البلاد اذا قتل الشيب شبانها ؟

وفى هذه القصيدة كلام عن ضرورة السودان لمصر يجدر أن نأثره ويجب على كل

مصرى أن يحفظه عن ظهر قلبه. ولقد أراد الله بفضل خصام انكاثرة مع ايطالية في هذه السنة أن يعود المصريون الى السودان فليدشر شوقى في قبره

وياسعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها

ولن نرتضى أن تقد القناة ويستر من مصر سودانها

أى لن نرضى أن تفصل قناة السويس عن مصر ولا أن يتر عنها السودان

وحجبتنا فيهما كالصباح وليس بمعييك تبيانها

فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلصانها

وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها

تتم مصرنا ينابيعه كما تتم العين انسانها

وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها

وأما الشريك فعلاقته هي الشركات وأقطانها

يزيد بالشريك انجاثرة وانها تريد فصل السودان عن مصر لمشروعاتها الزراعية. وأنا أقول

ليس للقطن فقط يقصد الانجليز الاستيلاء على السودان ، ولكن ليجمعوا لجام مصر

دائماً في قبضة أيديهم فان مصر هي النيل واذا كان النيل بيد الانجليز فكيف تخرج

عن إرادتهم مصر . ثم قال :

وحرب مضت نحن أوزارها وخيل خلت نحن فرسانها

أى باشروا حرباً كنا نحن أسلحتنا على خيل كنا نحن فرسانها ولكن ليكون

الملك لهم

وكم من أناك بمجموعة من الباطل الحق عنوانها

فأين من (المنش) بحر الغزال وفيض (نيازا) وتهتانها

وأين التماسيح من لجة يموت من البرد حيتانها

ولكن رؤوس لأموالهم يحرك قرنيه شيطانها

ودعوى القوى كدعوى السباع من النار والظفر برهانها

أى ابن بلاد الانجليز من السودان وما الصلة بين المانش وبحر الغزال والحال
هى كقول القائل :

سهم أصاب وراميه بذى سلم من فى العراق لقد أبعدت مرمك
ولكن دعوى القوى على الضعيف كدعوى الضواري المفترسة ، براهينها من
النيوب وأدلتها من الاظفار لا ترجع الى قوة المنطق بل الى شهوة الافتراس والjšع
فى الأكل

قصيدة سونى عن السلطنة البلقانية وهواسى تاريخية المصنف

ومن كلمات شوقى التى تقصر عن وصفها السكلم وشوارده التى يسهر الخلق جراها
ويختصم، قصيدته فى الحرب البلقانية. وهى التى يسميها بالأندلس الجديدة فقد نظمها وفى
قلوب المسادين نار الله الموقدة مما جرى على الاسلام فى حرب البلقان فطاشت لذلك
العقول وطارت الافئدة . وكان نصيب شاعر الاسلام من تلك الفادحة بقدر رقة
شعوره ورهافة حسه وسهمه من الالتئاع على ما حل بمسلمى البلقان على نسبة شفوف
طبعه ونفاسة نفسه، فقال وأرسلها للقرون والاجيال وناطها بالأيام والليال :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحيط البدر وهو تمام

يودع بلاد الروملى ويقول : أصابك ما أصاب أختك الأندلس من قبل ونزل
الهلال فيك عن سماءه يريد الهلال الراية العثمانية التى نزلت فى تلك البلاد عن عليائها
بحكم قدر بنقص البدر بتمامه، كأنه يقول : اذا تم شىء بدا نقصه ، وكأنه يشير الى
قول القائل :

وان البدر أوله صلال وآخره يعود الى الهلال
ثم يقول :

جرحان تمضى الأمتان عليهما هذا يسيل وذاك لا يلتام

بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطلو مآتمها وهذا مآتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرون قليلة وتصرفت دول الفتوح كأنها أحلام
والدهر لا يألو الممالك منذراً فاذا غفلن فما عليه ملام

يقول: ان جرح الأندلس لنا يلتئم ولا يزال في قلوب العرب منه نزيز وإذا بجرح
البلقان بدأ يسيل وقد أدى قلوب الترك وان كلا من الأمتين لمنكوبة بكل من هاتين
الكائنتين اللتين دفن القلم والسيوف فيهما . وهذه المئات الأربع من السنين التي مضت
بين مآتم الأندلس ومآتم البلقان كانت فيها الأيام تجري تارة فيما نحب وطوراً فيما نكره
يشير بقوله فيما نحب الى فتوحات آل عثمان في بلاد البلقان حتى انتهوا الى المجر وبولونيا
وحصروا فينا ولولا قليل لفتحوها . وفي قوله فيما نكره الى الجزر الذي عقب ذلك المد
والمصائب التي نزلت بالاسلام في السنين الأخيرة حتى انقضت أيام تلك الفتوحات
كأنها لم تكن . وقد كانت هذه المئات تقرع المسلمين حتى يتنبهوا لشئونهم وينهضوا
كما نهض غيرهم فلبثوا يغطون في نومهم وتركوا الجبل على الغارب فليس على الدهر ملام
إذا كانوا هم لبثوا غافلين عن شأنهم . ثم يقول:

مقدونيا والمسلمون عشيرة كيف الخؤولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا وكان بعزهم وعلوهم يتخايل الاسلام
إذ أنت ناب الليث كل كتيبة طلعت عليك فريسة وطعام
ما زالت الايام حتى بدلت وتغير الساقى وحال الجام
أرايت كيف أدبل من أسد المرى وشهدت كيف أبيضت الآجام
زعموك همًا للخلافة ناصباً وهل الممالك راحة ومنام ؟
ويقول قوم كنت أشأم مورد وأراك سائغةً عليك زحام
ويراك داء الملك ناسُ جهالة بالملك منهم علة وسقام
لو آثروا الاصلاح كنت لعرشهم ركنًا على هام النجوم يقام

وهم يقيد بعضهم بعضاً به وقيود هذا العالم الأوهام
صور العمى شتى وأقبحها اذا نظرت بغير عيونهن الهام
ولقد يقام من السيوف وليس من عثرات أخلاق الشعوب قيام

يقول : أى مقدونية — مقدونية هى قسم مما يسميه الأتراك بالرومللى والرومللى عبارة عن القسم الأماي من شبه جزيرة البلقان كان يحتوى على ست ولايات عثمانية هى أدرنة وسلايك وماستر وقوصوه واشقودره ويانيا والولايات الثلاث الاخيرة هى بلاد الأرناؤط — يسأل عنك المسلمون لأنهم مهما تنوعت أجناسهم فهم عشيرة واحدة فاذا سألو عنك فأنما يسألون عن أخوالهم وأعمامهم أترينهم ذلوا بعد ذلك العز ؟ وبعد أن كانت كل كتيبة تطلع عليهم تعود فريسة لهم ؟ نعم قد تحولت الأيام وسقيت بغير الكأس التى كنت تشربين بها ، وأدبل من الآساد واستباح الاعداء آجائها القديمة ، وزعم بعض الناس ان وجودك يا مقدونية كان على الخلافة مشعوما وأنه كان هماً ناصباً وهل الممالك تكون للراحة وتدار بدون تعب ؟ واذا كنت مورداً وبياً فلهذا تتراحم عليك الدول ؟ ان الذين يرون هذا الرأى انما هم قوم جهالة كانوا علة فى جسم هذه السلطنة العثمانية وبدلاً من أن يدلوا بهذه الأقوال الدنيئة كان عليهم أن يصلحوا الادارة فى الرومللى فكانت تكون لهم ركناً عالياً وحصناً حصيناً . ولكن هؤلاء الضالين يبدشون هذه الاوهام فى الناس فيأخذها بعض الناس عن بعض ويلو كونها بألسنتهم بدون تدبر ، وللعنى صور شتى وانها قد تعمى الأَبصار ولكن تعمى أكثر منها القلوب التى فى الصدور ، وانه قد ينهض الشعب من بعد الهزيمة وقد تعود بقية السيف الى النمو ولكن المصيبة التى لانهوض منها ولا اقالة لها هى عثرة الاخلاق والمخطاط المهم

قلت : حالف المنطق أقوال شوقي فى جميع مصادره وموارده ولولا ذلك لم يكن شاعر هذا العصر بالانفاق ، فبلاد البلقان كانت الحصن الحصين للدولة العثمانية ، وكانت تستورد منها خزانة السلطنة أعظم دخلها لا سيما القسم الذى ذهب على أثر الحرب الروسية العثمانية وهو ولايات الطونة وهى اليوم بلاد البلقار وقسم من رومانيا . وكان

وجود الروملى فى يد الدولة واقياً للاناؤول نفسه أى كانت أوروبة العثمانية مجناً لآسية العثمانية . وما كان على أولئك المعترضين بدلا من اعتراضاتهم وتهوينهم أمر ذهاب الروملى الا أن يهبوا لاصلاح ادارتها وينشدوا وسائل استبقائها لانه شرط ضرورى لحماية السلطنة وجعل عاصمتها اسطنبول التى هى مركز لا نظير له فى العالم وسطاً فى المملكة لا طرفا لها . أفلا ترى أنها بعد أن ذهبت الروملى صارت من ثغور المملكة ولم يبق بينها وبين العدو إلا مسافة ساعات معدودات . فتذكر الانسان فى أمرها قول الشاعر وهو بيت قديم :

كانت هى الوسط الحمى فانتقصت منها الحوادث حتى أصبحت طرفا
فالاستانة التى كانت وسطاً محمياً قبل ذهاب الولايات البلقانية من يد الدولة
أصبحت طرفاً يكاد يكون عورة لقرب العدو منها وسهولة غارته عليها ، وقد شاهدنا ذلك
بأعيننا أيام الحرب البلقانية وكنت أنا نفسى فى الاستانة فكنا نسمع فيها أصوات
المدافع من شطلجة حيث كان الجيش البلقانى يحاول دخول الاستانة . ولأيا فى ذلك
اليوم قدر الاتراك أن يدحروا البلغار الى وراء . وهى الواقعة الوحيدة التى وفقوا فيها
من حرب البلقان . ولولاها لاستولى البلقانيون على عاصمة آل عثمان . فقول من قال ان
الروملى كانت للدولة همّاً ناصباً هو ضلال مبين ورأى من لا يريد التعب ولا يحسن
ادارة الممالك

وفى هذه المسألة أرانى وشوقى متوارد بن على رأى واحد وليست هذه بالمرّة
الوحيدة التى أجدنى فيها وإياه على وفاق كأن قلبينا قلب واحد وكأننا نفكر عن خليفة
دماغ واحدة ، فانه لما استردت الدولة أدرنة مستفيدة من اختلاف البلغار مع حلفائهم
الصرب واليونان دعت الدولة وفداً عربياً الى الاستانة لبعض مذاكرات تتعلق بالعرب
وكنت أنا من أعضاء ذلك الوفد الثمانية فدعوتنا الدولة لزيارة أدرنة وتهنئة أهلها على
رجوعهم الى حضن الدولة . فلما وصلنا الى تلك البلدة أقاموا لنا حفلة عظيمة كان فيها
أعيان البلدة وضباط الجيش العثمانى فأنشدت فى ذلك الحفل قصيدة ميمية أتذكر منها
الآيات التالية :

قصيدة المؤلف في استرداد أدرنة

فدى لجانا كل من يمنع الحمى ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش الا أن نموت أعزة وما الموت الا أن نعيش ونسلما
تأملت في صرف الزمان فلم أجده سوى الصارم البتار للسلم سلما
ولم أر أنأى عن سلام من الذى تأخر يعتد السلامة مغنا
يقولون وجه السيف أبيض دائما وما ابيض الا وهو أحمر بالدماء
تجاهل أهل الغرب كل قضية اذا لم يحى فيها الحسام مترجما
وكابر قوم ينظرون بأعين ألا عمه الالباب أعمى من العمى
انظر الى قول شوقى :

صور العمى شتى وأقبحها اذا نظرت بغير عيونهن الهام
والى قولى : (ألا عمه الالباب أعمى من العمى)

وذلك فى عرض الكلام على وجوب الدفاع عن الروملى وعدمه فتعلم اتحادنا فى
الفكر . ثم إلى أقول فى آخر هذه القصيدة ما يأتى :

فمن مبلغ البلغار أنا الى الوغى واخواننا الاتراك ترحف توأما
وان جميع العرب والترك اخوة عليهم اليهم يبتغون تقدما
وليس يزال العرب والترك أمة حنيفة بيضاء لن تنقسما
وقولوا لهم بانتم سعاد فلا يزل فؤادكمو صببا عليها متيا
فلا يطعمنكم فى أدرنة مطعم ولا تفتحوا فى شأنها أبدا فما
أدرنة صارت عندنا تلو مكة وماء المريج اليوم أشبه زمزما
ستلبث عثمانية رغم أنفكم وأنف الالى منا يصيحون لو ما

فأنت ترى أيضا أن الذين كان يعرض بهم شوقى ويجعلهم علة للملك وسقما فى
جسم الدولة هم الذين كنت أعرض بهم أنا أيضا وأقول اننا استرددنا أدرنة رغم الاعداء
من الخارج وبرغم هؤلاء المضلين المثبطين من الداخل .
ثم يقول شوقى :

ومبشر بالصلح قلت لعله خير عسى أن تصدق الأحلام
ترك الفريقان القتال وهذه سلم أمر من القتال عقام
يقول : ان الفريقين قد تئارا القتال ويقال انه سينعقد الصلح ولكن هذا الصلح
الذي تذهب فيه ولايات الروملى من يد الدولة كره أكثر من القتال . ثم يقول :

ينعى الينا الملك ناع لم يظأ أرضاً ولا انتقلت به أقدام
برق جوائبه صواعق كلها ومن البروق صواعق وغمام
ان كان شر زار غير مفارق أو كان خير فالزار لمأم
بالامس أفريقيا تولت وانقضى ملك على جيد الخضم جسام
نظم الهلال به ممالك أربعاً أصبحن ليس لعقدهن نظام
من فتح هاشم أو امية لم يضع أساسها تتر ولا أنجم
واليوم حكم الله فى مقدونيا لانقض فيه لنا ولا ابرام
كانت من الغرب البقية فانقضت فعلى بنى عمان فيه سلام

يقول : جاءنا البرق بخبر هذا الصلح ومن البروق صواعق نقمة ومنها غمام رحمة
فأما نحن معاشر المسلمين فبروقنا كلها صواعق وإذا كان الشر زارنا فهو غير مفارق
وإذا كان الخير زارنا فلماماً . واللهم أو الغب هو الزيارة فى الأحايين . وبالامس ذهب
لنا فى افريقية ممالك أربع : مصر وطرابلس وتونس والجزائر . كانت راية الهلال تخفق
فوقها فانطوت عنها وهى أقطار لم يفتحها مسلموا التتر ولا المعجم ولكنها من فتح
الخلفاء الراشدين وبنى امية من بعدهم . واليوم نفذ حكم الله فى مقدونية على أيدي
البلغاريين ومن ورأسهم الدول الأوروبية متحدة علينا . وقد كانت هذه الولايات الست
المسماة بالروملى بقية الملك العمانى فى أوروبا وقبلها كانت له مملكة البلغار ومملكة رومانيا
ومملكة الصرب ومملكة البانيا ومملكة اليونان ومملكة المجر وبلاد بوسنة والمهرسك
كلها تابعة للسلطنة العثمانية . فذهبت تلك الممالك فى القرن الماضى ولحقت به هذه البقية
الباقية فى هذه النوبة فعلى ملك بنى عمان فى أوروبا السلام . ثم قال :

أخذ المدائن والقرى بخناقها جيش من المتحالفين لهام
(م - ١٨ شوقى)

غطت به الارض الفضاء وجوها
تمشى المناكر بين أيدي خيله
ويحثه باسم الكتاب أقسة
نشطوا لما هو في الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سخرت
لهم الشعوب كأنها أنعام
من كل جزار يروم الصدر في
نادى الملوك وجده غنام
سكينه ويمينه وحزامه
والصولجان جميعها آثام

قال ان الدول البلقانية تحالفت على الدولة العثمانية - وكان تحالفها على هذه بواسطة
قيصر الروسية وتحت كفالاته فهو الذي نظم شتات دول البلقان وشجعهم على محاربة
تركيا وقد لقاء الله جزاءه بعد الحرب العامة فقتله البلاشفة شر قتلة يمكن أن يتصورها
العقل لأنهم بعد أن نفوه وحبسوه زحفت الجيوش الروسية التي يقودها أعداء
البولشفيك لتستخلص القيصر من محبسه فمجل هو لاء بقتله أمام عائلته وقتل عائلته
أمامه . فأطلقوا عليهم الرصاص في لحظة واحدة وكان هو وامراته وابنه ولى العهد
وبناته الأربع - وسقن جيوشاً جرارة تغطت بها الارض زاحفة صوب تركيا
والمناكير والقبائح والفظائع تمشي بين يديها ، فقد كانت جيوش البلقانيين ترتكب
من قتل الاهالى الوادعين واستباحة أعراض النساء ذوات الصون والستر وسلب الأموال
واهانة شعائر دين الاسلام ما لم يقع نظيره الا فى الاندلس . ولذلك سعى شوقي البلقان
بالاندلس الجديدة

وكما كانت حروب الاندلس وفضائعها تغشى بتحريض القسوس الذين يخالفون
في أعمالهم جميع ما قرأوا في كتابهم الانجيل كذلك كانت الصليبية البلقانية يؤجج
نارها الأبحار والقسيسون من بلغار وبونان و صربيين وكان الملوك الاربعة ملك البلغار
وملك اليونان وملك الصرب وملك الجبل الأسود ينشرون المناشير الحربية التي لا تزال
نصوصها محفوظة كأنها محررة في القرون الوسطى من الحث على استئصال المسلمين
والتحريض على قتالهم بغير هوادة باسم النصرانية .

نعم تقضى أمانة التاريخ أن نذكر كون الجيش الصربى تجنب الآثام في معاملته المسلمين
أكثر من الجيشين البلغارى واليونانى . وقد رفعنا يومئذ الاحتجاجات الى الدول العظام

بناء على كون هذه الفظائع مخالفة لحقوق الامم والانسانية، وقلنا ان من واجبات الدول بحسب التكافل الانساني والتعاون المدني أن تقيم النكير على البلقانيين من أجلها وكان لهذا الفقير اليه تعالى برقية من الاستانة في غاية التأثير والشدة الى السير ادوارد غراي ناظر الخارجية الانجليزي اطلع على صورتها بمدارسها كامل باشا الصدر الاعظم وذلك بواسطة صديقي المرحوم محمد باشا الشريعي، فأعجب بها الصدر جداً وأرسل يشكرني عليها، ولكن من جهة النتيجة لم تعمل الدول أدنى عمل يدل على أنها تزن المسلمين بميزان واحد مع البلقانيين ولا مع سائر البشر . ولا سمعنا انها خاطبت دول البلقان ولو من قبيل النصح بالاعتدال في سيرهن أو بمراعاة حقوق الانسانية في أثناء الحركات الحربية . ولا نبض عرق لجمعية أوربية من تلك الجمعيات التي لا يحصى عددها المتشدقات بحفظ حقوق الانسان .

وقد بلغ عدد الذين هاجروا من مساحي البلقان فراراً من وجه الاعداء بعد أن سمعوا بما حل باخوانهم على الحدود مائة وخمسين ألف نسمة دخلوا الى الاستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس على كثرتها وكان ذلك في قلب الشتاء وفشت فيهم الكوليرة وكانت خطوط الدولة تشغلها عن ايوائهم واطعامهم فقامت مصر حماها الله في تلك الأزمة مقاما لا ينساه لها تاريخ الاسلام بل التاريخ العام . فأرسلت اليهم الاعانات التي كفلت نجاة هؤلاء الاخوان المهاجرين من الموت برداً وجوعاً الى أن تمكنت الدولة من إجازتهم الى الأناضول . وقد كان ماأعانت به مصر الجيش العثماني في تلك الحرب أربعمائة ألف جنيه وما وزعته من الاعانات على هؤلاء المهاجرين مائة وخمسين ألف جنيه . وكنت أنا من جملة أعضاء اللجنة التي وزعت الاعانات من قبل لجنة الاعانة الكبرى بمصر التي كان يرأسها أمين هذه الأمة الأمير عمر طوسون أتم الله الاسلام بطول حياته . وإليه والى الامير محمد علي توفيق رئيس الهلال الأحمر كننا نرسل البرقيات استمدادا واستعجالا بالاعانات كلما قدمت طائفة من المهاجرين وكانت جميع تلك البرقيات تقريباً بقلم كاتب هذه السطور وأنا الذي أبقى للأمير عمر طوسون بسقوط سلايك ووجود ١٥٠ ألف نسمة من المسلمين فيها تحت خطر الموت جوعاً . فما مضى على هذه البرقية الا بضعة أيام حتى وصلت البواخر من مصر

الى ميناء سلا نيك ثم الى ميناء «قواله» مشحونة بالارزاق والألبسة وجميع الحوائج التي كفلت انقاذ أولئك المساكين من الموت وتخفيف ويلات اخواننا مسلمي مقدونية أجمع . فجزى الله كنفاته مصر خيرا عن هذه المبرات التي وان كانت بحسب الشرع فرضاً عليهم لامنة لهم فانه لا يجوز للتاريخ أن يغفلها ولا يجوز للأمة التركية بخاصة أن تناساها .

ثم يقول شوقي عن ملوك الدول البلقانية الذين تولوا تلك الآثام ما هو واضح لا يحتاج الى تفسير ولا الى تعليق . ومن الغريب أنهم ارتكبوا تلك الموبقات باسم السيد المسيح بزعمهم والحال ان سبيل المسيح كان كله محبة ورحمة كما لا يخفى وكان ينهى عن سفك الدماء بكل حال والى هذا أشار شوقي بقوله :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفك الدماء ولا امرأاً هان الضعاف عليه والايام
يا حامل الآلام عن هذا الوري كثرت علينا باسمك الآلام
أنت الذي جعل العباد جميعهم رحما وباسمك تقطع الارحام
أنت القيامة في ولاية يوسف واليوم باسمك مرتين تقام
يريد بيوسف صلاح الدين بن أيوب وان الحرب الصليبية وقعت في أيامه واليوم
قد تجددت أولا وثانياً . ثم يقول :

واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للاله وروحه ظلام
خلطوا صليبك والخناجر والمدى كل أداة للأذى وحام
أو ما تراهم ذبحوا جيرانهم بين البيوت كأنهم أغنام
كم مرضع في حجر نعمته غدا وله على حد السيوف فظام
وصببة هتكت خميلة طهرها وتناثرت عن نوره الأكام
هل قيل في هتك أعراض الابكار أبلغ من هذا القول وأشد تأثيراً في النفس ؟

وأخى ثمانين استبيح وقاره لم يغن عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامى وأدوه لم يعطفهم جرح له وأوام
ومهاجرين تنكرت أوطانهم ضلوا السبيل من الدهول وهاموا

السيف ان ركبوا الفرار سبيلهم والنطم ان طلبوا القرار مقام
لعمري ليس في ما وصفه شوقي هنا شيء من المبالغة فقد جرى من البلقانيين كل
هذه الافعال وأوروبا تنظر كأنها جاهلة ، بل كانت في الحقيقة مرتاحة الى قهر المسلمين
واعنائهم حتى لا يرفعوا رؤوسهم . ودليل ارتياحها أنها لو أرادت وجزمت لما تجرأ
البلقانيون طرفة عين على مخالفتها . ثم بعد أن سرد شوقي ما سرد من هذه الفجائع التفت
نحو الأتراك فنصحهم بالوثام وعذلهم على الانقسام وقال لهم :

يا أمة بفروق فرق بينهم	قدر تطيش اذا أتى الاحلام
فيم اتخذاذل بينكم ووراءكم	أهم تضاع حقوقها وتضام
لا يأخذن على العواقب بعضكم	بعضاً فقدماً جارت الأحكام
تقضى على المرء الليالي أوله	فالحد من سلطانها والذام
من عادة التاريخ ملء قضائه	عدل وملء كسائتيه سهام
ماليس يدفعه المهند مصلتها	لا الكتب تدفعه ولا الاقلام
ان الألى فتحوا الفتوح جلائلاً	دخلوا على الأسد الغياض وناموا
هذا جناء عليكمو آباؤكم	صبرا وصفحاً فالجناة كرام
رفعوا على السيف البناء فلم يدم	ما للبناء على السيوف دوام
أبقى الممالك ما المعارف أسه	والعدل فيه حائط ودعام

قال لهم: ان القدر اذا نزل تطيش له الاحلام ولكن يجدر بكم أن تذكروا اتخذاذل
فيما بينكم والجدل فيمن كان مخطئاً ومن كان مصيباً . فان وراءكم وانتم مشغولون بالفتن
الداخلية أمماً تضام وتهان وتؤكل حقوقها . فدعوا الخطأ والصواب الى التاريخ واعلموا
انه ان لم يكن سيف يدفع الظلم لم يكن للأقلام قبل بدفعه . لقد فتح آباؤكم هذه البلدان
وناموا على فتوحاتهم ولم يفكروا في أن هذه الامم المغلوبة لا تزال تترصد الفرصة حتى
تثور وتأخذ بالثار . فالخطأ إنما هو خطأ آباءكم الذين أحسنوا الظن وصفحوا عن
الذنب ووثقوا دائماً بالنصر ثم هناك عيب آخر وقع في البناء الذي بنوه وهو أنهم رفعوه
على رؤوس الحراب ووقفوا عن تحصينه بالعلم ودعوه بالعدل . ولما كان ملك السيف

لايدوم كانت هذه العاقبة منتظرة لـكم . ثم يقول :

وقف الزمان بكم كموقف طارق اليأس خلف والرجاء أمام
الصبر والاقدام فيه اذا هما قتلا فأقتل منهما الاحجام
أى ان موقفكم اليوم اصبح كموقف طارق بن زياد يوم اجاز الى الاندلس وتواقف
مع لذريق ملك الاسبانيول فقال لجيشه : البحروراءكم والمدوامامكم فلا نجاة لكم
إلا بالاقدام لأنكم إذا انهزمت فليس وراءكم إلا البحر . وهذا يارجال السلطنة العثمانية
هو موقفكم اليوم . ولنقل ان فى اقدامكم هلكا فالجواب عليه أن الهلك الذى فى
الاحجام هو أوكد من الهلك الذى فى الاقدام . ثم يقول لهم : لو أنكم أحسنتم
إدارة البقية الباقية من ملك آل عثمان لكانت لكم بها دولة وصوله لايفت فى عضدها .

هذى البقية لو حرصتم دولة ضال الرشيد بها وطال هشام
قسم الأئمة والخلائف قبلكم فى الارض لم تمدل به الاقسام
سرت النبوة فى ظهور فضائه ومشى عليه الوحي والالهام
وتدفق النهران فيه وازهرت بغداد تحت ظلاله والشام
أثرت سواحله وطابت أرضه فالدر لج والنضار رغام

أى ان صولة الرشيد كلها وطائلة هشام بن عبد الملك وعزة أولئك الخلائف انما
كانت بهذه البلاد التى بقيت لـكم وهى نعم الاقسام إذا تقاسم البشر الأرض وفيها
ظهر الانبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وفيها جرى الفرات ودجلة وازدهرت
الشام وبغداد . ثم ذكر أدرنة وحسن دفاع شكرى باشا عنها فقال :

شرفاً أدرنة هكذا يقف الحمى للغاصبين وتثبت الاقدام
وترد بالدم بقعة أخذت به ويموت دون عرينه الضرغام
والملك يؤخذ أو يرد ولم يزل يرث الحسام على البلاد حسام
علم الزمان مكان (شكرى) وانتهى شكر الزمان اليه والاعظام

يذكر ان شكرى باشا وقف من أدرنة موقف مدافع ثابت الاقدام ولم يسلم شبراً
من أرضها إلا بالدم وهذا هو حق الدفاع . فاستحق بذلك شكر الناس وإجلالهم .

ولما دخل ملك البلغار الى أدرنة ترك لشكري باشا سيفه عند الاستسلام إعجابا ببسالته وثباته .
والحق ان شكري باشا لولا أن مس جيشه الجوع ما كان يمكن أن يدخل البلغار
والصرب عليه في أدرنة مهما طال الحصار ولكنه لم يبق للجيش زاد يقات به .
ومن حيث اننا ذكرنا في التعليق على الآيات السابقة شيئاً من قصة الحرب البلقانية
حباً في اظهر فضل شوقي فيما سجله شعره من هذا الموضوع فلا بأس بأن نورد تحت هذه
الآيات ما نعلمه بنفسنا لانقلا عن رواية ولا حكاية عن سُهار وهو : انه لما كان شكري
باشا تحت الحصار وجد رسولا أنفذه الى الاستانة يلتمس من الباب العالي أن ينجدوه
ولو بعشرة آلاف جنيهه ليشتري بها رزقا للجيش . وجاء الرسول فحدثنا بالخبر وكنت أنا
ومحمد باشا الشريعي وكامل باشا جلالاً لأننا كنا ندير لجنة الاعانات والهلال الاحمر
المصري وعلمنا انهم كانوا في الباب العالي لم يجدوا المال في الحال وأشاروا الى الرسول
بالتلوم الى أن ينجدوه والحال ان شكري باشا كان من الانتظار على أحر من النار فقررت
لجنة الاعانة المصرية على مسئوليتي أنا ورفاقي لا سيما الشريعي ارسال العشرة آلاف
جنيهه الى شكري باشا باسم الجرحى والمرضى وذهب بها الرسول وعاد بورقة الوصل .
ومن هذه الحادثة وحدها يعلم القاريء اللاؤاء التي وصل اليها الجيش العثماني أثناء
حصار أدرنة .

وبناء على ما علمناه من أزمة الجيش وأزمة مسلمي أدرنة الذين كانوا يموتون جوعاً
بعد سقوط أدرنة في أيدي البلغار التمسنا من الهلال الاحمر المصري بقرقيات
مكررة كتبتها كلها بقلمى ان الهلال الاحمر في مصر يطلب من إنجلترا التوسط لدى
حكومة البلغار بأن تسمح بدخول بعثة الهلال الاحمر المصري الى أدرنة . فتوسطت
الحكومة الانجليزية وأمكن الهلال الاحمر المصري جزى الله أهله خيراً من إعانة مسلمي
أدرنة الذين كان عددهم يربى على أربعين الف نسمة وكان الجوع يفتك بهم . ولما ذهبنا
نحن الوفد السوري الذي تقدم الكلام عليه الى أدرنة بعد استرداد الدولة لها شاهدت
بعثة الهلال الاحمر المصري لا تزال هناك . وقد كان والى أدرنة الحاج عادل بك أعدّ
للوفد ولى أنا من الجملة مكاناً للمبيت فاستأذنته في الذهاب الى محل الهلال الاحمر
المصري وبت هناك بناء على أني كنت من مفتشيه في أثناء الحرب البلقانية . ولما

نهضت صباحاً شاهدت بعيني الوفاً من مسلمي أدرنة بأيديهم السطول يأخذون بها
الحساء من مطبخ الهلال الأحمر فتعجبت من كثرة عددهم. فقال لي رجال الهلال الأحمر:
لو رأيت الحالة قبل أن تسترجع الدولة أدرنة لرأيت عجباً فالآن انما نطمع ثلاثة أو أربعة
آلاف وأما من قبل فقد كنا نعول ثلاثين أو أربعين ألفاً. فهذا ما شاهدته بعيني فضلا عن
كونه عملاً كنت أنا والله الحمد من الساعين فيه وكان المصريون الكرام هم السبب في
إتمامه بحيث أنقذوا من الهلاك عشرات الألوف من اخوانهم مسلمي تلك البلاد. ولا
بأس أن يكون للتاريخ مكان من كتاب أدب لا سيما اذا تعلق بالحمة والانسانية.
ثم قال احمد شوقي :

صبراً أدرنة كل ملك زائل	يوماً ويبقى السالك العالم
خفت الأذان فما عليك موحد	يسمى ولا الجمع الحسان تقام
وخت مساجد كن نوراً جامعاً	تمشى اليه الاسد والآرام
يدرجن في حرم الصلاة قوائماً	بيض الأزار كأنهن حمام
وعفت قبور الفاتحين وفض من	تحفر الخلائف جندل ورجام
نبشت على قعساء عزتها كما	نبشت على استعلائها الأهرام
في ذمة التاريخ خمسة أشهر	طالت عليك فكل يوم عام
السيف عاري والوباء مسلط	والسيل خوف والثلوج ركام
والجوع فتاك وفيك صحابة	لو لم يجوعوا في الجهاد اصاموا

وهذا ما أشرنا اليه في حديثنا عن هذه الحرب المشؤومة واستمداد قائد أدرنة

القوت الضروري

ضنوا بعرضك أن يباع ويشترى	عرض الحرائر ليس فيه سوام
ورمى العدا ورميتهم بجهم	مما يصب الله لا الاقوام
بعت العدو بكل شبر مهجة	وكذا يباع الملك حين يرام
ما زال بينك في الحصار وبينه	شم الحصون ومثلن عظام
حتى حواك مقابرأ وحويته	جثثا فلا غبن ولا استنمام

يصف هنا كيفية الدفاع عن أدرنة كما تقدم الكلام عليه بأن شكرى باشا لم يبع منها شبراً الا بعد أن غطاه دما وأنه لم يسلم البلدة إلا بعد أن فتك بجيشه الجوع والمرض فكان تسليماً شريفاً أعذر فيه ذلك القائد الباسل الى قومه وحفظ فيه شرف أمته. ثم ذكر كيف آلت أدرنة بعد غلبة البلغار عليها. ولا شك في ان نظم شوقي هذه القصيدة وقع في المدة التي هي بين تسليم أدرنة للبلغار واسترداد تركيا لها فلذلك قال شوقي: خفت الأذان من أدرنة فما فيها موحد يسمى ولا جمعة تقام الخ.

وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر من قول شوقي هذا كنت أنا أقول في قصيدتي اليمية

التي تقدم بعضها:

أدرنة يا أم الحصون ومن غدت	لدار بنى عثمان سوراً ومحصماً
فديتك ربعاً ما أبرّ بأهله	وأما علينا ما أعز وأكرماً
عمرناك أحقاباً طوالاً فلم نزل	بأهلك من أهل البسيطة أرحماً
فلما أتاك المصلحون بزعمهم	أصاروا الى تلك الجنان جهنماً
ألا قل لفردينان أسرفت عادياً	وأبست في وادي الضلالة مزعماً
وهاجت والأحلاف غدرًا وغيلة	رجالاً غدوا عما تكيّدون نوّماً

وذلك ان الدول البلقانية الاربع اتحدت على قتال الدولة العثمانية تحت كفالة قيصر الروس وتآمرت بجميع ما بقي من الملك العثماني في أوروبا . والأتراك غافلون عما يكيد لهم البلقانيون مشغولون بالشقاق بعضهم مع بعض. ولما فاجأ البلقانيون تركيا بالحرب كانت قد صرفت جيشاً عظيماً لها في الرومللى الى أوطانه مما يدل أعظم دلالة على الغفلة التي كانت فيها . ثم أقول :

رجالاً مضى بعض ببعض تشاجراً	فكان قضاء الله فيهم محتماً
تعرض هذا الملك منكم ومنهمو	لسهمين كل منهما انقض أسهما

ثم أقول عن استرداد أدرنة عند ما زحف اليها القائد عزة باشا وطرده البلغار منها:

أدرنتنا لو كان للصخر أسن	بها يوم عاد الراجعوها تكلماً
فما من فتى إلا وأجش بالبسكا	ولا من جواد عاد إلا وحمحماً
ولا غادة إلا وكفكف دمها	مكر حماة العرض كالسيل مفعماً

ولا منبر إلا وأورق بهجة وقام عليه ساجع مترنما
وقرّت عيون المصطفى في ضريحه وهناه في الفردس عيسى بن مريما

ولما ذهبنا الى أدرنة كما سبق الكلام عليه شهرنا صلاة الجمعة في جامع السلطان
سليم وهو من الجوامع الكبرى في العالم الاسلامي لا ينقص جلالة عن السلمانية
والفاتح والسلطان أحمد وغيرها في الاستانة ، وازدحم الجمع في تلك الجمعة لما بلغ أهل
أدرنة مجيء وفد عربي يهنيهم بالرجوع الى الدولة . وكنا قد استصحبنا من استانبول
صديقنا الاستاذ الشيخ احمد الفقيه من علماء مكة المكرمة ومن أفصح الناس لسانا
وأشجأهم صوتاً وكان في القديم إماماً للشريف عون الرفيق أمير مكة ، فالشيخ أحمد
الفقيه رحمه الله خطب في تلك الجمعة على منبر جامع السلطان سليم واستنزل العبرات في
خطبته المؤثرة وكان للناس في أربع زوايا الجامع نشيج وشهيق من ذكرى الفجائع التي
حلت بالاسلام وخروج ذلك البلد من يد الدولة ثم من ذكرى استرداد الدولة له وتبدل
ذلك المآثم عرساً وذلك الخوف أمناً وتلك الوحشة أنساً . والى هذا والى جيش عزت
باشا أشير بقولي :

تعجلتمو منا ثغوراً شواغراً فهلا وقد جاء الجيش عرمرما
أى انكم هاجتم ثغورنا على غرة والجيش الذي كان مرابطاً فيها قد صرفته
الدولة الى أوطانه وصارت ثغورها عورة عند ذلك فما أمكن استدعاؤه تحت السلاح
من جديد حتى كنتم قد أوغلت في البلاد وأصبح التلاقي صعباً . فأما الآن وقد زحف
اليكم الجيش على أهبة وعلى تعبئة فلهذا لا تنهدون اليه ؟

خميس اذا النيات صحت رأيته يخيم معه نصره حيث خيما
تأمل أهاضيب الجبال وقد رست وحدث عن البحر المحيط وقد طمى
تضىء نواحيه بغرة عزة مشيع ما تحت الضلوع غشمشما
يليه من الابطال كل غضنفر إذا عبس الموت الرؤام تبسما
تراهم ليوناً في الوغى وضياغما وفي أفق النادى بدوراً وأنجما
ثم أقول في حالة أهل أدرنة بعد استردادها :

فيا لك من يوم غدا في خطوبتنا كشادخة غراء في وجه أدها
وكانت بقايا السيف تبكى فأصبحت تضاحكهم طراً ملائكة السما
عسى كل يوم بعد يوم أدرنة يهود على الاسلام عيداً وموسماً
وليس على المولى عزيز بأن نرى هناء محاذك العزاء المقدما

وهذا الشطر الأخير تضمنين لبنت قديم من قصيدة أظنها لابن نباتة يهني
فيها ملكاً تولى العرش بعد أبيه . ولقد كان في الواقع استرداد أدرنة بعد تلك السكينة
البلغانية الفجيعة أشبه بغرة بيضاء في وجه جواد أدهم . واذكر اني كنت دخلت أنا
والمرحوم محمد باشا الشريعى على السلطان محمد رشاد رحمه الله وكان وقتئذ في قصر يلدز
فبعد أن جالسنا في حضرته أظهر التألم من الحوادث التي قضت بهزيمة الدولة في حرب
البلقان ثم تبسم وقال : « لكن أدرنة استرداديله متسلى اولدق » اى اننا مع هذا قد
تسلينا باسترداد أدرنة

قصيدة شوقي في الانقلاب العثماني

ومن قصائد شوقي التي سارت بها الركبان منظومته في الانقلاب العثماني وسقوط
السلطان عبد الحميد الثاني قال فيها :

سل يلدزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور

يلدز معناه بالتركية النجم وكان اسم القصر الذي يقيم به السلطان عبد الحميد
وهو على رابية مشرفة على البوسفور وشوقي يريد أن يقول ان هذا النجم جاءته نوبة
الافول كالبدور الذي يطلع ثم يغيب

لو تستطيع اجابة لبكتك بالدمع الغزير

أخنى عليها ما أنا خ على الخورنق والسدير

الخورنق والسدير من قصور المناذرة بالحيرة

ودها الجزيرة بعد اس ماعيل والملك الكبير

يريد بالجزيرة القصر الذي كان يقيم به الخديوى اسماعيل بمصر

ذهب الجميع فلا القصور ر ترى ولا أهل القصور
فلك يدور سموده ونحوسه بيد المدير
أبن الاوانس في ذرا ها من ملائكة وحوور
المتراعات من النعيم هم الراويات من السرور
العائرات من الدلا ل الناهضات من الغرور
الآمرات على الولا ة الناهيات على الصدور

الصدور جمع صدر وكان يقال لكبير وزراء السلطنة العثمانية « الصدر الأعظم »
وفي هذا البيت مبالغة بلا شك لان جوارى القصر السلطاني لاسيما حظايا السلطان
كان لهن نفوذ الكلمة في العصر القديمة لا في الزمن الاخير ولكن شوقي قال
هذا لطلاوة الشعر ، ثم يقول :

الناعمات الطيبات العرف أمثال الزهور
يلاحظ هنا أن الزهر لا يجمع على الزهور بل على الأزهار وجمع الجمع الازاهر
ولكن قد توجد هذه اللفظة في كتابات المحدثين

الذاهلات عن الزمان بنشوة العيش النضير
من كل بلقيس على كرسى عزتها الوثير
أمضى نفوذا من زبدة في الامارة والأمير
بين الرفارف والمشارف والزخارف والحرير
والروض في حجم الدنا والبحر في حجم الغدير
وذلك ان البوسفور يضيق حتى كأنه بعض الأنهر

والدر مؤتلق السنا والمسك فياح العبير
في مسكن فوق السما ك وفوق غارات المغير
بين المعازل والقنا والخليل والجلم الغفير
سموه يلدز والأفول نهاية النجم المغير
ويلاحظ هنا على قوله المغير ان كانت بمعنى الآفل فصوابه الغائر يقال غارت

الشمس غياراً وغوراً أى غربت ولعل شوقى أراد بقوله «المغير» أى المسرع فلا غبار على البيت حينئذ

دارت عليهن الدوا ثر في الخادع والحدود
أمسين في رق العيب مدوتن في أسر العشير
ما ينتهين من الصلا ة ضراعة ومن الندور
يطلبن نصرة ربهن وربهن بلا نصير
ربهن الأول هو الله والثانى هو السلطان

صبغ السواد حبيرهن وكان من يقق الجبور
أنا ان عجزت فإن فى بُردى أشعر من جرير
مضى هنا الشاعر على طريقته فى الفخر وهو مثل قوله :
ان الذى قدردها وأعادها فى بُردتيك أعاد فى البحري
ثم قال :

خطبَ الامام على النظير م يعز شرحا والنشير
عظمة الملوك وعبرة الا يام فى الزمن الاخير
شيخ الملوك وان تضع فى الفؤاد وفى الضمير
نستغفر المولى له والله يعفو عن كثير

فى كتاب الله (يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم
تخفون من الكتاب ويعفون كثير) فى سورة المائدة . وفى سورة الشورى (أوبقهن
بما كسبنه ويعفون كثير)

وزاه عند مصابه أولى يياك أو عنذر
ونصونه ونجمله بين الشماتة والنكير
عبد الحميد حساب مثلك فى يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوا ل ولسن بالحكم القصير
تنهى وتأمّر ما بدا لك فى الكبير وفى الصغير

يريد أن يقول انه كان آمرا ناهيا على الكبير والصغير من رعيته وفي الكبير والصغير
من شؤون المملكة

لا تستشير وفي الحى عدد الكواكب من مشير
يقول: كنت مستبداً برأيك لا تقبل عليك مشيراً مع انه كان عندك وزراء ممن لهم
رتبة مشير لا يأخذهم العد - وفي هذا شيء من المبالغة لأن عبد الحميد طالما استشار
وأخذ برأى أعوانه وانما كان يفتقر عن غيره من الملوك الدستوريين بكونه لا يتقيد
بإشارة أحد منهم

كم سبجوا لك فى الروا ح وألهوك لدى البكور
ورأيتهم لك سجداً كسجود موسى فى الحضور
خفضوا الرؤوس ووتروا بالذل أقواس الظهور
أى كانوا ينحنون أمامك حتى تصير ظهورهم كالأقواس من الانحناء وانما كان
وترها الخضوع لك

ماذا دهاك من الامور ر وكنت داهية الامور
دهاك بمعنى أصابك وأما داهية فمعناه باقعة وفى البيت جناس بين دهاك وداهية
كما أن فى البيت الذى مر قبل هذا بثلاثة أبيات جناساً مهنوياً بين تستشير ومشير .
ثم قال :

ما كنت ان حدثت وجلّ مت بالجزوع ولا العثور
أين الروية والأنا ة وحكمة الشيخ الخبير
ان القضاء اذا رمى دك القواعد من ثبير

الثيران بالثنائية جبالان مفترقان يصب بينهما افاعية وهو واد يصب من منى يقال
لأحدهما ثبير « غينا » والآخر ثبير الأعرج . وقالوا ثبير جبل بمكة بينها وبين عرفة
سمى ثبيراً برجل من هذيل مات فى ذلك الجبل فسمى به . وكانوا فى الجاهلية اذا أرادوا
الافاضة يقولون : أشرق ثبير كى ما نغير . فانهم كانوا اذا أشرقت الشمس من ناحية
ثبير أغاروا الى النحر أى أسرعوا . وبمكة أثيرة غير هذا منها ثبير الزنج وثبير الخضراء وثبير

النصع وهو جبل المزدلفة وثبير الأحذب . واشتقاق اللفظة هو من ثبره عن الأمر يشبره
بالضم ثبراً اذا احتبسه . قيل ان ثبيراً سمى ثبيراً لأنه بوارى حراء . ثم قال :
دخلوا السرير عليك يحس تكمون في رب السرير
أعظم بهم من أسريد ن وبالخليفة من أسير
قالوا اعتزل قلت اعتزات الحكيم للملك القدير
صبروا لدولتك السنية ن وما صبرت سوى شهو
أى انهم صبروا على حكمك المطلق ثلاثين سنة وبعد أن أجبروك على اعلان الشورى
لم تصبر أنت عليها سوى بضعة أشهر حتى حاولت أن تقوضها
اوذيت من دستورهم وحننت للحكم العسير
وغضبت كالمنصور أو هارون في خالى العصور
أى أردت أن تستبد استبداد أبى جعفر المنصور أو حفيده هارون الرشيد ولكن
هذا الوقت غير ذلك الوقت

ضنوا بضائع حقهم وضنت بالدنيا الغرور
هلا احتفظت به احتفا ظ مرحب فرح قدير
هو حلية الملك الرشيد وعصمة الملك الغرير
وبه يبارك فى الممالك والملوك على الدهور
قال انهم حرصوا على حق الرعية الضائع وحرصت أنت على تحكيم ارادتك وليس
هذا بحق ولقد كنت تحسن لو تلقيت الدستور بصدر رحب وعين قرّة فان الدستور
للملك العاقل الرشيد حلية وللملك الذى لا يملك التدبير عصمة ووقاية والدستور بركة
على الممالك والملوك مادام قائماً . ثم خاطب الجيش العثمانى الذى خلع عبد الحميد فقال :
يا أيها الجيش الذى لا بالدعى ولا الفخور
يخفى فان ريع الحمى لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف فى الفعا ل وليس يسرف فى الزئير
يقول ان الجيش العثمانى يخفى بعدم تدخله فى السياسة وادارة الملك حتى اذا ريع

حمى الملك بشيء من النوازل وثب وظهر بكل قوته فهو كثير الفعل قليل الضوضاء .
وهذان البيتان هما من أبداع ما قال شوقي ولكنه مع الاسف قد بدأ منذ خلع هذا
الجيش للسلطان عبد الحميد يتعرض للسياسة والادارة ودخول الجيوش في سياسة الممالك
طالما كان قاصدا لظهورها . ولم يكن انهزام هذا الجيش العثماني في الحرب البلقانية خالياً
من هذا السبب . قال :

يتلو الزمان صحيفة غراء مذهب السطور
في مدح أنورك الجرى وفي نيازيك الجسور

أنور كان ضابطاً صغيراً عندما ثار بشرذمة من العسكر في بلاد الروم ليطلب إعادة
الدستور وكذلك نيازي الذي ثار مثله في بلاد الارناووط فطار صيتهما في ذلك الوقت
وما زال أحدهما أنور يرقى حتى صار ناظراً للحربية العثمانية

يا شوكت الاسلام بل يا فاتح البلد العسير
وابن الاكارم من بني عمر الكريم على البشير
القابضين على الصليح كجدهم وعلى الصرير
هل كان جديك في رداك يوم زحفك والكروور
فقتضت صياد الاسود وصدت قناص النصور
وأخذت يلدز عنوة وملكت عنقاء الثغور

كان شائعاً يوم جرت هذه الحادثة ان محمود شوكت باشا الذي قاد الجيش المسمى
بجيش الحركة الذي زحف من سلانيك الى استانبول وخلع السلطان عبد الحميد هو
من ذرية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وليس ذلك بصحيح فمحمود شوكت
باشا هو من عائلة كرجية الأصل استوطنت بغداد وصارت من بيوتات الوجهة فيها
ويقال ان بينها وبين آل العمري في الموصل مصاهرة فان محمود شوكت باشا عمت
الى عمر رضي الله عنه بنسب فيكون من جهة الامهات لا الآباء . وأما قوله : (عمر
الكريم على البشير) فمعناه انه العزيز على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشير
من اسمائه

ولاحى نسيب رحمه الله فى دخول جيش الحركة الى استانبول زحفاً من سلانيك تحت قيادة محمود شوكت باشا قصيدة رنانة املاها عليه التأسر بما كنا فجعنا به من استشهاده ابن عمنا الامير محمد المصطفى ارسلان الذى كان أحد نواب الامة ورئيساً للجنة الامور الخارجية فى مجلس النواب وكان الحزب الحميدى قد ثار على الحكومة غيظاً بجمعية الاتحاد والترقى التى كانت قوام الحكومة حينئذ وخدعوا العساكر وساقوها الى ساحة أياصوفية حيث ارادوا الفتك بالنواب ولكنهم بعد ان فتكوا بالامير محمد ارسلان وناظم باشا ناظر العدلية وقع فيهم الرعب وبلغهم ان عساكر أخرى من أنصار الدستور آتية للاقتصاص منهم فتفرقوا ولكن فتكوا بكثيرين من أنصار الدستور وانتدب السلطان عبد الحميد توفيق باشا أعظم مكان حسين حلمى باشا الصدر الذى وقعت عليه الثورة وتوارى عن الانظار.

ولما بلغ الاتحاديين الذين كان مركز جمعيتهم سلانيك ما وقع فى الاستانة قرروا الزحف الى الاستانة بجيش سلانيك، وانضم اليه جيش أدرنة. ونشر محمود شوكت باشا بياناً للامة العثمانية عن الأسباب التى حملت على هذه الحركة وهى أن الرجعيين ثاروا فى العاصمة ونادوا بسقوط الحكومة الدستورية، وتجمعت العساكر التى أثاروها فى ساحة مجلس النواب أو المبعوثين وقرروا الفتك بهم، واستشهد بأيديهم الائمة مبعوث الأمة محمد ارسلان بك وناظر العدلية ناظم باشا، ولذلك يزحف جيش الحرية لاعادة الدستور وتوطيده الاقتصاص من الجناة .

ثم دخل الجيش ولم تحصل له مقاومة الا أمام بعض الثكن والعسكرية ، لأن السلطان خشى عاقبة الحرب الداخلية . وكان توفيق باشا الصدر الجديد أشار عليه بعدم المقاومة تخفيفاً للشر ، فلما استولى جيش الحرية على العاصمة أنفذ الاتحاديون أنور بك ومعه جماعة فأبلغوا السلطان وجوب التخلي عن الملك فلم يسعه الا الطاعة وأرسلوه الى سلانيك حيث تخصص له قصر أقام به الى ما قبل الحرب البلقانية بقليل ، فردوه الى الاستانة وأزلوه بقصر «بكار بك» حيث مات سنة ١٩١٧

أما قصيدة أخى فى محمود شوكت باشا فهى هذه :

محمود شوكت ماخشيت فروقا حتى مهدت من الصواب طريقا

(م - ١٩ شوقى)

سقياً لهمتكَ التي قد شا كلت
يا من تداركت الخلافة بعدما
اسمع لقمرى المديح وقد غدا
بك قد أراد الله أن يعجو البلا
ما ان أتاح من الظلام دجنة
ومنها:

لك عند أمتك التي أنقذتها
أنحى عليها الخائنون بكيدهم
أنفوا من الشورى وطاب لديهم
خفقت قلوب الظالمين بقدر ما
سدروا فما أبقى التحير ألسنا
تلقاهم صفر الوجوه كأنهم
ومنها:

أمطرت من ديم المنايا بعدما
لما أهنت القصر في شرفاته
بات المتوج في أسارك عنوة
وذعرت سرب الغيد في أكنائهم
من للحسان وقد تميس بنعمة
جزعت على الدنيا عشيّة آنت
ورأت أزهراها يبلد خضبت
قدمت من لمع السيوف بروقا
أكرمت بيتاً في الحجاز عتيقا
سبحان من ترك العزيز رقيقا
فغدا تناغيها لديك شهبقا
ما شارفت نكداً ولا ترنيقا
مما دهاها البين والتفريقا
بدم يرد الياسمين شقيقا

ان شوقي وان كان أودع خطابه للسلطان عبد الحميد ما أودعه من اللوم في القالب
الجميل لم ينس ولاءه للخليفة السابق الذي طالما تغنى بمدائحها فلماذا أشار بوجوب توقيره
وحفظ كرامته وتذكر امامته والاعضاء عن سيئاته متروكا حسابه الى الله الذي سيفصل
فيه . وما زال شوقي يوصى بالسلطان عبد الحميد في شخصه الى الآخر . ولكن شوقي

لم يكن يهمه السلطان عبد الحميد لأجل شخصية بل لأجل منصب الخلافة الذي كان يتقلده وهو منصب تهوى اليه أفئدة جميع المسلمين . وهذا المنصب لا يزول بزوال عبد الحميد بل قد شغله الآن أخوه السلطان محمد رشاد الذي بويع سلطاناً وخليفة باسم محمد الخامس . فالشاعر الاسلامي الأمين عملاً بمبدأ الذي لا يحيد عنه يودع السلف ويحيي الخلف لأن الخلافة يجب أن تبقى . وهو يهدي الى الخليفة الجديد سلام أهل مصر الذين بايعوه في من بايعه من الأمة الاسلامية فيقول :

المؤمنون بمصر يهـ دون السلام الى الأمير
وبيايهـونك يا محمد في الضمائر والصدور
قد أملاوا لهما لهم حظ الاهلة في السير
فابلغ به أوج الكمال بقوة الله النصير
أنت الكبير يقلدو نك سيف عثمان الكبير
شيخ الغزاة الفاتح بين حسامه شيخ الذكور

يهي السلطان محمد الخامس بتقليده سيف آل عثمان . ومن عادة هذا البيت الكريم انهم عند مبايعة السلطان يقلدونه سيف جده عثمان وذلك في حفلة عظيمة تقام في مقام الصحابي الجليل أيوب الانصاري رضى الله عنه المدفون كما لا يخفى في آخر خليج استانبول . ويكون الذي يقلد السلطان هذا السيف شيخ الطريقة المولوية المنسوبة الى مولانا جلال الدين الرومي ، يستدعونه من قونية الى الاستانة ليقوم بهذا التقليد . وهي عادة قديمة لم يريدوا أن يغيروها طول الدهر حتى تولى السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس وهو السلطان الأخير من بني عثمان . فلما جرت حفلة تقليد السيف في مقام أبي أيوب الانصاري وذلك في السنة الأخيرة من الحرب العامة كانت المجاهد الكبير السيد احمد الشريف السنوسي قد قدم بغواصة من طرابلس الغرب الى الاستانة فأثر السلطان أن يجعل تقليده سيف آل عثمان من يد السيد السنوسي رضى الله عنه .

ثم يقول :

بشرى الخلافة بالامام العادل الزه الجدير
الباعث المستور في ال اسلام من حفر القبور
أودى معاوية به وبمئته قبل النشور
فعلى الخلافة منكما نور تلاً فوق نور

يقول شوقي لمحمد الخامس : ان الحكم المقيّد قد بُعث في أيامك بعد ان كان
الخليفة معاوية ابن أبي سفيان قد طوى بساطه فأنت نشرته من جديد وأنشأته
استئنافاً . يشير الى أن الحكم الشورى لم يستتب الا مدة الرسول عليه السلام
وخلفائه الراشدين الأربعة رضى الله عنهم . وبعد ذلك جاء معاوية فحول الخلافة الى
ملك عضوض وجعلها بالارث لا بالانتخاب . والله وارث الأرض ومن عليها .

قصيدة لشوقي في النسيب ومعارضةها لوصف النسيب

هذا ومن قصائد شوقي في النسيب قوله :

مضناك	جفاه	مرقده	وبكاه	ورحم	عوذه
حيران	القلب	معذبه	مقروح	الجفن	مسجده
أودى	حرقا	الارمقا	يبقيه	عليك	وتنفذه
يستهو	الورق	تأوّه	ويذيب	الصخر	تنفذه
ويناجى	النجم	ويتعبه	ويقيم	الليل	ويقعده
ويلعلم	كل	مطوقة	شجناً	فى الدوح	تررده
كم	مد	لطيفك	من شرك	وتأدب	لا يتصيد
فمساك	بغمض	مسعفه	ولعل	خيالك	مسعده
الحسن	حلفت	بيوسفه	والسورة	انك	مفرده
قد ودّ	جمالك	أو قبساً	حوراء	الخلد	وأمرده
وتمنت	كل	مقطعة	يدها	لو تبعث	تشهده

أى صواحبنا امرأة العزيز اللواتى قطعن أيديهن لما رأين يوسف

جججت عيناك زكىّ دمي اكذلك خدك يجججده
 قد عزّ شهودى إذ رمّتا فأشرتُ لخدك أشهده
 وهممتُ بجيدك أشركه فأبى واستكبر أصيد
 وهزّزتُ قوامك أعطفه فنبأ وتمنع أمليه
 سبب لرضاك أمّيه ما بال الخصر يعقده
 بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
 ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده
 ويقول تكاد تجنّ به فأقول وأوشك أعبد
 مولاي وروحي فى يده قد ضيعها سلامت يده
 ناقوس القلب يدقّ له وحنايا الأضلع معبده
 قسماً بشنايا لؤلؤها قسم الياقوت منضده
 ورضاب يوعّد كثره مقتول العشق ومشهده
 وبخال كاد يحجّ له لو كان يقبل أسوده
 وقوام يروى الغصن له نسباً والرمح يفنده
 وبخصر أوهن من جلدى وعوادى الهجر تبدده
 ما خنت هواك ولا خطرت سلاوى بالقلب تبرده

وقد عارضها اخى نسيب بهذه القصيدة التى أحببت أن أعرضها للقراء فى جانب

قصيدة شوقى وهى هذه :

مضناك عصاه تجلده هل أنت بمطفك منجده
 منهوك الجسم به كمد احناء الأضلع موقده
 ترجيع الورق بهيجه ووميض البرق يسهده
 وله نفس لو ما خفقت أحشاه لعزّ تردده
 إن تهجره فعزّؤك فى دنف يتهمس عوده
 لا يسرى طيفك فى غلس قد زود نورك فرقده

ما حال فؤادى فى شغفٍ يستبكي الصخر توجده
اذ يغدو الصدغ يصدعه ويروح الخدّ يخذله
ويكرّ الطرف فيأسره فيقوم الفرع يصنّده
والصدّ له جرح جال لولا الآمال تكمنه
افدى مولاي فكل فتى يشقيه الحب ويسعده
كم فزت بمراى طامته فوزاً يتقطع حسده
وسكرت براح شمله سكرأ ما فاه مهرده
غصن أغرتنى رفته اترى شكواى تؤوده
والشعر سداح فى وله يهوى الأعصان مغرّده

أقول : ما يخالج نفسى عند قراءة هذا الشعر سواء المعارض أو المعارض وهو انه ليس فيه كبير امر وان هناك صنعة تعمدها الشاعر ان اللذان قيدهما هذا الوزن فاصبحا له أسيرين يسخران له المعاني ويجرّان القوافى. ولا جرم ان الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر وسلباه حرّية التصرّف فى ابراز معانيه كيف شاء ولهذا كان أطول الشعراء باعاً وأعلام درجة من تراه حرّاً وهو مقيد . ولكن بحراً كهذا الذى نظما عليه وان كان مرقصاً بعجب القارى بمقاطعه ويلد بخيبة ترى الشاعر فيه راسفاً فى قيد ثقيل يمنعه ان يجرى جريه المعتاد

قصيدة سونى فى شكسبير

ولشوقي قصيدة فى شكسبير بالغ بها فى مدح عظمة الانكليز فقال :

اعلى الممالك ما كرسيه الماء وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة المنش حلاً كم ابواً تكلم ما لم يطوّق به الابناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس عزّه فى العرب باذخة فى الشرق قعساء
تاوى الحقيقة منه والحقوق الى ركن بنساء من الاخلاق بنساء
اعلاه بالنظر العالى ونطقه بحائط الرأى أشياخ اجلاء
وحاطه بالقنبا فتیان مملكته فى السلم زهر ربى فى الروع ارزاء

يستصر خون ويرجى فضل نجدتهم كأنهم عرب في الدهر عرباء
ودولة لا يراها الظن من سمة ولا وراء مداها فيه علياء
عصاء لا سبب الرحمن مطرح فيها ولا رحم الانسان قطعاء
تلك الجزائر كانت تحتهم ركناً وراءهن لباغى الصيد عنقاء
وكان ودهم الصافي ونصرتهم للمسلمين وراعيهم كما شاءوا
لا نزاع في عظمة الانكيز المادية وفي كثير من عظمتهم المعنوية وان كانت هذه قد
غدت تتضاءل في نظر الناس شيئاً فشيئاً وصار ثوبها يشف عما تحته . وعلى كل حال
فقد أصاب شوقي بتقييد ود الانكيز الصافي للمسلمين بفعل « كان » إذ أننا اذا نظرنا
الى العصر الأخير لا نجد لهذا الود أثراً يستحق أن ينوه به . ثم قال في شكسبير :
مأجبت مثل شيكسبير حاضرة ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحده إنكناثاً شرفاً ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء
كان كارليل يقول : ان شكسبير أفضل عندنا من الهند .
لم تكشف النفس لولاه ولا بليت لها سراير لا تحصى واهواء
شعر من النسق الأعلى يؤيده من جانب الله الهام وايحاء
سبق لى كلام نقله المنفلوطى وهو ان الشعر هو من الوحي بمكان الدرجة الثانية
من العلياء

ثم انه يخاطب شكسبير فيقول له : قد افضيت اليها عن الحياة باسرار لم يكشفها حتى
الآن شاعر قبلك فهل تقدر أن تفضى اليها بشيء عما بعد الحياة ؟ فان السر هو هنا
يا صاحب العصر الخالى ألا خبر عن عالم الموت يرويهِ الألباء
أما الحياة فامر قد وصفت لنا فهل لما بعد تمثيل وإدناء
ثم يسأله عن حجمته ماذا جرى عليها بعد موته فيقول :

عن أماتك قل لى كيف حجمته غرباء في ظلمات الأرض جوفاء
كنت سماء بيان غير مقلمة شؤبونها غسل صاف وصهباء
فأصبحت كأصيص غير مفتقد جفته ريحانة للشعر فيحاء
الأصيص نصف الجرة يزرع فيها الرياحين

وكيف بات لسان لم يدع غرضاً ولم تفتنه من الباغين عوراء
عفا فامسى ذنابى عقرب بليت وسمها فى عروق الظلم مشاء
وما الذى صنعت أيدى البلى بيد لها الى العيب بالاقلام ايماء
فى كل أكلة منها اذا انبجست برق ورعد وأرواح وانواء
وابن تحت الثرى قلب جوانبه كانهن لوادى الحق ارجاء
تصفى الى دقه أذن البيان كما الى النواقيس للرهبان إصغاء
اثن تمشى البلى تحت التراب به لا يؤكل الليث الا وهو أشلاء
وصف جمجمة شكسبير بما لم يصف به شاعر رأس شاعر وقال ان رأساً جباراً
كهذا الرأس لا يسطو عليه الا الثرى الذى يجعله أجزاء كالليث لا يؤكل الا اذا صار
أشلاء . ومن أحسن ما ورد فى هذه القصيدة ذكره للمدينة العصرية التى كان ترقى
الانسان فيها بالعلم سبباً لزيادة تفننه فى ضروب القتل والافناء فهو يقول :

يا واصلف الدم يجرى ههنا وهنا قم انظر الدم فهو اليوم دائماً
قال : يا شكسبير قد كنت تصف الدم يجرى من هنا ومن هناك أشبه بجداول
وتجد ذلك فظيماً فقم اليوم وانظر الدم فانه ليس بجداول ولا بانهار وليكنه دائماً أى
بحر عجاج متلاطم بالأمواج ، ثم قال :

لاموك فى جعلك الانسان ذئب دم واليوم تبدو لهم من ذاك أشياء
وقيل اكثر ذكر القتل ثم أتوا ما لم تسمه خيالات وأنباء
كانوا الذئاب وكان الجهل داءهم واليوم علمهم الراقى هو الداء

قصيدة شوفى فى كتاب حافظ عوض عن تاريخ مصر الحديث

ولشوق أبيات فى كتاب فتح مصر الحديث للاستاذ الفاضل السياسى المحنك
حافظ بك عوض يبدأ فيها بذكر الصاحب الأمين الذى هو الكتاب فيقول :
انا من بدل بالكتب الصحابا لم أجدر لى وافيّاً الا الكتابا
صاحب ان عبته أو لم تعب ليس بالواجد للصاحب عابا
صالح الاخوان يبغيك التقى ورشيد الكتب يبغيك الصوابا

ثم اختص التاريخ من بين الكتب بزيادة الاجلال فقال :

غال بالتاريخ واجعل صفحه من كتاب الله في الاجلال قابا
واطلب الخلد ورمه منزلا تجد الخلد من التاريخ بابا
عاش خلق ومضوا ما نقصوا رقعة الأرض ولا زادوا الترابا
أخذ التاريخ مما تركوا عملاً أحسن أو قولا أصابا

يقول: كم عاش أمم وأقوام ومضوا فما قدروا أن ينقصوا الارض ولا أن يزيدوها حبة
تراب وإنما تركوا ما حفظه لهم التاريخ لا غير . وهو كما قال الآخر وهو ابن دريد :
وانما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ثم يصف القوم بدون تاريخ لهم فيقول :

مثل القوم نسوا تاريخهم كالقبط عى فى الناس انتسابا
أو كغلوب على ذا كرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا
ثم يصف العربية الفصحى أيد الله سلطانها فيقول :

ان للفصحى زماماً ويداً تجنب السهل وتقتاد الصعابا
لغة الذكر لسان المجتبى كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها ان صادفت منزلاً رجلاً واهلاً وجنابا

يقول: ان لغة القرآن ولسان المصطفى عليه السلام ليست باللغة التى يعيها اجابة من
يناديه الى البيان عن ضرب من ضروب القول والاعراب عن خالج مهما دق من
خوالج النفس وهى لعمري مليئة بجوانح كل عصر بشرط أن تجد من يحسن الاطلاع
على دقائقها والاضطلاع بمحقاتها . ثم يذكر كيف كان الأزهر هو الكوكب الوحيد فى
دجنة أيام المماليك فيقول :

ظلمات لا ترى فى جينحها غير هذا الأزهر السمع شهابا
زيدت الأخلاق فيه حائطاً فاحتفى فيها رواقاً وقبابا
قسماً لولاه لم يبق بها رجل يقرأ أو يدري الكتابا
ولشوقى وصف للجبرتي المؤرخ ينطبق عليه أحسن انطباق فهو يقول عنه :

صحف الشيخ ويوميانه كزمان الشيخ سقما واضطرابا
من حواش كجليد لم يذب وفصول تشبه التبر المذابا
والجبرتي على فطنته مرة يغبي وحيناً يتغابي
أى انه يجمع الفطنة والغبابة فى نسق واحد وهو من الأصل فطن شديد الذكاء
الا أنه قد يتغابي أحياناً بحسب غرضه .

ثم يذكر أيام مصر فى حروبها ، فقال ان المصريين فيها لهم وعليهم . فى وقعة
نصيبين التى يقول لها الأتراك وقعة رزب لبسوارداء الفخر، وفى وقعة التل الكبير
التي على أثرها احتل الانكليز مصر التحفوا رداء الذل . ثم ذكر وقعة الاهرام
ووصف جيش نابليون فقال :

شهد الجيزى^(١) منهم عصبة لبسوا الغار على الغار اعتصابا
كذئاب القفر من طول الوغى واختلاف النقع لونا وإهابا
قادهم للفتح فى الأرض فتى لو تأنى حظه قاد السحابا
ثم ذكر عجز المصريين يوم اقتحم بلادهم بونابرت فقال :
وبنو الوادى رجالات الحمى وقفوا من ساقاة الجيش ذنابى
موقف العاجز من خلف الوغى يحرس الاحمال أو يسقى مصابا

زهريه سرنايه لشوقي

هذا ولما كان شوقي يابى الا أن يجيد فى كل لون من ألوان التأثير بمظاهر الحياة
عالج أيضا الزهريات بما يناسبها من شعره نضارة ورونقا فقال فى الربيع :

آذار أقبل قم بنا يا صاح حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندائى الظرف تحت لوائه وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فتخذ لنفسك قسطها فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا لتجاوب الأوتار والأقداح
واستأنس من السقاة برفقة غر كأمثال النجوم صباح

واجعل صبوحك في البكور سلبية
للمنجبين : الكرم والتفاح
ثم يذكر الحمام فيقول :

بيض القلائس في سواد جلابب
رتلن في أوراقهن ملاحناً
ثم يقول عن الربيع :

ملكُ النبات فكل أرض داره
منشورة أعلامه من أحمر
لبست لمقدمه الحائل وشيها
يغشى المنازل من لواظظ نرجس
ورؤس منشور خفضن لعزه
الورد في سرر الفصون مفتح
مر النسيم بصفحتيه مقبلاً
هتاك الردى من حسنه وبهائه
ينبئك مصرعه وكل زائل
ويقائق النسر في أغصانها
والياسمين نقيه ولطيفه
متألق كحلل الفصون كأنه
والجلنار دم على أوراقه
وكان محزون البنفسج ثاكل
والسرو في الحبر السوابغ كاشف
والنخل ممشوق القدود معصب
كبنات فرعون شهدن مواكبا
وترى الفضاء كحائط من مرمر
القيم فيه كالنعمام بدينة

تلقاه بالأعراس والأفراح
قان وأبيض في الربى لمّاح
ومرحن في كنف له وجناح
آناً وآناً من ثغور اقحاح
تيجانهن عواطر الأرواح
متقابل يثنى على الفتحاح
مرّ الشفاء على خدود ملاح
بالليل ما نسجت يد الإصباح
ان الحياة كغدوة ورواح
كادر ركب في صدور رماح
كسيرة المتنزه المسماح
في بلجة الافنان ضوء صباح
قاني الحروف كخاتم السفاح
ياقي القضاء بخشية وصلاح
عن ساقه كأيحة مفراح
متزين بمناطق ووشاح
تحت المراوح في نهار ضاح
نضدت عليه بدائع الألواح
بركت وأخرى خلقت بجناح

الى أن يقول في وصف السواقي التي ترفع الماء :

وجرت سواقي كالنوادب بالقرى رُعن الشجى بأنة ونواح
الشاكيات وما عرفن صباية الباكيات بدمع سحاح
من كل بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح
وما زال الشعراء يصفون أنين السواقي والنواعير، وأشهر هذه في الأنين والبكاء
نواعير مدينة حماة على وادي الماصي التي صارت مضرب المثل لارتفاع دوايلها التي
قد يبلغ الواحد منها ثمانية أمتار فيكون لها أنين يسمع الى مسافة بعيدة . هذا وليس
في زهریات الشعراء أجمع ما يبدؤ زهرية شوقي هذه التي قدمها الى الكاتب الروائي
الشهير (هول كين) وختمها بخطاب له يقول فيه :

(هول كين) مصر رواية لا تنتهي منها يد الكاتب والشراح
فيها من البردي والمزموور وال تورااة والفرقان والاصحاح
(ومنا) و (قبيز) الى اسكندر فالقيصرين فذی الجلال صلاح
يريد بصلاح صلاح الدين الأيوبي بعد ذكره أعظم من ملكوا مصر ثم يقول
لهذا الكاتب العظيم :

تلك الخلائق والدهور خزانة فابعث خيالك يأت بالفتاح

قصيدة شوقي في مسجد أياصوفيا

وله في مسجد أياصوفيا

كنيسة صارت الى مسجد هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرما فانتبت بنصرة الروح الى أحمد
شيدها الروم واقيا لهم على مثال الهرم الخلد
تنبيء عن عز وعن صولة وعن هوى للدين لم يخمد
مجامر الياقوت في صحنها تملأه من ندها الموقد
ومثل ما قد أودعت من حلى لم تتخذ دار ولم تحشد
كانت بها العذراء من فضة وكان روح الله من عسجد

عيسى من الأم لدى هالة والأم من عيسى لدى فرقد
جلاهما فيها وحلاهما مصور الروم القدير اليد
ومنها :

قد جاءها (الفتاح) في عصابة من الاسود الركع السجود
رعى بهم بنيانها مثل ما يصطدم الجلمد بالجلمد
وما تواني الروم يقدونها والسيف في المفدى والمفتدى
ثم يقول عن السلطان محمد الفاتح :

بفاتح غاز عفيف القنا لا يحمل الحقد ولا يعتدى
أجار من ألقى مقاليد منهم وأضفى الامن المرتدى
وناب عما كان من زخرف جلالة المعبود في المعبود
فيالنار بيننا بعده أقام لم يقرب ولم يبعد
باق كنثار القدس من قبله لا ننهي منه ولا يبتدى
فلا يغرنك سكون الملا فالشر حول الصارم المغمد

انى أرى المختار من شعر شوقي انما يكثر في الاوابد ووصف المباني والمشاهد وكل
ماله صلة بالتاريخ فلذلك يعلو في هذه السموات مالا يعلو في غيرها، فشعره في المواضيع
التاريخية والملاحم ينحط عنه كل سيل بلاغة ولا يرتقى اليه طير فصاحة ولذلك أفضل
قصائده في هذه المقامات الهائلة على قصائده في الغزل والنسيب والرياء والمديح مع رقة
الأولى وجزالة الثانية .

وانظر الآن الى قصصيته السينية الاندلسية فان شوقي في أيام الحرب الكبرى
قد ارتحل الى الاندلس وزار أنحر ماثر العرب فيها قال : وكانت البحترى رحمه الله
رفيقى في هذا الترحال وسميرى في الرحال فانه أبلغ من حلى الأثر وحي الحجر
ونشر الخبر وحشر العبر ومن قام في مأثم على الدول الكبرى الخ ثم استشهد بالهاد
الاصفهانى صاحب « الفتح القسى في الفتح القدسى » وهو قوله : فانظروا الى ايوان
كسرى وسينية البحترى في وصفه تجددوا الايوان قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته
وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها كسرى في ديوانه أضعاف ما بقى شخصه في ايوانه اهـ

قلت : من حيث أراد شوقي معارضة البحترى في سينيته الكسروية فيحسن
أن نورد قصيدة البحترى هذه وبمدها قصيدة شوقي ثم نقابل بينهما . ولا يعيب شوقي
أن قصر عن البحترى في مداه البعيد والبحترى ثالث ثلاثة مع أبي تمام والمتنبي

سينية البحترى في البواء كسرى

صنت نفسى عما يدَّسُ نفسى	وترفعت عن جدا كل حبس
وتماسكت حين زعزعى الدهـ	ر التماساً منه لتعسى ونكسى
بالغ من صباة العيش عندي	طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد ما بين وارد رفيه	غلل شربه ووارد خمس
وكان الزمان أصبح محمو	لا هواه مع الأخس الأخس
واشترأى العراق خطة غبن	بعد بيعى الشام بيعة وكس
لا تترنى مزاولا لاختبارى	عند هذى البلوى فتنكر مسى
وقديماً عهدتى ذا هنات	آيات على الدينئات شمس
ولقد رابى نبوء ابن عمى	بعد لين من جانبيه وأنس
واذا ما جفيت كنت حرباً	أن أرى غير مصبح حيث أمسى
حضرت رحلى المموم فوجه	ت الى أبيض المدائن عنسى
أتلى عن الخطوط وآسى	لحل من آل ساسان درس
ذكرتهم الخطوب التوالى	ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهم خافضون فى ظل عال	مشرف يحسر العيون ويخسى
معلق بابه على جبل القـ	ق الى دارقى خلاط ومكس
حلل لم تكن كأطلال سعدى	فى قفار من البساسيس ملس
ومساع لولا المحابة منى	لم تطقها مسعاة عنس وعيس
نقل الدهر عهدهن عن الجـ	دة حتى غدون النضاء لبس
فكان الجرماز من عدم الأنس	واخلاله بنيسة رمس

الجرماز بالسكسر بناء عظيم كان عند أبيض المدائن وقد عفا أثره، جاء ذلك في تاج العروس . وقد أشرنا الى هذا عمداً لأنه لا يوجد في العربي لفظ الجرماز وإنما يوجد في الجرموز قالوا عنه انه الحوض المتخذ في قاع أو روضة ويكون مرتفع الأعضاء فيسيل منه الماء ثم يفرغ بعد ذلك. وقيل الجرماز البيت الصغير وقيل الجرماز الركبة فوجب التنبيه الى أن الجرماز مكان معين

لو تراء علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبئك عن عجائب قوم لا يشاب البياض فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتمت بين روم وفرس
والنبايا موائل وأنو شر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
الدرفس كدمقس ، وهو العلم الكبير وقد قالوا ان هذا البيت هو بيت
هذه القصيدة

في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بمامل رمح ومليح من السنن بترس
تصف العين أنهم جد احياء لهم بينهم اشارة خرس
يفتلى فيهم ارتياح حتى تتقراهم يداي بلبس
قد سقاني ولم يصرد أبو الغوث على العسكرين شربة خلص
من مدام تقولها هي نجم أضوا الليل أو مجاجة شمس
وتراها اذا أجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسى
أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس
وتوهمت أن كسرى أبرويد ز معاطى والبلهيد أنسى

ما هتديت الى الآن الى معنى البلهيد الذي هو لفظ فارسي فيما يظهر
حُلم مطبق على الشك عيني أم أمان غيرن ظني وحدثني
وكان الايوان من عجب الصندمة جوب في جنب أرعن جلس

يتضمن من الكآبة أن يهـ سـدو لعينى مصبح أو ممسى
مزعجاً بالفراق عن أنس الف عزّ أو مرهقاً بتطايق عرس
عكست حظه الليالى وبات الـ مشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلداً وعليه كـلـكل من كلال الدهر مرسى
لم يعبه ان يز من بسط الـ باج واستل من ستور الدمقس
مشمخر تملو له شرفات رفعت فى رءوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تب صر منها الا غلائل برس
البرس هو القطن والغلائل جمع غلالة بالكسر وهو شعار يلبس تحت الثوب
وتحت الدرع ويجوز أن يكون (فلائل) جمع فليلة وهو الشعر المجتمع ولكن الأول
هو الأقرب

ليس يدرى أضعف انس لجن سكتوه أم صنع جن لا انس
غير أنى أراه يشهد ان لم يك بانيسه فى الملوك بنكس
فكأنى أرى المرانب والقو م اذا ما بلغت آخر حسى
وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقاصي ر يرجحن بين حو ولعس
وكان اللقاء أول من أم س ووشك الفراق أول أمس
وكان الذى يريد انباءً طامع فى لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرًا فصارت للتعزى رباعهم والتأسى
فلها ان أعينها بدموع موقوفات على الصباية حبس
موقوفات حقها أن تكون موقوفات ولكن البحترى تكلم هنا بلغة عيم فكانوا
يقولون أوقف بمعنى وقف وأنكرها الأصمى وقال الكلام وقف بغير الف وجاء عن
بعضهم ما عسك باليد يقال فيه أوقفته وما لا عسك باليد يقال فيه وقفته

ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غرس

أيدوا ما كننا وشدوا قواه بكهامة تحت السنور نحس
وأعانوا على كتائب أريا ط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالاشراف طراف من كل سنخ وأس
من تأمل في هذه القصيدة وما ختمها به البحترى لم يجد نظمها مجرداً لاجلال
الفن والتنويه بعظمة البنيان الذي لا تزال فخامته دليلاً على عظمة الملوك الذين بنوه
وبعد شأوهم في العمران . وإنما اتخذها أبو عبادة فرصة للتغنى بمجد فارس التي كان
ينتسب اليها كثيرون من أمراء الدولة العباسية ومن هؤلاء من كان يسنى العطاء
للبحترى ويواصل اجازته بحيث لم يكن يدع فرصة يتغنى بها بمجد فارس الا ويتوردها
فكم جاء ذلك في شعره ، فمنه قصيدة يمدح بها ابراهيم بن الحسن بن سهل قال فيها :

اسادة أبي عبادة بمجد المعجم

كسروى عليه منه جلال يملأ الهو من بهاء ونور
وترى في روائه بهجة الملاك اذا ما استوفاه صدر السرير
واذا ما أشار هبت صبا المسك وخت الايوان من كافور
يا ابن سهل وأنت غير مفق من بناء العليا أخرى الدهور
ان للمهرجان حقاً على كل كبير من فارس وصغير
عيد آبائك الملوك ذوى التيجان أهل النهى وأهل الخير
من قباذ ويزدجرد وفير و كسرى وقياسم ازدشير
شاهدوه في حلبة الملك يغدو ن عليه في سندس وحرير
وله فيه أيضاً من قصيدة أخرى :

مجد سهل والفضل والحسن والاحسان في مجدك الرفيع الشريف
كسرويون أوليون في السوء دد بيض الوجوه شم الانوف
وقال فيه أيضاً ولم يغفل نسبه الساساني ولا تاجه الخسرواني :
آل سهل أنتم عيون بني ساسان جوداً ونجدة وحلوما
(م - ٢٠ شوقي)

كسروى تلقاه في الحرب ليثا قسوريا وفي الندى حكيا
وقال أيضا من قصيدة أخرى :

قد ورثت العلياء عن ازدشير وقباز وعن أنو شروان
وأرى الليل والنهار سواء حين تبدو بوجهك الاضحيان
وقال أيضا :

أفتى بنى الحسن بن سهل أنهم فتيان فارس نجدة وحلوما
لا توجبن لكريم أصلك مئة لو كنت من عكل لكنت كريما
وللهجري في احمد بن على الاسكاف ويظهر أنه كان من غطاريف فارس :
همة تزدل الدنيا ونفس شرفت أن تهتم بالاشراف
وعلى في الصبيذين وددنا انها في الزبود والاعواف
قدمته قوادم الريش منهم حين خاست بأخرين الخوافي
رھط سابور ذى الجنود وظلا ب مساعى سابور ذى الاكتاف

وصف البحري لواقعة بحرية

وله في مدح احمد بن دينار بن عبد الله وكان أمير البحر وقد غزا بلاد الروم ويظهر
أنه من أصل فارسي :

نظن النجوم الزهر بتن خلافا لأبلج من سر الاعاجم أزهرا
هو الغيث يجرى من عطاء ونائل عليك فيخذ من صيب الغيث اوذر
ولما تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر
وله في وصف مركبه الخاص :

غدونا على اليمون صبحا وانما غدا المركب اليمون تحت المظفر
أطل بعطفه ومر كأنما تشرف من هادى حصان مشهر
اذا زبحر النوى فوق علاته رأيت خطيبا في ذؤابة منبر

اذا عصفت فيه الجنوب اعلى له جناحا عقاب في السماء مهجر
 اذا ما انكفي في هبوة الماء خلته تلفع في أثمان برد محبر
 وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دار عين وحسر
 اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الا عن شواء مقتر
 صدمت بهم صهب العنانين دونهم ضراب كابقاد اللظى المتسعر
 يريد بصهب العنانين الروم الذين غزاهم ذلك الأمير مجراً . ثم يقول :
 يسوقون أسطولا كأن سفينهم سحائب صيف من جهام وممطر
 كأن ضجيج البحرين زماحهم اذا اختلف الترجيع عود مجر جر
 لك أن تقول عود مجر جر أى مصوت من جرجر أى صوت ، ولك أن تقول انه
 كبير من الابل يردد رغاء في حنجرتة من جرجر البعير أى ردد رغاء
 فمارمت حتى أجلت الحرب عن طلى مقطعة فيهم وهام مطير
 على حين لا تقع تطوحيه الصبا ولا أرض تلقى للصريع المقطر
 وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليا بأن توهى صفات ابن قيصر
 جدحت له الموت الذعاف فمافه وطار على ألواح شطب مسمر
 مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يول الصنيعة يشكر
 اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى في انحدار الموج لحظة أخزر
 تعلق بالأرض الكبيرة بعدما تنقصه جرى الردى المتمطر
 وله فيه أيضاً من قصيدة :
 له سلف في آل فيروز برزوا على المعجم وانقادت لهم حفلة العرب
 مرازمة الملك التي نصبت لهم منابر العظمى جيابرة الحرب
 لهم بنى الايوان في عهد هرمز وأحكم طبع الخسروانية القضب
 ودارت بنو ساسان طراً عليهم مدار النجوم السائرات على القطب
 وله أيضاً في مدح يعقوب بن احمد بن صالح :
 كريم من أرومة شيرزاد نفخه الجهارة والبيان
 وما تخفى المكارم حيث كانت ولا أهل المكارم حيث كانوا

وله في مدح الحسن بن مخلد ويظهر انه كان فارسي النسب :
 قوم أشاد بعليهم وورثهم كسرى ابن هرمز نجداً واضح الأمان
 الأمان يسكن ويحرك

تسمو بواذخ ما يبنون من شرف
 الفاعلون اذا لدنا بظلمهم
 لله انتم فانتم اهل مآثرة
 ان جئتموها فليست بكر أنعمكم
 أيام رد انوشروان ملكهم
 وله في ابراهيم بن المدبر :

نشدوا في بني المدبر عهداً
 في المحل الجليل من رتبة الملا
 للندي الأول الاخير الذي برّ
 هي اكرومة نمت من بني سا
 للصریح الصريح والاشرف الاش
 وله في اسماعيل بن نبيخت :

ما للمكارم لا تريد سوى ابي
 والى ابي سهل بن نبيخت انتهى
 نسباً كما اطردت كعبو مثقف
 يقضى الى ييب ابن جوزر الذي
 اعقاب املاك لهم عاداتها
 الوارثون من السرير سراته
 والضاربون بسهمة معروفة
 يعقوب اسحق ابن اسماعيل
 ما كان من غرر لها وحجول
 لدن يزيدك بسطة في الطول
 شهر الشجاعة بعد فرط خمول
 من كل نيل مثل مدّ النيل
 عن كل ربّ تحية مأمول
 في التاج ذى الشرفات والاكيل

قد استوفينا هنا اكثر ما تهافت عليه البحتری من الاشادة بمجد العجم وذ كر
 ملكهم القديم وحسبهم الصميم ، ولا نزاع في أن ممدوحيه من امراء الدولة العباسية

الدين ينتمون الى الفرس كانوا اولى حسب ضخم وسؤدد نغم ولكن لم نجد مثل
البحترى في شعراء العرب من ينوه بمجد العجم بأسراف فلا عجب ان نظم تلك القصيدة
الحالدة في وصف ايوان كسرى وانتهى منها الى مدح فارس وذكر مواقف رجالات
الفرس من خدمة الخلافة الاسلامية

سينية شوقي

ولنعد الآن الى شعر شوقي ونثبت سينيته الاندلسية التي يليق أن تقرن بسينية البحترى .
يقول شوقي انه اتخذ قصيدة البحترى مثالا ونسج على منوالها وقد صرح عن ذلك
بقوله: ثم جعلت أروض القول على هذا الروى وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه
القافية المهلهلة وأتممت هذه الكلمة الرقيقة اهـ .

وقد تأملت في معارضة شوقي للبحترى فوجدت القسم الأول من قصيدته نازلا
نزولا بارزا عن طبقة البحترى الا أنه عند ما وصل الى الأوابد وشرع في وصف الملاحم
والوقائع رجع فأخذ يعلو حتى قارن البحترى سائرا وأياه الكتف مع الكتف . قال:

اختلاف النهار والليل يُنسى أذكرا لى الصبا وأيام أنسى
ورِصفا لى مُلاوةٍ من شباب صُورت من تصورات ومس
الملاوة مثلثة : البرهة من الدهر

عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنة حلاوة ولذة خلس
وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسى
جانس شوقي هنا بين « سلا » و « سلا » الاولى من السؤال والثانية من السلو
وقد سبق لى هذا الجناس نفسه ولم أكن اطلمت على شعر شوقي هذا وهو فى قولى
فى رثاء الشيخ عبد القادر الشيبى سادن البيت الحرام رحمه الله .

سلانى هل على بعدٍ سلانى وهل كان الغياب سوى العيان
ثم قال :

كلما مرت الليالى عليه رقى والعهد فى الليالى يقسى
مستطار اذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس

راهب في الضلوع للسفن فطن كلما ثرن شاعره بنفس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ماله مولعاً بمنع وجبس
احرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس
كل دارٍ أحق بالأهل الا في خبيث من المذاهب رجس
ما رأيت في هذا الشعر الى هنا سوى التكلف والتعمل كأنما شوق يقطع في
صوان فلشد ماتي من عناء المعارضة وقد حاول مباراة مثل البحترى الا أنه مالبث أن
أسلس له القول فقال :

نفسى مرجل وقلبي شرع بهما في الدموع أسرى وأرسى
فاجعل وجهك (الفئار) ومجرا ك يد الثغر بين رمل ومكس
الثغر هو الاسكندرية وهذا هو اسمها من قديم الزمان والرمل والمكس هما من
ضواحيها . ثم قال :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه في الخلد نفسى
هذا بيت خالد ومعنى طريف أى أنه لو سكن الجنة لبقى ينزع الى وطنه مصر
وكأنه يشير الى بيت المتنبي :

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبى موجه القلب با كيا
ثم يقول :

وهذا بالفؤاد في سلسبيل ظمأً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يخل حسى
يصبح الفكر و (المسلة) ناد يه و (بالسرحة الزكية) يمسى
وكأنى أرى الجزيرة أيسكا نغمت طيره بأرخم جرس
هى بلقيس فى الخائل صرح من عباب وصاحب غير نكس
حسبها أن تسكون للنيل عرساً قبلها لم يجن يوماً بعرس
لبست بالأصيل حلة وشى بين صنعاء فى الثياب وقس

ينسب الوشى عادة الى صنعاء وهنا مكان آخر تنسب اليه الثياب وهى القسيمة
وهى ثياب من كتان مخلوط من حرير كانت تجلب من بلدة يقال لها القس بين العريش

والفرما من أرض مصر وهى على ساحل البحر الملح قال فى تاج العروس انها خربت
من زمان ولم يبق الا آثارها . وهناك تل عظيم من رمل خارج فى البحر الشامى . قال
وقد يكسر القاف فى قس وأهل مصر يقولونه بالفتح

قدها النيل فاستتحت فتواتر منه بالجسر بين عرى ولبس
وأرى النيل كالعقيق بوادي له وان كان ككور المتحسى
وادی العقيق هو فى المدينة المنورة وكانت فيه أيام عمران المدينة القصور الباذخه
والجنان الغناء

ابن ماء السماء ذو الموكب الفخ م الذى يحسر العيون ويحسى
أخذ جملة « يحسر العيون ويحسى » من كلام البحترى . ثم قال :
لا ترى فى ركابه غير مثن بجميل وشاكر فضل غرس
ورأى الجيزة الحزينة ثكنى لم تفق بعد من مناحة رمس
يريد برمس الملك رمسيس ولكن رخم الاسم نظير قولهم : « يا حار » أى ياحارث
و « يا أحم » أى يا أحمد . والترخيم نوع من أنواع البديع وفى بديعية ابن حجة الحموى
« كالأغصان حين تمى » أى تيمس وتميل وتميد .

أكثرت ضجة السواقى عليه وسؤال اليراع عنه بهمس
اليراع هنا هو القصب

وقيام النخيل ضفرن شعراً وتجردن غير طوقٍ وسلس
سلسلت النخلة ذهب كربها محرقة وهو أصول السعف الغلاظ

وكان الأهرام ميزان فرعو ن بيومٍ على الجبار نحس
أو قناطره تأنق فيها ألفُ جاب وألف صاحب مكس
روعة فى الضحى ملاعب جنّ حين يغشى الدجى حماها ويغشى
(ورهين الرمال) أفطس الا أنه صنع جنة غير فطس
يشير الى أبى الهول

تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق فى أسارى إنسى

لعب الدهر في ثراه صبيهاً والليالي كواعباً غير عنس
ركبت صبيد المقادير عيني به انقد وخلبيه لفرس
فأصابت به الممالك كسرى وهرقلاً والعبرى الفرنسى

العبرى الفرنسى هو نابليون بونابرت

يا فؤادى لكل أمرٍ قرارٌ فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقالت لجة الأمور عقولاً كانت الحوت طول سباح وغس
غرت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس
فلك يكشف الشمس نهارةً ويسوم البدور ليلة وكس

ليلة الوكس هي ليلة دخول البدر في نجم منجوس

ومواقيت للأمر إذا ما بلغت الأمور صارت لمكس
دول كالرجال مرتينات بقيام من الجدود وتعس
وليل من كل ذات سوار لظمت كل رب روم وفرس
من هنا بدأ شوقي يسامت البحترى لأنه انما يستولى على أمد الاجادة في الملاحم

ثم قال :

سددت بالهلال قوساً وسات خنجرًا ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون (خوفو) و(دارا) وعفت وائلًا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش أموى وفي المغارب كرسى
أى كان ابنى أمية في الشام عرش عم الاسلام وفي قرطبة كرسى خص الأندلس
سقمت شمسهم فرد عليها نورها كل ثاقب الرأى انطس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس
وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس
أى ان إيوان كسرى كان موعظة للبحترى وأما أنا فبلغت منى غاية الوعظ قصور
بنى أمية آل عبد شمس

رب ليل سريت والبرق طرفى وبساط طويت والريح عنسى

أنظم الشرق في الجزيرة بالغر ب واطوى البلاد حزناً لدس

أى اطوى شرق الجزيرة الأندلسية وغربها واجوب وعرها وسهلها .

في ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طمس

كان امراء بنى امية في قرطبة لا يقدرّون أن يدعوا الخلافة فلم يكن يقال لهم
الخلفاء بل كان هذا اللقب لبني العباس بل كان يقال لأمرأ قرطبة الخلائف كناية
عن أنهم ذرية الخلفاء آبائهم الذين كانوا بالشام وبقي ذلك الى زمان الناصر عبد الرحمن
الثالث فهو أول من تلقب بالخليفة من أمراء قرطبة .

وأما الطوائف فهم ملوك الأندلس المتفرقون بعد أن انتشر سلك الخلافة فيها مثل
بنى جهور في قرطبة وبنى ذى النون في طليطلة وبنى هود في سرقسطة وبنى رزين في
السهلة والموالى العماريين في بلنسية ودانية وبنى صامح في المرية وبنى عبّ د في اشبيلية
وبنى الأفطس في بطليوس وهلم جرا

وربى كالجنان في كنف الزيد تتون خضرو في ذرا الكرم طلس

لم يرعى سوي ثرى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسي

يا وقي الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى

قرية لا تعدّ في الأرض كانت تمسك الأرض أن تميد وترسى

غشيت ساحل المحيط وغطت لجة الروم من شراع وقلس

ركب الدهر خاطرى في تراها فأنى ذلك الحمى بعد حدس

الحدس هنا ليس الظن والتخمين بل هو بمعنى السير على غير هداية

فتجلت لى القصور ومن فيه بها من العز في منازل قعس

ماضت قط في الملوك على نذل المعالى ولا تردت بنجس

وكأنى بلغت للعلم بيتاً فيه مال العقول من كل درس

قدساً في البلاد شرقاً وغرباً حجّة القوم من فقيه وقسّ

كانت قرطبة في وقتها مدينة العلماء لم يخرج من العلماء من خرج من قرطبة
لا في الكمية ولا في الكيفية وكان اذا أجمع أهالى قرطبة على شيء فعليه تكون

الفتوى وكان فيها العلم بأنواعه وفنونه وكما كانت قرطبة عاصمة الاسلام في العلم فقد كان الى جانب علماء المسلمين فيها أحبار وأقسة يفتون في دين النصرانية ولهم بيع وأديار مشهورة

وعلى الجمعة الجلالة و(النا صر) نور الخيس تحت الدرس
ينزل التاج عن مفارق (دون) ويحلى به جبين (البرنس)

يتكلم عن الخليفة عبد الرحمن الناصر وعن جلالة الجمع التي كان يشهدها في المسجد الأعظم بقرطبة أو في مسجد الزهراء المدينة التي كان شيدها لسكنائه في سفح جبل العروس من قرطبة ويقول انه كان نوراً للجيش تحت العلم الكبير وكانت تلجأ اليه ملوك الافرنج والاسبان وغيرهم وربما خلع بعضها وأدال لبعضها من بعض ولنضرب مثالا على ذلك ماجاء في نفح الطيب :

(وفي سنة ٤٤ بعد الثلاثمائة جاء رسول أردون يطلب السلم فعقد له (أى الناصر) ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتيلة في عهده فأذن له في ذلك وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ، ومال الى أردون بن ردمير . وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكونس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ، ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه . وخلع الجلالة طاعة أردن اليه وبعث الى الناصر يشكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانتته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالشرق وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغبافى الصلح فأجابه الناصر . ووصل بعده رسول صاحب رومة بخطب المودة فأجيب) انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار

قلنا : لم يبق ملك من ملوك ذلك العصر الذى عاش فيه الناصر الا أرسل اليه وفده يخطب وده وأعظمهم اوتون امبراطور المانية الذى طالما تبادل السفارات مع الخليفة الناصر وكذلك امبراطور القسطنطينية الذى كان يرسل الى الناصر الهدايا والالطاف ويوفد الوفود الحافلة .

والى ذلك أشرت فى قصيدتى الأندلسية التى قلت فيها
وصقر قریش حين جاء مشرداً فأنشَبَ فيهم أى ظفرٍ مظفر
وشاد بهانيك القواصى اماراً لها أحفل المنصور والد جعفر
يقال ان أبا جعفر المنصور هو الذى لقب عبد الرحمن الداخل بصقر قریش وقال
« الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبينه »

وخلف أملاكا سموا وخلائفاً أسود عرين منهم كل مخدر
كفى بالامام الناصر الفذ عاهلاً كسا أمة الاسلام حلة مفخر
تقبل أملاك الفرنجة كفه ويقصد على بابه وفد قيصر
غداة تجلى للخلافة رونق به ظهر الاسلام أروع مظهر
وأضحت بها الزهرا تميم جموعها فيالك من يوم أغر مشهر
تلعثم فيه كل رب فصاحة فعيوا سوى قاضى الجماعة منذر
اشارة الى المحفل النادر الذى احتفل به الخليفة الناصر لوفود صاحب القسطنطينية
وذلك فى قصره الزهراء وانتدب كثير من العلماء للكلام فى ذلك المحفل فأرتج عليهم
من شدة المهابة وتكلم ارتجالاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى وكانت خطبة رنانة وهى
مذكورة فى الكتب

ولا تهمل المستنصر الحكم الذى تلاه ومن يستنصر الله ينصر
غدت قبة الاسلام قرطبة على وسارقت الزوراء لحظة أزور
وبارى بنى العباس فيها أمية وجروا على بغداد ذيل التبخر
وكان بها العمران يزخر مثلما تلاطم أمواج الخضم المهدر
ولما رأيت المسجد الجامع الذى بقرطبة من فوق فوق التصور

عضضت على كفى بكل نواجذى
هو الجامع الطامى العباب بوقته
ظلمات به بين الاساطين سائحا
تخيلته والذكر يتلى خلاله
تأمل خليلي كم هنا من مهلل
وكم أزهرت فيه ألوف مصابح
وكم قارى بالسبع في وسط حلاقة
وكم عالم يلتقى على الجمع درسه
وكم ملك ضخم وكم من خليفة
تسند فجاج المغربين جيوشه
وقلت لعيني اليوم دورك فاهمري
يحاكى به عماره لج البحر
بفكرى حتى غاب عنى محضرى
نظير دوى النجل من كل مصدر
الى ربه صلى وكم من مكبر
وكم أوقدت أرتال عود وعنبر
وكم خاطب بالسجع من فوق منبر
وكم واعظ يمرى مدامع محجر
هنا كان يجثو عن جبين معفر
ويبدو هنا في ثوب أشعث أغبر
كان الخليفة الناصر يأتى أحيانا الى المسجد فى الجمع المشهودة مرتديا ثوبا خلقه
تواضعا منه لله تعالى

خليلى تأمل كالعرائس تنجلي
أساطين من صم الجناد موائل
تراها صفوفًا قائمات كأنها
من العمدة الاسنى فكل يتيممة
أجادت تحريها قروم أمية
نبت دونها زرق القؤوس وأصبحت
ولكن لفضل الفن ألقت قيادها
فبينما هى الصم الصلاد اذ انثنت
عرائس للتخريم فوق رؤوسها
ووجه الى المحراب طرفك ينسرح
وحقق بها تيك النقوش وزهوها
وبالقبة العليا يبدو شعاعها
أساطين قد تحصى بألف وأكثر
يذوب لها قلب الحنيف المفكر
حدائق نصت من جناد مشجر
لها نسب من مقطع متخير
معادن شتى من فلذ ومرمر
لدى الفرى تهزأ بالحديد المعصفر
فصالت بها الصناعات صولة عنتر
مقاطع جبن أو قوالب سكر
أكاليل در فى قلائد جواهر
من الصخر فى مثل الطراز المحبر
كأن فاتها صناعاتها منذ أشهر
بألمع من زهر النجوم وأزهر

لو أن الثريا في سماها تعرضت لظلت تحدى للثريا وتزدري

ثم نعود الى سينية شوقي

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من أنيس واذا القوم ما لهم من محس
إشارة الى قوله تعالى (وكم أهلكنا قبلك من قرن هل تحس منهم من أحد أو
تسمع لهم ركزا)

ورقيق من البيوت عتيق جاوز الألف غير مذموم حرس
الحرس بفتح أوله فسكون هو الدهر أو قطعة منه يقال مضى عليه حرس من
الدهر وهو يريد بهذا البيت العتيق مسجد قرطبة . ثم يقول :

أثر من محمد وراث صار للروح ذى الولاء الامس
بلغ النجم ذروة وتناهى بين هلالان فى الأساس وقدس
قدس جبل عظيم بأرض نجد قال الأزهرى قدس وآرة جيلان لمزينة وهما
معروفان بحذاء سقيا مزينة ، وقيل فى الحجاز جيلان كل منهما اسمه قدس : قدس
الأبيض و قدس الأسود وهما عند ورقان وكلاهما لمزينة . والقدس أيضا البيت المقدس
مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء ألفت الوزير فى عرض طرس
يعنى بالوزير ابن مقلة الخطاط الشهير

فترة الدهر قد كست سطريرا ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
السطر بالسكون وبالتحريك : الصف من الشئ

ويحها كم تزينت لعلم واحد الدهر واستعدت الخمس
يريد أن يقول كم تزينت لعالم من أفراد الدهر واستعدت لأقامة الصلوات الخمس
ولو قال كم تزينت لامام كان أحسن
وكأن الرفيف فى مسرح العين ملاء مدنرات الدمقس

وكانت الآيات في جانبيه يتنزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال لم يزل يكتسيه أو تحت (قس)
يريد بمنذر القاضي منذر بن سعيد البلوطي ويُقَسُّ قُس بن ساعده . أى بخطيب
نظيره في الفصاحة

فاما منذر فقد كان مشهوراً بالعدل والصلابة في الحق وقد تولى قضاء
الجماعة في الاندلس وكان الناصر وولده المستنصر يبالغان في تعظيمه ولكنه
لشدة ورعه لم يكن يتوقف عن تقرير الخليفة اذا رأى منه ما يوجب ذلك ولما كان
الناصر كلفاً بالبناء وأمره في هذا الباب مشهور وقد بنى الزهراء التي قدروا النفقة على
بنائها بثلاثمائة الف دينار كل عام واستمر ذلك خمسة وعشرين عاماً حتى قيل ان ما انفقته
على الزهراء بلغ ١٥ من مائة من دخل الدولة كلها وبلغ من انهما كه بالبناء فيها أنه تأخر
ثلاث جمع متواليات عن شهود صلاة الجمعة بمسجد الزهراء وكان القاضي منذر بن
سعيد خطيب ذلك المسجد فلم يصبر على هذا الاهمال ولما صلى الخليفة بعد ذلك صلاة
الجمعة عرض منذر به في الخطبة تالياً في أول خطبته قوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية
تعبدون وتتخذون مصانم لعلكم تخلصون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله
وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون انى
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين)
ثم أخذ ينكلم بما يناسب تلك الآية مترعاً وموبخاً ومورداً ما جاء في هذا المعنى في
كتاب الله الى أن تلا (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من
أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين .
لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وكان
الناصر يسمع ويعلم أن القاضي منذر اتما يشير اليه . ثم قرن منذر بن سعيد هذه الآى
العظام بالاحاديث النبوية والآثار المروية وأضاف اليها من بلاغته النادرة وفصاحته
الساحرة حتى خشع كل المصلين ذلك اليوم ورقسوا وبكوا وضجوا وتضرعوا الى الله
تعالى أن يغفر لهم، وبكى الخليفة نفسه معهم واستعاذ بالله من سخطه، الا انه وجد في
نفسه على منذر لفاظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده الحكم (المستنصر) وقال : والله

لقد تعمّدني منذر بخطبته وما عني بها غيري وكاد بعصاه يقرعني . وأقسم لا يصلي الجمعة وراء منذر وجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف أمام المسجد الأعظم في قرطبة ويجانب الصلاة بجامع الزهراء حيث يؤم منذر بن سعيد . فقال له الحكم : ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته . فقال له الناصر : أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشيد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون وانى لاستحى من الله أن لا اجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شقيماً مثل منذر في ورعه وصدقه ولكنه أخرجني فأقسمت . ولوددت انى أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعمناض منه أبداً اه فتأمل في عظمة أخلاق هذا الخليفة العظيم وفي انصافه من نفسه

ومكان الكتاب يغريك رياً ورده غائباً فتدنو بالمس
صنعة (الداخل) المبارك في الغر ب وآل له ميامين شمس
ثم انتهى شوقي من قرطبة وبدأ يذكر حمراء غرناطة فقال :
من لجرأ جلالت بغير الد هر كالجرح بين برء ونكس
كسنا البرق لو محا الضوء لحظاً لحتها العيون من طول قبس
حصن غرناطة ودار بنى الأح مر من غافل ويقظان ندس
جلال الثلج دونها (رأس شيرى) فبدأ منه في عصائب برس
سرمد شبيه ولم أر شيئاً قبله يرجى البقاء ويمسى
مشت الحادئات في غرف الحم راء مشى النعى في دار عرس
هتكت عزّة الحجاب وفقت سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها واستراحت من احتراس وعس
ومفان على الليالى وضاء لم تجدد للعشى تكرار مس
لا ترى غير وافدين على التا ربح ساعين في خشوع ونكس
يصف زائري تلك المعاهد الذين انما يأتون ليشاهدوا آثار تاريخ ماض

نقلوا الطرف في نضارة آس من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لا زورد وتبر كالربي الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعاني ولألفاظها بأزين لبس
أذكرك بين الكتابات التي قرأتها على جدران الحمراء بالخط المذهب قصيدة لابن
زمرق من كتاب بني الأحمر

وترى مجلس السباع خلاه مقفر القاع من طباء وخنس
لا (الريا) ولا جوارى الثريا يتزلن فيه أقمار انس
الريا احدي ملكات بني الأحمر

مرمر قامت الاسود عليه كلة الظفر لينات المجلس
تنثر الماء في الحياض جماناً يتنزي على ترائب ملابس
آخر العهد بالجزيرة كانت بعد عرك من الزمان وخرس
قترها تقول راية جيش باد بالأس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك باعها الوارت المضيع بيخس
خرج القوم في كتائب صم عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعثاً وكانت تحت آبائهم هي العرش أمس

يقول ان السفن كانت لهم في الآخر نعثاً كما كانت في الأول عرشاً فقد جاءوا
الاندلس راكبين البحر ففتحوها ثم أعادهم أعداؤهم ركوباً في البحر لما برحوها

رب بان لهادم وجوع لشتي ومحسن لخنس
إمرة الناس همّة لا تأتي لجبان ولا تسنى لجبس
واذا ما أصاب بنيان قوم وهي خلق فانه وهي أس

بعد أن أشار الى انقراض ملك العرب بالاندلس بوهي أخلاقهم أحب أن يعظ
أبناء وطنه مصر حتى يتنبهوا ويتجنبوا النبوات والنفلات التي يمثلها تضعع الممالك ،
فقال :

ياديأراً نزلت كالخلد ظلاً وجنى دانياً ومسلال أنس

محسنت الفصول لا ناجر في لها بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رُباها غير حور حو المرأشف لُمس
كُسيَت أفرخى بظلك ريشاً وربا في رُباك واشتد غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هذه الطلول عطات من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

قصيدة شوقي في آثار الإفصر

وخطب روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة عند ما زار الصعيد

بالقصيدة التالية

أيها المنتحى بأسوان داراً كالثرى تريد أن تنقضت
إخلع النمل واخفض الطرف واخشم لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الدعر بعضا
كمن أرى أخفين في الماء بضاً سابحات به وأبدن بضاً
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا
شباب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت أعصر بالسراج والزيت وُضا
وخطوط كأنها هُـدب ريم حسنت صنعة وطولا وعرضا
وضحايا تكاد تمشي وترعى لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها عزمات من عزمة الجن أمضى
ثم يقول :

يا قصوراً نظرتها وهي تقضى فسكبت الدموع والحق يُقضى

(م - ٢١ شوقي)

أنت سطر ومجد مصر كتاب كيف سام البلى كتابك فضا
وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضة
رب سر بجانيك مزال كان جتى على الفراعين غمضا
قل لها فى الدعاء لو كان يُجدى يامساء الجلال لا صرت أرضا
حار فيك المهندسون عقولا وتولت عزائم العلم مرضى
شوقى يعارضى ابن سينا

ولشوقى معارضة لقصيدة الشيخ الرئيس ابى على ابن سينا التى مطلعها
هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتملح
فقال شوقى :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفى هذى المحاسن ما خلقت لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها ستر الجلال وبعد شأو المطمع
يا دمية لا يستزاد جمالها زيديه حسن المحسن المتبرع
يخاطب النفس فيقول لها تبرجى أو تسترى فان محاسنك ما خلقت حتى يسدل
فوقها نقاب فهى محاسن ضاحية ظاهرة وان كان متناولها بعيداً وستر حيلها حاجباً
بينها وبين التأمل فيها، ان حسنك ليس عليه من مزيد أفلا تريدن أن تزيد به بالاحسان.
ماذا على سلطانه من وقفة للضارعين وعطفة للخبثع
بل ما يضرك لو سمحت بجلوة ان العروس كثيرة المتطلع
ليس الحجاب لمن يمز مناله ان الحجاب لهين لم يمنع
يقول : أنت تحرصين على حجابك والحال أن الحجاب أنت فى غنى عنه لأنه
لا وصال اليك وما كان الحجاب الا لغير المنيع

أنت التى اتخذ الجمال لعزه من مظهر ولسره من موضع
وهو الصناع يصوغ كل دقيقة وأدق منك بنانه لم تصنع
يحكم بأن الجمال صناع اليد وأنه صنع بدائع كثيرة ولكنه لم يصنع أدق وألطف
من النفس

لستك راحتك ومسك روحه فأنى البديع على مثال المبدع
البديع يأتى بمعنى المبدع ومنه قوله تعالى (بديع السموات والأرض) وهو
يأتى أيضاً بمعنى المبدع بالفتح كما هو هنا .

الله فى الأحبار من مثالك انضو ومهتوك المسوح مصرع
من كل غاو فى طوية راشد عاصى الظواهر فى سريرة طيم
يتوهجون ويطفأون كأنهم سرج بمترك الرياح الأربع
علموا فضاق بهم وشق طريقهم والجاهلون على الطريق المهيم
يقول : ان الأحبار والحكماء هلكوا من المناء فى البحث عن حقيقة النفس ومنهم
من غوى فى سبيل الرشاد وعصى وهو يريد الطاعة، وكانوا كما آنسوا ناراً خبت فهم
أبداء بين وميض وخمود أشبه بمصاييح لعبت بها الرياح، وما كان العلم فى هذا المقام الا
ليزيدهم خبالاً . أما العامة الجهلاء فهم سائرون على سواء السبيل لأنهم مؤمنون متوكلون
لا يتفلسفون . وهنا يتذكر الانسان قول الفخر الرازى : اللهم ايماناً كإيمان المعجز
ثم يقول :

ذهب ابن سينا لم يفز بك ساعة وتولت الحكماء لم تتمتع
هذا مقام كل عز دونه شمس النهار بئله لم تطعم
فمحمد لك والمسيح ترجلا وترجات شمس النهار ليوشم
ما بال احمد عى عنك بيانه بل ما لعيسى لم يقل أو يدعى
يقال ان شوقى كان قد جعل هذا الشطر (بل ما لعيسى لا يقول ويدعى) فلاحظ
عليه بعضهم بأنه لو قال ذلك لكان المعنى ما بال عيسى لا يشرح لنا حقيقة النفس وهو
يدعى معرفة ذلك فعاد شوقى وغير ما قاله أولاً وقال « بل ما لعيسى لم يقل أو يدعى »
أى لم يقل عن النفس شيئاً ولا ادعى أنه قال عن النفس شيئاً

ولسان موسى انحل الا عقدة من جانبك علاجها لم ينجم
لما حللت بآدم حل الحُبى ومشى على الملأ السجود الركع
أى لما نفخك الله فى آدم استوى قائماً ومشى يبارى الملائكة
وأرى النبوة فى ذراك تكرمتم فى يوسف وتكلمت فى المرضع

وسقت قريش على لسان محمد بالبابل من البيان الممتع
ومشت بموسى في الظلام مشرداً وحدته في قلال الجبال اللامع
حتى اذا طويت ورثت خلاها رفع الرحيق وسره لم يرفع
أى حتى اذا طويت وبقيت أنت خلاها رفعت وبقي أثرها كما يبقى أثر الرحيق
بعد رفعه

النيل في شهر سوفي

ولشوقي يخاطب النيل وجدير بالشاعر الذي أنجبه هذا الوادى أن يكون له منه
خطاب شهير :

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء زلت أم فجرت من عليا الجنان جدولا تترقق
وبأى عين أم بأية مزنة أم أى طوفان تفيض وتفحق
وبأى نول أنت ناسج برده للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجا اذا فارقتها فاذا حضرت اخضوضر الاستبرق
فى كل آونة تبدل صبغة عجباً وأنت الصابغ المتأنق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا والأرض تفرقها فيحجي المفرق
أخلفت راووق الدهور ولم تزل بك حماة كالسك لا تتروق
حمرء فى الاحواض الا انها بيضاء فى عنق الثرى تتألق
دين الاوائل فيك دين مروءة لم لا يؤله من بقوت وبزرق
لو أن مخلوقا يؤله لم تكن لسواك مرتبة الالوهة تخلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة ان العباداة خشية وتعلق
دانوا يبهر بالكارم زاخر عذب المشارع مده لا يلحق
متهيب بمهودة ووعوده يجرى على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادى الحياة كريمة من راحتك عميمة تتدفق

ومهما قيل في النيل فهو قليل الا أن شوقى جاء من وصف النيل بما يناسب جلاله
وجماله ولا أظن شاعرا قديماً ولا حديثاً وصف النيل بمثل هذه الاجادة . ثم انه انتقل
من وصف النيل الى وصف الفراعنة واهرامهم فلا نعلم أحدا جاء بمثل فريه في هذا
الباب فقد قال:

أين الفراعنة الأولى استندى بهم عيسى ويوسف والكليم المصعق
يقال صعقته السماء وأصعقته

الموردون الناس منهل حكمة أفضى اليه الأنبياء ليستقوا
الرافعون الى الضحى آباءهم فالشمس أصلهم الوضيء الممرق
منذ وجد الانسان على الارض لم يجد في نظره أجل وأنفع من الشمس فلذلك
عبدها كثير من بنى الانسان قبل أن جاء الأنبياء فأخبروهم بأن هذه الشمس هي
أيضاً مخلوقة وهي مادة لا تقدر على شيء بنفسها وانما الذي تجب له العبادة هو الذي أوجد
الشمس وسائر الشمس السابحة في الأفلاك ودبرها وهو وراء المادة وفوق الطبيعة
وهو العلة الأولى وهو الأزل وهو الابد فمذ جاء الأنبياء ارتقت عبادة البشر وسمت
الى الافق اللائق بهذه النفس الناطقة ولكن الاقدمين من شدة اجلالهم للشمس
جعلوها هي مصدر كل شيء ورفعوا اليها انساب ملوكهم

وكانما بين البلى وقبورهم عهد على أن لامساس وموتق
فجبابهم تحت الثرى من هيبة كحجابهم فوق الثرى لا يخرق
لم يصف أحد الموميا ولم يمثل معناها بمثل ما وصفها شوقي . ثم يقول :
بلغوا الحقيقة من حياة عالمها حجب مكثفة وسر مغلق
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا دون الخلود سعادة تتحقق
والحقيقة هي أنهم حاولوا الخلود فلم يقدروا عليه فاعتاضوا منه بتخليد الاجسام
بعد أن يئسوا من خلود الحياة في هذه الدنيا

يبنون للدنيا كما تبنى لهم خرباً غراب البين فيها ينق
فقصورهم كوخ وبيت بداوة وقبورهم صرح اشم وجوسق

رفعوا لها من جندل وصفائح عمداً فكانت حائطا لا ينشق
ثم قال في الاهرام :

ولن هياكل قد علا الباني بها بين الثريا والثرى تنسق
منها المشيد كالبروج وبعضها كالطود مضطجع أشم منطق
جدد كأول عهدا وحيا لها تتقدم الأرض الفضاء وتمتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به تعب ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى ما يعتلى منه وما يتساق
متمكن كالطود اصلاً في الثرى والفرع في حرم السماء محلق
هى من بناء الظلم الا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الامم الملوك بمثلها فخرأ لهم يبقى وذكراً يعبق

ثم يذكر عادة المصريين القدماء في القاء عذراء في النيل كل سنة في يوم مخصوص
وموسم كانت تحتفل به الفراعنة فيقول :

ونجبية بين الطفولة والصبا عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف اليك غاية حظها والحظ ان بلغ النهاية موبق
في كل عام درة تلقى بلا تمن اليك وحررة لا تصدق
أى لا تعطى صداقها

حول تسائل فيه كل نجبية سيقى اليك متى يحول فتلحق
والمجد عند الغايات رغبة يبغي كما يبغي الجمال ويعشق
حتى اذا بلغت مواكبها المدى وجرى لغاياته القضاء الأسبق
وكسا سماء المهرجان جلالة سيف المنية وهو ضلت يبرق
وتلفقت في اليم كل سفينة وانشال بالوادي الجوع وحدقوا
القت اليك بنفسها ونفيسها وأتت شيقة حواها شيق
خلعت عليك حياءها وحياتها أأعز من هذين شيء ينفق
واذا تناهى الحب واتفق القدى فالروح في باب الضحية أليق

ما وصف هذا المشهد الغريب من عبادة النيل قبل شوق شاعر بمثل هذا الوصف
الذى بلغ فيه الاحسان مداه الاقصى وظنى أنه لن يباريه فيه شاعر آخر ولقد أبطل
الاسلام عادة تقديم بكر كل سنة للنيل لأن الاسلام لا يعرف عبادة ماء ولا سماء ولا
بشر ولا حجير ولا خشب ولا شجر ولا شيء من الاشياء كلها وانما هو عبادة الواحد
الاحد خالق كل شيء بقدرته ومدبر كل شيء بحكمته سبحانه وتعالى عما يصفون

ما العالم السفلى الا طينة أزلية فيه تضى وتنسق
ما كانت فيها للزيادة موضع والى حماها النقص لا يتطرق
منبثة فى الارض تنتظم الثرى وتنال مما فى السماء وتعلق
منها الحياة لنا ومنها ضدها أبداً نعود لها ومنها نخلق
والزرع سنبله يصيب وحبسه منها فيخرج ذا وهذا يغلق
وتشد بيت النحل فهو مطنب وتمد بيت النمل فهو مروق
وتظل بين قوى الحياة جوائلا لا تستقر دوائلا لا تمحق
هى كلمة الله القدير وروحه فى الكائنات وسره المستغلق

الكلمة بفتح فسكون وكذلك بكسر فسكون وكذلك بفتح فكسر والجمع
كلمات وكلم وهو ما ينطق به الانسان مفرداً كان أو مركباً . واما كلمة الله فهى خلقه
يقال كلمات الله أى مخلوقاته وقيل فى عيسى عليه السلام انه كلمة الله وفسروا ذلك انه
انتفع به وبكلامه على حد قولهم سيف الله وأسد الله . وقيل بل لان الله تعالى خلقه
بمجرد كلمة « كن » من غير أب أى القى الكلمة ثم كونها بشراً . ومعنى الكلمة معنى
الولد قاله الازهرى فى تفسير قوله تعالى (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) أى
يبشرك بولد اسمه المسيح . وقيل كلمة الله بمعنى مشيئته وقدرته وقيل غير ذلك كما فى تاج
العروس . والظاهر ان شوقى يريد بكلمة الله هنا المادة التى خلقها الله وبروحه هذه الحياة
التي بثها فيها الى أن قال :

فتنت عقول الأولين فألهوا من كل شيء ما يروع ويغرق
سجدوا للمخلوق وظنوا خالقاً من ذا يميز فى الظلام ويفرق

قال ان الناس في القدم فتنوا بهذه المادة فألهوها وبدلوا من أن يعبدوا الخالق عبدوا
المخلوق لان الانسان كما انه لا يميز في الظلام لا يميز في الضلال . ثم قال عن ضلال البشرية
يدعون خلف الستر آلهة لهم ملأوا الندى جلاله وتأبقوا
تأبق استر

واستحجبوا الكهان هذا مبلغ ما يهتفون به وذلك مصدق
لا يسألون اذا جرت ألقاظهم من أين للحجر اللسان الأذلق
ثم ذكر مآثر مصر التاريخية مخاطباً وادى النيل :

اصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق
ولدت فيكنت المهد ثم ترعرعت فأظلمها منك الحسنى المشفق
ملأت ديارك حكمة مأثورها في الصخر والبردى الكريم منبق
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق
واستحدثت ديناً فكان فضائلا وبناء أخلاق يطول ويشق
مهد السبيل لكل دين بعده كالمسك رياه بأخرى تفتق
يدعو الى بر ويرفع صالحاً ويعاف ما هو للهروءة مخلق
للناس من اسرارهم ما علموا ولشعبة الكهنوت ماهو أعمق
الى أن يقول :

وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل يزكو لذكرها النبات ويسمق
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً بركات ربك والنعيم الغيدق
وودائع الفاروق عندك دينه ولواؤه ويبهانه والمنطق
بعث الصحابة يحملون من الهدى والحق ما يحيى العقول ويفتق
فتح الفتوح من الملائك رزق فيه ومن اصحاب بدر رزق
بينون لله الكنانة بالقنا والله من حول البناء موفق

يذكر فتح الاسلام لوادى النيل . ثم ينهى هذه السكامة التي تاهت على الكلمات

وجرت من مطارف الحكمة ما يندر في ماض وآت بخطاب للوادي هو هذا :

كنف كمن أو كساحة حاتم خلق يودعه وخلق يطرق
وعليك تجلي من مصونات النهي خود عرائس خدرهن المهرق
لى فيك مدح ليس فيه تكلف أملاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو اليهم فى التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم والله جل جلاله منا ومنك بهم أبر وأرفق

يقول لوادى النيل : ان ثنائى عليك ليس فيه تكلف وحيى لك ليس من باب
التزلف ويكفى أننا نترك عندك أولادنا ترزق فى جوانبك بعد أن نكون افترقنا عنهم
فاننا نفكر فيهم ولو كنا تراباً . وما زال شوقى من أبر الناس بأهله ووطنه ولكنه
فى الآخر مع شدة حبه لوادى النيل لم يشأ أن يعبد عبادة المصرى القديم فانه مسلم
لا يعبد غير الله فهو يقول للنيل : أنت المرجى لأولادى وانما الله تعالى من فوقك
هو أبر بهم منى ومنك

كلمة شوقى فى الطيران

ولشوقى قصيدة فى الطيران والطيارات نظمها عندما كان أمر الطيارة عجباً - ولم
يزل عجباً - وكان الناس لما يألفوا مثل اليوم هذه الاعجوبة المعدودة من المعجزات
العصرية فقال شوقى :

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم أسرجوا الريح وساموها اللجاما
صار ما كان لكم معجزة آية للعالم آتاها الأناما
ثم يقول :

رفعوا لولبها فاندفعت هل رأيت الطير قد زف وحاما
شال بالاذناب كل ورحى بجناحيه كمارعت النعاما

تنبرى فى زرق الأفق كما سبج الحوت بدأماء وعاما
بعضها فى طلب البعض كما طارد النسر على الجو القطاما
الى أن يقول :

طلبة قد رامها آباؤنا وابتغاهما من رأى الدهر غلاما
أسقطت (ايكار) فى تجربة (وابن فرناس) فما استطاعا قياما

يشير الى العباس بن فرناس القرطبي الاندلسى الذى كان من العلماء أول من حاول
الطيران وكانت كنيته أبا القاسم وكان مع علمه بالعلوم الطبيعية أدبيا مشهورا عاش فى
أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثانى صاحب الاندلس وقيل انه أول من ابتنى
طيارة وطار بها ولكنه لم يحسن التحيل فى أمر نزولها فسقطت به ومات

فى سبيل المجد أودى نفر شهداء العلم أعلاهم مقاما
خلفاء الرسل فى الأرض هم يبعث الله بهم عاما فعاما
قطرة من دمهم فى ملكه تملأ الملك جمالا ونظاما
ثم يقول فى مغزى الطيران :

رب ان كانت خير جعلت فاجعل الخير بناديهما لزاما
وان اعتز بها الشر غدا فتعالت تخطر الموت الزواما
فاملا الجو عليها رجسا رحمة منك وعدلا وانتقاما

نقول : مع الأسف ان الشر قد اعتز بهذه الطيارات اعتزازا جاء فوق ما كان
يخشاه شوقى وصارت تخطر الموت الزوام فى كل مكان تقع فيه حرب وصارت عمدة فى
القتال الحديث وأخذت الدول التى تزعم أنها تريد نشر المدنية ونصر الانسانية فى
العالم تطير من هذه الطيارات اسرا با ترمى منها بالموت الزوام على الضعفاء الذين لا قبل لهم
بمقاومتها وكثيرا ما تقتل النساء والاطفال والعاجزين وتدمر البيوت على رؤوس أصحابها.
وقد تحرك عرق الانسانية بكثير من رجال السياسة والعلم وحاولوا حمل جمعية
الأمم على اتخاذ قرار يمنع القتال بالطيارات ففشلوا والى الآن لا يزال اعتماد الدول الاكبر
على القتال فى الجو ونرى الدول يكثر بعضها بعضا فى عدد الطيارات التى لا تشغل معامل
الاسلحة بشيء شغلا بها . ثم قال شوقى :

ملك هذا الجو في منعته طامسا للنجم والطير استقاما
 حسد الانسان سربه بما أوتيا في ذروة العز اعتصاما
 دخل العش على أنسره أترى يغشى من النجم السناما
 أيها الشرق انتبه من غفلة مات من في طرقات السيل ناما
 لا تقولن عظامي أنا في زمان كان للناس عصاما
 ثم قال في اظهار الفرق بين قدرة الخالق والمخلوق :

خالق العصفور حيرت به أممًا بادوا وما نالوا المراما
 أفنوا النقيدين في تقليده وهو كالدرهم ريشًا وعظاما

ماقاله في توت عنخ آمون

وقال في توت عنخ آمون وحضارة مصر القديمة :

درجت على الكنز القرون وأتت على الدن السنون
 خير السيوف مضى الزمان عليه في خير الجفون
 في منزل كحجب ال غيب استسر عن الظنون
 حتى أتى العلم الجسور ففض خاتمه المصون
 والعلم (بدرى) أحل لاهله ما يصنعون
 يشير الى ماورد في الاثر من أن أهل بدر مغفورة لهم ذنوبهم (الا الكبار)

هتك الحجال على الحضارة والحدور على الفنون
 واندس كالصباح في حفر من الاجداث جون
 حجر ممردة المما قل في الثرى شم الحصون
 لا تهتدى الريح الهبو ب لها ولا الغيث الهتون
 خانت أمانة جارها والقبر كالدينا يخون
 يا ابن الثواقب من (رع) وابن الزواهر من (أمون)
 نسب عريق في الضحى بد القبائل والبطون

أرأيت كيف يؤوب من غمر القضاء المفرقون
 حب الخلود بنى لكم خلقاً به تنفردون
 لم يأخذ المتقدمون به ولا المتأخرون
 حتى تسابقتم الى الـ إحسان فيما تعملون
 لم تتركوه في الجليل ل ولا الحقير من الشؤون
 هذا القيام فقل لنا الـ يوم الاخير متى يكون
 البعث غاية زائل فان وأنتم خالدون
 السبق من عاداتكم أترى القيامة تسبقون

ثم يصف تلك الآثار التي وجدت تحت الارض واليك النموذج من وصفه:

وبكل ركن صورة وبكل زاوية رقين
 وترى الدمى فتخالها اذ تثرت على جنبات زون
 صور تريك تحركا والأصل في الصور السكون
 ويمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
 صعب الزمان دهائها حيناً عبيداً بعد حين
 خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين
 غلمان قصر ك في الركا ب يناولون ويطردون
 والبوق يهتف والسها م ترن والقوس الحنون
 وكلاب صيدك لعت والخيول جن لها جنون
 والوحش تنفر في السهو ل وتارة تثب الحزون

فعل وثب لا بد من أن يتعدى بحرف ولكن شوقي عساه بلا حرف على

نزع الخافض

والطير ترسف في الجرا ح وفي مناقرها انين
 وكأن آباء البرية في المسدائن محضرون
 وكأن دولة آل شم س عن شمالك واليمين

قصيدة سوقي في دمشق

ولشوقي قصيدة دمشقية يوم زار دمشق غير القصيدة الطائفة الصيت التي قالها
يوم ضرب تلك الحاضرة بالقنابر :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له رث الصحائف باق منه عنوان
بنو أمية للانباء ما فتحوها وللأحداث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتمهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها في كل ناحية ملك وسلطان
ياويح قلبي منها انتاب أرسمهم سرى به الهم أو عادته أشجان
بالأمس قتت على الزهراء اندبهم واليوم دمعي على الفيحاء هتان
يريد أن يقول انه بكى آثار بني أمية عندما كان بالأندلس واليوم يبكي آثارهم وهو

في دمشق

في الأرض منهم سماوات وألوية ونيرات وانواء وعقبان
لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغداد
يشير الى أن فتح الأندلس كان الأصل فيه دمشق وان عاصمة بني أمية هي التي
استلحقت عاصمة القوط ولولا عاصمة بني أمية لما كانت عاصمة بني العباس الذين
انتزعوا منهم الخلافة موحدة . وبغداد لغة في بغداد .

مررت بالمسجد الحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد الحزون واختلفت على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان اذان في منارته اذا تعالى ولا الآذان آذان
الحقيقة أن الأذان لا يزال كما كان وانما اختلف تأثيره في الأذان وعسى كل شيء
يعود الى اصله .

آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان

عاد فاستثنى دمشق وقال : آمنت بالله . يقلد الدمشقيين في كلماتهم لأنهم يستعملون
هذه الجملة كثيراً في موضع العجب .

قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار لها الفيحاء بستان
جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان
وربوة في الواد جلاب راقصة الساق كاسية والنجر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها وللميون كما للطير الحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً أفوافه فهو اصباغ وألوان
وقد صفي بردى للريح فابتدرت لدى ستور حواشيهن أفنان
ثم اثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذبال وأردان
خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان
أى ظننت لبنان هو الجنة ولكن بعد ما أفضت منه الى دمشق علمت أنه لم يكن
الا طريق الجنة

حتى انحدرت الى فيحاء وارقة فيها الندى وبها طى وشيمان
اختص بالذكر من قبائل العرب طياً التي منها حاتم وشيمان التي ينسب اليها
معن بن زائدة .

نزلت فيها بفتيان ججاجحة آباؤهم في شباب الدهر غسان
بيض الاسرة باق فيهم صيد من عبد شمس وإن لم تبقى تيجان
يافتية الشام شكراً لا انقضاء له لو أن احسانكم يجزيه شكران
خميعة الله وشتها يدها لكم فهل لها قيم منكم وجنان
الجنان بمعنى البستاني لفظة مولدة لم نعثر عليها في كتب اللغة وقد استعمالها صاحب
نفح الطيب من المتأخرين

شيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها فالملك غرس وتجديد وبنيان
الملك أن تعملوا ما استطعتم عملاً وأن يبين على الأعمال اتقان

الملك أن تخرج الاموال ناشطة لمطلب فيه اصلاح وعمران
أصاب شوقي هنا شاكلة الداء الذي به انحط الشرق وتقهقر العالم الاسلامى وهو
عدم ائتلاف اهلها الانفاق على المصالح العامة بخلاف الاوربيين الذين كان اكبر عوامل
نجاحهم وفلاحهم بذل كل واحد منهم على قدر حالته فى مصالحة الجمهور . ثم قال :
الملك أن تتلاقوا فى هوى وطن تفرقت فيه أجناس وأديان
كنا نتمنى لو عاش شوقي الى هذا العهد وشهد انحلال المسئلتين المصرية والسورية
باستقلال كل من القطرين الشقيقتين فكان لذلك البلبل الصداح غناء يرقص الجماد كما
كان له من أجل استيلاء الاجانب عليها نواح يذيبه .

هنيئ شوقي من الاندلس الى وطنه مصر

ولشوقي قصيدة نظمها وهو فى منفاه بالاندلس أيام الحرب العامة يحن فيها الى
مصر وطنه ويمارض قصيدة ابن زيدون فى ولادة بنت المستكفي وهو يخاطب حمام
وادی الطلح الذى بظاهر اشبيلية:

يأنايح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم تأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يداً	قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا
إذا دعا الشوق لم نبرح لمنصدع	من الجناحين عي لا يلبينا
فان يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا	ان المصائب يجمعن المصايينا

واكثر أبيات هذه القصيدة شبهاً بقصيدة ابن زيدون وهى التى تلى :

يامن نغار عليهم من ضمائرنا	ومن مصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين اليكم فى خواطرنا	عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا الى الصبر ندعوه كمعادتنا	فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد	حتى أتقنا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره	تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا

نطوى دجاء بجرح من فراقكم يكاد في غلس الاسحار يطوينا
اذا رسا النجم لم ترقاً محاجرنا حتى يزول ولم تهداً تراقينا

المسكن في شهر سوفي

ومن أطف كلمات شوقي وصفه حياة المسكن وكيف يتدرج الناشئ في أطوار
الحياة :

ألا حبنا صحبة المسكن وأحبيب بأيامه أحبيب
ويا حبنا صبية يمرحون عنان الحياة عليهم صبي
كانهم بسمات الحياة وأنفاس ريحانها الطيب
يراح ويغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس أو مغرب
الى مرتع ألفوا غيره وراع غريب العصا اجنبي
ومستقبل من قيود الحياة شديد على النفس مستصعب
فراخ بأيك فن ناهض يروض الجناح ومن أزغب
مقاعدهم من جناح الزمان وما علموا خطر المركب
عصافير عند تهجى الدروس مهار عراييد فى الملعب
خليون من تبعات الحياة على الأم يلقونها والأب
جنون الحداثة من حولهم تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبد بعقل الصبي واعدى المؤدب حتى صبي
لهم جرس مطرب فى السراح وليس اذا جد بالمطرب
الى أن يقول :

قطيع يزجيه راع من الدهر - ر ليس بليد ولا صائب
أهابت هراوته بالرفاق ونادت على الحيد الهرب
وصرف قطعانه فاستبد ولم يخش شيئاً ولم يرهب
أراد لمن شاء رعى الجديب وانزل من شاء بالخصب

وروى على ربه الناهلات ورد الظماء فلم تشرب
والقى رقابا الى الضارين وذن بأخرى فلم تضرب
وليس يبالي رضا المستريح ولا ضجر الناقم المتعب
وليس يبق على الحاضرين وليس يباك على الغيب
ثم ذكر دخول الانسان في دور الكهولة بعد أن ودع الشباب :

حياة يفامر فيها أمرؤ تسلح بالنساب والخلب
وصار الى الفاقة ابن الغنى ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب الممتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم تصحب
الى ان فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبب

اذا وضعت هذا الشعر فى شعر المتنبي لم تفرقه عنه. وما زال شوقى أشبه الشعراء
المحدثين بابيه ابى الطيب لا سيما اذا طرقت باب الحكمة وتكلم فى الاوابد .

كلمة شوقى عن لبنان

ولشوقى قصيدة عن لبنان من جملتها هذه الأبيات :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته
هو ذروة فى الحسن غير مرومة وذرى البراعة والحجى بيروته
ملك الهضاب الشم سلطان الربى هام السحاب عروشه ونخوته
سيناء شاطره الجلال فلا يرى الاله سبحانه وسموته
والأبلق الفرد انتهت أوصافه فى السؤدد العالى له ونعوته
جبل على آذار يزرى صيفه وشتاؤه يثد القرى جبروته
أبهى من الوشى الكريم موجه وألذ من عطل النحور مروته
(م - ٢٢ شوقى)

يغشى روايته على كافورها مسك الوهاد فتيقه وفتيته
وكان أيام الشباب ربوعه وكان أحلام الكعاب يسوته
وكان ريعان الصبا ريحانه سر السرور يجوده ويقوته
وكان أثناء النواهد تينه وكان أقراط الولايد توته
وكان همس القاع في اذن الصفا صوت العتاب ظهوره وخفوته
وكان ماءها وجرس لجينه وضع العروس تبينه وتصيته

يظهر من البيتين الأخيرين أن شوق استلطف وادي عين زحلة وهناك نبعان
أحدهما يقال له نبع القاعة والآخر نبع الصفا والمسافة بينهما قصيرة يجتمعان فيسيل
منهما نهر الصفا الذي ينحدر الى البحر عند الدامور. وقد عبّر شوقي عن القاعة بالقاع
وليس كذلك بل هو بالناء والقاع في اللغة هو الأرض السهلة المطمئنة ولا محل له هنا
وانما سمي احد هذين النبعين بنبع القاعة لانه يخرج من مغارة تراها كأنها منحوتة باليد
فاطلقوا عليها اسم القاعة التي هي البهو عند أهل الشام وهكذا يسمى أهل الجبل هذا
الكهف .

كلمة سوفي عن هربة المرأة

ولشوقي شعر في حفلة نسائية عظيمة انعقدت تحت رئاسة السيدة هدى
شعراوى :

قل للرجال طغى الاسير طير الحجال متى يطير
أوهى جناحيه الحدي دوحز ساقيه الحرير
ذهب الحجاب بصبره وأطال حيرته السفور
هل هيئت درج السما ء له وهل نص الأثير
وهل استمر به الجناب ح وهم بالنهض الشكير
وسما لنزله من الد نيسا ومنزله خطير
ومتى تساس به الريا ض كما تساس به الوكور

أَوْ كُلِّ مَا عِنْدَ الرَّجُلِ لَ لَهُ الْخِطَاطِبُ وَالْمَهْوَرُ
وَالسَّجَنُ فِي الْأَكْوَاخِ أَوْ سَجَنٌ يُقَالُ لَهُ الْقَصُورُ
تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْأَدِيمَ جَمِيعَهُ رَوْضٌ وَنُورٌ
فِي كُلِّ ظِلٍّ رُبُوعٌ وَبِكُلِّ وَارْفَةٍ غَدِيرٌ
وَعَلَيْهِ مِنْ ذَهَبٍ سَيَّاحُجٌ أَوْ مِنْ الْيَاقُوتِ نُورٌ
مَا تَمَّ مِنْ دُونَ السَّمَاءِ لَهُ عَلَى الْأَرْضِ الْخَبُورُ
إِنَّ السَّمَاءَ جَسَدٌ بِطَيْرٍ وَهُوَ بِهَا جَدِيرٌ
هِيَ سَرَجُهُ الْمَشْدُودُ وَهُوَ عَلَى أَعْنَاقِهَا أَمِيرٌ
حَرِيَّةٌ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لَهَا كَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ

نعم وكل من هاتين الحريتين لا يجوز ان تكون مطلقة كما يتوهم بعضهم بل يجب
ان تكون مقيدة بقيود الشرع والا فسد المجتمع وانتشرت الاباحه وهذا التقيد بقيود
الشرع لا يعنى أسر المرأة ولا قصرها في المجال غير مشتركة في الحياة العامة . ثم
يخاطب قاسم بك امين رحمه الله فيقول له :

يَا قَاسِمُ انْظُرْ كَيْفَ سَارَ الْفِكْرُ وَانْتَقَلَ الشُّعُورُ
جَابَتْ قَضِيَّتُكَ الْبَلَاءُ دَ كَأَنَّهَا مِثْلُ يَسِيرِ
مَا النَّاسُ إِلَّا أَوَّلُ يَمَضَى فَيُخَلِّفُهُ الْآخِرُ

مَوْشَحْ أَنْدَلَسِي لَشَوْقِي

ولشوقي مَوْشَحْ أَنْدَلَسِي فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّخْلِ الَّذِي لَقَبَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ وَهُوَ
عَدُوهُ بِصَقْرٍ قَرِيشٍ :

مَنْ لَنْصُو يَنْزَى أَلَا بَرَحَ الشُّوقُ بِهِ فِي الْغُلَسِ
حَنْ لِلْبَيْتَانِ وَنَاجِي الْعَالَمِ أَيْنَ شَرِقَ الْأَرْضِ مِنْ أَنْدَلَسِ

بَلْبَلْ عِلْمُهُ الْبَيْنَ الْبَيْتَانِ بَاتَ فِي جَبَلِ الشَّجُونِ ارْتَبَسَا

في سماء الليل مخلوع العنان ضاقت الارض عليه شبيكا
كلما استوحش في ظل الجنان جن فاستضحك من حيث بكى
ارتدى برنسه والتأما وخطا خطوة شيخ مرعس
ويرى ذا حذب ان جثما فان ارتد بدا ذا قمعس
ثم يقول :

يا شباب الشرق عنوان الشباب ثمرات الحسب الزاكي النمير
حسبكم في الكرم المحض اللباب سيرة تبقى بقاء ابني سمير
في كتاب الفخر (للدخل) باب لم يلجحه من بني الملك أمير
في الشمس الزهر بالشام انتمى ونمى الاقمار بالانداس
قعد الشرق عليهم مأتما وانتني الغرب بهم في عُرس
ثم أخذ يسوق قصة بني أمية مع بني العباس وكيف ثارت بين العائتين الثارات
الى أن تغلبت العباسية على الاموية وأخذ بنو العباس يقتلونهم في كل سهل وجبل
فقال :

جزيت مروان عن آباءها ما أراقوا من دماء ودموع
ومن النفس ومن أهوائها ما يؤديه عن الاصل الفروع
خلت الاعواد من أسمائها وتغطت بالمصاليب الجذوع
ظلمت حتى أصابت أظاما حاصد السيف وبني الحبس
فطناً في دعوة الآل لما همس الشاني ومالم يهرس

قال ان الظالمين من بني أمية وأعوانهم كيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف وغيرهما
قد كانوا السبب فيما لقيه أعقابهم من ظالمين مثلهم من بني العباس وأعوانهم كأبي العباس
السفاح وأبي مسلم الخراساني وغيرهما وما ظالم الا سيئلي بأظلم . ثم ذكر كيف نجى عبد
الرحمن بن معاوية سبيحاً بالفرات ومعه أخوه وهو ولد فبعد أن خاض الولد وراء أخيه
في الماء غلب عليه الخوف وناداه الجند من عن الشاطيء ليعود وله الأمان فانخدع بقولهم
فرجع فقتلوه وأخوه عبد الرحمن يرى قتله بعينه من الشاطيء الآخر . قال شوقي :

صحب الداخل من اخوته حدث خاض الغمار ابن ثمان
غلب الموج على قوته فكان الموج من جند الزمان
واذا بالشط من شقوته صائح صاح به : نلت الأمان
فانتنى منخدعا مستسما شاة اغترت بعهد الاطلس
خضب الجند به الارض دما وقلوب الجند كالصخر القسي
ثم أتى على قصة عبد الرحمن ونجاته وانسلاله الى المغرب واختفائه ثم اجازته الى
الاندلس وغلبته على تلك الأرض بعد أن لقي من الأهوال ما تشيب له ذوائب الاطفال
وكيف صبر وآل به الصبر الجميل الى الملك فاستخرج شوقي العبرة اللازمة. ولم يزل في
الحكم والمواعظ الشاعر الذي لا يشق له غبار ولا يصطلي له بنار

أيها اليأس مت قبل المات أو اذا شئت حياة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمات ان هي اشتدت وأمل فرجا
ذلك الداخل لاقى مظالمات لم يكن يأمل منها مخرجا
قد تولى عزه وانصرما فضى من غده لم يئس
رام بالمغرب ملكا فرمى أبعد الغمر وأقصى اليبس

نعم كان عبد الرحمن بن معاوية من أفضل رجال الاسلام في عقله وتدييره وصبره
وشدة بأسه واسكن كان وراءه عظمة اسم بنى أمية . ذكر صاحب «أخبار مجموعة»
في فتح الأندلس وذكر أمرائها، وهو أقدم تاريخ عربي لها انه لما وصلت رسل عبد الرحمن
ابن معاوية الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس ياتمس منه تمكينه من
الاجازة الى الأندلس والسكن بها كان أجمع في البداية أن يسمح له بدخولها وانصرف الرسل
وقد حصلوا على هذا الوعد ثم ماساروا أكثر من ساعة حتى سمعوا صائحا يصيح خلفهم
ليتوقفوا فاذا الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن الذي كان بمقام الوزير عند الامير
يوسف الفهري يقول لهم : كننا قد أجبنا دعوة ابن معاوية ولكننا روينا في هذا الامر
فوجدنا ان عبد الرحمن بن معاوية هو من قوم لوبال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم
في بوله، والله ان أول سيف يسلم عليه هو سيفي . وهكذا انقطع رجاء جماعة عبد الرحمن

من ربيعة ومضر في نصرته وانما استمالوا اليانية لما كان في صدورهم من الاحتقاد على المضربة

قال في «أخبار مجموعة» نقلا عن رسل عبد الرحمن: فألفينا قوما وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم ورغبوا في عقد بنى أمية بالاندلس. ثم ساق القصة الى آخرها. وخلصتها ان عبد الرحمن بن معاوية لم يتمكن من الاندلس الا بواسطة عداوة اليانية للمضربة الذين كانوا جماعة يوسف الفهرى وكان اسم بنى أمية مليا بأن ينهض به مهما كان مهبط الجناح على أن عبد الرحمن كان جامعاً بين الاسم والفعل

أبيات شوقي عن زحلة من لبنان

ولشوقي قصيدة يصف بها زحلة من لبنان لا نحب أن نختم هذا الكتاب بغير ذكر بعض أبياتها الرشيقة :

سُيِّمَتْ أحلامى بقلبٍ بأكٍ ولححت من طرق الملاح شباكى
ومنها :

بنت البقاع وأمَّ بردونٍها طيبي كجلق واسكبي برداك
البردوني هو مهر زحلة

ودمشق جنات النعيم وانما الفيت سدة عشرين رباك
قسماً لو انتمت الجداول والربى لتلأل الفردوس ثم نمالك
مرآك مرآه وعينك عينه لم يا زحيلة لا يكون أباك
ثم يقول :

يشى اليك المحظ في الدياج أو في العاج من أى الشعاب أتاك
ضمت ذراعيها الطبيعية رقة صنين والحرمون فاحتضناك

جبل صنين من أعلى قمم لبنان وهو مطل على زحلة من الغرب والحرمون هو جبل الشيخ الذى قنته تملو عن البحر ثلاثة آلاف وخمسمائة متر وهو يقابل زحلة من جهة الشرق وبينهما سهل البقاع، ثم يقول :

شرفاً عروس الارز كل خريدة تحت السماء من البلاد فداك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى أرضاً تمخض بالشموس سواك
كهدم سوفى عن استقلال سورية وذكري شهدائها واوليهم يوسف العظمة

وله قصيدة عن استقلال سورية وذكري شهدائها جاء فيها .

كأن الله اذ قسم المعالي لأهل الواجب ادخر السكالا
ترى جداً ولست ترى عليهم ولوعاً بالصغار واشتغالا
وليسوا أرغد الأحياء عيشاً ولكن أنعم الأحياء بالا
اذا فعلوا نخير الناس فعلاً وان قالوا فاكرمهم مقالا
وان سألتهم الأوطان أعطوا دماً حراً وابناء ومالا
بنى البلد الشقيق عزاء جارٍ أهاب بدمعه شجن فسالا
قضى بالأمس الابطال حقاً وأضحى اليوم بالشهداء غالى
يعظم كل جهد عبقرى أكان السلم أم كان القتالا
ذكرت المهرجان وقد تجلى ووفد المشرقين وقد توالى
تسلل فى الزحام الى نضو من الاحرار تحسبه خيالا
رسول الصابرين ألم وهنا وبلغنى التحية والسؤالا
دنا منى فناولنى كتاباً أحست راحتى له جلالا
وجدت دم الأسود عليه مسكاً وكان الأصل فى المسك الغزالا
كأن اسامى الابطال فيه حواميم على رق تتالى
رواة قصائد قد رتلوها وغنوها الاسنة والنصالا

ثم يقول :

سأذكر ماحيت جدار قبر بظاهر جلق ركب الزمالا
مقيم ما أقامت ميسلون يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمت فيه واول سيد لقي النبالا

يذكر يوسف بك العظمة قائد الجيش السوري الذي استشهد في وقعة ميسلون
ثم يقول عنه :

أقام نهاره يلقى ويلقى فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والموالي وغيب حيث جال وحيث صالا
إذا مرت به الاجيال ترى سمعت لها أزيزاً وابتهاالا

كلمة شوقي عن عمال نهضة مصر

وله في عمال نهضة مصر :

جعلت حلاها وعمالها عيون القوافي وامثالها
وارسلتها في سماء الخيال تجر على النجم أذيالها
واني لغريد هذى البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها
وتلمح بين بيوت القصيد حبال العروس وأحجالها
أدار النسيب الى جبا وولى المدائح اجلالها

لم يخالف شوقي طريقته في التيه بشعره على نسق المتنبي الذي كان تياهاً بمقريته
وليس هذا بوجه الشبه الوحيد بينهما . ثم قال :

فؤاد ارفع الستر عن نهضة تقدم جديك ابطالها
ورب امرئ لم تله البلاد نماها ونبه أنسالها
وليس الآلى ملك البحور ولكنها ملك من نالها
وما كمل ولا جيله اذا عرضت مصر أمسالها
بنوا دولة من بنات الاسنة لم يشهد النيل أمسالها

يقول ان محمد على وان لم يكن مصرياً في نسبه فقد أسس لمصر دولة لم يشهد
وادي النيل مثلاً .

قصيدة شوقي في عيد الخميني

ولما احتفل بعيد شوقي الخميني سنة ١٩٢٧ وانشد الشعراء في ذلك الحفل العظيم
القصائد التي شرقت وغربت اجابهم عليها بهذه القصيدة التي نأخذ من أبياتها ما
نجمه مسك الختام لهذا الكتاب الذي أهديناه الى روحه المبقرية والى عشاق شعره
من أبناء العربية . قال :

مرحباً بالربيع في ريمانه وبأنواره وطيب زمـانه
رفت الارض في مواكب آذا ر وشط الزمان في مهرجانه
ومضى في وصف الربيع الى أن قال :

نغم في السماء والارض شتى من معاني الربيع أو ألحانه
أين نور الربيع من زهر الشع راذا ما استوى على افنانه
سرمد الحسن والبشاشة مهما تلتسمه تجده في إبانه
حسن في أوانه كل شيء وجمال القريض بعد أوانه
ملك ظله على ربوة الخلد وكرسيه على خلجانه
أمر الله بالحقيقة والحكممة فالتفتنا على صولجانه
لم تثر أمة الى الحق الا بهدى الشعر أو خطى شيطانه

وكان لابد لشوقي من ذكر ملك البلاد في حفلة عيده هذا فقال :

ظلمتني عناية من فؤاد ظلل الله عرشه بأمانه
ورعاني رعى الاله له الفاروق طفلًا ويوم مرجو شانه

وقد وصل الفاروق الى اليوم الذي أشار اليه شوقي بعد تسم سنوات من قوله هذا
وبويع الفاروق ملكا على مصر والسودان موفقا منصورا ان شاء الله وزاد تيمن الناس
به نيل وادى النيل استقلاله التام لدى استهلال ملكه

ثم ذكر سعد زغلول فقال :

منبر الحق في أمانة سعد وقوام الامور في ميزانه
لم ير الشرق داعيا مثل سعد رجه من بطاحه ورعانه

ثم ذكر عيده الذي تداعى اليه الشعراء فقال :

يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه الى بغداده
حملت مصر دونه هيكلا له بن وروح البيان من فرقانه
وطدت فيك من دعائها الفصحى وشهد البيان من أركانه
انما أنت حلبة لم يسخر مثلها للكلام يوم رهانه
تتبارى أصائل الشام فيها والمذاكي العتاق من لبنانه
موكب الشعر حرك المتنبي في ثراه وهز من حسانه
قد عرفنا بنجمه كل أفق واستبنا الكتاب من عنوانه
لست أنسى يدا لاخوان صدق منحوني جزاء ما ألم أعانه
رب سامي البيان نبه شاني أنا أسمو الى نباهة شأنه
كان بالسبق واليادين أولى لو جرى الحظ في سواء عنانه

يريد أن يقول من باب التواضع انه كان في الشعراء من هو أولى منه بالسبق في هذا الميدان ولكنه هو نهض بحظه ففات غيره لا بفضل على غيره

انما أظهروا يد الله عندي وأضاعوا الجليل من احسانه
ما الرحيق الذي يذوقون من كر مي وان عشت طائفا بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع أين فضل الحمام في تحنانه
وتر في اللهاة ما المعنى من يد في صفاته وليانه

ثم قال وهي نزعة شرقية لم تفارقه طول حياته كنا نود أن تكون عند كل مصري وكل شرقي وعند كل عربي بخاصة .

كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ح والى نلتقى على اشجانه
كلما أن بالعراق جريح لس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم حديد تنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء كنا مشفق على أوطانه

خاتمة الكتاب

ولقد فككنا والله الحمد هذه القيود وبهذا ختمنا هذا الكتاب الذي كان ذمة
على لأخ قديم رعيته ورعاني مدة أربعين سنة، ولشاعر عظيم بإيعناه جميعاً بامارة الشعر
في هذا العصر. وكان السيد الامام صاحب المنار رحمه الله قد كتب أن شكيب
ارسلان كان أول من لقب شوقي بامير الشعراء. وليس من سعادة للمرء في هذه
الحياة مثل ان يحب من يحترم وأن يحترم من يحب وقد كان هذا شأنى مع احمد شوقي
رحمه الله وأبقى كلماته على الدهر حلية للأدب ومفخرة للغة العرب.

وكان الفراغ من املاء هذا الكتاب لسبع بقين من رجب الفرد

سنة خمس وخمسين وثلاثمائة والـ

والحمد لله أولاً وآخراً



بيان الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٧	بعض أبيات	بعض الأبيات
١٣	١٧	نسبتها	نسيتها
١٩	١٩	حيثما	حينما
٢٠	٢٠	مد	منذ
٢٧	٢٣	تقييد	تقييد
٢٨	١	الحية	الحمية
٢٨	١٣	تعريفه	تعريضه
٢٩	١	غضب	غضبت
٢٩	٥	بن ميادة	ابن ميادة
٣٩	١١	المراسيم	المواسم
٤٣	١٠	ت	بدت
٥٢	١٠	يفيض من أرزاقهم	يفيض من أرزاقهم
٥٥	٢٥	ففتح	ففتح
٥٦	٥	نقاها	نفاها
٦٠	٦	جملة	جمله
٧٦	١٤	حبا	حيا
٨٤	١٧	بمقلتها	بمقلتها
٨٤	١٨	غوته	غوته
٩٢	١١	تونس الخضراء فيها	تونس الخضراء والمغرب فيها
٩٦	١٤	جاساته	حلباته

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٦	٢٢	يبعث	يحبث
١٠٣	١٣	ثأت	نأت
١٠٦	١٢	على ضباية	عنى ضباية
١٠٨	١٠	حلسوها	خلسوها
١١٧	٢٣	لم يرد أطار بمعنى طار	لم يرد طار بمعنى أطار
١٢٩	١١	يفزى هذا الفزى	يفرى هذا الفرى
١٣٣	١١	لوعه	لوعة
١٣٦	٧	عدت	عدت
١٣٩	١٥	بالسعادة	بالسعاية
١٤٠	٢	شفاقا	إشفاقا
١٤٥	٢٣	ريقتها	ريعتها
١٤٨	٥	عادلا	عاذلا
١٥٧	٤	خلب	خلت
١٥٨	١٥	يجرر	يجرر
١٦٣	١٧	عنت	عنت
١٦٨	١٥	ويخرج	ويخرج
١٦٩	١٧	وأجزعا	لاجزعا
١٧٧	٨	اجتار	اجتاز
١٨١	١٢	تفجع	تفجع
١٨٥	٩	فيقولون	فيقولوا
١٨٧	١٥	تشبعت	تشعبت
١٩٠	١	هم	هم
١٩٠	٤	مراها	تراها

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٩٥	٦	يدر كون	يد كرون
١٩٦	٢٣	كلفت الصليبيين	كلفت للصليبيين
١٩٨	١٨	امبراطور	كونت
٢١٠	٩	سهل	سل
٢١٦	٣	منكب	مناكب
٢١٧	٧	بالصادقين	الصادقين
٢١٧	١٣	وأرد	وأردد
٢٢٣	١٥	سادوا عليهم	سادوهم
٢٢٥	٥	مذنب	مذنب
٢٢٨	١٥	يعيش	يعش
٢٣٢	٢٢	كأداء	كوودا
٢٨٢	٣	شهرنا	شهدنا
٢٨٢	١٧	التلاقي	التلافي
٢٩١	١٥	أيوب	أبي أيوب
٢٩٥	١٦	في العلياء	من الاولى
٣١٥	٧	أحفلى	أجفل
٣١٦	١٧	فلذ	فلز
٣٣٠	٢٣	الاكبر	الكبر
٣٣٤	٦	وربوة في الواد	وربوة الواد
٣٣٤	٧	جلباب راقصة	في جلباب راقصة
٣٣٥	٣	الانفاق	على الانفاق

فهرست

شوقی ، أو صداقة أربعين سنة

صفحة	صفحة
٤١ حفلة السوق الخيرية	٣ مقدمة
٤٤ سفر المؤلف الى حرب طرابلس	٤ زيارتي الاولى لمصر
٤٤ مشاهدته لشوقي بعد رجوعه منها في	٧ أول ماقرات لشوقي
سراى رأس التين	١٠ اجتماعنا الاول في باريس
٤٤ التقاء الاخوين في استانبول في أول	١٣ صداقة ومكاتبات
الحرب العامة	١٥ معارضات
٤٥ اقتراح شوقي على المؤلف عيادة	٢١ صنعة الشعر وابداع شوقي فيها
السلطان للخديو	٢٣ انصراف شوقي الى الشعر
٤٨ لقاء في باريز بعد الحرب العامة	٢٤ القول في مدح الامراء والملوك
٤٩ في مقهى الجامع	٢٧ عفة لسان شوقي وبعده عن الهجاء
٥٠ شوقي النائر	٣٠ شوقي في بداية أمره
٥٠ كلمة المنفلوطي في شوقي والمؤلف	٣١ شوقي كما ترجم نفسه
٥١ مثال من نثر شوقي	٣٣ نموذج من رسائل شوقي
٥٤ شوقي واليازجي	٣٤ شوقي في سورية
٥٦ علم اليازجي وتعبته	٣٥ زيارتي لمصر في أيام الحرب الطرابلسية
٥٨ رد المؤلف على اليازجي في الدفاع	٣٥ استطراد
عن شوقي	٣٦ في طريقى الى بنغازى وعودتى
٥٨ لعل للعدراء عذرا	٣٧ استطراد آخر
٦٦ أثر المقال في نفس اليازجي	٣٨ جفوة لاسبب لها
٦٨ رد للمؤلف على اليازجي	٤٠ اجتماع بعد انقطاع

صفحة	صفحة
١٢٨ معارضة محمود سامي للشريف	٦٨ كل ينفق بما عنده
الرضى	٧٦ المؤلف يرثى اليازجي
١٣٢ معارضة قصيدة أبي نواس في	٧٧ عود الى شوقي
الخصيب لابن دراج القسطلي	٧٨ احمد شوقي بين المؤلف واحمد
ومعارضة الاثنين لمحمود سامي	زكي باشا
١٣٥ دفع اعتراض	٧٩ مداعبة بين شوقي والمؤلف
١٣٦ رأى للمؤلف في تحليل الشعر	٨٢ الوداع الاخير
العربي على النمط الاوربي	٨٢ قصيدة المؤلف في مهرجان شوقي
١٣٧ عود الى غرر شوقي	٨٦ بيتات كانت ضالة فوجدت
١٣٩ استطراد ورأى في المديح	٨٨ رأى المؤلف في أشعر الشعراء
١٤٠ معارضة شوقي للبيهقي	٨٨ كلام عن المتنبي ووجه الشبه بينه
١٤٨ الحديث شجون وذكر المؤلف	وبين شوقي
أول ديوان له وهو الباكورة	٩٤٠ قبيل وفاة شوقي
١٤٩ عود الى شوقي ومدائح لامير مصر	٩٤ خبر وفاته رحمه الله
١٥٣ محمود سامي لم يمدح الا نادرا	٩٥ قصيدة المؤلف في رثاء شوقي
١٥٦ شعر شوقي في الرثاء	٩٩٣ من الذي راض شوقي وحافظا في
١٦٧ رثاء شوقي واسماعيل باشا صبري	الشعر. قول الاديب الاكبر
والمؤلف لامين باشا فكري	مصطفى صادق الرافعي. الوسيلة الادبية
١٧١ شعر شوقي العائلي	وما أخذها من القلوب بما تضمنته
١٧٣ شعر شوقي في الحكايات	من شعر محمود سامي
١٧٧ المتنبي وقصيدته المخزية في هيجوضبة	٩٩ مراسلات المؤلف مع محمود سامي
١٧٨ شعر شوقي في الملاحم هو أعلى	١٠٨ أمثال من شعر شوقي
شعره	١٢٧ موازونات بين محمود سامي وشوقي

صفحة	صفحة
٢٣٧ قصيدة لشوقي في السلطان عبيد الحمد يوم نجا من حادثة القذيفة	١٨٥ رواية طارق لعبد الحق حامد شاعر الترك
٢٣٩ شوقي نصير الصون والعفاف	١٨١ ملحمة شوقي في تاريخ مصر
٢٤١ شوقي يدمدم على رذيلة الانتحار	١٩٣ خلاصة عن فوضى الاسلام في أوائل الحرب الصليبية
٢٤٤ شوقي يتوجع على بيروت يوم ضربها الطليان في أيام حرب طرابلس	١٩٨ قصيدة المؤلف في وقعة حطين والسلطان صلاح الدين
٢٤٥ وصف شوقي لاستانبول	٢٠١ قصيدة شوقي خطابا لامبراطور المانية يوم زار قبر صلاح الدين
٢٤٦ قصيدة شوقي في اللورد كرومر يوم صرف عن مصر	٢٠٤ قصيدة شوقي النبوية الهمزية معارضة شوقي للبردة
٢٥٢٥ قصيدة شوقي في الثورة السورية	٢١٢ شوقي ورناءؤد للخلافة التي ألغاه مصطفى كمال
٢٥٩ قصيدة شوقي في السلطان حسين كامل	٢١٧ قصيدة شوقي في المولد النبوي
٣٨٠ قصيدته في أبي الهول	٢٢٠ ملحمة شوقي في حرب اليونان
٣٦٢ شعر شوقي في الازهر	٢٢٧ قصيدة شوقي يوم مجيء ميلنر الى مصر
٣٦٣ قصيدته للرحالة حسنين	٢٢٩ رثاء المؤلف لحمد فريد رحمه الله
٣٦٦ ماقاله يوم أطلق أحد الشبان المفتونين الرصاص على سعد زغلول	٢٣٤ قصيدة شوقي في تأجيل حفلة التتويج للملك انكلترا
٢٦٨ قصيدة شوقي عن الكائنة البلقانية وحواش سياسية وتاريخية للمؤلف	٢٣٤ قصيدته في ذكرى كارنافون
٢٧٢ قصيدة المؤلف في استرداد أدرنة	٢٣٥ قصيدته في تكريم الريحاني
	٢٣٦ رأى المؤلف في قديم الشعر وجديده

- صفحة
- ٢٧٥ مآثر المصريين في اغاثة مسلمى
البلقان
- ٢٨٣ قصيدة شوقي يوم خلع السلطان
عبد الحميد
- ٢٨٩ حادثة ٣١ مارس في استامبول
وزحف محمود شوكة من سلاويك
اليها لاعادة الدستور
- ٢٩٢ قصيدة لشوقي في النسيب ومعارضتها
لأخى لبيب
- ٢٩٤ قصيدة شوقي لشكسبير
- ٢٩٦ قصيدة شوقي في كتاب حافظ
عروض عن تاريخ مصر الحديث
- ٢٩٨ زهرية مرنان اشوقي
- ٣٠٠ قصيدة شوقي في مسجد أيا صوفيا
- ٣٠٢ سينية البحترى في ايوان كبرى
- ٣٠٥ اشادة أبي عبادة بمجد فارس
- ٣٠٦ وصف البحترى لواقعة بحرية
- ٣٠٩ سينية شوقي الاندلسية
- ٣١٥ قصيدة المؤلف الرائية في ذكرى
الاندلس . قاضى العدل منير بن
سعيد الباطنى وحرمة عبد الرحمن
الناصر له مع كونه يوبخه
- ٣٢١ قصيدة شوقي في آثار الأقصر
- صفحة
- ٣٢٢ معارضة شوقي لعينية ابن سينافى
النفس
- ٣٢٤ قصيدة شوقي في النيل المقدس
- ٣٢٩ كلمة شوقي في الطيران
- ٣٣١ ماقاله في توت عنخ آمون
- ٣٣٣ قصيدة شوقي في دمشق
- ٣٣٥ حنين شوقي يوم كان في الاندلس
الى وطنه مصر
- ٣٣٦ المكتب في شعر شوقي
- ٣٣٧ كلمة لشوقي عن لبنان
- ٣٣٨ كلمة لشوقي عن حرية المرأة
- ٣٣٩ موشح أندلسى لشوقي
- خلاصة فتح عبد الرحمن الداخل
للاندلس وقول المنصور عنه انه
صقر قرش
- ٣٤٢ كلمة شوقي عن بلدة زحلة
- ٣٤٣ كلام شوقي عن استقلال سورية
وذكرى شهدائها وأوطم يوسف
العظمة
- ٣٤٤ كلمة شوقي عن تمثال نهضة
مصر
- ٣٤٥ كلمة شوقي في عيد الخمينى
- ٣٤٦ كلمة الشكيب